

المبشر محمد
غفر الله له ولوالديه

الدكتور تمام حسان

البيان في روائع القرآن

دراسة لغوية واسلوبية للنص القرآني

١٤١٣ - ١٩٩٣

الناشر
عالم الكتب

٢٨ عبد الناصر شريت القاهرة

المبشر محمد
غفر الله له ولوالديه

المبشر محمد

غفر الله له ولوالديه

2009-08-31

www.alukah.net

الدكتور تمام حسان

البيان في روائع القرآن

دراسة لغوية واسلوبية للنص القرآني

١٤١٣ - ١٩٩٣

الناشر
عالم الكتب

٢٨ عبدالمعز شحات القاهرة

المبشر محمد
غفر الله له ولوالديه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
« إن وليي الله الذي نزل الكتاب »

حقوق الطبع محفوظة

الناشر عالم الكتب
الطبعة الأولى

رجب ١٤١٣
يناير ١٩٩٢

مقدمة

ليست هذه الدراسة محاولة لتفسير القرآن الكريم تفسيراً لغوياً وأدبياً، وليست محاولة أخرى للكشف عن إعجاز القرآن إعجازاً لغوياً أو أدبياً. فإذا صادف القارئ في هذه الدراسة تفسيراً غير مألوف لأحد الألفاظ أو التراكيب، أو صادف القارئ ظاهرة تنم عن الإعجاز اللغوي لأساليب القرآن الكريم، فإن المؤلف لم يقصد إلى الكشف عن ذلك قصداً، ولا ادعى لنفسه مكان المفسر ولا موقف الباحث في الإعجاز. فلقد كان اهتمام المؤلف منذ البداية متجهاً إلى الغايات العملية التي أملت عليه أن يغطي ساحة القرآن متأملاً بعين اللغوي وقلب الأديب ما اشتمل عليه بناء النص القرآني من مباني اللغة ومفاني الأدب. لقد مضى على المؤلف معظم عمره وهو يقرأ القرآن خاشعاً لجلاله مستمتعاً بجماله، دون أن يتوقف كثيراً ليسأل نفسه عن سر هذا الجلال ومجلى ذلك الجمال، وربما تريت - في القليل النادر - عند هذه العبارة أو تلك فقبل فيها ما سبق إليه الدارسون من قول في الأسباب الداعية إلى الإحساس بالجلال والجمال. ثم شاء الله جلّت قدرته أن يوفقني للقيام بهذا العمل من خلال ارتباطي بالعمل في معهد اللغة العربية بجامعة أم القرى - مكة المكرمة - إذ كلفت بإنشاء قسم من أقسام هذا المعهد يسمى قسم التخصص اللغوي والتربوي، وبأن أكون مشرفاً على هذا القسم ورئيساً له، فكان أول ما قمت به لأداء هذه المهمة أن أحدد مقررات الدراسة في هذا القسم، وأن أطلب معونة بعض الزملاء لوضع مفردات المقررات، وأن أتولى بنفسى أمر مادة «دراسات

لغوية وأدبية في القرآن»، فأحدد موضوعاتها وأقوم بتدريسها.

والمعلوم أن طلاب المعهد بعامة هم من غير الناطقين بالعربية بحكم النشأة، فهم من أبناء الشعوب الآسيوية والأفريقية وقليل منهم من الشعوب الأوروبية أو الأمريكية، وكانوا جميعا من المسلمين، كما يفهم من إقامتهم بمكة المكرمة. وكان من المطلوب لمادة دراسية تخاطب هؤلاء الطلاب أن تعد لهم في مذكرات تنزح إلى البساطة في التعبير، وانتقاء ما ييسر فهمه على الطلاب من ظواهر اللغة ولمحات الأدب. ولقد كانت المذكرات المشار إليها مختصرة ضامرة الحجم، فيها من الشواهد أكثر مما فيها من نتائج البحث، ولكنها مع ذلك كانت لصاحبها شعاعا هاديا يرشده إلى ثراء هذا الحقل القرآني، ويعده بالعطاء الجم ويزعه أن يشمر عن ساعديه، ويبدأ الجهد من جديد على نطاق أوسع، وفي مجال أرحب. وهكذا أمسكت بالمصحف الشريف لأقرأه قراءة متأنية ولأقيد ملاحظاتي اللغوية والأدبية على حواشي صفحاته، تمهيدا لما يتبع ذلك من الجمع والتبويب. وهكذا كانت مقاصد الدراسة في بدايتها عملية الطابع تسعى إلى التعليم والتطبيق لا إلى العلم والنظر. ثم تحولت المقاصد بعد ذلك إلى الطابع العلمي بإغراء الثراء الذي بدا في تركيب القرآن وأسلوبه، فلم يجد المؤلف لنفسه منصرفا دون الولوج إلى رحاب القرآن راجيا من الله التوفيق، وجاعلا عمله هذا قربانا في ساحة القرآن.

سوف يصادف القارئ أثناء اطلاعه على هذه الدراسة بعض المصطلحات التي ربما دعت شيئا من الإيضاح، ولهذا أعمد إلى محاولة إيضاحها في السطور التالية. إن غموض المصطلح لهُر آفة القراءة والفهم، وكثيرا ما تضيع الفائدة من قراءة القارئ الجاد لأنه

ترك مع المصطلحات ليستخرج معانيها بذكائه الشخصى من قرائن السياق إن وجدت القرائن. فإذا لم توجد القرائن الدالة على المعنى المراد لم يفلح الذكاء في إدراك المراد. ولقد حاولنا أن نجنب القارئ هذه النتيجة من خلال تحديد المصطلحات، وفيما يلي بعض المصطلحات التي تستحق الشرح والإيضاح:

١ - المبنى أو البنية: كل ما أفاد معنى لغويا فهو مبنى* ولو كان حرفا زائدا لمعنى أو حرفا من حروف المعانى أو ضمير شخص أو إشارة أو موصولا أو أداة أو صيغة صرفية أو نمطا من أنماط الجمل، أما ما زاد من الحروف لغير معنى -كالف فاعل وواو مفعول- فلا يعد من المباني. وقد درج النحاة على إضافة المعنى إلى المبنى، فقالوا تاء الافتعال، وها التنبيه، ونون التوكيد، وسين الاستقبال، وضمير الغيبة، وصيغة المضارع. كما وصفوا المبنى بقولهم الدال على كذا كقولهم: السين والتاء الدالة على الطلب، و«انفعل» الدالة على المطاوعة، و«افتعل» الدالة على الاتخاذ، وهلم جرا. فإذا نظرنا إلى عبارة: «فسيكفيكمهم» وجدنا الفاء تدل بحسب ما قبلها، ثم وجدنا سين الاستقبال، وياء المضارعة، وكاف المخاطب، و«هم» الدالة على الغائبين. وكل ذلك مبان تتكون منها العبارة، يضاف إليها صيغة «يفعل» بكسر العين، أما اللفظ المصوغ على مثال هذه الصيغة فهو ينتمى إلى المعجم ويسمى «الكلمة». ثم إن نمط الجملة الاسمية مبنى ومثله مبنى الفعلية ومبنى المثبتة والمنفية والمؤكدّة والاستفهامية، إلخ..

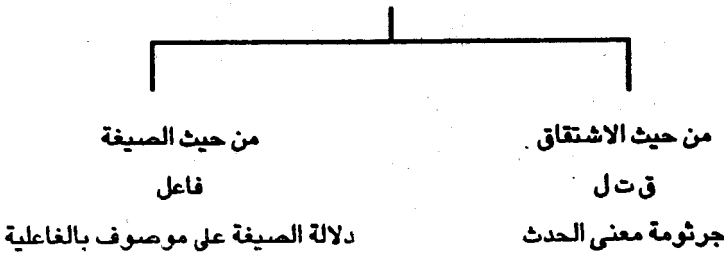
٢ - المعنى الوظيفي: اعترف النحاة بثلاثة أنواع من المعانى أكبرها المعنى المفيد، وهو معنى الجملة، ثم المعنى المفرد، وهو معنى الكلمة، وأشاروا إلى معنى ثالث ربطوا به الشبه المعنوي، وقالوا: «هو معنى عام حقه أن يؤدي بالحرف». فإذا توسعنا في فهم هذا المعنى العام لنشمل به المعانى التي نسبناها منذ قليل إلى طوائف المباني، حصلنا على مفهوم المعنى الوظيفي. ذلك

* انظر اللغة العربية معناها ومبناها للمؤلف.

بأن كل ما نسب إلى المباني المذكورة من المعانى هو في واقع الأمر وظائف تؤديها هذه المباني في السياق، فالافتعال والتنبية والتوكيد والاستقبال والغيبة والمضارعة والطلب والمطاوعة والاتخاذ والخطاب والغيبة والإثبات والنفي والتوكيد والاستفهام، كل أولئك معانٍ وظيفية تؤديها المباني، بسيطة كانت أم مركبة.

٣ - المعنى المعجمي: هو المعنى المفرد الذي للكلمة خارج السياق في حال إفرادها، وهو يعد ثمرة لتضافر اشتقاقها وصيغتها الصرفية. وإذا كانت الصيغة الصرفية إحدى ركيزتي المعنى المعجمي، كان المعنى الوظيفي المنسوب إلى الصيغة عنصراً من عناصر المعنى المفرد للكلمة. فإذا التمسنا المعنى المعجمي لكلمة «قاتل»، كان المعنى الوظيفي المنسوب إلى صيغة «فاعل» عنصراً من المعنى المعجمي لكلمة «قاتل»، أما العنصر الآخر فيأتي من أصولها الثلاثة: القاف، والتاء، واللام، وهو العنصر المشترك بين جميع مشتقات هذه المادة على اختلاف صيغها الصرفية، فكل كلمة من مشتقات هذه المادة تحمل في طيها قسطاً من العطاء الدلالي للأصول الثلاثة المذكورة، ثم تختلف عن أخواتها بحكم الصيغة، ويمكن تمثيل ما تقدم على النحو التالي:

منابع المعنى المعجمي للفظ «قاتل»



وإنما قلت «جرثومة معنى الحدث» ولم أقل «الحدث» أو «معنى الحدث». لأن معنى الحدث هو معنى المصدر، أما الأصول الثلاثة فتكتب مفرقة لتصبح من العموم، بحيث تندرج تحتها المشتقات جميعا، ومنها المصدر الذى لا يصلح بخصوصيته الدلالية على الحدث أن يكون أصلا عاما للاشتقاق.

٤ - القرينة اللفظية: هى عنصر من عناصر الكلام يستدل به على الوظائف النحوية، فيمكن بالاسترشاد بها أن نقول هذا اللفظ فاعل، وذلك مفعول به أو غير ذلك. ومثل هذه القرائن كمثّل معالم الطريق التى يهتدى بها المرء إلى المكان الذى يقصده، وتختلف القرائن باختلاف اللغات، وفى العربية من القرائن اللفظية قرينة البنية والإعراب والربط والرتبة والتضام، وفيها فوق ذلك كبرى القرائن اللفظية، وهى قرينة السياق. ولاتدل واحدة من هذه القرائن بمفردها على المعنى النحوى، وإنما يتضح المعنى بعصبة من القرائن المتضافرة، فمثلا فى تضافرها على تحديد المعنى النحوى مثل ما يهتدى به الطبيب إلى تحديد نوع المرض، فهو لا يكتفى لتعيين المرض بالاستدلال عليه، بالحمى أو صفرة الوجه أو الغثيان أو الرعشة فقط، وإنما يضم بعض ذلك إلى بعض، وقد يضيف إليه اختبارات وتحليلات أخرى واستفسارا عن تاريخ المرض، إلخ.. والفاعل مثلا لا يعرف بالرفع فقط وإنما يعرف به وبالاسمية والتأخر عن الفعل وكون الفعل مبنيا للمعلوم، وما يصحب ذلك من قرينة معنوية هى دلالة هذا الاسم على من فعل الفعل أو قام به الفعل (أى على من تحقق الفعل بواسطته).

٥ - القرينة المعنوية: هى العلاقة التى تربط بين عنصر من عناصر الجملة وبين بقية العناصر، وذلك كعلاقة الإسناد التى هى نسبة عنصر الحدث الذى فى معنى الفعل أو الوصف إلى فاعله أو واسطة وقوعه أو محل وقوعه، وذلك كالذى فى قام زيد ومات عمرو وانكسر الإناء، وزيد قائم وعمرو هالك والإناء منحطم، أو مكسور. وعلاقة التعدية تقوم بين الفعل ومفعوله الذى وقع عليه الحدث، وهى قيد يخص نسبة الحدث إلى من أسند الحدث إليه.

فقولنا «قرأ زيد» إسناد للقراءة إلى زيد على وجه العموم، فإذا قلنا «قرأ زيد
الدرس» خصصت القراءة بالدرس وسكتنا عن كل مقروء آخر. ومثل ذلك
علاقة المصاحبة للمفعول معه وعلاقة الغائية للمفعول لأجله والظرفية
للمفعول فيه والملابسة للحال والإخراج للاستثناء، وهلم جرا. فإذا سمع
السامع الجملة أو قرأها القارئ فأدرك العلاقة بين عناصر الجملة (كإدراك
ما إذا كان المصدر في «وَدَعُ أَذَاهُمْ» (الأحزاب ٤٨) مضافا إلى فاعله أو إلى
مفعوله)، كانت العلاقة التي أدركها قرينة على المعنى النحوي المراد من الجملة،
وقد أشرنا منذ قليل إلى أن هذه القرائن المعنوية تتضافر مع القرائن اللفظية
فيتضح المعنى بمجموع ما تتضافر من القرائن، ويرجع إدراك هذه القرائن
المعنوية في العادة إلى وضوح قرينة السياق.

٦ - قرينة السياق: وهي ما يكتنف السياق من قيود تركيبية، أو أشرط
إفادة أوهما معا. ونضرب لذلك مثلا قول الشاعر:

أنا ابن أباة الضيم من آل مالك وإن مالك كانت كرام المعادن

إذ المعروف أن من معاني «إن» أن تكون نافية أو شرطية، أو مخففة من
الثقيلة؛ فأى ذلك هو معناها في هذا البيت؟ لوجعلناها نافية لورد التناقض على
البيت، لأننا عندئذ ندعى للشاعر أنه مدح قومه في الشطر الأول وهجاهم بالشطر الثاني.
ولو جعلناها شرطية لورد عليها اعتراض من جهة التركيب، واعتراض من جهة
المعنى. فأما من حيث التركيب، فلو جعلناها شرطية لتحتم بعدها تقدير فعل
محذوف وجوبا لا يتحتم تقدير مثله على المعنى الآخر (أى تخفيف إن)،
والأصل أن ما لا يحتاج إلى تقدير (أو مما يحتاج إلى تقدير، وأما الاعتراض من جهة
المعنى، والبيت على معنى الشرطية يشبه قولنا «زيد منصف إن عدل»، وهو معنى
فاسد. لأن هذا الشرط يحتمل أحد معنيين: أحدهما الغائية بمعنى «زيد
منصف حتى إن عدل»، والثاني هو العنادية بمعنى «زيد منصف على رغم

عدله»، ولما كان الإنصاف هو العدل وكان الشيء لا يصلح غاية لنفسه ولا ضدا لها كانت المعنى فاسدا. فلم يبق إلا أن تكون «إن» مخففة من الثقيلة، ويكون المعنى «وإن مالكا كانت كرام المعادن». ومثله قول الكميت:

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبامنى وذو الشيب يلعب؟

فقوله «وذو الشيب يلعب» بحكم صورته يصلح أن يكون تركيبا خبريا، ولكنه في هذا البيت لا يصلح لذلك؛ لأنه ليس من المعتاد ولا من المعقول أن يكون اللعب ديدن ذى الشيب، ولو ادعينا أن الشاعر يقصد بعض ذوى الشيب دون كلهم، للزم أن تشتمل العبارة على ذكر «قد» فتصير العبارة بهذا «وذو الشيب قد يلعب» وهى ليست مذكورة فى العبارة، فلم يبق إلا أن يكون المعنى على الاستفهام الإنكارى وأن تقدر الهمزة، فيكون المعنى «أو ذو الشيب يلعب»؟

٧ - الرخصة: هى تركيب الكلام على غير ما تقضى به القاعدة اتكالا على أمن اللبس* فإن لم يؤمن اللبس نسب الكلام إلى الخطأ لا إلى الترخص. ومركز الرخصة ماسبق أن أشرنا إليه من تضافر القرائن؛ لأن تعدد القرائن على إرادة المعنى قد يجعل واحدة من هذه القرائن زائدة على مطالب وضوح المعنى، لأن غيرها يمكن أن يغنى عنها، فيكون الترخص بتجاهل التمسك بهذه القرينة. مثال ذلك أن العرب حين قالت «خرق الثوب المسمار» برفع الثوب ونصب المسمار علمت من خلال المناسبة المعجمية (التي هى فرع على قرينة التضام يسمى التوارد)، أن الفعل «خرق» يتطلب المسمار فاعلا ولا يصلح الثوب أن يكون فاعله؛ لأن الثوب لا يكون خارقا للمسمار عقلا أو عادة. فلما أغنت قرينة التضام إلى جانب قرائن أخرى كاسميه الفاعل ورتبته متأخرا عن الفعل، إلخ... أمكن تجاهل دلالة الإعراب على المعنى النحوى، فكان الترخص ينصب الفاعل ورفع المفعول بعكس القاعدة. والرخصة، كما تقول أصول

* اللغة العربية معناها ومبناها.

النحو مرهونة بمحلها، فلا تصلح لأن يقاس عليها. ووظيفة القول بها الآن تفسير مانسبه الأقدمون إلى الشذوذ ونحوه، فلا تبرر بها أخطاء المحدثين.

٨- الأسلوب العدولي: الأصل في الاستعمال استصحاب الأصل، سواء من حيث المبنى أو من حيث المعنى، ولكن العرب درجت على تصحيح حالات معينة من العدول عن الأصل، وأعطتها من الاعتداد بها مارقى بها إلى مستوى الصواب المعتمد على قاعدة. ويلاحظ ذلك أساسا بالنسبة للعدول عن القرائن اللفظية. والفرق بين الرخصة وهذا الأسلوب العدولي، أن الرخصة يعتذر عنها ولا يعتذر عن الأسلوب العدولي، ومن ظواهر الأسلوب العدولي ما يلي.

١- البنية يعدل عنها بوساطة النقل- والنيابة - وتسخير اللفظ لتوليد المعنى- والتضمنين.

٢- الإعراب ويعدل عنه بوساطة إعراب الجوار

٣- الربط ويعدل عنه بوساطة الالتفات- والتغليب- وحذف الرابط.

٤- الرتبة ويعدل عنها بوساطة التقديم والتأخير.

٥- التضام ويعدل عنه بوساطة الحذف- والزيادة- والفصل- والاعتراض- وتجاهل الاختصاص

٦- المعنى الأصلي ويعدل عنه بوساطة المجاز

فالعرب لا تخطئ واحدًا من هذه الأساليب وإن كانت كلها عدولًا عن أصل.

٩- تعدد المعنى بحسب الأصل: وهذا المعنى إما أن يكون وظيفيا أو معجميا، والفرق بينه وبين النقل أن تعدد المعنى لا يلزم معه التحول من قسم من أقسام الكلم إلى قسم آخر، كما لا يلزم فيه تغير الموقع ولا شروط التركيب. مثال تعدد المعنى الوظيفي مانراه في معانى حروف الجر وحروف العطف ونحوهما، ثم مانراه من تعدد معانى الصيغ الصرفية كفاعل التي تصلح

لوصف الفاعل. والصفة المشبهة، وفعل التي تصلح اسما كسرير ومصدرا كزئيز ووصفا كبخيل، وأفعل التي تصلح للتفضيل وللصفة المشبهة، وكذلك «إن» التي تصلح للنفي والشرط، ولأن تكون مخففة من الثقيلة، ولكنها تظل حرفا في كل الحالات، وأما تعدد المعنى المعجمي فيتضح عند النظر في المعاجم، إذ لا تكاد تجد كلمة ذات معنى واحد لا تتعداه، فقد يأتي تعدد معناها عن طريق تطور الدلالة عبر القرون والاحتفاظ بالمعنيين القديم والحديث، وقد يأتي من اختلاف استعمالها باختلاف القبائل وإهمال الرواة لنسبة كل استعمال إلى قبيلة خاصة، وقد يأتي التعدد من استعمال الكلمة حينما بالخروج بها عن معناها الاصلى إلى معنى مجازى، ثم اشتهار ذلك المجاز وجريانه في الاستعمال حتى يصبح معنى حقيقيا آخر للكلمة. وكلا النوعين من تعدد المعنى، إنما هو من قبيل الاقتصاد اللغوى، إذ تعتمد اللغة إلى تسخير مبانيتها المتناهية المحدودة العدد، بحيث تفي بمطالب المعانى غير المتناهية التى لاحدود لاعدادها فتسعى تعبيرا صحيحا وتحبيرا بليغا. انظر مثلا إلى معانى «قام» وتأمل اختلافها فى نحو: قام زيد - قام به الفعل - قامت القيامة - قام الليل وصام النهار - قام الله على كل نفس بما كسبت - قام له الأمر - قام ميزان النهار - قام قائم الظهيرة - قام الحق - قام الوالى للأمر - قام المتاع، إلخ..

١٠ - تعدد المعنى بحسب النقل: أحد طرق تعدد المعنى الوظيفى، وهو صورة من صور العدول عن الاصل فيما يتصل باستعمال البنية ومعناها فى اللغة، إذ تخرج البنية عن استعمالها الاصلى إلى استعمال اخر لم ينسب لها فى تقسيم الكلم فيتعدد معناها الوظيفى. مثال ذلك الظروف المتصرفه التى هى أسماء بحكم تقسيم الكلم، ولكنها نقلت إلى استعمال الظروف، وكذلك الأفعال الناسخة التى نقلت من الفعلية إلى استعمال الأدوات، ومن ذلك أيضا الأسماء الجامدة التى تستعمل استعمال المشتق، كما فى قولنا «زيد رجل» أى متصف

بالرجولة، إذ وضع لفظ «رجل» موضع لفظ «متصف بالرجولة»، ولذا قالوا فيه إنه مؤول بالمشتق، ومنه ما الاستفهامية التي نقلت إلى معنى التعجب، ومنه الظروف والموصولات التي نقلت إلى استعمال أدوات الاستفهام والشرط نحو أين، ومتى، وأيان، وحيث، وإذا، وإذا، ومن، وما، وأي، إلخ. ويلاحظ في نقل المبنى من استعمال إلى آخر إما تغير الموقع تقديمًا وتأخيرًا، وإما تغير شروط التضام، أو تغير المعنى الوظيفي. فالأول كما في الظروف التي نقلت إلى الشرط والاستفهام، إذ تحولت إلى موقع الصدارة في الجملة، والثاني نحو ما التعجبية التي إن لم يتغير موقعها في الجملة فقد كان من شروطها أن يليها «أفعل»، والثالث نحو الأسماء والإشارات التي فقدت الاسمية أو الإشارية عند نقلها إلى الظرفية.



لقد عرفنا أن هذا البحث يشتمل على دراسة لغوية وأخرى أدبية أو بعبارة أدق «أسلوبية»، فأما الدراسة اللغوية فتتم من خلال موقف القرآن من القرائن اللفظية الدالة على المعنى النحوي، وهي الإعراب والبنية والربط والرتبة والتضام وقرينة السياق، وهي كبرى القرائن النحوية، ثم ما يكون أحيانًا في التركيب القرآني من الترخص في إحدى هذه القرائن عند أمن اللبس. وأما الدراسة الأسلوبية فتبدأ بالنظر في استعمال الأسلوب القرآني للقيم الصوتية، كالإيقاع والحكاية والفاصلة والمناسبة الصوتية وطلب الخفة وحسن التأليف وظواهر التلاوة والترتيل، إلخ.. ثم تلقى نظرة من بعد إلى مفردات القرآن الكريم، فتتناول انتقاء اللفظ القرآني ودلالته المفردة، ثم تتخطى اللفظ المفرد إلى التراكيب القرآنية، من حيث خصوصيتها وتخصها، وما فيها من الأساليب العدولية، ثم تعقد الدراسة فصلًا لتأبي القرآن على اللبس إذا عرض

اللبس للنمط التركيبي، وبعد ذلك نعرض نماذج من حوار القرآن وحجابه،
ودراسة للمثل في القرآن، وظواهر أسلوبية في القرآن كالتعميم والتلخيص
والتوكيد والنفي والتعجب والشرط، إلخ.. من خلال تصرف النص القرآني في
أنماط الجمل التي يعبر بها عن هذه الظواهر. وتنتهي الدراسة الأسلوبية بإلقاء
الضوء على أسلوب قصة يوسف عليه السلام، وتأمل بنيان بعض السور
القرآنية، إذ تقوم السورة على عناصر متكاملة ذات وحدة عضوية.

والله ولي التوفيق،

أبو هانيء

د. تمام حسان

القسم الأول
دراسات لغوية
من خلال القرائن

الفصل الأول

قرينة البنية في التركيب القرآني

المقصود بقرينة البنية هو دلالة صورة الكلمة على المعنى النحوي، وكلنا يذكر الشروط النحوية التي تُشترط لصور الكلمات المفردة في الجملة، كقول النحاة إن الاسم المرفوع لا يكون فاعلا إلا مع سبق الفعل له مبنيا للمعلوم، فإذا بنى الفعل للمجهول صار المرفوع نائبا عن الفاعل ومن شأن المبتدأ أن يكون اسما معرفة، ومن شأن الخبر أن يكون وصفا متحملا للضمير، وأن المصدر المنصوب بعد الفعل لا يكون مفعولا مطلقا إلا إذا كان من مادة الفعل، فإن لم يكن فإن أفاد ما يفيد المفعول المطلق كان نائبا عنه، وإن أفاد غائية كان مفعولا لأجله. وكلنا يعلم أن من شأن الحال أن تكون وصفا مشتقا، وأن حق التمييز أن يكون جامدا، إلخ.. فهذه نماذج من الشروط التي إذا تحققت للكلمة المفردة في حيز الجملة كان تحققها دليلا على المعنى النحوي الذي تؤديه الكلمة في الجملة. فإذا وضعنا لفظ «قرينة» في مكان كلمة «دليلا» السابقة عرفنا المقصود بقرينة البنية.

ولكن ما البنية ذاتها؟ البنية إطار ذهني للكلمة المفردة، وليست هي الكلمة ذات المعنى المفرد. وربما قرب ذلك للفهم أن نقول إن البنية مفهوم صرفي لا ينطق، وإن الكلمة مفهوم معجمي منطوق بالقوة، وإن اللفظ مفهوم استعمالى تتحقق به الكلمة بالفعل بوساطة النطق أو الكتابة في محيط الجملة. ولربما كان أكثر تقريبا للفهم أن نفرق بالتطبيق العمل بين هذه المفاهيم على النحو التالي:

صيغة فاعل = بنية عامة لعدد عظيم من الكلمات، وهي ذات معنى وظيفي صرفي.

كلمة «كاتب» = عند أفرادها على صفحة المعجم تعد كلمة منطوقة بالقوة لا بالفعل.

هذا كاتب = عند النطق أو الكتابة تعد لفظا منظوقا أو مكتوبيا بالفعل.

ولقد درج النحاة العرب على استعمال كلمة «لفظ» استعمالا غير محدد الدلالة، ليقصدوا بها الكلمة حيناً والكلام حيناً آخر، على ما بين الكلمة والكلام من فارق الإفراد والتركيب، نلحظ ذلك في قول ابن مالك: «كلامنا لفظ مفيد، وقول الجزولي: «الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع»، إذ نحا كلاهما باللفظ منحى التركيب في مقابل ما شاع من جعل اللفظ مرادفا للكلمة على السنة الدارسين.. ومغزى هذا التقريب أننا نفهم معنى البنية أو المبنى، فهما صريفا محددتا ينأى بهذا المفهوم أن يختلط بالعناصر المعجمية المستعملة بالقوة، إذ تكون صامته على صفحة المعجم أو بالفعل، إذ تكون جارية على اللسان أو على القلم.

ولكن مفردات اللغة ليست جميعا من ذوات الصيغة والأصول الاشتقاقية؛ إذ تصادف من المفردات حروفا وأدوات وضمائر وظروفا جامدة، بعضها على حرف واحد والبعض على حرفين وبعض آخر على ثلاثة أحرف، فما كان منها على حرف واحد اتصل بغيره خطأ ولكنه ما يزال في نظام اللغة يعد كلمة، ويؤدي وظيفة الكلمة، ويصدق ذلك الاتصال في الخط على بعض ما كان على أكثر من حرف أيضا. وإذا عرف النحاة الكلمة بأنها ما دل على معنى مفرد، فإن الطعن الذي يتجه إلى تعريفهم أن هذه الطوائف المذكورة لا تدل على معانٍ مفردة؛ بل إنها لا تدل على معانٍ معجمية؛ وإنما تدل على معانٍ صرفية ونحوية لا تتحقق إلا من خلال السياق المتصل (أي التركيب)، وتوصف على حد تعبير النحاة بأنها معانٍ عامة، وزادوا على ذلك عبارة تقول: إن هذه المعانى «حقها أن تؤدي بالحرف»، أى أنها إذا عبر عن أحدها عنصر غير الحرف لحقه الشبه المعنوي، فكان ذلك سببا في بنائه. ومن المعانى العامة المذكورة معانى حروف الجر، كالنظرية والملاصقة وابتداء الغاية، ومعانى حروف العطف كمطلق الجمع والترتيب والتعقيب، ومعانى إن وأخواتها، كالتأكيد والتشبيه والتمنى

والترجى، ومعانى الضمائر، كالأفراد والتثنية والجمع والتكلم والخطاب والغيبة والتذكير والتأنيث، ومعانى الإشارات كالتذكير والتأنيث والقرب والبعد، ومعانى الموصولات كالتذكير والتأنيث والأفراد والتثنية والجمع والعاقل وغير العاقل، ومعانى الظروف كالزمان والمكان، إلخ.. فكل أولئك معان صرفية ونحوية تختلف من حيث طابعها عن المعانى المعجمية المفردة المنسوبة إلى المشتقات ذوات الصيغ.

لقد رأينا منذ قليل أن بنية الكلمة المشتقة تتمثل فى صيغتها الصرفية. ونشير الآن إلى أنه إذا كان للكلمة المشتقة معنى مفرد يمكن الإطلاع عليه فى المعجم، فإن هذا المعنى المعجمى يقوم على ركيزتين من المعانى الصرفية العامة: إحداها معنى الأصول الثلاثة من حيث إنها تلخص علاقات اشتقاقية بين طائفة من الكلمات، فهذا التلخيص هو معناها، والركيزة الثانية ماينسب إلى الصيغة الصرفية من معنى عام كالطلب والمطاوعة والاتخاذ والتدريج، إلخ.. وكلتا الركيزتين معنى عام.

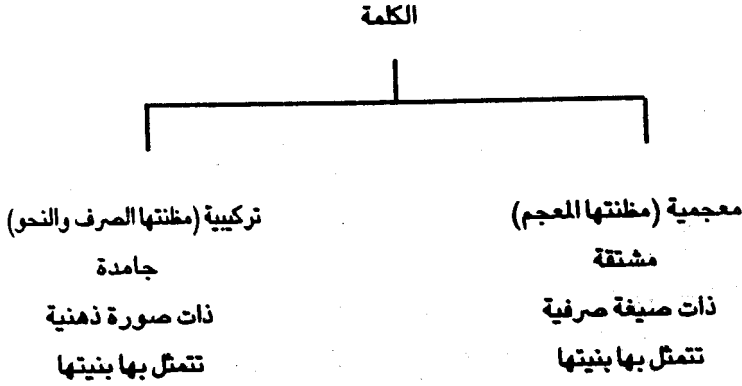
يبرز الآن سؤال هام يوضع على النحو التالى: لقد عرفنا أن مبنى الكلمة المشتقة هو صيغتها الصرفية، وأن لهذه الصيغة معنى وظيفيا صرفيا ونحويا، فكيف يمكننا أن نحدد مبنى الكلمة الجامدة التى ليست لها صيغة صرفية؟ والجواب على ذلك أن مبانى الجوامد هى صورها الذهنية، حتى ليمكن إذا استرشدنا بما قدمناه من بيان بشأن الكلمة المشتقة أن نقول:

الصورة الذهنية = بنية

الجامد المفرد = على صفحات المتون والشروح كلمة (انظر معنى اللبيب مثلا).

الجامد فى التركيب = لفظ منطوق أو مكتوب.

نخرج من ذلك بأن كلمات اللغة تقع في نوعين على النحو التالي:



ومعنى البنية بنوعيهما المذكورين هنا معنى وظيفى عام يختلف عن المعنى المعجمى المفرد الذى يرصد للكلمة فى المعاجم؛ ويحدد المعنى الوظيفى المذكور وظيفية بنية الكلمة وعلاقتها بما يجاورها من المباني فى السياق.

* * *

هكذا نجد أن صور العناصر التركيبية (سواء صور الكلمات المعجمية المعروفة باسم الصيغ أو الصور الذهنية للكلمات التركيبية) تعد إحدى القرائن التى يتضح بها المعنى النحوى. ولكننا بنظرة إحصائية سريعة ندرك أن هذه المباني محدودة العدد. وتتضح هذه المحدودية إذا أحصينا الصيغ (مجردها ومزيدها)، وأحصينا الكلمات التركيبية (وقد كفانا معنى السبب لابن هشام وكذلك الجنى الدانى للمرادى عناء إحصائها). فإذا وضعنا ألسان الصيغ والكلمات التركيبية (أو على الأصح صورها الذهنية) بإزاء المعانى أو الوظائف الصرفية والنحوية فى اللغة، أدركنا قلة المباني وكثرة المعانى التى وضعناها بإزائها، فإذا أريد لهذه القلة أن تعبر عن تلك الكثرة، فلا بد أن ننسب لكل من أفراد القلة عددا من أفراد الكثرة، أو بعبارة أخرى أن يكون لكل واحد من المباني عدد من المعانى الوظيفية. وهكذا نصل إلى ما وضعناه فى

المقدمة تحت عنوان «تعدد المعنى» يقول المرادى: (١). «ذكر بعض النحويين أن جملة حروف المعاني ثلاثة وسبعون حرفا، وزاد غيره على ذلك حروفاً آخر مختلفا في حرفية أكثرها، وذكر بعضهم نيفا وتسعين حرفا، فإذا أضفنا إلى هذه الحروف ثلاثة عشر ضميرا من ضمائر الأشخاص في حالة الرفع (حسب تكرار الضمير «هما» للمذكر مرة وللمؤنث أخرى)، وبضعة ضمائر للإشارة، وعشرة ضمائر موصولة، وسبعة ظروف مبنية على التقريب، وطائفة من الصيغ الصرفية للمشتقات، أدركنا إلى أي حد يبدو سلوك اللغة سلوكا اقتصاديا يوظف القليل من الوسائل للوصول إلى الكثير من الغايات. ولا عجب فلننا يعلم أن عدد الوحدات الصوتية (الحروف الهجائية) في اللغة ثمانية وعشرون حرفا، وقد كانت كافية لأداء كل أنواع النشاط اللغوي شعرا ونثرا وتخطابا عاديا، إلخ.

دعنا إذن نلق نظرة على آيات الكتاب العزيز، لنرى من خلال هذه النظرة كيف تتعدد المعاني الوظيفية للمبنى الواحد أيا كان نوع ذلك المبنى. ولو ضربنا «ال» مثلا لتعدد المعنى الوظيفي بين الجنس والعهد والربط والموصولية، فلربما وجدناها تدل على الجنس في كل آية قرآنية ورد فيها لفظ الإنسان والإنس، ويتردد ذلك لها في كل اسم جنس جمعي لا واحد له من لفظه، كالنساء والإبل والناس ونحوها، ولوجدناها تدل على العهد في كل ما هو معروف معرفة تشيع بين المتكلم والسامع، إما لسبق ذكره من لدن المتكلم وسبق سماعه من لدن السامع، وإما لارتباطه في الذهن باهتمام خاص، بحيث إذا اقترن بال تحدد لدى السامع قصد المتكلم إياه دون غيره. وقد نجد دلالة «ال» تتنوع في الآية الواحدة بين العهد والجنس، كما في قوله تعالى: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ

(١) المجنى الدانى ٢٨.

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ» (المائدة ٤٨)،
 فالكتاب الأول معهود وهو القرآن بقريئة قوله: «إليك» وأما الكتاب الثانى
 فالمقصود به كل كتاب سابق على القرآن الكريم، وقد تدل «ال» على هذا المعنى
 تارة وعلى المعنى الآخر تارة أخرى، ولكن هذه الدلالة يكشفها أو يخملها ما
 يحيط بها من وصف؛ لأن ما جاء به الوصف من الإيضاح جعل دلالة «ال» أقل
 شأنًا مما كانت، كما في قوله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ» (النساء
 ١٣٦)، فالكتاب الأول هو القرآن بقريئة الوصف لأن الوصف قلل من
 الاعتماد على دلالة «ال»، والكتاب الثانى هو كل الكتب المنزلة قبل القرآن، وذلك
 بقريئة الوصف أيضا.

أما دلالة «ال» على الموصولية فتتحقق عند اقترانها بالوصف، لأن الوصف
 مشتق (ولكن ذلك يعد من قبيل النقل، وهو شعبة خاصة من تعدد المعنى)،
 فإذا اقترن الوصف بال صلح أن يحل محله الذى أو التى ومع كل منهما فعل
 من مادة الوصف المقترن بال، فالمؤمن هو الذى آمن والكافر هو الذى كفر،
 والمقتول هو الذى قُتِلَ (مبنيًا للمجهول)، والكريم هو الذى كَرُمَ وهكذا. ويبقى
 لها في هذه الحالة عموم الدلالة الذى تتسم به الموصولات، فتقرب بالموصولية
 من معنى الجنس، أى أن المؤمن كل من آمن والكافر كل من كفر، أو خصوص
 الدلالة الذى فى الوصف فتقرب بها من معنى العهد، إذ يكون المؤمن أحيانا هو
 الذى ذكر منذ قليل أو هو المعهود بين المتكلم سبحانه وبين السامع. فمن عموم
 دلالتها قوله تعالى: ١ (البقرة ٢٨٥)، وقوله «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»
 (آل عمران ١٦٠)، أى كل المؤمنين فى جميع العصور، ومن خصوص دلالتها
 قوله جل شأنه «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
 آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا» (الأنفال ٧٤) فالمؤمنون هنا هم من

شارك في غزوة بدر من المهاجرين والأنصار، فكان الآية تقول: «المؤمنون المهاجرون المجاهدون في سبيل الله ومعهم الأنصار هم المؤمنون حقا».

وقد تدل «ال» على الربط فتكون قريبة من الضمير في المعنى، لأن الضمير يصلح أن يحل محلها عندئذ، وقد يقربها ذلك من معنى العهد، وإن لم تكن دلالتها خالصة له. انظر إلى قوله تعالى «فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَأَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فِإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ» (النازعات ٢٧ - ٤١) فالمعنى في الحالتين «هى ماواه»، بإحلال الضمير محل «ال». وتأتى فكرة قربها من العهد من احتمال المعنى أن يكون «هى الماوى الذى تعرفونه»، لأن الذهن يجعل الجحيم عقوبة العصيان ويجعل الجنة جزاء التقوى ولا يسمح العقل بعكس ذلك.

ولقد سبقت الإشارة في المقدمة إلى تعدد معانى «إن» مكسورة الهمزة إذ كنا بصدد الكلام عن قرينة السياق. وفي القرآن الكريم ترد «إن» بأحد معانيها تارة، وبالمعنى الآخر تارة أخرى؛ فمن شواهد دلالتها على النفى قوله تعالى: «إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسَانًا» (النساء ١١٧) وقرينة دلالتها على النفى أمران هما الإعراب والتضام: أما الإعراب فذلك لثبوت النون، وأما التضام فهو لورود «إلا» مصاحبة لها. ومثله قوله تعالى: «وإِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ» (الأنعام ٢٦). ومن شواهد دلالتها على النفى أيضاً «وإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ» (إبراهيم ٤٦). وقرينة دلالتها على النفى كسر اللام في «لتزول»، وذلك يعنى أنها لام الجحود التى تاتى بعد كون منفى، ولو فتحت هذه اللام لكانت «إن» معها مخففة من الثقيلة، ولتغير المعنى العام من النفى إلى تأكيد الخبر كالذى نجده في قوله تعالى: «إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا» (الفرقان ٤٢). وكذلك «وإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ

لَمَّا سَمِعُوا الذُّكْرَ» (القلم ٥١)، وكذلك «وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ» (البقرة ١٤٢)، وكذلك «وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ» (يوسف ٣). أما دلالتها على الشرط فذلك معظم ما تكونه في القرآن الكريم، وقرينتها دائما الجواب المذكورا كان أم مفسرا بما سبقها، وكذلك يدل عليها الرابط (إذا أو الإشارة أو الفاء) حين لا يصلح جوابها أن يكون شرطا لها. ومن شواهد إن الشرطية قوله تعالى «قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (البقرة ٩٤).

فقرينة شرطيتها الجواب ثم اقترانه بالفاء الرابطة، ومثله «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» (البقرة ٢٣)، وكذلك «فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا» (البقرة ١٣٧). وقد يحذف جوابها اتكالا على دلالة جواب القسم الذي أغنى عنه، وذلك عندما يتقدم عليها ما يدل على القسم نحو قوله تعالى: «لَنْ لَمْ يَنْتَه الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا» (الاحزاب ٦٠)، وكذلك «لَنْ أُخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَنْ نَصْرُهُمْ لِيُؤَلِّنَ الْأُدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ» (الحشر ١٢).

* — ويتعدد معنى «ما» بين النفي والاستفهام والمصدرية والشرطية والزيادة وغير ذلك. فمن شواهد دلالتها على النفي قوله تعالى: «وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي» (الكهف ٨٢) وقرينة ذلك السياق الذي وردت به، وقوله جل شأنه «لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطَفُونَ» (الانبياء ٦٥) لان الأصنام لا تتطق، أما في قوله تعالى: «مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ» (الشعراء ٢٠٧) فالاولى نافية والثانية مصدرية. ولما كان المصدر فارغا من معنى الزمن فقد جاءت «كان» لإضافة هذا المعنى إليه، فلو سبكنا المصدر من «ما» وما بعدها للزمننا أن نقابل «كان» بلفظ المصدر «سَبَقَ» وأن نقول إن تاويل المصدر «ما أغنى

عنهم سبق تمتعهم». وهى دالة على الاستفهام فى آيات كريمة مثل « وَمَا تَلَكَ
 بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى » (طه ١٧) بقريئة الجواب الذى يلى ذلك مباشرة، وقوله
 تعالى: « مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ ابْتِغَاءِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْعَالَمِينَ » (النساء ١٤٧) وقوله
 تبارك اسمه: « وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ
 يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ » (المائدة ٨٤) أى ما الذى يبرر لنا ذلك
 ونحن فى هذه الحال، وذلك أولى من جعلها نافية مع تقدير «أن» محذوفة،
 بمعنى «وليس لنا الا نؤمن» لان ما لا يحتاج إلى تقدير أولى، ويقال مثل ذلك فى
 « وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي » (يس ٢٢). ومن شواهد دلالتها على المصدرية
 قوله تعالى: « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ
 » (يوسف ٣) أى بواسطة إحيائها إليك، وكذلك « وَمَنْ قَبْلَ مَا فَرَطْتُمْ فِي
 يُوسُفَ » (يوسف ٨٠) وهى هنا تحتل الزيادة للتأكيد أيضا ولكن المصدرية
 أوضح. ومن ذلك أيضا « اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ
 وَمَا تَزْدَادُ » (الرعد ٨) وقريئة المصدرية فى الأولى أن الثانية والثالثة لا
 تصلحان لغيرها فيكون طرد المعنى فى الثلاث أولى. ومن ذلك « قَالَ لَا
 تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ » (الكهف ٧٣) وكذلك « قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَ
 لَهُمْ فِي الْأَرْضِ » (الحجر ٣٩) أى بسبب إغوائك إياى، ومنه « اصْلَوْهَا الْيَوْمَ
 بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » (يس ٦٤) أى بسبب سبق كفركم، ومن شواهد دلالتها
 على الشرطية « وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ » (سبا ٣٩)، وكذلك « وَمَا
 اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ » (الشورى ١٠) وقوله تعالى: « مَا
 نُنَسِّخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا » (البقرة ١٠٦) وقريئة ذلك
 هو الجواب والرباط فى الشاهدين الأولين وجزم فعلى الشرط والجواب فى
 الشاهد الثالث. أما زيادة «ما» فى القرآن فيكثر فيها أن تقترب ما الزائدة بيان
 الشرطية نحو « وَإِمَّا تُرِيدُكَ بِغَضِّ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نُؤْفِقُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ» (الرعد ٤٠) وكذلك «وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ» (فصلت ٣٦) وقوله تعالى: «فَأَمَّا نُذُوبُنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ» (الزخرف ٤١)، ويبقى بعد ذلك دلالة «ماء» على الموصولية، ولكن ذلك شعبة خاصة من تعدد المعنى تسمى شعبة «النقل»، لأنها تخرج عندئذ من الحرفية إلى الموصولية كما خرجت «ال» في حديثنا عنها منذ قليل.

* - وتتعدد معاني «لا» من النفي إلى الدعاء إلى النهي إلى الزيادة، وقد يكون النفي بها نفي جنس فتختص بالاسم النكرة الدال على الجنس فيبنى معها على الفتح نحو «قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ» (الشعراء ٥٠) ويرفع اسمها إذا تكررت نحو «لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ» (الصفافات ٤٧) أو نعت المفرد، وقد تكون حرف جواب فتغنى عن جملة الجواب، أو تقترن بها، معطوفة على «ماء» نحو «قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ» (يونس ١٦) ومكانها في هذه الآية رائع، لأن تكرار «ماء» سيجعل الجملة المعطوفة ملبسة لتشابها مع التعجب.. إذ تصبح الجملة مع التكرار «وما أدراكم به»، ومن عطفها على «ماء»: «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا» (آل عمران ٦٧)، فإذا جاء بعدها الفعل الماضي دلت على الدعاء نحو «فَلَا أَفْتَحَمَ الْعُقَبَةَ» (البلد ١١) على أحد الفهمين، إلا إذا تكررت معه فإنها عندئذ تصلح أيضا للنفي المحض نحو «فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى» (القيامة ٣١ - ٣٢). أما دلالتها على النهي فعند اقترانها بالمضارع المجزوم نحو «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ» (الضحى ٩ - ١٠)، وكذلك «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُوا وَتَتْلُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ» (البقرة ٢٢٤). وزيادتها على ضروريات التركيب النحوي دون المعنى المقصود ثابتة وواردة في القرآن. وحين نقول إنها زائدة لانقول إنها زائدة على نص القرآن (حاشا لله)، وإنما تنسب زيادتها إلى

النحو الذى لا بد من رعايته فى تحليل النص القرآنى. وقد قامت القرائن على زيادتها، كما فى نحو «فَلَا أُقَسِّمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ» (الواقعة ٧٥ - ٧٦) إذ لو لم تكن «لا» زائدة لأصبحت نافية ولوقع التناقض مع عبارة «وإنه لقسم». ومن ذلك أيضا «لَمَّا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» (الحديد ٢٩) وإنما عددنا كل ماسبق من قبيل تعدد المعنى لأن قبيل النقل لأن «لا» فى دلالتها على كل واحد من هذه المعانى ظلت باقية على حرفيتها فى حيز قسمها من أقسام الكلم ولم تنتقل إلى غيره.

ومما لاجدال فى أنه زيادة للتأكيد ما فى قوله تعالى: «وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ» (فاطر ١٩ - ٢٢) والثلاث الزوائد هنا من الداخلات على النور والحرور والاموات لأن المعنى بغير الزيادة هنا يمكن أن يكتفى بساوى العطف المجردة، وكذلك: «وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ» (فصلت ٢٤). وفرق بين قرينة القول بزيادة اللام هنا وقرينة القول بزيادة الواو فى قوله تعالى: «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ» (هود ٢٤) إذ تتضح زيادة الواو هنا بقوله تعالى بعد ذلك: «هَلْ يَسْتَوِيَانِ» ولولا ذلك لجاز القول بأصالتها كما يتضح لو وضعنا المعنى فى جملة من مبتدأ وخبر، فيجوز أن تقول: زيد أعمى أصم أو زيد أعمى وأصم، وكذلك: عمرو بصير سميع، وعمرو بصير وسميع. والفرق بين العطف فى آيات فاطر وبينه فى آية هود أن الأول عطف لمفاهيم مستقاة، والثانى عطف لصفات قد تجتمع فى شخص واحد، ولا اعتراض لوقلنا زيد لا بصير ولا سميع، ولكن الاعتراض بدعوى الزيادة يرد على قولنا: لم يعقد نكاح زيد ولا هند ولا بكر ولا سعاد. أى نكاح زيد وهند ونكاح بكر وسعاد، والفرق بين الأمرين فرق ما بين عطف الذات

* - أما وقد ذكرنا الواو فإننا نود أن نشير أيضا إلى تعدد معناها الوظيفي..
 إذ تكون للاستئناف أو عاطفة لمطلق الجمع أو للمعية أو المصاحبة أو الحالية
 أو القسم أو الزيادة، إلخ.. فاما الاستئناف فنحو قوله تعالى: «وَقَاتِلُوا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (البقرة ٢٤٤) وقرينة دلالتها على
 الاستئناف أنها مسبوقه بالخبر متلوة بالطلب لأن قبلها قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ» (البقرة ٢٤٣)، وتدل
 على عطف المفرد نحو «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» (البقرة ١٥٨)
 والجملة الخبرية على الجملة الخبرية نحو «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا
 فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ» (البقرة ١٦٠) وجملة الإنشاء على جملة الإنشاء نحو
 «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ
 الشَّيْطَانِ» (البقرة ١٦٨) والإنشاء على الخبر نحو «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا
 يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمَلُوا الْعُدَّةَ» (البقرة ١٨٥)*، ودلالتها على المعية كقوله
 تعالى: «أَنذَرْتُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ» (الاعراف
 ١٢٧) وقوله تعالى: «ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا» (المدثر ١١) وكذلك «فَاجْمَعُوا
 أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ» (يونس ٧١)، ويحتمل المصاحبة كما يحتمل العطف نحو
 قوله تعالى: «قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَنَكُونَ لَكُمْ
 الْكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ» (يونس ٧٨) والفرق بين المعنيين أن كون الكبرياء لهما هو
 على العطف علة المجيء، وعلى المصاحبة مصاحب للفتهم عن آلهتهم. وأما
 الحالية فنحو «لَا تُفْرِبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ» (النساء ٤٣) وقوله تعالى:
 «يُيُوسِفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُمَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ» (يوسف ٨) أي أن حبه

* هناك احتمال آخر هو كون اللام في «لتكلموا» مصدرية (أي أن تكلموا،
 لوقوعها بعد فعل الإرادة (يريد الله) وعندئذ يكون العطف على لفظ «اليسر».

لهما وهما اثنان أشد من حبه لنا ونحن جماعة. وهذا هو الذى كان فى رأيهم
ضلالا مبينا. وكذلك «وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (ال عمران
١٣٥) وايضا «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ» (الصافات ١٢). واما دلالتها على
القسم فنجدها فى فواتح كثير من قصار السور كالفجر وكالشمس وضحاها
والسما والطارق والقلم وما يسطرون والتين والزيتون وهذا البلد الامين
والضحى والليل، إلخ. ومن زيادتها ما فى قوله تعالى: «إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ
مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَّوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ» (آل عمران ١٤٠) أى أن علة مداولة الايام بين
الناس إرادة الله أن يعلم الذين امنوا ويتخذ من المؤمنين شهداء، وليمحص
الذين امنوا ويمحق الكافرين، فتقدير الكلام «وتلك الايام نداولها ليعلم الله»
وكذلك: «قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ
وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ» (آل عمران
١٥٤) أى لبرزوا ليبتلى وليمحص، وايضا قوله: «وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ
وَلِنَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ» (الانعام ٥٥) أى نفضلها لتستبين، ومن ذلك
«وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ»
(الانعام ٧٥). ومنه: «وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيُقُولُوا دَرَسْتَ» (الانعام
١٠٥) وقوله: «وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (الاعراف ١٧٤)،
وايضا: «وَسَيَقِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ
أَبْوَابُهَا» (الزمر ٧٢) ولامفر من تقدير زيادة إحدى الواوين فى قوله تعالى:
«فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأُوْحِينَا إِلَيْهِ»
(يوسف ١٥) فإما أن يكون المعنى «فلما ذهبوا اجمعوا وأوحينا» وإما أن
يكون «فلما ذهبوا واجمعوا أوحينا، ومثله: «فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ
وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا» (الصافات ١٠٢-١٠٥) وايضا «حَتَّىٰ

إِذَا فَسَلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ، (آل عمران ١٥٢)، وكذلك «حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا، (التوبة ١١٨) وقد يفهم ذلك على زيادة «ثم» لا الواو ونظير ذلك ما سنشير إليه في معرض الكلام عن الحذف من ضرورة تقدير الفاء العاطفة في أحد موضعين من قوله تعالى: «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّأُوا لِحَمَلِهِمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا، (التوبة ٩٢) فإما أن يكون المعنى «إذا ما أتوك فقلت تولوا» وأما أن يكون «إذا ما أتوك قلت فتولوا» أى أن العطف هنا إما أن يكون على الشرط أو على الجواب.

* — أجدنى عند هذه النقطة قد عنيت بتعدد معانى الحروف فقط وقد ذكرت منها معانى ال وإن وما ولا والواو، وحسب ذلك أن يسد حاجة الموضوع إلى الإيضاح بالنسبة للحروف. وأرانى الآن مدفوعاً إلى بيان مماثل لتعدد المعانى بالنسبة للضمائر، وأقصد بها ضمائر الأشخاص والموصولات والإشارات. فإما ضمير الشخص فقد يكون لمجرد الكناية عن الإسم أو الوصف وشرط الإضمار هنا أن تتحقق المطابقة لفظاً ومعنى، وإذا لم تتحقق في أحد الجانبين أو كليهما امتنع الإضمار، فإذا تحققت المطابقة فيهما، فذلك نحو قوله تعالى: « وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ » (ص ٢٤) أى فتنا داود المذكور، وإذا تمت المطابقة في المعنى دون اللفظ وجب الإظهار نحو: «وَإِنْ نَكُنُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ، (التوبة ١٢) أى فقاتلوهم، وكذلك إذا تمت المطابقة في اللفظ دون القصد، كما في قوله تعالى: «الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، (آل عمران ١٧٣)، فالناس الأولون غير الناس الآخرين. ولكن الموضع المناسب لتطبيق ظاهرة الإضمار إنما يأتى تحت عنوان الربط فيما بعد. أما الآن فحسبنا أن نُعَدِّدَ معانى ضمير الشخص، فمن ذلك أن يكون الضمير للشأن فيتقدم على

جملة التي هي مرجعه فيعود على متأخر لفظا ورتبة وربما طابق في التذكير والتانيث ما تشتمل عليه الجملة من اسم ولكنه يأتي للمفرد كقوله: «إِنَّهُ لَا يَطْفِئُ لَمُجْرِمُونَ» (يونس ١٧) وقوله جل شانه «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ» (الحج ٤٦)، إذ جاء الضمير في الآية الأولى مذكرا لمطابقة المجرمين وفي الثانية مؤنثا لمطابقة الأبصار. وقد يكون الضمير فصلا يساق أحيانا لرفع لبس ممكن وأحيانا آخر كالتأكيد الإسناد فمن سوجه لامن اللبس قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (البقرة ٢٥٤) فلولا وجود الضمير بين «الكافرون» وخبرها لصلح لفظ «الكافرون» أن يكون معطوفاً على «يوم» ليكون المعنى «من قبل أن يأتي يوم ويأتي الكافرون الظالمون، ولا شك أن الكافرين الظالمين سيأتون مع حلول يوم القيامة، وهكذا يأتي الضمير بحيث يمكن أن يقوم التركيب فلا وظيفة له ولا معنى إلا أن يكون مؤكدا كما في (التوبة ١٠٤) ونحو: «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» (البقرة ٢٢)، وكذلك «إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (البقرة ١٢٧) وأيضا «قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ» (القصص ٤٩). وقد يتطلب المعنى من التأكيد ما يدعو إلى تكرار الضمير في جملة واحدة كما في قوله جل شانه «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» (النمل ٢) إذ يتم التركيب مع حذف الضميرين معال لوقيل «وَبِالْآخِرَةِ يُوقِنُونَ» أما في قوله بعد ذلك «وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ» (النمل ٥) فحاجة التركيب إلى الضمير الثاني أشد من حاجته إلى الأول، إذ إن عبارة «وَبِالْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ» أقوى نحويا من عبارة «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ الْأَخْسَرُونَ» لما في العبارة الأخيرة من فصل بالجار والمجرور بين المبتدأ والخبر ولا فصل بينهما في الأولى.

أما الموصول فدلالته دائما على الغيبة سواء أكان مختصا أم مشتركا من الناحية العددية أي سواء أكان دالا على الأفراد أم التثنية أم الجمع ومع كل من

ذلك على التذكير أم على التانيث، أم مشتركا من حيث العدد والنوع، ولكنه مختص من حيث العاقل وعدمه. ومع دلالة الدائمة على الغيبة يساق في ابتداء الجملة لإفادة العموم وتفاذي التخصيص نحو «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (البقرة ٣٩). وقد يتقدم جملة الخبر فينزع عنها الخبرية ويجعلها صلة له نحو «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى» (البقرة ١٦)، وقد يتقدم جملة الحال ليصير بواسطتها نعتا لما قبله ويجعلها صلة له أيضا كما في قوله تعالى «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ» (الاعراف ١٥٧). إذ نرى جملة يجدونه لوحذف الموصول قبلها لكانت جملة حالية (أو خبرية وهو غير مراد) غير أن إيراد الموصول قوَى المعنى لأن وصف الرسول بأنه مكتوب في التوراة فعلا أقوى من دعوى ملاسة وجوده مكتوبا لاتباعهم إياه وارتفانه بهذا الاتباع.

وقد يدل في ابتداء الجملة على توقف الخبر على المبتدأ فيكون لخبره من الأحكام النحوية ما للجواب الشرط، وهذا هو الذي يسميه النحاة «الإخبار بالذی والالف واللام، فتقترن الفاء بالخبر في مواضع اقترانها بجواب الشرط تعبيرا عن قوة الشبه بين هذا الموصول وبين «من» الشرطية لما بين معنى التوقف الذي في الموصول ومعنى التوقف الذي في الشرط من قوة الشبه، وذلك كقوله تعالى: «وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ» (النساء ١٥) وقوله «وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا» (النور ٣٣) فالاستشهاد في آية النساء، متوقف على إتيان الفاحشة وفي آية النور متوقف على طلب المكاتب، والتوقف هو عطاء الضمير الموصول الذي أعطاه لمعنى الجملة، أما ضمير الإشارة فمعناه الدائم هو الحضور، ولكن دلالة تختلف تذكيرا وتانيثا، كما تضيف إليه اللام وعدمها معنى

القرب والبعد وتحتل بنيته تقدم «ها» التنبيه عليه لاصقة به أو منفصلة عنه بضمير الشخص فيقال مانذا ومانت ذى ومانتماذان ومانتم أولاء، كما يقال هذا وهذى وهذان وهؤلاء وقد تصرف التركيب القرأني في ذلك بعض التصرف وبخاصة في «مانتم أولاء»، إذ أعطى «ها» التنبيه من تباين الرتبة ومن الإثبات والحذف ما يتضح في الآيات الآتية:

«هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، (آل عمران ٦٦)
 «هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، (النساء ١٠٩)
 «هَأَنْتُمْ أَوْلَاءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ، (آل عمران ١١٩)
 «ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنفُسَكُمْ، (البقرة ٨٥)
 «قَالَ هُمْ أَوْلَاءِ عَلَىٰ آثَرِي، (طه ٨٤)

وكل ذلك يعد تصرفا أسلوبيا في النمط التركيبي (ها + ضمير الشخص + الإشارة) الذي يعد بدوره فرعا على نمط آخر هو (ها + ضمير الإشارة) وهو يعد صورة مؤكدة من الإشارة المجردة، وذلك بإضافة «ها» التنبيه إليها، ومن المعانى التى تنسب إلى الإشارة الربط بين عناصر الجملة، كما في قوله تعالى: «وَلِبَاسُ الضُّعْفَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ، (الإعراف ٢٦) وقوله: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ، (البقرة ٣٩)، وكذلك «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ، (البقرة ١٦١). ليس هذا فحسب. وإنما يستعمل ضمير الإشارة استعمال ضمير الشأن فيدخل على جملة تامة التركيب يتضح بها المضمون الذى أشير إليه بضمير الإشارة، فكان الإشارة للشأن تشير إلى متأخر لفظا ورتبة كما يعود الضمير على متأخر، وإليك الآيات الآتية:

«ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الضَّالِّينَ، (فصلت ٢٨)
 «ذَلِكَ جَزَاءُ هُمُ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا، (الكهف ١٠٦)

«وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ» (فصلت ٢٣)
 «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» (الشورى ١٠)
 «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ» (فاطر ١٣)
 «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» (الزمر ٦)
 «فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ» (يونس ٣٢)
 «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» (الانعام ١٠٢)
 «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» (يونس ٣)
 «إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ» (ص ٦٤)

ولو أنك وضعت «إنه» في موضع الإشارة في كل ما سبق لتحقق المعنى نفسه بواسطة ضمير الشخص السدال على الشأن ولا فرق عندي بين ذلك وبين تراكيب أخرى تشببه يستعمل فيها ضمير الشخص مثل:

«وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ» (البقرية ٨٥)
 «إِنهَا إِنْ تَكُ مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَنُكِّنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ» (لقمان ١٦)

«إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا» (طه ٧٤)
 عندما قسمت الكلم في كتابي «اللغة العربية: معناها ومبناها»* الذي صدر لأول مرة عام ١٩٧٣ جعلت الطرف قسما قائما بذاته من أقسام الكلم وفرقت بين الظروف الأصلية والظروف المنقولة إلى الظرفية من أقسام أخرى من الكلم. وعددت من الظروف الأصلية إذ وإذا وإذأ ولما وأيا ومتى للزمان وجعلت للمكان أين وأنى وحيث. وهذه الظروف جميعا غير متصرفة ولا مشتقة وإنما هي جوامد راسخة القدم في حقل الافتقار والرتبة المحفوظة، ومن ثم هي

* ص ٨٦ وما بعدها.

كلمات تركيبية ذوات معانٍ وظيفية غير معجمية. أما ما عداها مما يؤدي وظيفة الظرفية، فإنه يؤديها بواسطة النقل من أقسام الكلم الأخرى، فإذا نظرنا إلى تعدد المعانى الوظيفية لهذه الظروف وجدنا ظروف الزمان تختلف في دلالتها على الزمن الماضى والمستقبل والمطلق ووجدنا «إذ» تدل على الغائبة (أى التعليل)، كما فى قوله تعالى: «وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰلِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لربِّ الْعَالَمِينَ» (البقرة ١٣٠، ١٣١)، وقوله: «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيْقُوْنًا هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ» (الاحقاف ١١) على أن التركيب القرآنى استعمل «إذ» للاستفتاح المشرب بالتاكيد فأعطاهما موضع «إلا» الاستفتاحية ومعنى «لقد» المؤكدة وقد صادفتها كذلك فى أكثر من ثلاثين موضعا فى القرآن فهى ليست ظرفية ولا متعلقة بمشتق على نحو ما تتعلق الظروف ولا وظيفة لها إلا الاستفتاح والتاكيد نحو «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيفَةً» (البقرة ٣٠) ونحو «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ» (البقرة ٩٣) وقوله «وَإِذْ ابْتَلَىٰ اِبْرٰهٖمَ رَبُّهُ بِكَلِمٰتٍ فَاتَمٰهَنَ» (البقرة ١٢٤) وكذلك «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا» (البقرة ١٢٥) وكذلك «وَإِذْ قَالَ رَبُّهُ لِبٰرٖهٖمَ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا بَلَدًا اٰمِنًا» (البقرة ١٢٦)، وايضا «وَإِذْ يَرْفَعُ اِبْرٰهٖمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَاِسْمَاعِيلُ» (البقرة ١٢٧)، وكذلك «وَإِذْ قَالَ اِبْرٰهٖمُ لَابِيهٖ اَزْرَ اَتَّخِذْ اَصْنٰمًا اٰهَةً» (الانعام ٧٤) وقوله «وَإِذْ تَاذَنَ رَبُّكُمْ لَنِىْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» (ابراهيم ٧) وقوله «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوْا» (الإسراء ٦١) فلو وضعت «لقد» موضع «إذ» فى كل آية مما سبق لوجدت المعنى هو المطلوب ولا حاجة بنا إلى فعل محذوف وجوبا تقديره «اذكروا» لتعلق به «إذ» فى أى من هذه الآيات. لأن ما دخلت عليه «إذ» فى هذه الآيات لا يقع فى مجال التذكر، كما نرى فى قوله تعالى للملائكة اسجدوا لآدم أو إنى جاعل فى الأرض خليفة وأقوال إبراهيم وأفعاله إلخ. لأن المخاطبين لم يكونوا شهودا فى هذه المناسبات ولا رأوا هذه الأحداث حتى يطالبوا بالتذكر.

وسنرى عند الكلام في ظاهرة «النقل» أن أغلب الظروف المذكورة ينقل إلى قسم الحرف ليكون أدوات للشرط أو الاستفهام مع استصحاب صورته كما في متى وأيان أو إلحاق ما الشرطية بها، كما في إذ ما، وحيثما إلخ، كما نلاحظ أن «إذا» قد تتمحض للظرفية، كما في قوله تعالى: «يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ» (التوبة ٩٤) أى «عند رجوعكم» وليس المعنى «بشرط رجوعكم» كما تكون رابطة ومعناها المفاجأة، كما في قوله تعالى: «فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» (يونس ٢٣) وقد اجتمعت الظرفية والرابطة في قوله تعالى: «وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا» (يونس ٢١).

وقد تنون «إذا» فيكون لها أحد معنيين إما الجوابية كما في قوله تعالى: «وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ» (الإسراء ٧٤، ٧٥) أى ولو ركنت إليهم إذا لاذقناك. وإما الظرفية فيكون معناها «عند ذلك» كما في قوله تعالى «قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» (الأنعام ٥٦). وقد تنون «إذ» تنوين عوض عن الجملة التي تفتقر إليها «إذ» وتكون «إذ» في هذه الحالة مضافة إلى ظرف زمان قبلها كحين وعند ويوم وساعة إلخ. ويكسر آخرها مع التنوين للفرق بينها وبين «إذا» ولا بد عندئذ من دليل الحذف، كما في قوله تعالى «فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ وَأَنْتُمْ حِينِيذٌ تُنظَرُونَ» (السواقة ٨٣) أى وانتم (حين إذ بلغت الحلقوم) تنظرون. فدلّل الحذف هو جملة «بلغت الحلقوم» المذكورة في الآية. وأما متى فقد ورد عن بعض العرب استعمالها حرف جر على معنى ابتداء الغاية، ولكنها لم ترد كذلك في القرآن الكريم.

وتتعدد كذلك معانى الصيغ الصرفية سواء أكانت هذه الصيغ ثلاثية أم أكثر من ثلاثة. فاما الثلاثية غير الفعلية فإنها شركة بين الأسماء والصفات، ولو أننا تجاهلنا الإعراب الذى يطراً على صفة «فاعل» لقلنا إن بعض صيغ

الصفات مشتركة بينها وبين الأفعال، كما في نحو «قاتل» للفاعل ولفعل الأمر، بل إنها في بعض صورها لا يحدّد معناها إلا إعراب كلمة أخرى في حيزها كما في «قاتلوا زيدا» و«قاتلو زيدا» فلا يدرى معنى «قاتلو» منطوقا بإفراده ولا يستبين إلا بإعراب زيد بعده، فإن كان زيد منصوبا، فالذى قبله فعل أمر وإن جر فالذى قبله جمع مذكر سالم مضاف. ومن ذلك تعدد معانى «استفعل» بين الطلب نحو «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ» (نوح ١٠) والصيرورة نحو «وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فاستَعْصَمَ» (يوسف ٣٢) واعتقاد الشيء على صفة نحو «الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ» (إبراهيم ٣) أى يرونها أجدر بالحب من الآخرة، والمطاوعة نحو «وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا» (الجن ١٦) وقوة العيب نحو «فاستكبروا وكانوا قوماً مجرّمين» (الأعراف ١٣٣) ومن ذلك تعدد معانى صيغة «فعال» بكسر الفاء بحيث تكون اسما حينما نحو «سراج» كما في قوله تعالى: «وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا» (الفرقان ١١) ومصدرا حينما آخر نحو «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ» (البقرة ٢١٦) وقد يصلح اللفظ للمعنيين فلا يتعين معناه إلا بالقرينة نحو: «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتَكُمْ وَرِيشًا وَلبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ» (الأعراف ٢٦) فاللباس الأول اسم يدل على الكسوة بقريضة مواراة السواة واللباس الثانى مصدر يدل على الملابسة والمخالطة والارتباط بقريضة أن التقوى ليس لها ملابس خاصة بها وهذا أيضا معنى قوله تعالى: «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ» (البقرة ١٨٧) وكذلك «فَإِذَا هَاكَ اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ» (النحل ١١٢) وهذا شبيه باختلاف المعنى واتحاد اللفظ في قوله تعالى: «سَيَحْلِقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ» (التوبة ٩٥) أى لتكفوا عنهم فقاطعوهم، ومثل هذا من حيث عدم تعين المعنى إلا بالقرينة لفظ «الكتاب» الذى قد يقصد به النص المكتوب نحو «ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ» (البقرة ٢) وكذلك «أَتَأْمُرُونَ

النَّاسَ بِالْبَرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ» (البقرة ٤٤) وقد يقصد به الكتابة بالقلم نحو «وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي» (البقرة ٧٨) وقوله: «وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا» (النبا ٢٩) أى كتابة وقد يقصد به مكاتبة العبد على مال يحصل به على الحرية نحو «وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا» (النور ٣٣) فقرينة الآية الثانية من البقرة الإشارة والرابعة والأربعين التلاوة والثامنة والسبعين الامية وقرينة آية النور قوله «فَكَاتِبُوهُمْ». وأما صيغة «فَاعَلَّ» بالبناء على الفتح فقد يكون معناها «أَفْعَلَّ» بالبناء على الفتح أيضا نحو «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» (آل عمران ١٢٣) وقد تكون بمعنى المشاركة نحو «فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ» (الصافات ١٤١) ونحو «وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» (العنكبوت ٤٦) وقد يكون بمعنى «فَعَلَّ» بالبناء على الفتح نحو «وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ» (سبا ١٧) وأما صيغة (أَفْعَلَّ) معربة فقد تكون للتفضيل نحو «وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ» (الانفال ٤٢) وقد تكون صفة مشبهة نحو «إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» (الكوثر ٣) ونحو «سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» (الاعلى ١) وصيغة فعيل قد تكون اسما نحو «وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ» (فاطر ٣٣) وقد تكون صفة مبالغة نحو «حَقِيقٌ عَلَىٰ آلَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ» (الاعراف ١٠) وقد تكون صفة مشبهة نحو «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (الصف ١) وقد تكون مصدرا نحو «لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا آسَأْتَهُمْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ» (الانبيا ١٠٢) ويتعدد كذلك معنى صيغة «فَاعَلَّ» الدالة على الوصف فتكون اسم فاعل حينما كما في قوله تعالى: «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا» (يونس ١٢) فالمعنى هنا على الحدوث والتجدد لأن الإنسان لا يتكىء دائما ولا يقعد ولا يجلس إلا ريثما يتحول عن هيئته ووضعه.

ومثله قوله تعالى: «وَتَعْمَةٌ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ» (الدخان ٢٧) وقوله «قَالُوا

هَذَا عَارِضٌ مُّطْرُنَا، (الاحقاف ٢٤) وكذلك «فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شَرِبَ الْهِيمِ، (الواقعة ٥٤، ٥٥) ونحو «وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ، (البقرة ٢٨٢). وتكون صفة مشبهة إذا دلت على الدوام والثبوت كما في قوله تعالى: «عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ، (الجن ٢٦، ٢٧) وقوله «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً، (الأنعام ٦١) وقوله «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ، (الأنعام ٩٥) وكذلك «فَالِقُ الْإِصْبَاحِ، (الأنعام ٩٦) ولكنها قد تكون كذلك اسما بواسطة النقل نحو «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ، (الأنعام ٣٨) ومن هَذَا القبيل الآخر كل ما كان على وزن «فَاعِلٍ» من أسماء الله الحسنى. وصيغة «فَعَلَ» بسكون العين يتعدد معناها ما بين المصدر كلفظ «الحمد» في قوله تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (فاتحة الكتاب) والصفة المشبهة كما في لفظ «رب» في هذه الآية نفسها، والاسم نحو «يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا» (غافر ٣٦). فانت ترى من ذلك أنه قل أن تجد في اللغة مبنى لا يتعدد معناه الوظيفى بحسب الوضع لأن هذا التعدد لا مفر منه إذا أريد للغة أن تفي بمطالب التعبير عما لا حصر له من المعانى.

لقد ذكرنا أن ما سبق من تعدد المعنى الوظيفى قد جاء بحسب الوضع. ولكن هناك تعددا آخر يأتى بحسب «النقل»، وظاهرة النقل أوسع في اللغة مما قد يظن البعض، لقد اعترف النحاة بالنقل تحت أسماء مختلفة فعرفوه باسم «النقل» في بعض المواضع وباسم «التحويل» في مواضع أخرى وباسم «النيابة» في مواضع تختلف عما تقدم وربما أدخلوا بعض ظواهره تحت أسماء غير ذلك، اعترف النحاة بظاهرة النقل بكلامهم عن العلم المنقول واسم

الفاعل أو الحال اللذين أغنيا عن الخبر وفي «يا» النداء التي سدّت مسد أدعو وفي الظروف المتصرفة التي قالوا إنها تخرج عن الظرفية إلى معانٍ أخرى وفي نيابة بعض الحروف عن بعض ونيابة كل وبعض ونحوهما عن المفعول المطلق وفي «ما» التعجبية التي قالوا إنها هي الاستفهامية غير أنها أشربت معنى التعجب بل إنهم تخطوا نقل المباني إلى القول في نفس المعانى فقالوا بالنيابة عن الفاعل وبتحويل التمييز من الفاعل أو من المفعول ثم قالوا بتحويل التركيب إلى مبنى بعينه حين قالوا بالمصدر المؤول اتكالا على خلو هذا التركيب كخلو المصدر من فكرتى الوقوع والزمن إذ يدل كلاهما على حدث بلا وقوع ولا زمن ، وربما حال بين النحاة وبين جمع أطراف هذه الظاهرة تحت عنوان واحد أن تقسيمهم للكلم لم يكن يسمح بغير ما فعلوا إذ كان تقسيما ثلاثيا جمع تحت عباءة كل قسم منه طوائف من الكلمات تختلف معنى ومبنى فجعل الصفات والضمائر والظروف وبعض الخوالم من قبيل الأسماء وجعل تراكيب المدح والذم والتعجب والنواسخ الخالية من معنى الحدث من قبيل الأفعال وترك كل ما عدا ذلك ليكون من الحروف، فإذا علمنا أن فكرة النقل تعنى بالضرورة انسلاخ اللفظ من معنى القسم الذي ينتمى إليه إلى معنى قسم آخر أدركنا أن هذا الانسلاخ لا يمكن ضبطه مع ضيق المجال الذي يتمثل في هذا التقسيم فكان لابد أن تفرض الظاهرة نفسها على انتباه النحاة ولكن كان لابد أيضا أن يضعوا تطبيقاتها تحت عناوين مختلفة وأن يفلت بعض هذه التطبيقات من قدرتهم العظيمة على الملاحظة وتشقيق المعانى. أما في ظل تقسيم سباعى كالذى اشتمل عليه كتاب (اللغة العربية معناها ومبناها*) ، أو ثمانى يفرد المصدر بقسم خاص (ويفرق بينه وبين بقية الأسماء بصلاحيته للتعدى إلى مفعول والإضافة إلى فاعل أو مفعول وتحمله للزمن بضميمة

الظرف)، فإنه يسهل أن تتضح الظاهرة في سلوك الكلمات في الجمل وأن يدرك أولو القدرة على الملاحظة أن تطبيقاتها على رغم اختلافها هي من قبيل واحد، هو قبيل «النقل» الوظيفي، وأن يضعوا هذا النقل الوظيفي بإزاء نقل آخر معجمي يسمى المجاز إذ إن تعريف المجاز يجعله «نقل اللفظ من معناه الأصلي إلى معني آخر لم يكن له بأصل الوضع وذلك لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي»، وقد سبق أن لاحظنا أن ظاهرة «النقل» الوظيفي إنما هي فرع على تعدد المعنى الوظيفي للمبني الواحد.

دع تقسيم الكلم إذا يكن إلى اسم - ومصدر* - ووصف - وفعل - وضمير - وظرف - وخالفة وأداة، وارجع في طلب تبرير هذا التقسيم إلى كتاب (اللغة العربية - معناها ومبناها*)، ثم دعنا نذكر كيف يتم النقل من القسم من هذه الأقسام إلى معني القسم الآخر، وليكن المقصود بالاسم ما دل على مسمى معين أو جنس أو بُدئٍ بالميم دالا على زمان أو مكان أو آلة أو كان من المبهمات كان يدل على عدد أو وزن أو كيل أو جهة أو وقت أو يكنى به عن شئ مما تقدم وليكن المقصود بالمصدر المصدر الصريح والميمي وما دل على مرة أو هيئة وما يعرف باسم المصدر ثم ليكن المقصود بالوصف وصف الفاعل والمفعول والتفضيل والمبالغة والصفة المشبهة ثم إن الفعل ماض ومضارع وأمر والضمير شخصي وموصول وإشارة والظرف ما بني لزمان أو مكان ولم يكن مشتقا ولا معربا والخالفة ما صيغ للدلالة على إفصاح إنشائي غير دال على حدث أو زمن كصيغ المدح والذم والتعجب وما يعرف بأسماء الأفعال والأصوات، والأداة ما دل على الربط بين أجزاء الجملة إلى جانب دلالات فردية لكل أداة على معنى عام حقه أن يؤدي بالحرف، وذلك كدلالة

* ص ٨٦ وما بعدها.

* جاء المصدر قسما بذاته في رسالة للدكتوراه تحت إشراف تقدم بها الطالب العراقي فاضل الساقى بكلية دار العلوم بالقاهرة

«من» على ابتداء الغاية و «إلى» على انتهائها و «إلا» على الإخراج والواو على العطف ومطلق الجمع والفاء مثلاً على ربط الجواب بالشرط و «بل» على الإضراب و «أم» على عطف البديل أو ثانى الخيارين الخ.

فإذا ارتضينا هذا التقسيم تطلعنا إلى معرفة صور مختارة من نقل اللفظ من قسم إلى قسم لنرى كيف يتعدد المعنى الوظيفي للمبنى من خلال النقل. وإليك صوراً مختارة من ذلك:

١ - نقل الاسم: من ماثورات النحاة قولهم (وما أصدقهم) إن الخبر وصف للمبتدأ في المعنى والحال وصف لصاحب الحال، ومعنى هذا أن الأصل في الخبر أن يكون أحد الأوصاف الخمسة التي عدناها في الفقرة السابقة حين قسمنا الكلم، ذلك بأن الوصف يحمل جرثومة الحدث بدلالته على موصوف بالحدث وهذا الحدث هو الصالح أن يكون مسنداً بعكس ما دل على مسمى لأن المسمى، لا يشتمل على الحدث ولا يصلح أن يكون مسنداً، والسبب الثاني أن الوصف يتحمل الضمير ولا يتحملة الاسم. ومع ذلك نرى من الممكن إما عن طريق النقل وإما عن طريق التشبيه البليغ أن الاسم ينقل إلى الوصفية فيتحمل الضمير كما يتحملة الوصف وذلك حين نقول: «زيد رجل» و «زيد رأس القبيلة أو عماد قومه»، وقد قبل النحاة ذلك بطريق التاويل بالوصف فقالوا: أي متصف بالرجولة وقالوا أيضاً أي شبيه بالرأس أو بالعماد. ولو قرر النحاة في مثل ذلك أنه نقل للاسم إلى الوصفية ما احتاجوا إلى تاويل، وما قرأنا لهم عبارة مثل قول ابن مالك: «والمفرد الجامد فارغ». ومن قبيل نقل الاسم إلى الوصفية في القرآن الكريم « قَالُوا أَتُكَلِّمُنَا يَا يَسُوفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي، (يوسف ٩٠) ومثله أيضاً قول إخوة يوسف «وَنَحْنُ عُصْبَةٌ» (يوسف ٨) وقول لوط لقومه «هُؤُلَاءِ بَنَاتِي» (هود ٧٨) وقول اليهود والنصارى «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ» (المائدة ١٨) وقوله تعالى «تِلْكَ أُمَّةٌ

قَدْ خَلَتْ، (البقرة ١٣٤) وقوله جل شأنه «ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ» (النبا ٣٩) وقوله «هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ»، (المائدة ١١٩).

وكما ينقل الاسم إلى الوصفية ينقل إلى الظرفية فيسمى ظرفا متصرفا وبخاصة ما كان من الأسماء دالاً باشتقاقه على زمان أو مكان كأسماء الزمان والمكان أو دالا من المبهمات بمعناه المفرد على وقت أو جهة كساعة ويوم وعام وسنة وصباح ومساء أو ما أضيف إلى ذلك كعند ولدى وحيال وإزاء وأمام ووراء وجانب وكقبل وبعد ونحوهما حين يضافان إلى الأسماء المبهمة ولست أحصى حالات نقل الأسماء في القرآن إلى الظرفية لكثرتها ولكنني سأقدم إن شاء الله بعض الشواهد على هذا النقل: لقد نظرت في نحو أربعين آية من أوائل سورة البقرة فوجدت الكثير من الأسماء المبهمة، وبخاصة قبل وبعد مجرورا بالحرف، فلم استشهد به على ما نقل إلى الظرفية ولكنني وجدت إلى جانب ذلك شواهد كثيرة منها:

* «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً»، (البقرة ٨٠)

* «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ»، (البقرة ٨٥)

* «وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ»، (البقرة ٩١)

* «يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ»، (البقرة ٩٦)

* «قُلْ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّي»، (البقرة ١١٢)

* «قَالَ لَهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، (البقرة ١١٣)

* «فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَكُنَّ وَجْهَ اللَّهِ»، (البقرة ١١٥)

* «وَلَنْ نَتَّبِعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ

وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ»، (البقرة ١٢٠)

وينقل الاسم العلم إلى الوصفية أحيانا كقولنا لمن نمدحه بالفصاحة «أنت سبحان القرن الحاضر» ولكننى لم أعثر على هذا النوع من النقل في القرآن.

٢ - نقل المصدر: المصدر اسم الحدث حين يبرأ الحدث من الزمن وهذا التعريف في نظرى أدق من قول ابن مالك:

المصدر اسم ماسوى الزمان من مدلولى الفعل كأمّن من أمّن

لأن المصدر له صيغة الخاصة التى تجعله مختلف الصورة والبنية عن ذلك الجزء من معنى الفعل الذى لا صيغة له إلا صيغة الفعل ، فعلى الرغم من أن أحد مدلولى الفعل يسمى الحدث فإنه حدث ملابس للزمن وبذلك لا يستقل مفهومه عن الفعل ولا الزمن أما المصدر الذى نعرفه فله مبان خاصة ثم إنه يضاف إلى فاعله ويتعدى إلى مفعوله وله معنى مستقل عن الزمن فلو أردنا إضافة معنى الزمن إليه لكننا بحاجة إلى إضافة مايدل على الزمن كالظرف كما فى قولنا «العفو عند المقدرة» وينقل المصدر من الدلالة على الحدث إلى الدلالة على عدة معان أخرى أولها ما أشار إليه النحاة من نقله إلى اسم العلم كفضل وأمل وسعد وحنان وجمال وعتاب وزيد ونحن نجد المصدر المنقول إلى العلمية فى قوله تعالى: «فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَأَ زَوْجُنَاكَهَا» (الأحزاب ٣٧) ولكن القرآن لم يشتمل على العدد الوفير من أسماء الأعلام من غير أسماء الأنبياء وكلها أعجمى إلا صالحاً ومحمداً وغير أسماء بعض الأماكن كمصر وسيناء ومكة ويثرب وبابل ونحوها وغير أسماء مركبة تركيبياً إضافياً كآبى لهب وذى الكفل ومن هنا لا ينبغى أن نطمع فى العثور على شواهد أخرى فى القرآن لنقل المصدر إلى العلمية، وينقل المصدر كذلك إلى الوصفية، ولقد مر بنا قول النحاة إن الحال وصف لصاحب الحال فى المعنى وهذا يجعل الأصل فى الحال أن تكون وصفاً (أى أحد الأوصاف الخمسة التى هى قسم من الكلم

متميز) ولكن النحاة جعلوا ذلك هو الغالب فيه ولم يجعلوه الاصل وذلك كما يتضح من قول ابن مالك:

وكونه منتقلا مشتقا يغلب لكن ليس مستحقا

وإذا صح لنا أن نفسر «يغلب» بأنه عكس «يندر» فإننا نستطيع أن نلجأ إلى قولهم «الناذر لا حكم له»، وأن نجعل الاشتقاق وهو حكم الغالب هو أصل الحال، وإذا كان الأصل في الحال أن يكون وصفا فإن من غير الأصل أن يكون مصدراً فإذا جاء مصدراً فقد تم نقل هذا المصدر إلى الوصفية حتى يصلح لأن يكون حالاً، ففي قوله تعالى: «ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا بُرَيْدُ سَعِيًّا» (البقرة ٢٦٠) التقدير «ياتينك ساعيات»، وفي قوله جل شأنه «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ» (الأنفال ١٥) التقدير «لقيتموهم زاحفين»، وفي قوله «وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا» (الكهف ٧٩) أى غاصبا وينقل المصدر إلى الظرفية كما نقلت الأسماء المبهمة فيكون كما كانت في عرف النحاة ظرفاً متصرفاً وذلك كقوله تعالى (على أحد احتمالين) «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا» (الأنعام ٣١) أما الاحتمال الآخر فهو أن تكون «بغثة» على معنى الحال أى مباغته ويعرزه أن بعض الآيات الأخرى يشتمل على قرينة إرادة الحالية كما في قوله تعالى: «فِيَاتِيهِمْ بِغْتَةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» (الشعراء ٢٠٢) فكان قوله «وهم لا يشعرون» وهو جملة حالية تفسر لقوله «بغثة» وقرينة على معنى الحال فيها ويقل في القرآن — فيما أعلم — أن يأتى مصدراً على معنى الظرفية ولكن ذلك كثير في غير القرآن ومن نقله إلى الظرف «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحَهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ» (الطور ٤٩) وينقل المصدر أيضاً إلى معنى الإنشاء سواء أكان الإنشاء طلبياً أم غير طلبى وسواء أكان المصدر مفرداً كقوله تعالى: «فَبَعْدُ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» (المؤمنون ٤٤) وقوله «وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلٌ

أَعْمَالَهُمْ» (محمد ٨) وقوله جل شأنه « وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا، (الفرقان ١٢) أو مضافاً نحو «فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ» (محمد ٤)، وفي قوله تعالى «قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ» (هود ١٩) كان السلام الأول إنشاءً للتحية، والثاني جواباً من إبراهيم بردها.

٣ - نقل الوصف: الأصل في الوصف أن يدل على موصوف بالحدث على طريق الفاعلية أو المفعولية أو المبالغة أو التفضيل أو الثبوت والسدوم، والأوصاف جميعاً من المشتقات ذوات الصيغ الصرفية المحددة.

ولكن كل وصف من هذه صالح أن ينقل إلى العلمية كباسم وقاسم وخالد ووائل ومحمود ومنصور وبسام وعلاءم وأشرف وأكرم وكريم وجميل الخ.

قال تعالى: «وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ» (الصف ٦) وقال «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» (آل عمران ١٤٤) وكذلك «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ» (الشعراء ١٤٢) وينقل الوصف إلى الإسناد إلى فاعل فإن كان مبتدأ في جملة أغنى فاعله عن الخبر نحو «قَالَ أَرَأَيْبَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِي يَا إِبْرَاهِيمُ» (مريم ٤٦) وإن كان خبراً كان الفاعل ضميراً يعود على المبتدأ نحو «وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ» (البلد ٢) وكذلك «النَّبِيُّ أَوْثَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» (الاحزاب ٦) وكذلك «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ» (ق ٤٥) فإذا وقع الوصف موقع الفاعل كان مسنداً ومسنداً إليه في وقت واحد نحو «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ» (المعارج ١٦) فلفظ «سائل» فاعل للفعل «سأل» فهو مسند إليه ثم إنه تحمل ضميراً فاعلاً مستتراً فهو مسند إلى هذا الضمير وليس في أقسام الكلم ما يكون كذلك إلا الوصف. وينتقل الوصف إلى أن يكون عند اتصاله «بأل» «موصولاً» وصلة في الوقت نفسه فإذا عاد الضمير في هذه الحالة كان عوده على الصلة والموصول لا على الموصول فقط نحو «العظيم خلقه هو محمد عليه السلام»

وذلك أيضا مما اختص به الوصف من بين أقسام الكلم في مجال «النقل».

٤ - نقل الفعل : الأصل في دلالة الفعل أن يدل على حدث وزمن فيؤخذ الحدث من الثلاثة الأصول ويؤخذ الزمن من الصيغة الصرفية وللفعل دلالة ثالثة علي فاعله تؤخذ من تجرده أو زيادته في نطاق جدول إسناده إلى الضمائر فتتضح حدود الفاعل أفرادا أو تثنية أو جمعا وتكلماً أو خطابا أو غيبة وتذكيرا أو تانيثا وله أيضا دلالة رابعة على الفاعل أو نائبه، من خلال بنائه للمعلوم أو المجهول، ولكن هذا الفعل قد ينقل إلى العلمية كما يتضح في أعلام مثل يزيد ويعيش ويشكر وينبع وتدمر وكما في قوله تعالى: «وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا» (نوح ٢٣) وقوله: «وَأَذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا» (الأحزاب ١٣) وقد ينقل الفعل إلى أداة ناسخة فيسقط عنه معنى الحدث ولا يبقى إلا الزمن كما في كان الناقصة وأخواتها أو مجرد التاكيد كما في كان الناقصة فقط أو معنى آخر من معاني الجهة كالمقاربة أو الشروع أو نحوها. ذلك هو المعنى أو المعاني التي نقلت إليها كان وأخواتها أو كاد وأخواتها. ففي قوله تعالى: «وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا» (الكهف ٨٢) تحقق الإسناد في الحالتين بما فيه من معنى الحدث بقوله «تحتة كنز» وقوله «أبوهما صالحا» ولكن خلو هذا الإسناد من معنى الزمن جعله بحاجة إلي ما يضيف ذلك إلى الجملة فجاءت كان لتدل على الزمن فقط وهي مفرغة تماما من معنى الحدث وذلك نقل لها عن معنى «كان التامة» التي تدل على حدث وزمن، وفي قوله تعالى «وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا» (الإسراء ١٧) سقط المعنيان كلاهما (الحدث والزمن) عن كان ونقلت إلى أداة توكيد لأن الانسان مازال وسيظل كفورا بطبعه.

ومثله «إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا» (الإسراء ٨١) وكذلك «وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا» (الإسراء ١٠٠) وقوله «إِنَّهُ كَانَ حَوْبًا كَبِيرًا» (النساء ٢) وقوله «إِنَّ

اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا، (النساء ١١) ويقال مثل ذلك في «كاد» وأخواتها إلا أن المعانى التى تضيفها هذه الأدوات المنقولة فوق ما تقدم فى كان وأخواتها هى المقاربة والشروع والرجاء وهى جهات لفهم الحدث الذى فى الخبر فإذا قلنا «كاد زيد يقوم» فالمقاربة التى عبرت عنها «كاد» تعد بالإضافة إلى إفادة الزمن جهة لفهم القيام الذى أسند إلى زيد وليست المقاربة حدثا أسند إلى زيد وكذلك الحال فى البقية وموقع هذه المقاربة ونحوها من الحدث موقع الاستمرار والانقطاع والتجدد والقرب والبعد من معنى الزمن فإذا كان ذلك قصارى ماتدل عليه هذه الالفاظ التى على صورة الأفعال فإنها ليست باقية على فعليتها وإنما اعترأها النقصان أى أنها نقلت فجعلت أدوات تدخل على جمل اكتملت لها أركان الإسناد، ومن شواهد كاد وأخواتها فى القرآن الكريم «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» (الاسراء ٧٣) فالإسناد واقع بين اسم كاد وهو الواو التى فى «كادوا» والمضارع الذى بعدها والمشتمل على واو هى ضمير يعود على اسم كاد (واو تعود على واو) والمعنى الاسنادى تقديره «هم يفتنونك» ولما كان هذا الإسناد لم يقع بالفعل وإنما قارب الوقوع فقد جاءت «كادوا» على صورة الماضى لتدل على هذه المقاربة وهى خالية تماما من معنى الحدث وقل مثل ذلك فى بقية أخواتها وإن كان المعنى المستفاد من أخواتها شروعا أو رجاء.

٥- نقل الضمير: تقدم أن الضمائر كما اشتمل عليها التقسيم المعتمد فى هذا البحث ثلاثة أنواع: ضمائر الأشخاص وضمائر الموصولات وضمائر الإشارات، فاما ضمائر الأشخاص فتختلف مبانيها تكلما وخطابا وغيبة ثم أفرادا وتثنية وجمعا ثم تذكيرا وتأنينا ثم اتصالا وانفصالا ومع كل ذلك وبالإضافة إليه تختلف بحسب المحل الإعرابى رفعا ونصبا وجرا، فلها كل هذه المعانى الوظيفية التى تشتمل عليها وظيفة كبرى هى كناية الضمير عن الاسم الظاهر. ولكن ضمير الشخص قد ينقل عن هذه الدلالة الكبرى ليكون ضمير شأن فلا يكنى به عن الاسم الظاهر وإنما يكنى به عن مضمون الجملة

التي بعده ولهذا يقال فيه إنه عاد على متأخر لفظا ورتبة ومن شواهد ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: « إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » (الانعام ٢١) وقوله « إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » (يوسف ٩٠) وكذلك « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّا جَعَلْنَا لَكَ فِي هَذِهِ نَسِيئًا لِمَنْ يُضِلُّ فَإِنَّهُ يَمُوتُ يَاسًا » (الأنعام ١٥٣) وقوله « إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ » (لقمان ١٦) وقوله « لَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي » (الكهف ٣٨) وقوله « إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (النمل ٩) وقوله « إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى » (طه ٧٤). وقد يخرج الضمير عن الكناية عن الاسم الظاهر إلى مجرد الفصل بين المبتدأ والخبر لتوكيد إسناد الخبر إلى المبتدأ نحو قوله تعالى « فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ » (الأنبياء ٦٤) وقوله « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ » (الأنعام ١١٩) وقد يكون لرفع لبس ممكن كما في نحو قوله تعالى « وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (المائدة ٧٦) وفي قوله تعالى: « أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَالَهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى » (الشورى ٩) ولو لم يكن «هو» مذكورا في الموضوعين لكانت العبارة «قَالَ هُوَ الْوَلِيُّ يُحْيِي الْمَوْتَى» ولكن المعنى غير المعنى مما يدل على وظيفة الضمير في أمن اللبس، وتنقل ضمائر الخطاب إلى الحرفية مع الإشارات فيسمى كل منها حرف خطاب، والظاهر أنها منقولة إلى الحرفية أيضا في نحو «أَرَأَيْتَكَ» وذلك لإستقامة المعنى مع حذفها كما يحدث لها مع الإشارات:

وأما ضمائر الموصولات فهي قسمان: قسم مختص وقسم مشترك وينقل المشترك من الموصولية إلى الشرط والاستفهام، ففي الشرط تزداد «ما» الشرطية التي نقلت من الموصولية بعد «أى» فيقال فيها «أَيُّمَا» كما زيدت على بعض الظروف عند نقلها إلى الشرط مثل «إِذَا مَا» و «مَتَى مَا» و «إِنَّمَا» الخ، والموصولات المشتركة هي من وما وأى والشواهد على نقلها للشرط كثيرة كقوله تعالى «فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ»

(الأنبياء ٩٤) وقوله جل ثناؤه « مَنْ عَمَلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا، (فصلت ٤٦) وكذلك « وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلَ صَالِحًا نُؤْتَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ، (الأحزاب ٣١) وقوله تعالى: « وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ، (البقرة ٢١٥) وقوله تعالى: « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا، (الحشر ٧) وكذلك « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لَيْرَبُوفِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُوفِي عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ، (الروم ٣٩).

أما في الاستفهام فأكثر ما ترد «من» في القرآن ورودها على صورة «منذا» ولكنها وردت على صورتها المجردة في قوله تعالى: « وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ، (آل عمران ١٣٥) وقوله تعالى « وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، (التوبة ١١١) فكان تجردها ارتبط بالاستفهام الإنكارى أما تركيبها مع «ذا» فنحو قوله جل شأنه « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، (البقرة ٢٤٥) وكذلك « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، (البقرة ٢٥٥) وأما «ما» المنقولة إلى الاستفهام فإنها تأتي مشبعة المد أحيانا نحو « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ، (المدثر ٤٢) وقوله « فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ، (الحجر ٥٧) وقد يختزل مدها إذا سبقها حرف الجر فيقال بم وعلام والام وحتام ومم وعم وهكذا نحو قوله تعالى: « لَمْ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، (آل عمران ٩٩) وقوله: « عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، (النبا ١).

ولما كانت الموصولات المختصة مثل الذى والتى الخ لا تنتقل إلى الشرط كما تنتقل الموصولات المشتركة ولكنها تشاركها في الموصولية أعطيت عند الإخبار بها بعض ما تعطاه الموصولات التى انتقلت إلى الشرط وذلك في مجال الربط فإذا أخبرت بالذى أو التى أو الالف واللام فإن الخبر يقترن بالرابط في

المواضع التي يلزم فيها الرابط جواب الشرط فيما إذا وضعت «من» أو «ما» موضع «الذى» أو «التي»، إذ إن الرابط يلزم الجواب إذا لم يصلح الجواب أن يكون شرطاً فكما تقول «من يأتنى فله درهم» تقول أيضاً «الذى يأتينى فله درهم» فيقترن الخبر بالفاء لما بين «الذى» و «من» من شركة في أصل الموصولية والإبهام وذلك حين توقف وقوع ثانى عنصرى الكلام بعدها على أولهما، أى توقف وقوع الجواب على وقوع الشرط وتوقف وقوع خبر الذى على وقوع صلتهما، وذلك كما في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ» (محمد ٨) وقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» (آل عمران ٢١) وقوله جل شأنه «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ» (النور ٢) وكذلك «وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ» (النور ٦٠) وقد تنقل الموصولات بنوعيتها إلى وظيفة الربط لأنها ضمائر من الضمائر و سنسوق عدداً من الشواهد القرآنية على هذه الظاهرة تحت عنوان «الربط» إن شاء الله ونكتفى هنا بقليل من الشواهد: قال تعالى: «قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا» (العنكبوت ٢٢) أى أعلم به وبغيره من أهلها وقال «وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ» (الأنعام ٧) أى لقالوا وقال تعالى: «قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ» (آل عمران ٣٦) أى أعلم بها أى بهذه الأنثى وكذلك «وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَّا أَنْتَ مُفْتَرٌ» (النحل ١٠١) أى أعلم بها أى بهذه الآية، وهكذا نرى الموصولات بنوعيتها تستعمل للربط وإن احتفظت بافتقارها إلى صلة وبرتبة التقدم على هذه الصلة و يرجوع ضمير إليها من هذه الصلة وهى الشروط التركيبية التى تتحقق بها الموصولية.

أما الإشارات فمنها ما ينقل إلى الظرفية المكانية نحو «هنا» و «هناك» كما أن «هناك»، تصلح للنقل إلى المكان وإلى الزمان، فأما دلالتها على المكان فكما في قوله تعالى: «جُنِدْ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ» (ص ١١) وأما دلالتها على الزمان فنحو «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ» (آل عمران ٣٨) فلفظ «هناك» في الآية الأولى لموقع غزوة بدر وفي الثانية لوقت رؤية زكريا لفضل الله على مريم، وقد أشرنا من قبل عند الكلام عن ضمير الإشارة إلى أن الإشارات تستعمل أيضا للربط وجعلنا ذلك من أدلة كونها من الضمائر وتستعمل أيضا للشأن وأوردنا عددا من الشواهد على ذلك.

٦- نقل الظرف : تنتقل الظروف (غير المتصرفة) من الظرفية إلى استعمال الأدوات فتساق للدلالة على الاستفهام وعلى الشرط ويحلو للنحاة عندئذ أن يبقوا لها معنى الظرفية فيعلقوها في جملة الاستفهام بجملة الاستفهام وفي جملة الشرط بجواب الشرط وكان المنطقي أن ينسوا ظرفيتها بعد النقل كما نسوا موصولية من وما في الشرط فجعلوا ما بعدهما شرطا ولم يجعلوه صلة ولو أننا قارنا معنى متى ومعنى ما تدخل عليه في الجمل الآتية :

متى يقوم زيد

أقوم متى يقوم زيد

متى يقيم زيد أقم

لوجدنا جملة يقوم زيد في الجملة الأولى أصلية وفي الجملة الثانية فرعية وهي في الجمل الثلاث محفوظة الرتبة بالنسبة لما ي صاحبها فلو تأخر الفعل «أقوم» في الجملة الثانية لجزم ولو تصدّر «أقم» في الثالثة لرفع أما «يقوم زيد متى؟» فهو أسلوب حوار قلما يقبل إلا مع القرائن الخارجية في الحوار، إذ يغلب أن يكون «يقوم زيد» في هذه الجملة ترديدا لكلام سمعه المتكلم وأنكره في نفسه أو عجب له فردده ثم أراد السؤال عنه فوصله بالجملة السابقة وجعل

ما قبل متى دليلا على المحذوف بعدها. وعند نقل الظروف إلى الشرط تلحق بها «ما» الشرطية وهذا شبيه باتصال ما الاستفهامية بحرف الجر عند إرادة الاستفهام نحو «أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا» (البقرة ١٤٨) وقوله: «وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ قُولُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» (البقرة ١٤٤) وينقل بعض الظروف إلى الحرفية كما في «إِذْ» حين تدل على التعليل كما في قوله تعالى: «وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» (البقرة ١٣٠، ١٣١) وقوله «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَنَّبَهُمُ اللَّهُ هَذَا أَفْكَ قَدِيمٌ» (الأحقاف ١١) أى لأنه قال أسلمت، ولأنهم لم يهتدوا به. وقد عد النحاة «إِذْ» ماء المكونة من (إِذْ + ما) الشرطية حرفا من حروف الشرط مَثَلُهَا مَثَلُ إِنْ الشرطية وحكموا لغيرها من أخواتها بالظرفية.

٧- نقل الأدوات: قلنا إن النحاة عرفوا ظاهرة النقل تحت عنوانات متعددة منها «النيابة»؛ ومن ماثور النحاة أن الحروف ينوب بعضها عن بعض وقد اشتهر عنهم الكلام في نيابة حروف الجر بعضها عن بعض كنيابة «عَنْ» عن «مِنْ» في قوله تعالى: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ» (التوبة ١٠٤) ولكن «عَنْ» حين عبرت عن معنى «مِنْ» لم يغير قسمها من أقسام الكلم أى أنها ما زالت في قسم الأداة ومن ثم يكون أولى بتعبيرها عن معنى ابتداء الغاية أن يعد من قبيل تعدد المعنى الوظيفى بحسب الأصل لا بحسب النقل لأن «عَنْ» ما زالت باقية على أصلها الحرفى. إن معظم ما تجده من تعداد وظائف الأدوات في كتب مثل «رصف المباني» للمالقي أو «الجنى الدانى» للمرادى أو «مغنى اللبيب» لابن هشام إنما هو من قبيل التعدد بحسب الأصل وأقله تعدد بحسب النقل، وعندى أن ما يسميه النحاة أفعالا غير متصرفة من مثل «عسى» و «ليس» يخلو خلوا تماما من مقومات الفعلية، إذ لا يدل بسبب الجمود على حدث ولا يدل مع عدم الصيغة على زمن فلم يبق إلا أن نعهما من الأدوات وقد عدتا بين النواسخ، ولما كان معظم النواسخ أفعالا منقوذة إلى

النسخ لافتقادهما معنى الحدث مال النحاة إلى أن يعدوا عسى وليس بين هذه الافعال المنقولة لمجرد اتصال الضمائر بهما مع بعد ذلك عن الأصول المعتبرة.

أما نقل الأدوات إلى قسم الاسم، فمثاله نقل الكاف إلى الاسمية لتكون بمعنى «مثل» فتكون ذات محل من الإعراب ويعود عليها الضمير وقد عاد عليها في قوله تعالى: «أَنَّىٰ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ» ، (آل عمران ٤٩) إذ تعود الهاء من «فيه» على الكاف التي بمعنى «مثل». ومثل ذلك في النقل «كأين» التي لا تعود إلى أصل اشتقاقى ولا يمكن عندى أن يقال إنها مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية أو الموصولة لأنها لا تحمل جرثومة أى معنى من معانى هذه العناصر المزعومة. فلم يبق لها إلا أن تكون أداة في الأصل نقلت إلى استعمال الأسماء المبهمة فصارت مثل «كم» و «كيف» ونحوهما. وذلك كما في قوله تعالى: «وَكَايْنٌ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ» ، (العنكبوت ٦٠) أى «وكم من دابة..» ، والمعروف أن لما حرف جزم يدخل على المضارع فهي أخت لم ولكنها قد تدخل على الماضى فتنتقل إلى الظرفية وتصبح بمعنى «حين» أو بمعنى «إذ»: مثال ذلك قوله تعالى: «فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» (يوسف ٨٨) وقوله «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» (يوسف ٢٢) وقوله «فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ» (يوسف ٣١) وتنتقل «ها» التنبيه إلى معنى الخالفة (النحاة يسمونها اسم فعل) فيكون معناها «خذ» وتلحقها حروف الخطاب فيقال فيها «هاكم» و «هاؤم» كما في قوله تعالى: «هَاؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ» ، (الحاقة ١٩) ، وتنتقل «وى» التي للتعجب إلى معنى الخالفة فتلحقها كاف الخطاب فتصير «ويك» ثم يليها «أن» منزوعة الخافض وهو اللام متصلة بضمير الشأن فيصير التركيب «ويكأنه» أى «ويك لأنه». قال تعالى: «وَيُكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ» (القصص ٨٢).

ويبقى بعد ذلك أمور ينبغي أن نشير إليها

الأول أن الخوالب لا تنقل وإنما ينقل غيرها إليها كتنقل أفعال التفضيل إلى التعجب وصيغة « فعل » بضم العين إلى المدح والذم ونقل الفعل الماضي « حب » إلى المدح مثبتا وإلى الذم منقيا نحو : حبذا زيد ولا حبذا عمرو .

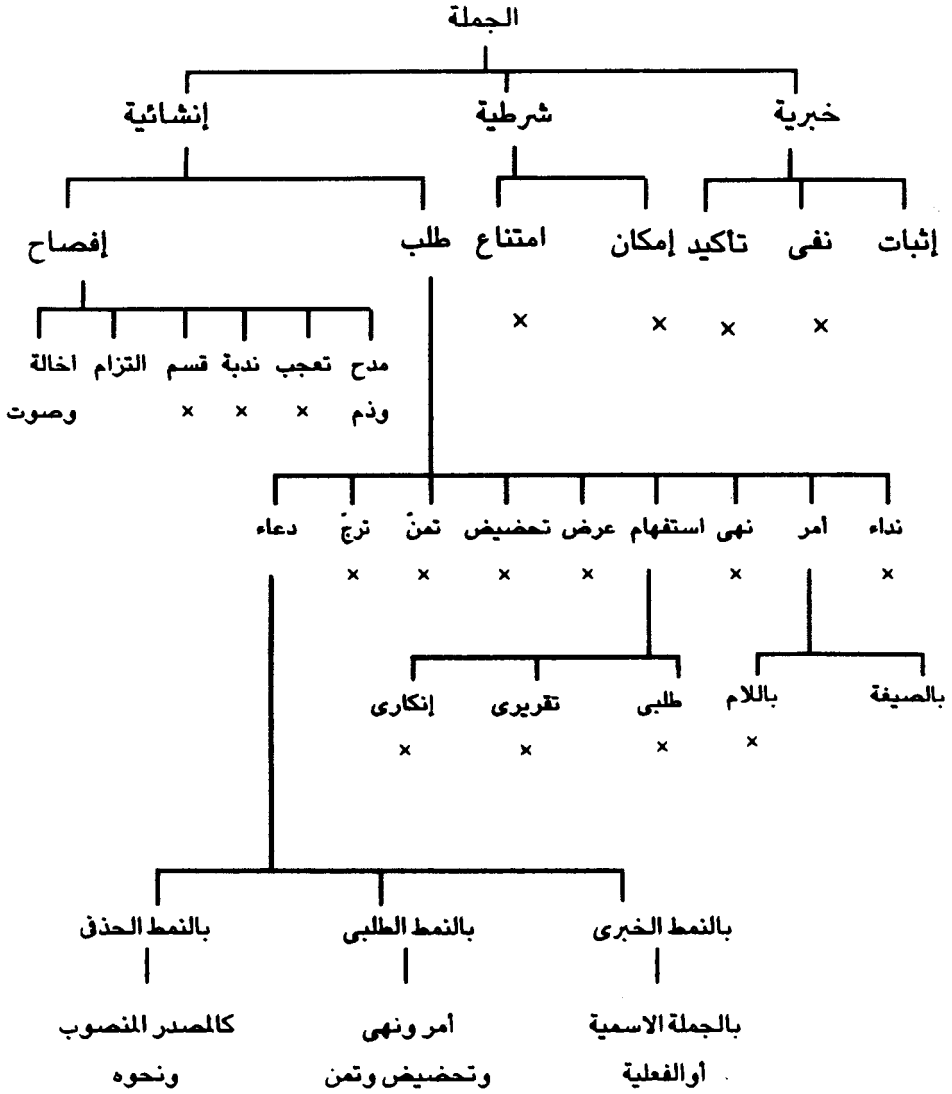
الثاني : أن تعدد المعنى مع بقاء المبنى في قسم من أقسام الكلم «تعدد بحسب الأصل» أما مع تغيير قسمه فهو «تعدد بحسب النقل» وكلا الأمرين يدخل تحت تعدد المعنى الوظيفي للمبنى الواحد.

الثالث : هناك نوع من أنواع النقل يسمى «التضمين» أجد له طبيعة أسلوبية أكثر منها تركيبية ومن ثم سأرجى القول فيه إلى القسم الثاني من هذا الكتاب.

الفصل الثاني

النمط التركيبي القرآني

المقصود بالنمط التركيبي بناء الجملة. لقد سمينا صورة الكلمة «بنية» وكان يمكن أن نسمى صورة الجملة بنية أو بناء ولكننا أثرنا أن نبتعد عن مادة الباء والنون والياء دفعا للبس. ومن هنا جاء مصطلح «النمط التركيبي» ليدل على بناء الجملة من ركنيها وما عسى أن يكون ضرورياً لعنصر الإفادة فيها. لقد اشتهر عن النحاة أن الجملة العربية مكونة من ركنين هما اسمان أو اسم وفعل وقد يدخل في تكوينها الحرف ليربط بين أحد الركنين وما قد يرتبط به من تكملة، وأول ما نلاحظه على هذا القول أن ثمة جملاً عربية لا يتضح تركيبها من ركنين إلا على تأويلات بعيدة كجملة القسم نحو «والله» والنداء نحو «يا زيد» وبعض صور الدعاء نحو «غفرانك» ومثلها كل مصدر (نصب بواجب الحذف كما يقولون) وبعض أسماء الأفعال والأصوات نحو صه وأوه ، أما ما عدا ذلك من أنماط الجمل فتقوم بنيته على الركنين وإن استتر أحدهما أو حذف بدليل، والجملة بعد ذلك لا يتضح من تركيبها النحوي إلا أنها اسمية أو فعلية. أما ما وراء ذلك فهو معلق بقرائن مختلفة تتراوح ما بين الأداة والإعراب والربط والترتبة والتضام ثم السياق. أما من حيث الأداة فيكفي أن ننظر إلى البيان التالي لأنواع الجمل وسنرى علامة (x) عند كل جملة تعتمد في معناها النحوي على الأداة :



هكذا تتضح قيمة الأداة في تخصيص عموم تركيبى الجملتين الاسمية والفعلية وهكذا تصبح الأداة قرينة على معنى زائد عن مجرد الاسمية والفعلية بل إنه زائد أيضا على ما يعطيه الإسناد الخبري أو الإنشائي للجملة من معنى ثم يفرق الإعراب بين تركيب وشبهه في نحو «ما أحسن ريداً» و «ما أحسن

زيداً» و « ما أحسنُ زيدٍ» ونحو «قاتلوا زيدا» و «قاتلو زيدا» ونحو «نحر العرب» و «نحن العرب نكرم الضيف» ثم يفرق الربط بين ما يقصد به الجواب وما يقصد به الصفة في مثل قوله تعالى : «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» (المؤمنون ١١٧) فقد أتضح هنا أن الجواب هو ما اقترنت به الفاء وأن جملة «لابرهان له به» صفة للإله المدعى ولو اتصلت الفاء بلا النافية للجنس من «لابرهان» لكان ذلك هو الجواب ولكان «إنما حسابه عند ربه» بغير الفاء استثناءً بعد ذلك، هكذا تستبين الجملة التي لها محل المفرد والجملة التي قصد بها الإسناد. ويتضح فارق الربط أيضا في نحو : «أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي» في مقابل «أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبه» إذ يبدو الاسم الموصول إطنابا يمكن الاستغناء عنه في التركيب الأول إذ أعاد الشاعر الضمير من جملة الخبر إلى قوله «أنا» ولكن الموصول نفسه هو الخبر في التركيب الثاني وقد عاد عليه ضمير من جملة الصلة، وتفرق الرتبة أيضا بين الجمل في نحو «إذا السماء انشقت» إذ يفرق بين إذا الظرفية وإذا الفجائية بمدخول هذه ومدخول تلك فلا يلي الظرفية إلا الفعل ومن هنا امتنع في السماء أن تكون مبتدأ على رغم تقدمها على الفعل. وهذا الشاهد نفسه يوضح قيمة التضام أيضا لأن اختلاف المدخول اختلاف من حيث التضام، أما الأداة فحسبنا أن ندرك الفرق بين «قام زيد» و «ما قام زيد» و «هل قام زيد» و «هلا قام زيد» و«إنما قام زيد» و«لقد قام زيد» الخ. ولكن أهم ما يفرق بين أنماط الجمل هو قرينة السياق.

عند هذه النقطة يمكن أن نشير إلى الحقائق التالية:

- أ - أنه قد يتعدد المعنى للنمط الواحد بحسب الأصل كما في نمط الجملة المثبتة والاستفهامية.
- ب - قد يتعدد هذا المعنى بواسطة النقل كنقل النداء إلى الاختصاص نحو «نحن أيها العرب.....» و التعجب نحو «يا حسن ما رأيت» والدعاء نحو «يا رعاك

الله»، والمدح والذم بنحو «يا نعم المولى ويا نعم النصير».

جـ — إن المقاصد الأسلوبية قد تعمل في عكس هذا الاتجاه فيتعدد النمط للمعنى الواحد، كالدعاء والتعجب والأمر.

وسنشرح كل واحدة من هذه الحقائق مع إيراد الشواهد القرآنية المناسبة.

المقصود بالنمط الخبرى بحسب الأصل ما يشمل الإثبات والنفى والتأكيد، ويتمثل هذا النمط في أساسه من مبتدأ وخبر أو من فعل وفاعل أو نائب فاعل وقد تصدر أداة النفي أو التأكيد هذا النمط وقد يلحق به من فضلات الجملة ما يفيد تخصيصاً أو نسبة* ونحن حين ذكرنا المعانى الثلاثة لهذا النمط (الإثبات والنفي والتأكيد) إنما ذكرنا أول ما يرد على الذهن من دلالات هذا النمط أما الطاقة التعبيرية الكاملة للنمط فإنها تتجاوز ذلك إلى أفاق دلالية أخرى وبخاصة عندما يتصل الأمر بصورتى الإثبات والنفي، وفيما يلي بيان لما يمكن للصورة المثبتة من النمط الخبرى أن تقيده:

أ- الشرط :

* قال تعالى : «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» ، (البقرة ٢٧٤)

* قال تعالى : «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ» ، (البقرة ٢٣٢) وكان يمكن للنمط الإثباتى هنا أن يفيد الأمر لولا ما الحق به من قوله «لمن أراد أن يتم الرضاعة» فهذا القيد حول الأمر إلى معنى الشرط فكان المعنى المقصود هو «من أراد أن يتم الرضاعة فعلى الوالدات أن يرضعن أولادهن حولين كاملين».

* قال تعالى : «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ» (الرحمن ٤٦) أى من خاف مقام ربه فله جنات وهذا يشبه قول الفقهاء : «البينة على من أدعى واليمين على من أنكر»

* انظر اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٩٠ وما بعدها.

• لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، (البقرة ٢٢٦)

ب- الأمر :

• قال تعالى : « وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ، (البقرة ٢٢٨)
 أى فلتتربص المطلقات بأنفسهن ثلاثة قروء .

• قال تعالى : « وَالْمُطَلَّقاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ، (البقرة ٢٤١)
 أى متعوا المطلقات بالمعروف وليكن ذلك حقا على المتقين .

• قال تعالى : « فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ ، (الأنفال ٧٢)
 أى فانصروهم .

• قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ، (البقرة ١٧٨)
 أى اقتصوا للقتل .

• قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ، (البقرة ١٨٣)
 أى صوموا

• قال تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤَقِّفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، (البقرة ٢٢٤)

أى فلتتربص أزواجهم من بعدهم أربعة أشهر وعشرا وذلك لاستبراء الرحم من شبهة الحمل .

ج- الدعاء :

• قال تعالى : « فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ، (البقرة ١٠)
 فليزدهم الله مرضا .

• قال تعالى : « قَبَاءٌ وَابْغَضِبِ عَلَى غَضَبٍ ، (البقرة ٩٠)
 فليغضب الله عليهم غضبا متزايدا .

• قال تعالى : « أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »

(البقرة ١٦١) أى فلتكن عليهم اللعنة.

* قال تعالى : « فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ » (البقرة ٢٠٦) أى فليكن نصيبه جهنم.

* قال تعالى : « إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ » (ابراهيم ٣٩) أى اللهم اسمع دعائى

* قال تعالى : « إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (البقرة ١٢٧) أى استجب لما سمعت وعلمت

* - قال تعالى : « ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ أَيْنَمَا تُقِفُوا » (آل عمران ١١٢) أى فلتضرب عليهم الذلة.

* قال تعالى : « فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ » (النساء ٩٩) أى فليرجوا عفو الله عنهم أو فليعف الله عنهم.

* قال تعالى : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » (المائدة ٢٩) أى بؤ بإثمي وإثمك وكن من أصحاب النار.

* قال تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » (المائدة ٤١) أى فليكن لهم ذلك.

* قال تعالى : « حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ » (المائدة ٥٣) أى فلتحبط أعمالهم.

* قال تعالى : « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » (المائدة ١١٩) أى فليرض الله عنه.

د- العرض:

* قال تعالى : « قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي » (هود ٧٨)

* قال تعالى : « وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، (البقرة ٢٣٧) »

* قال تعالى : « وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، (النساء ٢٥) »

هـ - الالتزام: والمعروف أن الالتزام إنشاء لا خير كما في عقد النكاح حين

يقول ولى الزوجة: قبلت أو زوجتكها)

* قال تعالى : « قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ، (البقرة ٧١) أى الآن قبلنا أن

نجيبك إلى طلبك.

* قال تعالى : « وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، (البقرة ٢٨٥) أى نلتزم بما طلب

منا

* قال تعالى : « قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا

أَقْرَرْنَاهُ (آل عمران ٨١) »

قال تعالى : « وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا ،

(المائدة ١١١) »

* قال تعالى : « قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا ، (الانعام ١٣٠) »

* قال تعالى : « قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، (الاعراف ١٢١) »

* قال تعالى : « وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ،

(الاعراف ١٧٢) »

* قال تعالى : « وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ،

(القصص ٥٢) »

* قال تعالى : « فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ، (غافر ٨٤) »

* قال تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا أَنْزَلْنَاهُ الْغُرُقَ قَالَ آمَنْتُ ، (يونس ٩٠) »

فما يتلو القول في كل آية من هذه الآيات إنشاء الالتزام بمضمون الجملة وليس

الإخبار به وذلك على الرغم من النمط الخبرى في الجملة والزمن الماضى في الفعل.

و- التعجب :

- * قال تعالى « **إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ** » (ص ٥)
- * قال تعالى : « **إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** » (هود ٧٢)
- * قال تعالى : « **قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ** » (عبس ١٧)
- * قال تعالى : « **فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ** » (الواقعة ٩١)
- * قال تعالى « **وَكَفَى بِاللَّهِ نُصِيرًا** » (النساء ٤٥)
- * قال تعالى : « **قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** » (الرعد ٤٣)

أما النمط الخبرى المنفى فإنه يحمل أيضا أعباء معان كثيرة غير مجرد
النفى كما يبدو عند تأمل الشواهد الآتية :

أ- الدعاء :

- * قال تعالى : « **فَلَا أَفْتَحَمَ الْعُقَبَةَ** » (البلد ١١) على أحد الفهمين.
- * قال تعالى : « **لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ** » (التوبة ١١٠)
- * قال تعالى : « **وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ** » (الرعد ٣١)
- * قال تعالى : « **عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ** » (البقرة ١٦١، ١٦٢)

ب- الحصر

- * قال تعالى : « **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** » (آل عمران ١٤٤)

- * قال تعالى : « إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » ، (الشعراء ١١٥)
- * قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ » ، (النساء ٦٤)
- * قال تعالى : « مَا الْمَسِيحُ بِنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » ،
(المائدة ٧٥)

- * قال تعالى : « مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ » ، (المائدة ٩٩)
- * قال تعالى : « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا » ، (يوسف ٨١)
- * قال تعالى : « فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ، (محمد ١٩)
- جـ- التعميم :

- * قال تعالى : « قَالُوا لَا ضَيْرَ » ، (الشعراء ٥٠)
- * قال تعالى : « قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ » ، (يوسف ٩٢)
- * قال تعالى : « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ » ، (البقرة ٢)
- * قال تعالى : « مُسَلِّمَةٌ لَا شَيْءَ فِيهَا » ، (البقرة ٧١)

د- النهى :

- * قال تعالى : « فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ » ، (البقرة ١٩٧)

- * قال تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » ، (البقرة ٢٥٦)
- وقد يخرج الشرط عن مجرد تعليق وقوع الجواب على وقوع الشرط أو امتناعه على امتناعه إلى معان أخرى منها :

أ- التعجب :

- * قال تعالى : « وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذْ كُنَّا ثُرَابًا مِّنْ ثَرَابٍ لِّفِي خَلْقِ

جديد» (الرعد ٥)

ب - السبر والتقسيم:

* قال تعالى: « وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ » (غافر ٢٨)

ويجرى السبر هنا على النحو التالي :

موسى إما أن يكون كاذبا وإما أن يكون صادقا

فإن يك كاذبا فعليه كذبه وإذا لا ضرورة لقتله.

وإن يك صادقا يصيبكم بعض الذى يعدكم وإذا ينبغى الحذر من إيدائه بل

الحرص على طاعته.

* قال تعالى: « إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ .

وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ » (يوسف ٢٦، ٢٧)

والسبر هنا على النحو التالي:

لا يخلو الأمر إما أن يكون القميص قد من قبل أو أنه قد من دبر

فإن كان قميصه قد من قبل فإنه هو الذى راودها وهى دافعته فشقت

قميصه

وإن كان قميصه قد من دبر فإنه هرب من مراودتها إياه فأمسكت بقميصه

من دبر فشقته.

وقد يطلو للبعض أن يلاحظ أن قوله تعالى « فصدقت » وقوله « فكذبت »

دخلت فيهما الفاء على الماضى مما يشير إلى حذف «قد» لأن «قد» هى التى

توجب دخول الفاء، ولكن التقدير الأوضح للمعنى أن المحذوف ضمير مبتدأ

تقديره «فهى» ويحسن ذلك ما يقابله بعد هذا من قوله « وهو من الكاذبين ».

وقوله : « وهو من الصادقين، أى أن تقدير الكلام : فهى كذبت وهو من الصادقين. والمعروف أن جواب الشرط إذا وقع جملة اسمية وجب اقترانه بالفاء.

* قال تعالى : « وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » (آل عمران ٢٠) فبعد أن يطلب النبى عليه الصلاة والسلام منهم أن يسلموا (وذلك بصيغة الاستفهام المفيد للتحضيض) لا يخلو الأمر إما أن يسلموا وإما أن يتولوا. فإن أسلموا فقد اهتدوا وكفوا النبى شر شقاقهم وإن تولوا فإنما عليه البلاغ والله يعلم إصرارهم فشقاقهم مقضى عليه فى الحالين.

جـ- التمنى :

* قال تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبِرًا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا، (البقرة ١٦٧)

* قال تعالى : « فَلَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، (الشعراء ١٠٢)

* قال تعالى : « لَوْ أَنْ لِي كَرَّةٌ فَآكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، (الزمر ٥٨)

وإنما حسن تأويل هذه الأنماط التركيبية بالشرط الامتناعى فى الأصل لأن مضمون الجواب قد ذكر بعد الفاء فى صورة المضارع المنصوب بأن المضمرة والتقدير فى الحالة الأولى: لو أن لنا كرة لتبرأنا وفى الثانية لأمننا وفى الثالثة لو أن لى كرة لأحسننت، أما إذا حذف ما بعد الفاء فإن النمط لا يصلح للتأويل بالشرط وإنما يتمحض للتمنى، ويعزز ذلك ما قبل آية الزمر السابقة من قوله تعالى : « أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، (الزمر ٥٧) لأن هذا التمنى جاء فى صورة الشرط الصريح فلا يصرفه إلى معنى التمنى إلا المقام الذى قيل فيه لأنه لو لم يكن تمنيا لكان احتجاجا على الله سبحانه وتعالى.

د- الأمر :

* « قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ، (مريم ١٨) أى اتركنى
واتق الله .

* « وَأَشْكُرُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ، (البقرة ١٧٢) أى اشكروه
واعبدوه .

* « إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، (البقرة ٢٤٨) أى فآمنوا بها .
* « اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، (البقرة ٢٧٨)
أى اتقوا وذرروا وآمنوا .

* « وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، (البقرة ٢٨٠) أى والتصدق
خير فاعلموا .

* « قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تُعْقِلُونَ ، (آل عمران ١١٨) أى فاعقلوا .

هـ- التسوية : قال تعالى :

* « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ، (الانسان ٣)

أى سواء أكان شاكرًا أم كان كافورًا .

وذلك أن: إن + (ما بمعنى كان) = إمَّا

ومن ذلك على الاحتمال الأقوى :

أبا خراشة إما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبع

أى إن كنت ، بكسر الهمزة .

أما نمط النداء فقد يخرج عن طلب الإقبال إلى المعانى التالية :

أ- التعجب : قال تعالى :

* « يَا بُشْرَى هَذَا عَلَامٌ » (يوسف ١٩)

* « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » (يس ٣٠)

ب- الغدبة : قال تعالى :

* « وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفًا عَلَى يُوسُفَ » (يوسف ٨٤)

* « يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ » (الزمر ٥٦)

* « يَا حَسْرَتْنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا » (الانعام ٣١)

ج- الاختصاص : قال تعالى :

* « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمَكْذِبُونَ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُفُومٍ »
(الواقعة ٥٢)

د- التمني : قال تعالى :

* « يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَمَا أُوتِيَ قَارُونُ » (القصص ٧٩)

* « يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهٗ » (الحاقة ٢٥)

* « يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ » (الزخرف ٣٨)

أما قول الشاعر

أيا يا اسلمى يا دارمى على البلى ولا زال منها لأبجر عائك القطر

فقد أراد الشاعر أن يبدأ ببناء الدار قبل فعل الأمر ولكن الوزن حال بينه وبين ما أراد، فأثر الإبقاء على «يا» النداء مع حذف المنادى ثم تكرار جملة النداء بعد إيراد فعل الأمر بقصد التلذذ بذكر الدار بعد أن فاتته ذكرها أولاً.

فالتقدير : ألا يا دارمى أسلمى يا دارمى ولو لم يرد ذلك لكان له مندوحة في
تصحيح الوزن بأن يقول:

ألا فاسلمى يا دارمى على البلى

ويخرج نمط الأمر بصورتيه عن الأمر إلى معانى أخرى منها:
أ- الشرط:

ومن ثم يجزم المضارع في جوابه ، قال تعالى :

* « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » ، (غافر ٦٠)

* « فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا نُثَبِّتُ الْأَرْضُ » ، (البقرة ٦١)

* « ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا » (البقرة ٢٦٠)

* « ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ » ، (البقرة ٦٨)

* « ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَنَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ » ، (الحجر ٣)

* « فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ

» ، (الزخرف ٨٢)

* « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا

الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » ، (يونس ٨٨)

ب- الدعاء : قال تعالى:

* « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى » ، (البقرة ٢٦٠)

* « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » ،

(ابراهيم ٣٥)

* رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »
(البقرة ٢٠١)

* « وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » (المؤمنون ١١٨)
* « وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ » (غافر ٩)
* « رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » (ابراهيم ٤١)
* « رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا » (التحریم ٨)
* « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ »
(نوح ٢٨)

* « فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا » (التوبة ٨٢)
* « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (النحل ٢٥)
* « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ » (الإسراء ٧)
جـ- النهي : قال تعالى :

* « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ » (المائدة ٩٠)

* « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ » (الحج ٣٠)
أى لا تقربوا الرجس فالنهي يأتى من المعنى المعجمى وإن كان المعنى
النحوى على الأمر.

د- العرض : قال تعالى :

* « قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدُنَا مَكَانَهُ »
(يوسف ٧٨)

* « فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا
وَأَبْنَاءَكُمْ، (آل عمران ٦١)

* « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، (آل عمران ٦٤)

هـ- التحدى : قال تعالى :

* « فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ،

(الشعراء ١٨٧)

* « فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، (القصص ٧٥)

ونمط النهى ايضا يخرج عن طلب الكف إلى معانٍ أخرى منها:

أ- الدعاء : قال تعالى :

* « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

الْوَهَّابُ، (آل عمران ٨)

* « رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، (البقرة ٢٨٦)

* « رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، (نوح ٢٦)

ب- الأمر : قال تعالى :

* « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ

مُسْلِمُونَ، (آل عمران ١٠٢) فالذى فى الآية ليس نهياً عن الموت إنما هو أمر
بالإصرار على الإسلام حتى الموت ومثله:

* « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ،

(البقرة ١٣٢)

* « يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ،

(الأعراف ٢٧) أى احذروا فتنة الشيطان.

جـ- توكيد العكس : قال تعالى :

* « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيَحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَارَةِ مِنَ الْعَذَابِ » (آل عمران ١٨٨)
أى «إنهم فى مهلكة».

* «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا» (آل عمران ١٦٩)
أى «إنهم أحياء».

وكذلك كل نهى عن الحسبان فى القرآن كما فى (ابراهيم ٤٢، ٤٧) و (النور

٥٧)

د- الشرط :

إن أداء معنى الشرط بنمط النهى شائع فى الكلام نحو « لا تدن من الأسد يأكلك » فجزم جواب النهى قرينة على إرادة معنى الشرط وعلى أن أداة الشرط يمكن أن تحل محل أداة النهى فيكون التقدير « إن تدن من الأسد يأكلك » فلما صحت معاقبة الأداتين صحت دعوى إرادة الشرط، أما فى القرآن الكريم فمنه قوله تعالى : « وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَنُمْسِكُمُ النَّارُ » (هود ١١٣) على أساس إدغام السينين إحداهما فى الأخرى وتحريك ثانيتهما بالفتح لالتقاء الساكنين وتجزير القاعدة أيضا فك السينين وبناء ثانيتهما على السكون. وقد توالى النهى والأمر فى قوله تعالى : « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » (يوسف ١٠) فأصبح الجواب على مثل صورة التنازع ، فهل يكون للثانى لقربه أو يكون للأول لتقدمه أو يكون لهما معا دون تمييز على رغم اعتراض النحاة ؟ غير أنه لما كان مجرد عدم القتل لا يؤدى إلى أن يلتقطه بعض السيارة أصبح الجواب الصق بالأمر «ألقوه» بقرينة السياق.

ويخرج نمط الاستفهام عن معنى طلب العلم إلى معانٍ أخرى منها:

(أ) الإنكار: وتأويله بالنفى ومثاله في الكلام «ما شأنك أنت» أى لا شأن لك.. قال تعالى «هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ» (يوسف ٦٤)

* «مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ»، (النساء ١٤٧)

* «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ»، (البقرة ٢٥٥)

* «فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهِ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مِنْ أَضَلِّ اللَّهِ»، (النساء ٨٨).

* «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ»، (التوبة ٧)

* «وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ»، (آل عمران ١٣٥)

* «أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ»، (الزخرف ١٨)

٤- التقرير: وجوابه «بلى»، للإثبات: قال تعالى:

* «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ»، (الضحى ٦)

* «أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا»، (القصص ٥٧)

* «أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ»، (القيامة ٣٧)

* «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ»، (الحديد ١٦)

* «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ»، (الفيل ٢٠١)

* «أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ» (القيامة ٤٠)

* «أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ
مِثْلَهُمْ» (يس ٨١)

ب- النهي: ومثاله في الكلام «ما هذا» = لا تفعل هذا، قال تعالى:

* «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ» (البقرة ٢٨) أى لا
تكفروا.

* «اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُ يَفْعَلُ بِكُمْ مَا يَشَاءُ» (البقرة ٢٨) لا تقتلوه.

* «اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُ يَفْعَلُ بِكُمْ مَا يَشَاءُ» (البقرة ٢٨) لا تقتلوه.

* «اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُ يَفْعَلُ بِكُمْ مَا يَشَاءُ» (البقرة ٢٨) لا تقتلوه.

والفرق بين الإنكار والنهي يتوقف على ما يعاقب الهمزة من الحروف فإن
عاقبتها «لا» الناهية كما في «اتاتون الذكران من العالمين» وقوله «اتامرون
الناس بالبر وتتسون أنفسكم» فهو استفهام على معنى النهي وإن عاقبتها
ليس «كما في «أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى»
(الرعد ١٩) فذلك استفهام للإنكار المحض

ج- الأمر: قال تعالى:

* «قَالُوا أَوَلَمْ نُنهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ» (الحجر ٧٠) = انته

* «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» (المائدة ٩١) = انتهوا.

هـ- السبر: وذلك بتقليب كافة الاحتمالات واستبعادها: قال تعالى:

* «أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (النور ٥٠)

* «فَذَكَرْنَا مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٌ وَلَا مَجْنُونٌ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ
تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أَمْ تَأْمُرُهُمْ
أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فُلْيَاتُوا
بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ
خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ
الْمُصِيطِرُونَ أَمْ لَهُمْ سَلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فُلْيَاتٍ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ أَمْ
لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ أَمْ نَسَالَهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَقْرَمٍ مُنْقَلَبُونَ أَمْ عِنْدَهُمُ
الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ
غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (الطور ٢٩-٤٣)

والملاحظ أن بعض الإجابات على هذه الأسئلة بالنفسى تبعا لنفى الكهانة
والجنون في أولى الآيات فكانه ليس كاهنا ولا مجنونا ولا شاعرا ولا متقولا
وهم لم يُخْلَقُوا من غير شيء وليسوا الخالقين ولم يَخْلُقُوا السموات والأرض
وليس عندهم خزائن الله ولا يسيطرون على شيء وليس لهم سلم يستمعون
فيه وليس لهم البنون وهو لم يسألهم أجرا ولا عندهم الغيب ولا لهم إله غير
الله.

ولكن بعض الأسئلة جوابه الشرط وهو قوله تعالى «أم يقولون تقوله» و
«أم لهم سلم يستمعون فيه» ثم «أم يريدون كيدا» لأن هذه هي الأسئلة
الوحيدة التي تبدو في الآية من قبيل الاستفهام المفيد للشرط ولذلك جاء
الجواب مقرونا بالفاء وتقدير ذلك.

إن قالوا تقوله فليأتوا بحديث مثله وإن كان لهم سلم يستمعون فيه فليأت

مستمعهم بسلطان مبین؟؟

وهناك ملاحظة أخرى أن تكرار « بل » في آيات متعددة ناسبه أن يكون هناك تقليل من عدد «بل» فوضعت «أم» بدلا من «بل» في واحدة من الآيات وهي «أم هم قوم طاغون»، أي «بل هم قوم طاغون».

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئُكُمْ فِيهَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ.

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا مُغْرِمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ.

أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ.

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكِّرَةً وَمَنَاعًا لِلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (الواقعة ٥٨ - ٧٤)

والمعنى أنكم لم تخلقوا ما تمنون ولا ما تحرثون ولا الماء الذي تشربون ولا النار التي تورون ولكن هذا المعنى لا يجعل الاستفهام مجرد إنكار وإنما يحوله الى سبر وتقسيم.

و- المحاجة: قال تعالى:

* «هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ» (الشعراء ٧٢،

(٧٣

* «أَلَمْ يَخْلُقْنَا» (النمل ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤)

* «مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ» (القصص ٧١، ٧٢)

* «أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» (العنكبوت ١٩)

ز- التقديم لأسلوب آخر: قال تعالى:

* «أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ» (الشعراء ٢٠٥-٢٠٧)

* «هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينَ نَزَّلُوا عَلَيَّ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ» (الشعراء ٢٢١، ٢٢٢)

* «أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أُوْحِرَنَّ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخْتِكَ أَنْ لَدَيْكَ إِلَّا قَلِيلًا» (الاسراء ٦٢)

* «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا مَآذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ» (يونس ٥٠)

* «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ» (الزمر ٣٨)

ح- التوريط: قال تعالى:

* «قَالَ أَكذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (النمل ٨٤) أى إن الأمر كذلك والأمر كذلك فماذا كنتم تعملون.

ط- العرض: قال تعالى:

* «هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّيْلِي» (طه ١٢٠)

* «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (الانبياء ١٠٨)

* «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ» (القصص ١٢)

* «هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ» (سبا ٧)

* «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» (الصف ١٠)

* «هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَرْكَبِي، (النازعات ١٨)

ط- التهديد: قال تعالى:

* «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ، (الانعام ٤٦)

ي- التعجب: قال تعالى:

* «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي، (القمر ١٦)

* «وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى، (طه ٩)

* «هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ، (ص ٢١)

* «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ، (الذاريات ٢٤)

* «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ، (البروج ١٧)

* «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُورَهُ (الانسان ١)

ك- التحضيض:

* «أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ، (المائدة ٧٤)

ل- شرط ودليله «إذا» الرابط بعد الاستفهام:

كقوله تعالى: «فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نُنَبِّئُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ

(القمر ٢٤)

وكذلك: «يَقُولُونَ إِنَّمَا لَرُدُونَ فِي الْحَافِرَةِ إِذْ كُنَّا عِظَامًا نَحْرَةً قَالُوا

تِلْكَ إِذْ كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ، (النازعات ١٠-١٢) وكقول الشاعر في شأن العلم:

أشقى به غرسا وأجنيه ذلة إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما

أى إن أشق به غرسا إلخ إذا فاتباع الجهل..

وقد يخرج العرض عن معناه الذى اشتهر به إلى معان أخرى منها:

أ- الدعوة: قال تعالى:

* «أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ» (النور ٢٢)

* «فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَاهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى» (النازعات

١٨، ١٩)

ب- التحضيض: قال تعالى: «وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مَجْتَمِعُونَ»

(الشعراء ٣٩)

* «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ» (الانباء ٣٠)

* «لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ» (يس ٣٥)

* «وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ» (يس ٧٣)

* «وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ» (يس ٦٨)

* «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ» (الاعراف ٦٥)

* «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ» (الشعراء ١٠٦)

ح- المحاجة: قال تعالى:

* «أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا» (مريم ٦٧)

* «أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ» (المطففين ٤)

ويؤدى نمط التحضيض المعانى الآتية:

أ- التحدى: قال تعالى «لَوْلَا أَوْتِي مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى» (القصص ٤٨)

* «لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (الحجر ٧).

* «لَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا» (الواقعة ٨٧).

* «لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ» (النور ١٣).

* «لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا» (الفرقان ٧).

ب- اللوم: قال تعالى:

* «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا» (النور

١٢).

* «وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا» (النور ١٦).

والتحضيض معنى مركب يجمع بين الاستفهام الإنكارى والتمنى فيكون

معنى «ملا فعلت، كما يلى

لَمْ لَمْ تَفْعَل + لَيْتَكَ فَعَلْتَ

فالمعنى إذا من المعانى المركبة غير البسيطة.

والرجاء بعسى أو لعل قد يتحول إلى معان أخرى على النحو التالى:

أ- التعليل: قال تعالى:

* «وَإِذْ أَنْبَأْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (البقرة ٥٣).

* «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (البقرة ٥٦).

* «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقرة ٦٣).

* «فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ» (البقرة ٧٣).

«وَحِينَمَا كُنْتُمْ قَوْلُوا وَجُوهَكُمْ سَطْرَهُ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (البقرة ١٥٠).

ب. التقليل: قال تعالى:

«لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» (الطلاق ١).

«وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ» (البقرة ٢١٦) أى ربما حدث ذلك.

«فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا» (النساء ١٩).

«لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ» (الحجرات ١١).

جـ- الأمر: قال تعالى:

«وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقرة ١٧٩)

أى فاتقوا الله ولا تتأثروا خارج حدود القصاص.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقرة ١٨٣).

«وَلِتُكْمَلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (البقرة ١٨٥).

د- الالتزام والوعد: قال تعالى:

«عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا» (النساء ٨٤). أى سيفك

- * «قَاوُلْتُكَ عَسَى اللّٰهُ اَنْ يَّعْفُو عَنْهُمْ» (النساء ٩٩) اى سيعفو
- * «عَسَى اللّٰهُ اَنْ يَّاتِي بِالْفَتْحِ اَوْ اَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ» (المائدة ٥٢) اى سيأتى
- * «عَسَى اللّٰهُ اَنْ يَّتُوبَ عَلَيْهِمْ» (التوبة ١٠٢) اى سيتوب
- * «عَسَى رَبُّكُمْ اَنْ يَّرْحَمَكُمْ وَاِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا» (الإسراء ٨) اى سيرحمكم
- * «عَسَى اَنْ يَّبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا» (الإسراء ٧٩) اى سيبعثك
- * «فَاَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى اَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ»
(القصص ٦٧) اى سيكون.

هـ- الدعاء: قال تعالى:

- * «قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ اَنْ يَهْلِكَ عِندُكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْاَرْضِ»
(الأعراف ١٢٩) اى اللهم اهلك
- * «وَقُلْ عَسَى اَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِاَقْرَبَ مِنْ هٰذَا رَشَدًا» (الكهف ٢٤) اى
اللهم اهدنى

- * «عَسَى رَبِّنَا اَنْ يُّبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا» (القلم ٣٢)
- * «فَعَسَى رَبِّي اَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ» (الكهف ٤٠)
- * «وَادْعُوا رَبِّي عَسَى اَلَّا اَكُونَ بِدَعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا» (مريم ٤٨)

و- التهديد والوعيد: قال تعالى:

- * «قُلْ عَسَى اَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ» (النمل ٧٢)
- * «عَسَى رَبُّهُ اِنْ طَلَّقَكُنْ اَنْ يُّبَدِّلَهُ اَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ» (التحريم ٥)

ز- الإنكار:

* «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا،
(الكهف ٦) أى لاتفعل

* «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا
أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ كِتَابًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ، (هود ١٢).

وقد يخرج نمط التمنى عن معناه الاصل إلى معان أخرى كما يلي:

أ- التندم: قال تعالى:

* «يَا لَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، (الانعام ٢٧)
«يَا لَيْتَنِي لَمْ أَوْتِ كِتَابِيهِ»، (الحاقة ٢٥)

«يَا وَيْلَتَنَا لَيْتَنِي لَمْ اتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا، (الفرقان ٢٨)

ب- التبرم: قال تعالى:

* «يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ، (الزخرف ٣٨)

ج- التلذذ: قال تعالى:

* «يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ،
(يس ٢٦-٢٧)

وكذلك يخرج نمط التعجب إلى معانٍ أخرى غير التعجب المجرد منها:

أ- الذم: قال تعالى:

* «قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ»، (عبس ١٧)

* «قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ»، (البروج ٤)

ب- التهكم: قال تعالى:

* «فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ» (البقرة ١٧٥)

ج- التهويل: قال تعالى:

* «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ» (الحاقة ٢)

* «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ» (الهمزة ٥)

* «وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ» (القارعة ١٠)

* «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ» (القارعة ٢)

الوجه الثاني للمسألة

كل ما سبق شرح لموقف نظام اللغة من أنماط الجمل. وقد رأينا أن نظام اللغة يرصد للمبنى الواحد من مبانى الأنماط عددا من المعانى، وأن هذا الرصد لولم يتم لقصرت أنماط الجمل عن الوفاء بالتعبير عن كل المعانى، ذلك واضح مما قدمنا - ولكن للمسألة وجهاً آخر هو موقف الاستعمال اللغوى من أنماط الجمل، وهو موقف بلاغى لانحوى. هذا الموقف ينظر فى اتجاه مضاد تماما لنظرة نظام اللغة. فالذى يسعى إلى التأثير بالأسلوب فى السامع أو القارئ يهمل أن يقلب العبارات المختلفة على المعنى الواحد فيجعل للمعنى الواحد أنماطا متعددة على عكس ما رأينا من اتجاه نظام اللغة. فالاستعمال اللغوى يرضى بحكم التوسع أن يتم الإثبات بالاستفهام التقريرى وأن يتم الدعاء بالإثبات والنفى والأمر والنهى والتمنى والترجى، وبالمصدر المنصوب (بواجب الحذف) وأن يتم التعبير عن الشرط بنمطى الأمر والنهى، وأن يعبر عن الأمر بالإثبات والاستفهام، وأن يؤدى النهى بالشرط والنفى والأمر

والاستفهام وهلم جرا.... مما يمكن معرفته بالتماس المعنى الواحد تحت الأنماط المتعددة السابقة.

ولكن هناك معنيين كثرت صور التعبير عنهما حتى إنه ليبدو من الأفضل أن نلقى عليهما نظرة تحت هذا الوجه الثانى الذى يتمثل فى تعدد النمط للمعنى الواحد أى تعدد التراكيب للمعنى وليس تعدد المعانى للتركيب. فانك هما الدعاء والتعجب:

أ - الدعاء: الدعاء من الإنشاء الطلبى، ولكن اللغة لم تفرد للدعاء نمطا خاصا يتم الدعاء به، وإنما جعلت الدعاء شركة بين طائفة من الأنماط التركيبية، ووضعت بيد المتكلم أن يختار للتعبير عن الدعاء أى أسلوب يشاء. فمن ذلك:

١ - الإثبات نحو: «فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (البقرة ١٠)

٢ - النفى نحو: «فَلَا أَفْتَحَمَ الْعُقَبَةَ» (البلد ١١) على أحد الفهمين

٣ - الأمر نحو: «وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ» (المؤمنون ١١٨)

٤ - النهى نحو: «رَبِّ لَا تَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» (نوح ٢٦)

٥ - التمنى نحو: «يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ» (القصص ٧٩)

٦ - الترجى نحو: «قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَبِيلَ»

(القصص ٢٢)

٧ - المصدر المنصوب نحو: «عُفِّرْكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» (البقرة ٢٨٥)

ب - التعجب: خصص نظام اللغة للتعجب صيغتين هما، ما أفعله وأفعل به، ولكن كلتا الصيغتين ملبّسة تحتاج فى الغالب إلى قرينة حالية أو مقالية تصرفها إلى التعجب، فالأولى تلتبس بما الاستفهامية متلوة بفعل ماض على

وزن «أفعل» نحو «أسمع» و«أبصر»، ثم مفعول هذا الفعل الماضي، فإذا قلت «ما أسمع زيدا» احتمل ذلك التعجب والاستفهام والنفى. وأما الصيغة الثانية فتلتبس بأمر الفعل اللازم الذي يتعدى بالباء، فإذا قلت «اسمع بزید» لم يعلم إلا بالقرينة ما إذا كان ذلك تعجبا أو أمرا للسامع أن يستعين بزید في الإسماع. ولعل ذلك هو الذي دفع استعمال اللغة إلى تجاوز الصيغتين واتخاذ العديد من الأنماط للدلالة على التعجب، كما نرى فيما يلي:

١ - الاكتفاء بما التعجبية وحذف صيغة «أفعل» كما في قوله تعالى:

- * «وَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، (الواقعة ٨)
- * «وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، (الواقعة ٩)
- * «وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ، (الواقعة ٢٧)
- * «وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ، (الواقعة ٤١)
- * «الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ، (الحاقة ١-٢)
- * «الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ، (القارعة ١-٢)

وقد ورد مثل ذلك أيضا في حديث أم زرع إذ تقول: «زوجى ابو زرع وما ابوزرع».

٢ - استعمال «ما» الاستفهامية مجرورة بالحرف كما في قوله تعالى:

- * «عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، (النبأ ١)
 - * «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا، (النازعات ٤٢)
- ٣ - استعمال «يا» النداء وجعل المتعجب منه هو المنادى نحو:
- * «يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ» (يوسف ١٩)

وشبيه بذلك أن تقول: «ياطيب ما شممت» و «ياحسن ما رأيت» و «ياسعادة من دخل الجنة».

٤ - استعمال «أى» كما في قوله تعالى:

* «لَأَيَّ يَوْمٍ أَجَلْتُمْ، (المرسلات ١٢) أى ليوم عظيم

* «مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» (عبس ١٨) أى من شيء شديد التقاهة

* «فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ، (الانفطار ٨)، أى في أحسن صورة

ويقال في الكلام العادى «إن فلانا فارس أى فارس!» و«فارس أى جواد هذا!» و«على أى الفرسان وقعت!» وتسمع من يقول اشتريت اليوم حصاناً فيقول السامع «وأي حصان».

٥ - استعمال «هل» كما في قوله تعالى:

* «هَلْ نُوبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، (المطففين ٣٦)

* «هَلْ آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً، (الدهر ١)

* «هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ، (الفجر ٥)

* «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ، (الغاشية ١)

٦ - استعمال «كيف» كما في قوله تعالى:

* «فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ، (ال عمران ٢٥)

* «فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ، (الرعد ٣٢)

* «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (محمد ٢٧)

* «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِ، (القمر ١٦)

٧ - استعمال الفاظ من مادة (ع.ج.ب) كما في قوله تعالى:

* «وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ» (الرعد ٥)

* «إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ» (ص ٥)

* «إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ» (هود ٧٢)

* «أَمْ حَسِبْتَ أَنْ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا»
(الكهف ٩)

* «وَاتَّخَذُ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا» (الكهف ٦٣)

* «إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا» (الجن ١)

* «فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ» (ق ٢)

٨ - استعمال صيغ سماعية محفوظة كما في قوله تعالى:

* «فَسَلِّمْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» (الواقعة ٩١)

* «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» (الإسراء ٩٣)

ومن ذلك قولهم لله درك - لله أنت - سقيالك ورعيًا - لافض فوك - المؤمن

لاينجس - وعبارات أخرى مروية.

وإنما دعاني إلى الإشارة إلى ما قد يعتري الصيغتين القياسيتين (ماأفعله

وأفعل به) من اللبس مارأيته من فهم المفسرين لكل ماورد في القرآن من قوله

تعالى: «وما أدراك» على معنى الاستفهام مع أن القرائن الحالية حينًا والمقالية

أحيانًا تشير إلى معنى التعجب في هذه العبارة.

فالنبي عليه الصلاة والسلام يدرى أن الحاقة أو القارعة لايجليها لوقتها

* «فَالِكِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى» (النجم ٢٥)

إلا الله وهو أدرى بالحطمة لأنه شاهدها في المعراج وقص خبرها ولو صح أن
نقف أمام كل تركيب من هذا النوع موقف التردد بين التعجب والاستفهام،
لكان من الممكن أن تفهم معنى التعجب من قوله تعالى: «وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ
يَا مُوسَى» (طه ٨٣) بدعوى أن «ماء تعجبية وأن «أفعل» للتعجب، ولكن قرينة
إرادة الاستفهام هي ما أجاب به موسى على هذا السؤال «قَالَ هُمْ أَوْلَاءَ عَلَى
أَكْرَى وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى» (طه ٨٤) فبين سبب الاستعجال الذي
سئل عنه وبهذا ينبغي الاعتماد على قرينة السياق في تحديد معاني الجمل.

الفصل الثالث

قرينة الرتبة في التركيب القرآني

وهي قرينة نحوية ووسيلة أسلوبية: أي أنها في النحو قرينة على المعنى وفي الأسلوب مؤشر أسلوبى ووسيلة إبداع وتقليب عبارة واستجلاب معنى أدبى. والرتبة النحوية نوعان: محفوظة وغير محفوظة. وقد يقول قائل قد فهمنا أن نسمى المحفوظة منها رتبة، لأنها يتحتم بها أن تأتي إحدى الكلمتين أولاً والأخرى ثانياً ولاعكس. فما بالنأ بكلمات يمكن لإحداها أن تتقدم حيناً وتتأخر حيناً آخر ندعى أن بينها رتبة غير محفوظة والجواب أن الرتبة المحفوظة رتبة في نظام اللغة وفي الاستعمال في الوقت نفسه أما غير المحفوظة، فهي رتبة في النظام فقط وقد يحكم الاستعمال بوجوب عكسها، كما في تقديم المفعول على الفاعل في نحو «حياك الله»، أو بوجوب المحافظة عليها نحو «هذا أخى» وإنما يكون هذا أو ذاك عند خوف اللبس أو اتقاء مخالفة القاعدة أو الأصل. ومعنى أن الرتبة قرينة من قرائن المعنى أن موقع الكلمة من الكلمة قد يدل على وظيفتها النحوية. فالفرق بين «قام زيد» و«زيد قام» فرق في موقع الاسم المرفوع من الفعل وقد ترتب على اختلاف هذا الموقع أن جعل زيد في الجملة الأولى فاعلاً وفي الثانية مبتدأ على حين لم يتغير أى شىء غير الرتبة في العناصر المنطوقة من الجملتين.

والواقع أن كون الرتبة هي القرينة أوضح في الرتبة المحفوظة منه في غير

المحفوظة سواء أكان حفظ الرتبة بحسب الأصل أم لعارض من خوف اللبس أو رعاية القاعدة، كما رأينا في الأمثلة السابقة. ذلك بأنك إذا استدللت على الفرق بين الفاعل والمبتدأ الذي خبره جملة ذات ضمير يعود على المبتدأ وكان الفرق هو تقدم المرفوع أو تأخره، فإن هذا الفارق يصبح دليلاً على المعنى النحوي.

وإذا قلنا «جاء زيد يركب الحصان الذي يزهو به»، فقد علمنا من موقع «الذي» أنها صفة للحصان لا لزيد، وأن صلة الموصول هي «يزهو به» وليس «يركب الحصان» أي أننا بعبارة أخرى عرفنا أن الجملة لا يمكن فهمها على نحو ما نفهم «جاء زيد الذي يركب الحصان يزهو به» لأن الرتبة هنا كانت قرينة على المعنى المراد من حيث إن الصلة لا تتقدم على الموصول أبداً. ومادام نظام اللغة يجعل «لو» في رتبة التقدم على شرطها وجوابها، فإننا إذا سمعنا حواراً مثل:

- ألا تسامح زيدا ولو ندم على خطئه؟

- لا! ولو!

علمنا أن المحذوف هنا يقدر بعد «ولو» ولا يقدر قبلها وأن جوابها إن كان يتصيد مما قبلها، فإن تقديره لا يكون إلا بعدها ولا يعمل فيما قبلها (على حد ما سمعته). هكذا تكون الرتبة دليلاً على المعنى.

عرفنا أن الرتبة إما محفوظة أو غير محفوظة. ومن المحفوظة رتبة بعض الأدوات ذوات الصدارة في الجملة حتى إن ما بعدها لا يعمل فيما قبلها (على حد ما يقوله النحاه)، لأنه لو عمل فيه لانمحت فكرة الصدارة، ولأصبح موقعها في الجملة بعد ما ينبغي أن يكون متأخراً عنها، فإذا قلت «من يعرف هذا؟» فلا يجوز أن تقدم «هذا» وأن تقول مستفهماً «هذا من يعرف» على زعم أن «هذا» مفعول مقدم لأن التركيب عندئذ (بسبب اعتماد معناه على الرتبة) سيفهم منه

معنى اخر لا يمت إلى المعنى الاول بصلة، ومن هنا تحملت هذه الأدوات التي لها الصدارة في الجملة بعض عبء «الربط» وبخاصة في الجمل ذوات الأجوبة. ذلك بأن الأداة إذا علم موقعها من الكلام كانت معلما من معالم الطريق في السياق، وعرف بها أين تبدأ الجملة وعلى أى صورة تقع هذه الجملة؛ هل تتطلب جوابا؟ ومن أى نوع من الأجوبة.

ومن قبيل الرتبة المحفوظة رتبة الأدوات الداخلة على المفردات كحروف الجر والمعية والاستثناء، والعطف وإنما حفظت رتبتهما، لأنها تكشف عن علاقة ما بعدها بالعناصر الأخرى في الجملة التي هي فيها، فرتبة حروف الجر من مدخولها محفوظة، وإن لم تحفظ رتبة مجموع الجار والمجرور ببقية أجزاء الجملة، ففي قولك: «توكلنا على الله»، و«على الله توكلنا» يظل حرف الجر سابقا على لفظ الجلالة سواء تأخر مجموعهما في الجملة أم تقدم. وهنا تحضرني مشكلة أود أن أشير إليها لخطورتها في فهم المعنى، لم أعلم أن واحدا من النحاة يبيح تقدم جملة الحال على عاملها، ولكنهم أجازوا تقدم الحال المفردة على عاملها المتصرف فقط. غير أن شواهد من القرآن تكاد تجزم بتقدم جملة الحال، كما في قوله تعالى: «وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ» (هود ٢٨) وقوله «وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ» (هود ٤٢) فإذا كان معنى الحال الملابس، فإن إحدى طرق التعبير عن الملابس أن يقال: «بيننا يحدث كذا حدث كذا» وهذا التقدير صالح هنا للايتين، إذ (بيننا نوح يصنع الفلك سخر منه قومه كلما مر عليه ملا منهم»، وكذلك (بيننا تجرى السفينة بهم في موج كالجبال نادى نوح ابنه)، أما الواو التي قبل «كلما» والتي قبل «نادى» فموضعهما في الجملتين المقدرتين قبل «بيننا». وقد ورد مثل ذلك في الشعر أيضا إذ يقول الشاعر:

وأطلس عسال وما كان صاحبا دعوت لنارى موهنا فاتانى

أى (دعوته وما كان صاحبا) ومع ذلك إذا أرتضينا قول النحاه البصريين

إن القليل لا يعتد به، فلربما جعلنا هذه الشواهد القليلة من قبيل الترخّص في قرينة الرتبة نظراً لأمن اللبس، وذلك ما سنشرحه في موضعه من هذه الدراسة إن شاء الله.

أما الرتبة غير المحفوظة، فهي رتبة في نظام اللغة لا في استعمالها لأنها في الاستعمال معرضة للقواعد النحوية من حيث عود الضمير، ثم للاختيارات الأسلوبية من حيث التقديم والتأخير. ومن أمثلة الرتبة غير المحفوظة رتبة المفعول من الفعل ورتبته من الفاعل ورتبة المبتدأ والخبر ورتبة الظرف والجار والمجرور مما تعلقا به وأبواب نحوية أخرى. فإذا قضت القاعدة النحوية بحفظ هذه الرتبة اتقاء اللبس أو اتقاء مخالفة القاعدة حفظت هذه الرتبة كما في «ضرب موسى عيسى»، و«أخى صديقي»، وكما في «رايتك»، و«مارأيت إلا إياك»، فإذا لم يقع اللبس كما في «أكلت الكمثرى سلمى»، أو «إن في بيتي صديقي»، أمكن للمتكلم أن يلجأ إلى التقديم والتأخير، وقد يدعو المعنى أو القاعدة إلى وجوب عكس الرتبة، كما في قوله تعالى: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» (الفاتحة ٥) وقوله جل شأنه «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا»، (الانعام ١٥٨) إذ يجب تقدم المفعول به «نفساً» على الفاعل «إيمانها» لأن الفاعل لو تقدم لعاد الضمير الذي فيه على متأخر لفظ ورتبة.. والحق إن الفاعل في هذه الآية وضع في موضع لا يمكن له معه تقديم أو تأخير مع فصل بين المفعول به وصفته، أما عدم إمكان التقديم فلما مرّ من عود الضمير على متأخر، وأما التأخير مع الفصل الذي يأتي الفاعل بحسبه بعد انقضاء صفة المفعول به «نفساً» فإنه سيجعل الفاصل بين الفعل «ينفع» وفاعل «إيمانها» من الطول بحيث تضعف العلاقة الإسنادية والسياقية بين الفعل والفاعل. تأمل ما يؤل إليه التركيب عندئذ إذ يكون على الصورة الآتية:

«يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في

إيمانها خيرا إيمانها، وهكذا يضعف ارتباط الفعل بفاعله، ومن ثم يمكن القول إنه لا يمكن أن يتغير ترتيب الكلام في هذه الآية على رغم ما فيها من الفصل بين الموصوف وصفته — وما أحسنه وما أوجبه ! ثم انظر إلى حسن عكس الرتبة بإيراد المفعول لأجله أولا ثم المفعول به الموصوف بشبه الجملة ثم الفعل وفاعله في قوله تعالى : « أَنْفَكَ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ » (الصافات ٨٦) فالآية كما تعلم استفهام إنكاري ومادام معناها الإنكار فإن ترتيب ألفاظها ينبغي أن يكون بحسب الأولوية في استحقاق الإنكار. وأولي الألفاظ بالإنكار لفظ « إفكا » لأن الكفر قد يكون ميراثا عن الآباء ولكنه قد يكون انحرافا عن الحق متعمدا لا ينفخ معه الدليل على فساده فذلك هو الإفك ثم يلي في الإنكار أن ينصب الإفك على إشراك آلهة مع الله فإذا كانت الآلهة دون الله لا معه فهذا أو غل في الشرك ويضاعف من سوء ذلك كله أن يكون ذلك بإرادتهم واختيارهم، ولو أن سياق الكلام كان علي صورة أخرى مثل : « أتريدون آلهة دون الله إفكا » لا نطقا كل ما في الكلام من حرارة الإنكار ولبدا الكلام وكأنه سؤال لهم عما يفضلونه من أنواع الشرك.

وفي الكلام رتب أخرى غير الرتبة النحوية أستطيع القارئ عذرا أن أشير إليها بعض الإشارة وأكثر ذلك من قبيل الرتبة الزمانية إذ يحكم العقل لأحد الأمرين بالتقدم ثم لا يتوقف المعنى على تقديمه في الكلام وإنما يؤمن اللبس على رغم انعكاس رتبة الأشياء. من ذلك مثلا قوله تعالى : « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ » (الأنبياء ٩٠) فالمعروف من سياق الآيات أن امرأة زكريا كانت عقيما وأن حملها بسلام لا يتم إلا بعد صلاح حالها وإزالة عقمها بإرادة الله فالمعقول أن يتم إصلاحها أو لا ثم يترتب على ذلك أن يأتي الغلام هبة من الله لوالده ولما كان هذا المعنى لا يغيره أو يخفيه عكس ترتيب ذكر الأحداث جاءت الآية وهي تقدم ذكر الهبة لأنها هي المظهر الأوضح للاستجابة. وليس يساوى ذلك في الحسن أن يقال : « فاستجبنا له فأصلحنا له زوجه ووهبنا له يحيى » لأن دعاءه لم ينصب على إصلاح الزوج،

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا » (مريم ٢٢) والمعروف أن «النسي المنسى» هو الشذوذ التافه الذي لا يعتد به وتلك صفة لا يوصف بها الأموات وإنما يوصف بها المغمورون الخاملون من الناس ومالا خطر له من الأشياء والأحياء. فلم يكن مراد مريم حينئذ أن تقول : « يا ليتني مت وكنت شيئا لا يعتد به » وإنما كان مرادها والله أعلم «يا ليتني كنت غير معروفة عند أحد ومت ميتة المغمورين الذين لا يهتم لموتهم إنسان» ومما يتضح فيه عكس الترتيب لآمن اللبس قوله تعالى : « ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَأَنْظَرْنَا مَاذَا يَرْجِعُونَ » (النمل ٢٨) أى انظر بم يجيبون ثم انصرف عنهم وقوله تعالى : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى » (النجم ٨) أى ثم تدلى فدنا، ثم انظر إلى ترتيب ذكر الرسل في قوله تعالى : « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » (النساء ١٦٤، ١٦٣).

تجد ترتيب ذكر الرسل يناسب ترتيب وجودهم في الحياة حتى وصلت الآية إلى الأسباط فجاءت بعدهم مباشرة بعيسى الذي ليس بينه وبين نبينا عليهما الصلاة والسلام وهو خاتم الانبياء إلا فترة من الرسل لم يوجد فيها رسول واحد ثم تلا عيسى في الذكر من هو أقدم منه وجودا على غير ترتيب حتى ختمت الآية بموسى عليه السلام، ولقد جاء تجاهل الترتيب التاريخي نتيجة لشهرته وعدم الحاجة إلى رعايته في الكلام. ولست أزعم لهذا النوع من الترتيب الزماني علاقة بالنحو ولا لتشويشه علاقة بالرتبة غير المحفوظة وإذا كان لي أن أربط بينه وبين قضايا النحوف فإن ذلك يتم عن طريق العطف بالواو إذ لا تعيد الواو ترتيبيا ولا تعقيبا وقد تم العطف في كل ما سبق ذكره من الآيات بواسطة الواو وانصبت الملاحظة في جميع ذلك على أن المتعاطفات قد خالفت

في الذكر ترتيبها في الزمان.

ومن ذلك أيضا تشويش اللف والنشر كما في قوله تعالى « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ » (الروم ٢٣) إذ من الواضح أن الله جعل الليل لباسا وجعل النهار معاشا وقال تعالى : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » (يونس ٦٧) ومثله في النمل ٨٦ وغافر ٦١ والنبا ١٠، ١١. ومن هنا كان ما في الآية من «منام» خاصا بالليل وما فيها من «ابتغاء» خاصا بالنهار وأن ترتيب المعنى إنما يكون على هذه الصورة : « ومن آياته منامكم بالليل وابتغائكم من فضله بالنهار » ولما كان هذا التوزيع لوظيفتي الليل والنهار توزيعا بحسب العادة وكان من الممكن أن تتخلف العادة فينام بعض الناس بالنهار وبيتغوا من فضل الله بالليل لم تحرص الآية على الترتيب المعتاد وجاء اللف والنشر مشوشا دون أن يتأثر وضوح المعنى ويشبه ذلك قوله تعالى في السورة نفسها: « فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَيَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ » (الروم ٤٨) فلما كان « البسط » نوعا واحدا كان من حق الفهم أن ينصرف إلى أن عبارة «كيف يشاء» تشمل بسط السحاب في السماء وجعله مركوما على هيئة الكسف ويترتب على ذلك أن تكون الواو في «ويجعله» بمعنى «أو» وبهذا يكون تقدير الكلام : « فيبسطه في السماء أو يجعله كسفا كيف يشاء » ولكن جعله كسفا لا ينتهي عند هذا الحد وإنما يرتبط به أمر آخر مسبب عنه هو خروج الودق من خلاله فلو فصلت عبارة «كيف يشاء» بين الكسف ورؤية الودق لصح أن تكون رؤية الودق سبباً للبسط والکسف سواء بسواء وليس هذا ما يرمى إليه معنى الآية ولو تأخرت عبارة «كيف يشاء» فجاءت بعد رؤية الودق من خلاله لكان الضمير الذي في الفعل «يشاء» راجعا إلى الودق لا إلى الله تعالى ومن هنا كان تشويش اللف والنشر أمرا لا غنى عنه.

وثمة نوع آخر من عدم حفظ الرتبة لإيفاء مطالب أسلوبية من رعاية فاصلة أو غير ذلك في قوله تعالى : « فَرِيقًا نَقْتُلُونَ وَنَأْسِرُونَ فَرِيقًا » (الاحزاب ٢٦) إذ إن ما يتوقعه السامع للتقسيم والتفضيل عند سماعه « فَرِيقًا نَقْتُلُونَ » هو « وفريقا تأسرون » ولكن رعاية الفاصلة أثرت حفظ الرتبة في النهاية بعد أن لم تحفظها في البداية - ويلاحظ مثل ذلك أيضا حتى مع تباعد المواقع في النص القرآني : إذ نجد في سورة البقرة قوله تعالى : « فَعَلِيلًا مَّا يَوْمُنَّوْنَ » (البقرة ٨٨) ثم نجد في سورة النساء قوله : « فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا » (النساء ٤٦) وكذلك : « وَجَنَّتْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » (النساء ٤١) « وَجَنَّتْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ » (النحل ٨٩). ولا نملك إلا أن نري رعاية الفاصلة سببا في الفرق بين الرتبة هنا والرتبة هناك.

وقد يأتى بعض ذلك كسرا للرتابة في الأسلوب وإتقاء ما يسببه ذلك من الإملال كما في تحوير التركيب بين الجملتين الاسمية والفعلية في قوله « يريد الله » في آيات سورة النساء من قوله تعالى : « يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا » (النساء ٢٦، ٢٨).

وهناك صورة أخرى من صور الترتيب يمكن أن نسميها ترتيب الأشباه ، ويكون ذلك عند توالى النعوت والأحوال والأخبار والمتعاطفات فالمقصود بالأشباه أفراد كل طائفة من هذه الطوائف حين تتوالى في الكلام فتثور قضية ترتيبها والنظر إلى أيها أولي بالتقديم من سواه. ولقد اختار الأسلوب القرآني أن يبني التقديم والتأخير على مبدأ القصر والطول فما كان من أفراد الطائفة قصيرا كان أولي بالتقديم مما هو أطول منه. وحافظ الأسلوب القرآني على هذا المبدأ فجعل الكلمة المفردة أولى بالتقديم من المركب وجعل المركب أولي بذلك من

شبه الجملة وجعل شبه الجملة مقدما على الجملة التامة التكوين لا يصرفه عن ذلك إلا أمن لبس أو تمام معنى فمن شواهد هذا الترتيب في أجل صورته ما في الآيات الآتية:

١ - « وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ... » (غافر ٢٨) جاء بثلاث صفات للرجل رتبها بحسب القصر والطول فجعل الصفة الأولى «مؤمن» أولا لافرادها وأردفها بشبه الجملة فالجملة.

٢ - « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، (المؤمنون ١١٧) وصف الإله بالمفرد ثم بالجملة المنفية بلا النافية للجنس.

٣ - « أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، (البقرة ١٩) وصف الصيب بشبه جملة ثم بجملة وعطف على الظلمات كلمتين يساويانها طولاً.

٤ - « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ، (البقرة ٢٥) رتب صلة الذين فجعل اللازم قبل المتعدى ثم وصف الجنات بجملة هي أقصر من التي تليها.

٥ - « قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانَ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ، (البقرة ٦٨) وصف البقرة بمفرد بعده مفرد معطوف عليه وبعدهما موصوف بشبه جملة.

٦ - « وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ، (البقرة ٨٩) وصف الكتاب بشبه جملة بعده وصف في حيزه

شبه جملة في طيه موصول وصلته الجملة.

٧ - « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرِيَّةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْطَافَهَا ضَعْفَيْنِ » (البقرة ٢٦٥)
جاء بمفعولين لأجلهما أولهما مركب إضافي عطف عليه الثاني وفي حيزه شبه جملة ثم وصف الجنة بشبه جملة بعده جملة تامة.

٨ - « قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ » (البقرة ١٩)
وصف البقرة بالمفرد فبصفة ذات فاعل فجملة تامة.

٩ - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدَوَامًا عَنْتُمْ قَدْ بَدَّتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَحْفَىٰ صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ » (آل عمران ١١٨)
وصف البطانة بشبه جملة بعدها جملة منفية ثم جملة مثبتة أقصر منها هي تفسير لإرادتهم الخيال ومن ثم كان اتصال المفسر بالمفسر أولى من مجرد رعاية الترتيب وأخيرا جاءت جملة مؤكدة بالحرف «قد» وهي أطول من كل ما سبق مجتمعا.

١٠ - « قَالُوا اتَّجَعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسُدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » (البقرة ٣٠) وصل «من» بجملة فعلها لازم وعطف عليه فعلا متعديا وأخبر عن «نحن» بفعلين لازمين تعلق بكل منهما جار ومجرور.

١١ - « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » (البقرة ١٥٥ - ١٥٦) جاء بموصول حرفي «أل» ووصله بصفة «صابرين» ثم وصفه بموصول صلته جملة شرطية.

١٢ - « وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ » (البقرة ٣٦) جعل المبتدأ المؤخر الأول «مستقر» مفردا وجعل

الثاني في حيزه شبه جملة.

١٣ - «يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّخَرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ...» (البقرة ١٠٢) جعل المعطوف عليه مفردا وجعل المعطوف موصولا ذا صلة ممطولة.

١٤ - «وَلَنَبِّئَنَّاكُمْ بَشْيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنُقْصِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ» (البقرة ١٥٥) عطف على المفرد «الخوف» مفردا مثله ثم مفردا آخر في حيزه شبه جملة.

١٥ - «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (البقرة ١٦١) جعل صلة «الذين» جملة فعلها لازم وعطف عليه لازما آخر في حيزه جملة حالية وكذلك جعل لفظ الجلالة مضافا إليه في قوله «لعنة الله» ثم عطف الملائكة وعطف عليهما اسما مؤكدا بلفظ «أجمعين».

١٦ - «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ

وَمَا أُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَى بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ

فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ

وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» (البقرة ١٦٤)

بدأت الآية بظاهرتين كونيتين وانتهت بواحدة وجعلت بين ذلك ظاهرتين

تفيعيتين ورتبت كلا من الطائفتين فالظواهر الكونية هي الخلق والاختلاف والتصريف والظاهرتان النفعيتان هما جرى الفلك وإنزال الماء ويلاحظ أن «ما» في «ما أنزل» مصدرية لا موصولة وذلك لأن المصادر تحف بها من أمامها ويهراثها. وربما كان ورود الظواهر الكونية قبل الظواهر النفعية وبعدها محيطة بها بدءاً وختاماً لأنها أقوى في الإقناع والدلالة على القدرة.

١٧ - «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ» (البقرة ١٧٣) عطف على المفرد مفرداً فمركباً إضافياً فموصولاً وصلته الجملة.

١٨ - «الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ» (آل عمران ١٧) عطف على الموصول الحرفي وصلته الصفة أمثال ذلك وعلق بأخر المعطوفات جارا ومجرورا وهناك ملاحظة أخرى هي أنه جاء بالصفات الثلاث الأولى من الثلاثى المجرد والرابعة من المزيد بالهمزة والخامسة من المزيد بالسين والتاء فجعل التالى هو الأكثر عدد حروف.

١٩ - «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ نُبِّئِ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ كُفْرَهُمْ وَمَنَافِقَتُهُمْ أَهْلٌ لَّيْسَ لَهُمْ جَزَاءٌ إِلَّا أَنْ يَكْفُرُوا أَكْثَرَ الَّذِي كَفَرُوا» (آل عمران ٥٥) عطف على المركب الإضافي «متوفيك» مركباً مثله في حيزه شبه جملة هو حرف جر وضمير ثم عطف عليهما مثلهما وفي حيزه شبه جملة هو حرف جر وموصول وصلته جملة ثم عطف على ذلك مثله أطول منه ثم عطف آخر الأمر جملة هي «إلى مرجعكم» لها ما يترتب عليها وهو الحكم بينهم وذلك أطول من كل ما سبق.

٢٠ - «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ» (آل عمران ٩٦) جاء بالحال المفردة «مباركاً» وعطف عليها أطول منها.

٢١- « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا

وَكَنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (آل عمران ١٠٣)

عطف « ولا تفرقوا » على الأمر بالاعتصام من قبيل تأكيد الأمر بالنهي عن ضده فكان ذلك كأنه جملة واحدة. وكذلك كان عطف جملتين بواسطة الفاء على «كنتم أعداء» لأن الفاء رتبت كل جملة من الثلاث على سابقتها فأصبحن جميعا جملة واحدة. ويقال ما يشبه ذلك في العلاقة بين «كنتم على شفا حفرة» وما عطف عليها من قوله «فأنقذكم منها» لأن الجملة الثانية جاءت في موقع الطباق مع الأولى والعدول عن نتيجتها المنطقية فإذا ترابطت جمل الآية في ثلاث مجموعات ظهرت مطابقة ترتيبها للمبدأ المذكور آنفا.

٢٢- « هَآئِنْتُمْ أَوْلَاءُ تَحِبُّونَهُمْ وَلَا يَحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا

لَقَوَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » (آل عمران

١١٩) لدينا أولا جملة مثبتة فاعلها الراو ومفعولها الضمير عطفت عليها

جملة منفية في مثل طولها ثم مثبتة أطول منهما ثم شرطيتان ثانيتهما أطول

من أولهما فكانت كل جملة أطول من سابقتها.

٢٣- « وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا

بَيْنَ النَّاسِ » (البقرة ٢٢٤) لدينا مصادر مؤولة منزوعة الخافض أولها « أن

تبروا » وجاء المعطوف على ذلك فعلا مساويا في الطول «وتتقوا» ثم جاء فعل

آخر في حيزه شبه جملة.

٢٤- « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ »

(البقرة ١٨٦) جاء خبر إن الأول مفرداً ثم تلاه خبر آخر وقع منه موقع اللازم من الملزوم أى «من القرب بحيث أجيب» والخبر الثانى أطول من الأول. وثمة حالات أخرى لا يحسن فيها إيراد الأقصر أو لا لأسباب مختلفة سنذكرها مع كل شاهد مما يلي :

٢٥- « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَا كُنَّ فِيهِ أَبَدًا وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، (الكهف ١-٤) جاءت الآية بحالين من الكتاب أولاهما «ولم يجعل له عوجاً» والثانية «قيماً» وجاءت الثانية أقصر من الأولى ولكنها متأخرة عنها لتتصل بما يفسر معنى «قيماً» من إنذار البأس وتبشير المؤمنين بالأجر الحسن وإنذار من ادعوا لله تعالى ولداً، فالكتاب قيم بمعنى أن له هذه الوظائف ، ولو تقدمت الحال الثانية على الأولى لبدا أن الكتاب قد أنيطت به هذه المهام لأنه لا عوج فيه وعندئذ لا يبدو أن هناك علاقة بين السبب والمسبب لأن مجرد كونه غير ذي عوج لا يؤهله لهذه الوظائف فلا بد أن تكون له القوامة ليقوم بها أو تقوم به فالسبب سبب للقوامة لا للاستقامة.

٢٦- « وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُدْثُوبَ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا، (الفرقان ٥٨-٥٩)

وصفت الآية الأولى الذات العلية بصفتين أولاهما مفردة «الحي» والثانية موصول وصلته «الذى لا يموت» وعادت الآية الثانية لتصفه تعالى بموصول صلته أطول مما سبق لاشتمالها على معطوفين على المفعول المفرد أولهما مفرد والثانى موصول وصلته شبه جملة ثم جاءت الصفة الأخيرة مفردة فكانت

أقصر مما سبقها لأن كلمة «الرحمن» هي الوحيدة بين الصفات المذكورة في الآيتين مما يقع تحت الخبرة المباشرة فكلنا يتمتع برحمة الرحمن ويعرفها فلما كانت خاتمة الآية « فاسأل به خبيراً » ناسب أن تكون الصفة التي تخضع للخبرة أقرب الصفات إلى الخاتمة.

٢٧- « قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تُسْقَى الْحَرْثَ مُسَلِّمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا » (البقرة ٧١)

هذه صفات ثلاث أقصرها أوسطها. وسبب ذلك أن الصفة الأولى «ذلول» وجدت تفسيراً لها في «تثير الأرض» فدخلت جملة «تثير الأرض» في حيز النفي وكان المعنى: «لاذلول فتثير الأرض» ودخولها في حيز النفي هو الذي يبرر أن يعطف عليها «ولا تسقى الحرث» فكأنه يقول: «لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث» ثم جاءت الصفة الثالثة، «مسلمة» ومعها شرحها متصلاً بها فكأنه يقول «مسلمة أى لا شية فيها» فارتباط إحدى الصفات بمفسرها والأخرى بشرحها جعل من الضروري أن يتصل كل منهما بما يلزمه وجاءت الصفة الوسطى قصيرة في موقعها لمشاركتها إثارة الأرض في وصف البقرة بأنها ذلول فناسب أن يتلو السقى إثارة الأرض مباشرة.

٢٨ - « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا » (البقرة ١٢٥) جاء المفعول الثاني أقصر من الأول لأنه يتطلب أن يقدم معه جار ومجرور كالذي مع الأول فيكون مساوياً له في الطول والتقدير «مثابة للناس وأمناً للناس» ويلاحظ مثل ذلك في قوله تعالى «هذا مغتسل بارد وشراب» (ص ٤٢) أى «وشراب بارد» وقوله «إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل» (غافر ٧١) أى «والسلاسل في أعناقهم».

٢٩ - « رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ » (البقرة ١٢٩)

وصف الرسول بشبه جملة «منهم» بعده جملة فعلية ذات فاعل مستتر وشبه جملة ومفعول به مضاف بعدد ما جناية أخرى معطوفة عليها ذات فاعل مستتر ومفعول به ومعطوف على هذا المفعول وأخيراً تأتي صفة قوامها فعل وضمير مستتر وضمير غيبية، وهي أقصر من سابقتيها وأرى أن السبب في ذلك أن التزكية تتم بالتعليم لا بمجرد التلاوة ولذلك جاءت بعد تعليم الكتاب والحكمة (أى السنة).

٣٠- قُلْ أَوْ تُبَكِّمُ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ

لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ

جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَأَزْوَاجٍ مُطَهَّرَةٍ

وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ، (ال عمران ١٥)

أعطى الله المتقين ثلاث عطايا أطولها الأولى وأقصرها الوسطى وقد جاءت بعد الجنات مباشرة لأنها لا تتحقق إلا فيها أما الثالثة فهي أهم منها وأعم لأنها تشمل كل خير فجاءت أخيراً لتكون وعداً بعطايا لم تذكر في الآية.

٣١- وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ،

(يوسف ١٠٩) لما كان وصف الرجال بنزول الوحي أهم من كونهم من أهل القرى تقدم الوصف الأهم ليكون الصق بالرجال وأدل عليهم.

الفصل الرابع

قرينة الربط في التركيب القرآني

ذكرنا من قبل أن للجملة العربية نمطا وأن نمط الجملة الاسمية يتكون من مبتدأ وخبر ونمط الجملة الفعلية من فعل ومرفوعه ونود أن نضيف هنا أن شرط الجملة العربية أن تكون مفيدة لان السعى إلى الإفادة هو سبب الاتصال اللغوي وحصول الفائدة نتيجه. من هنا كان من الضروري لنمط الجملة أن يشتمل على قرائن تؤدي إلى الحفاظ على المعنى. ولو أن الجملة العربية قنعت بالاشتغال على ركنيها دون غيرهما من الفضلات لهان الأمر وكان يكفي أن نعلم أن الكلام يدور حول المبتدأ بواسطة الخبر أو حول المرفوع بعد الفعل بالفعل الذي بنى له. ولكن الجملة قد تطول أحيانا وقد يعطف عليها مثلها أو أمثالها فيكون بين أول الكلام وآخره شقة بعيدة لا تعي الذاكرة معها ما الذي ينتمى إلى هذا وما الذي ينتمى إلى ذلك وهكذا تتفكك أو اصر الكلام ويدخل المعنى في غيابات الغموض أو في متاهات اللبس وكلا الغموض واللبس آفة من آفات الاتصال والتفاهم. هب أنك قرأت رتلا من الألفاظ مثل: «فحمد في الناس خطيباً عليه وأثنى قال الله زيد ثم قام، فأول ما يخطر ببالك أن هذا القول لا معنى له. فاذا وضعت هذه المفردات نفسها مرتبة ترتيباً آخر معينا اتضح انها تدل على معنى وذلك إذا قلت: «قام زيد في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال، فما سبب تحقق الافادة في المثال الثاني وانعدامها في المثال الأول؟

السبب مع النظر إلى المثال الأول كما يلي:

١ - تشويش رتبة «زيد» و«قام» والفصل بينهما بحرف العطف «ثم» في المثال الأول وتصحيح ذلك في الثاني.

٢ - تقدم الجار والمجرور «في الناس» عن متعلقه «قام» وملاحقته للفعل «حمد» حتى لقد يظن القارئ أن الجار والمجرور متعلق بالفعل «حمد» وذلك لا معنى له لأن الضمير المستتر في «حمد» ليس له مرجع فهو غير واضح الدلالة.

٣ - أن لفظ «خطيباً» يبدو كما لو كان مفعولاً به للفعل «حمد» وهذا غير معناه في الجملة المفيدة التي في المثال الثاني.

٤ - أن الجار والمجرور «عليه» بدا كما لو كان متعلقاً بلفظ «خطيباً» وهو غير مراد.

٥ - أن الفعل «أثنى» وإن رآه القارئ معطوفاً على «حمد» ما يزال يتحمل ضميراً مستتراً غامض المرجع.

٦ - أن «قال» ربما ظن بدلاً من «أثنى» وهو غير ذلك.

٧ - يبدو لفظ الجلالة كما لو كان فاعل «قال» مع أن القائل هو زيد.

٨ - لا وجه لرفع زيد بعد لفظ الجلالة في المثال الأول.

٩ - جاءت «ثم» لتعطف قام ولكن لا يدرى ما المعطوف عليه.

١٠ - ما تزال قام تحمل ضميراً بلا مرجع شأنها شأن بقية أفعال المثال.

فإذا نظرنا إلى المثال الثاني وجدنا المفردات قد رتبت بحسب الأصول المرعية في تركيب النمط وجدنا هذه المفردات مترابطة واضحة الانتماء بحيث

نعلم الفاعل لاى فعل هو والجار والمجرور لاى متعلق والضمير لاى مرجع وهكذا، مما يعبر عنه بعبارة «العلاقات السياقية». هذه العلاقات معروفة محصورة العدد لأنها ذات أسماء تدل عليها كالإسناد والتعديّة والغائيّة والمصاحبة والاخراج والتفسير والتبعية والملابسة الخ، وهى التى إما أن تتحقق فى السياق وإما أن يقع السياق فى الفوضى التى رأيناها فى المثال الاول.

من هذه العلاقات علاقة الربط ووظيفتها إنعاش الذاكرة لاستعادة مذكور سابق بواسطة إحدى الوسائل اللفظية التى تعين على الوصول إلى هذه الغاية. والأصل فى الربط أن يكون بإعادة اللفظ لأنها أدمى للتذكير وأقوى ضمانا للوصول اليه. ويحدث فى الكثير من الربط فى القرآن الكريم أن يكون باعادة اللفظ كما فى الشواهد التالية:

١ - «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ، (التوبة ٦٧، ٦٨) لاحظ تكرار «المنافقين والمنافقات»، بعد طول الشقة بدلا من أن يقول «وعدمهم».

٢ - «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ، (التوبة ٧١، ٧٢) لاحظ أيضا تكرار «المؤمنين والمؤمنات»، بعد طول الشقة بدلا من وعدمهم ثم تكرار لفظ الجلالة لتأكيد الربط.

٣ - «وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ، (النحل ١١٦)

ذكر الكذب ثلاث مرات بدلا من «لتفتروه» و«يفتروونه».

٤ - «إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتَيْكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى» (طه)
١٠) تكرر ذكر النار بدلا من «عليها».

٥ - «قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفَ لَكُمْ
وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (الانبياء ٦٦، ٦٧) تكرر ذكر لفظ
الجلالة بدلا من أن يقول «من دونه».

٦ - «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا
لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى
يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا» (الفرقان ٢١، ٢٢) تكرر ذكر
الملائكة بدلا من «يوم يرونهم».

٧ - «أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ
الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (العنكبوت ١٩، ٢٠) أعيد ذكر لفظ
الجلالة بدلا من «ثم هو».

٨ - «قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفَ لَكُمْ
وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (الانبياء ٦٦، ٦٧) أعيد قوله:
«تعبدون من دون الله».

٩ - «فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ» (الزمر ٥١) أعيد ذكر «سيئات ما
كسبوا»

١٠ - «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَافِيةِ لَعَلَّكُمْ

تَغْلِبُونَ فَلْتُذَيِّقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَتَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» (فصلت ٢٦، ٢٧) أعيد لفظ «الذين كفروا»

وقد تكون إعادة الذكر لسبب فرعى يضاف إلى الربط كإرادة تأكيد الربط كما في قوله تعالى:

١١ - «وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَاهُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (آل عمران ٧٨) لاحظ تكرار الكتاب ولفظ الجلالة مع تقارب المسافة وإمكان استعمال الضمير.

١٢ - «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» (يونس ٤٩) أعيد لفظ الأجل لتأكيد الربط.

١٣ - «وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ» (الإسراء ١٠٥) أعيد ذكر الحق.

١٤ - «وَقَالَ الَّذِينَ أَوْثُوا النُّعْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكُمْ كُنُفٌ لَاتَعْلَمُونَ» (الروم ٥٦) لاحظ تكرار «يوم البعث»

١٥ - «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمُرِيضِ حَرَجٌ» (الفتح ١٧) أعيد ذكر الحرج وكان يمكن حذفه أو الاضمار له.

وقد يكون ذلك لامن اللبس كما في قوله تعالى:

١٦ - «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (المائدة ٣٨) فلو أن ضميراً وضع موضع ثانى لفظى الجلالة لبدأ أن الجملة حالية ولكن المعنى أن كسبهما النكال ارتبط بحال عزة الله وحكمته تعالى الله عن تغير الأحوال.

١٧ - «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ» (الأنفال ٢٦) فلو قيل وهم إلى جهنم يحشرون لكان كونهم مغلوبين ملابسا لحشرهم إلى جهنم على معنى الحال.

١٨ - «وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا» (المجادلة ١) فلو قيل وهو يسمع تحاوركما لكأنت حالا ولكن معنى الاستئناف في الآية أوضح وأنسب لتنزيه الله تعالى عن التلبس باللحظة.

وقد تكون إعادة الذكر لاختلاف مدلول المذكور الأول عن الثاني كما في قوله تعالى:

١٩ - «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (آل عمران ٢٦) فالملك الأول معطى والثاني منزوع والثالث ملكوت الله وكذلك تختلف دلالة «من تشاء» بين ملك متسلط وملك مخلوع وبين عزيز وذليل.

٢٠ - «فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ» (التوبة ٦٩)

الخلاقان الأول والثالث غير الخلاق الثاني.

وقد يغنى عن إعادة اللفظ إعادة المعنى، وذلك واضح في باب المبتدأ والخبر، كما في قوله تعالى: «دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (يونس ١٠) وكذلك قوله: «خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ» (إبراهيم ٢٣) وقوله:

«تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ» (الاحزاب ٤٤)، وإنما صلح ذلك لربط الخبر بالمتبداً لأن الخبر هو عين المبتداً في المعنى فلما كان السلام هو التحية وكانت التحية هي السلام عد ذلك قريبا في أهميته من إعادة الذكر فصلح لربط الخبر بالمبتداً.

وثمة نوع من إعادة الذكر لانعاش الذاكرة أيضا وهو ما يعرف بالتكرار أو إعادة ذكر صدر الكلام بعد أن حال بينه وبين ما يتعلق به فاصل طويل من الكلام جعله مظنة النسيان أو ضعف العلاقة بما يتبعه من خبر أو فاعل أو جواب، فإذا أعيد صدر الكلام إلى الذاكرة اتضحت العلاقة بما يليه وينتمى إليه. ومن شواهد هذا التكرار بنية الربط قوله تعالى:

١ - «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» (البقرة ٨٩) حين طال الفاصل بين «لما جاءهم» وجوابها تكررت لتقوية الارتباط بالجواب.

٢ - «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ» (البقرة ٢٥٣) تكررت عبارة «ولو شاء الله» لسببين:

أ - لتوقى توالى استدراكين بـ «لكن» لا يدرى ارتباط ثانيهما بعناصر الجملة

ب - لإرادة التذكير بصدر الآية بعد أن بعد به العهد في الكلام.

٣ - «وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ» (الاعراف ١٤٨) لو عطف قوله: «وكانوا» ظالمين على «اتخذ» التي في صدر الآية ما أدرك

السامع ولا القارئ العلاقة بين المتعاطفين، وبخاصة بعد الجملة المعترضة
«ألم يروا».

٤ - «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَبَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ
اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» (يونس ٥٩) لاحظ تكرار «قل» ضمنا
لإفهام أن ما بعد «الأمر» الثاني مطلوب قوله وبخاصة لعدم اشتغال هذا الجزء
من الآية على ضمير يعود على ما قبل الفعل ليربط الجزئين كأن يقال مثلا: «اللله
أذن لكم به» وهكذا أغنى التكرار عن الضمير الرابط.

٥ - «ثُمَّ إِنْ رَبِّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنَّا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنْ
رَبِّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» (النحل ١١٠) لاحظ تكرار «إن ربك» وكذلك
إعادة عبارة «من بعدما فتنوا» على صورة «من بعدها» وقد جاء التكرار لطول
الفصل بين إن وخبرها المقترن باللام. ومثله في السورة نفسها قوله تعالى:

٦ - «ثُمَّ إِنْ رَبِّكَ لِلَّذِينَ عَمَلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَأَصْلَحُوا إِنْ رَبِّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» (النحل ١١٩)

٧ - «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا
بِالْعُدْوِ وَالْأَصْوَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ
الصَّلَاةِ» (النور ٣٦، ٣٧) تكرر حرف الجر «في» ومجروره ثلاث مرات هي:
في بيوت - يذكر فيها - يسبح له فيها. وتظهر ضرورة التكرار عند تصور عدمه
لان الرابطة تضعف عندئذ بين عناصر الكلام.

٨ - «وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَتُزَلُّ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ
الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ» (الفرقان ٢٥، ٢٦) تكرر لفظ اليوم مضافا إلى «إذ»
فاصلا بين مبتدأ الجملة الأخيرة وخبرها ولولا تكراره ماوضح الربط بين
عناصر الكلام.

٩ - «قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبِّ ائْسَى ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ» (القصص ١٥ - ١٧) لاحظ تكرار الفعل «قال» لسببين:

١ - اختلاف مناجاته لنفسه وخطابه لربه جعل «قال» الثانية ضرورية لأن الانتقال من هذا إلى ذلك لا يصلح لأن يفسر بالالتفات ولا بغيره وإذ لم يكن بد من نداء ربه قبل خطابه فلو لم تأت «قال» الثانية لجعل ما قبلها من كلام كأنه خطاب لله وليس نجوى للنفس.

ب - ثم فصلت جملتان معترضتان بين ندائه لربه أولا وندائه له ثانيا وهما «فغفرله إنه هو الغفور الرحيم فأصبح تكرار قال الثالثة أمرا ضروريا لاستقامة الكلام.

١٠ - «فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُوفَ وَأَنْتُمْ حِينُودٌ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (الواقعة ٨٢ - ٨٧) تكررت «لولا» المفيدة للتحضيض لطول الشقة بينها وبين مدخولها لأن أصل التركيب «لولا ترجعونها» ثم فصلت بين لولا ومدخولها جملتان شرطيتان محذوفتا الأجوبة لدلالة مدخول لولا على جوابيهما الأولى هي التي تبدأ بـ «إذا» والثانية هي التي تبدأ بـ «إن» ولما كانت «إن» أقرب إلى مدخول «لولا» الأولى وهو «ترجعونها» من «لولا» نفسها لزم تكرار «لولا» لئلا يظن أن «ترجعونها» جواب «إن» الذي يحسن رفعه بعد الماضي «وبعد ماض رفعك الجزاء حسن» فلو قام هذا الظن لظلت «لولا» الأولى بلا مدخول وفسد الكلام.

١١ - «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ

المُصَوَّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، (الحشر ٢٢ - ٢٤) تكرر الضمير «هو» خمس مرات. ثلاث
 منها متبوعة بلفظ الجلالة واثنان من هذه الثلاث يأتي فيهما التهليل بعد لفظ
 الجلالة بعبارة «لا إله إلا هو». ولولا التكرار المذكور لتوالت الأسماء الثلاثة
 عشر دون فاصل بينها مع ما في ذلك من إملال هو أبعد ما يكون عن أسلوب
 القرآن الذي لا يخلق ولا يمل. بل إن هذا التكرار لم يكن كافياً فأضافت إليه
 الآيات تهليلاً وتسييحاً وثناءً بنسبة الأسماء الحسنى إلى ذاته سبحانه.

وقد يكون التكرار لأمن اللبس كما رأينا في رقم ١٠ وكالذي نراه في قوله
 تعالى:

١٢ - «قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ
 أَكْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ، (النمل ٢٩ - ٣٢) فلو
 لم يتكرر الفعل «قالت»، لظن أن عبارة «أفنونى فى امرى» من كتاب سليمان
 وأن كلامها هو الذي يأتي على سبيل الاستثناء، بعد ذلك بقولها: «ماكنت
 قاطعة أمراً...»

وقد يكون التكرار مع غير طول الفاصل لإرادة التوكيد كما فى قوله تعالى:

١٣ - «أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا،
 (النساء ١٥١)

١٤ - «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ،
 (الحجر ٢٤)

١٥ - «إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ،
 (يوسف ٤)

* «وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ، (الإسراء ١٠٥)

١٦- «وَأِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ مُبْلِسِينَ» (الروم ٤٩)
وقد يكون التكرار لإرادة التوكيد واقعا بإشارة أو ظرف نحو:

١٧- «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا» (يونس ٥٨)

١٨- «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ» (الجاثية ٢٧)

١٩- «يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» (ق ٤٢)

٢٠- «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا» (طه ١٠٢)

٢١- «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ» (الفرقان ٢٢)

٢٢- «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ» (الروم ١٤)

٢٣- «وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْقُصْلِ وَيَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» (المرسلات

١٥، ١٤)

٢٤- «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» (الانفطار ١٩)

كان ذلك شأن الربط بإعادة الذكر في صورها المختلفة. ولكن الربط بإعادة الذكر يتعذر أحيانا ويقبح أحيانا أخرى فلا يكون ثمة مفر من اللجوء إلى طرق أخرى من طرق الربط. ومن الشواهد على تعذر الربط بإعادة الذكر قوله تعالى: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» (الأحزاب ٣٥) تصور أن النص وضع في مكان الضمير في «لهم» كل الطوائف المذكورة في الآية فهل ترى ذلك مستساغا؟ إن الربط بإعادة الذكر يصل في مثل هذه الآية إلى درجة التعذر. أما شواهد يقبح الربط بإعادة الذكر فمنها: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتِ

أَجُورَهُنَّ» (الأحزاب ٥٠) أضف لفظ «أجور» إلى مرجع الضمير وهو «أزواجك» وسوف ترى أن جملة الصلة لم تشتمل على ضمير رابط واشتملت في مكانه على اسم ظاهر لا يغنى في ربط الصلة بالموصول وفي ذلك قبح لإعادة الذكر.

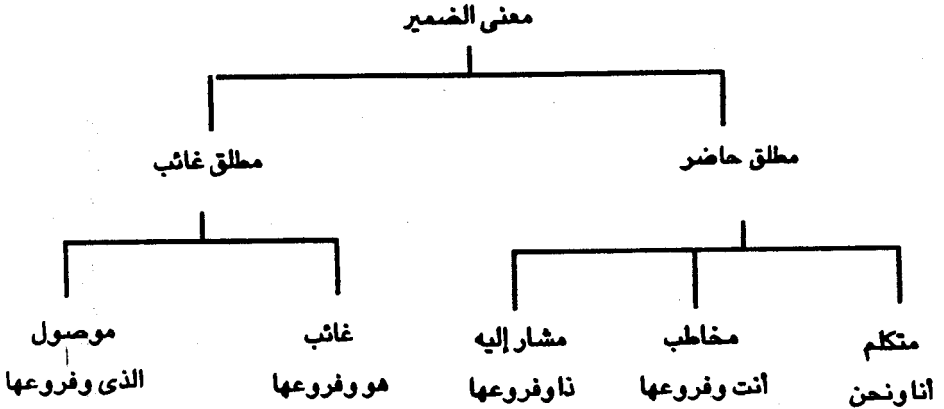
ومن أهم ما يغنى عن إعادة الذكر الضمائر بأنواعها الثلاثة:

- ضمائر الأشخاص

- الضمائر الموصولة

- ضمائر الإشارة

وهذه الأنواع الثلاثة تشترك في طابع واحد هو الدلالة إما على مطلق غائب أو مطلق حاضر وهذا الإطلاق في المعنى هو الذي جعل المعنى عاما من قبيل ما وصفه النحاه بقولهم: «حقه أن يؤدي بالحرف» ومن ثم كانت إفادة الضمائر لهذا المعنى العام شيئا معنويا فكان في رأى النحاة علة في بناء الضمائر. وفيما يلي تخطيط لصلة هذه الأنواع بالغيبة المطلقة والحضور المطلق:



والضمائر بصورة عامة راسخة القدم في حقل الافتقار والرتبة. وسنرى فيما يلي إن شاء الله بيانا للربط بكل واحد من هذه الأنواع الثلاثة:

الربط بضمائر الأشخاص: يكنى بالضمير عن الظاهر ومن ثم كان الربط بالضمير بديلاً لإعادة الذكر أيسر في الاستعمال وأدعى إلى الخفة والاختصار، بل إن الضمير إذا اتصل فلربما أضاف إلى الخفة والاختصار عنصراً ثالثاً هو الاقتصار، وهذه العناصر الثلاثة هي من مطالب الاستعمال اللغوى. والمعروف أن ضمائر المتكلم تفتقر إلى متكلم وضمائر الخطاب تفتقر إلى مخاطب فيكون المتكلم بمثابة المرجع لضميره ويكون المخاطب كذلك أما ضمير الغيبة فيفتقر في العادة إلى مذكور يعد مرجعاً له فلا يتضح معنى الضمير إلا بواسطة ذلك المرجع. وشرط الإضمار أن يكون بين الضمير ومرجعه مطابقة في اللفظ والقصد بحيث لو عدنا بالإضمار إلى الإظهار لحصلنا على اللفظ نفسه وعلى المدلول نفسه. أى أننا إذا كان لدينا جملة مثل: «ذهب زيد إلى بيته» فسأل سائل: «بيت من؟» كان الجواب: «بيت زيد المذكور» فحل «زيد المذكور» محل الضمير دالاً على ما دل عليه الضمير. وإذا قرأنا آية مثل قوله تعالى: «وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ» (ص ٢٤) فهمنا أن الفتنة وقعت على داود وأن الضمير حل محل داود لقبح الإظهار ولما فيه من إطالة لامبرر لها. ولنا أن نقارن الجمل الثلاث الآتية:

١ - نفس عصام سودت عصاما.

٢ - سودت نفس عصام عصاما.

٣ - إن عصاما سود عصاما.

سنرى أن الكلام في الجملتين الأولى والثانية يدور حول «النفس» وأن عصاما حل في موقع المضاف إليه فمحصول الكلام في النهاية: «سودت النفس عصاما» بالنسبة للجملتين المذكورتين ومن هنا لا يتسرب القبح إلى إعادة ذكر عصام لأنه جاء أول الأمر لمطلب تركيبى صرف هو الحاجة إلى الإضافة، أما في الجملة الثالثة فإن «عصاما» هو مدار الكلام فتكراره يوحي بأن المفعول به

شخص اخر يسمى «عصاما» أيضا. وهكذا يقبح الإظهار وإعادة الذكر هنا لأن الاستعمال عودنا على أحد خيارين.

أ- إما أن يكون المفعول به هو الفاعل فندل عليه بالضمير المضاف إلى النفس: «نفسه».

ب- وإما أن يكون المفعول غير الفاعل فيأتي على صورة الاسم الظاهر. والاختيار الأول هو الذي جعلنا ننسب الجملة الثالثة إلى القبح وكذلك إعادة لفظ داود في الآية.

ولعلنا حين ننظر إلى «نفس عصام» في الجملتين الأوليين نجدها ظلا للضمير المضاف إلى النفس «نفسه» وجاء الإظهار لأن الضمير في هذا الموضع سيعود على متأخر لفظا ورتبة فوجب إظهار عصام في الإضافة، ولو تأخر لحسن الإضمار وكانت الجملة على صورة «سودت عصاما نفسه». هذا هو الشرط الضروري لتحقيق الإضمار ولدلالة الضمير على الربط.

دعنا الان نختبر احتمال عدم المطابقة في القصد ثم عدم المطابقة في اللفظ ثم ننظر فيما يترتب على كل منهما في مجال الربط. لقد أوردنا عند الكلام عن الربط بإعادة الذكر شاهدا على أن الإعادة قد تكون لأمن اللبس وقلنا إن هذا الشاهد هو قوله تعالى: «قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن نَّشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مَمَّنْ نَّشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن نَّشَاءُ وَتُذَلُّ مَن نَّشَاءُ بِبِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (ال عمران ٢٦) إن تكرار لفظ الملك قد حقق المطابقة في اللفظ فقط أما القصد فقد اختلف لأن الملك الأول سلطة معطاة والملك الثاني سلطة غيرها مسلوبة والملك الثالث هو ملكوت الله تعالى فلا يطابق أحدها الآخر في القصد وإن تطابقت اللفاظ. ومثله: «وَأَنْتُمْ أَيُّهَا النَّبِيُّ لَأَتَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْنَاءُ» (البقرة ٤٨) لأن النفس الأولى غير الثانية، ومن ثم يمتنع الإضمار وإلا فانظر إلى اختلاف المعنى، فيما إذا وضعت ضمير الغائب في محل لفظ الملك أو النفس

لأنك حينئذ ستفهم أن ملكا واحدا كان نهبا بين سعيد ممنوح وشقى محروم، وأنه عاد في النهاية إلى رب قادر، وهذا غير المعنى المراد وأن النفس لا تجزى عن نفسها وهو غير مقصود أيضا والله أعلم.

وقد يتحد القصد ولكن يُوجَد معنى إضافي يستحق أن يتضح كإرادة وصف المرجع مثلا فعندئذ لا يمكن أن تتحقق هذه الزيادة في المعنى دون وسيلة أخرى قد تكون إشارة إلى المرجع أو موصولا يعود عليه أو وصفا متصلا بال الموصولة أو اسما واصفا للمرجع وسنرى شواهد على استعمال كل واحدة من هذه الوسائل وسنرى أيضا أن دليل الربط بكل واحدة منها هو صحة حلول الضمير الرابط محلها دون أن يتغير المعنى. وفيما يلي بيان ذلك:

يكثر الربط بالإشارة في القرآن الكريم، وينبغي أن نشير إلى أنه على الرغم من دلالة الإشارة على الحضور وإشارتها إلى مذكور سابق نرى أنه يطرد إمكان استبدال ضمير الغائب بها في كل موقع تربط فيه بين عناصر الجملة. وإليك الشواهد الآتية:

١ - «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا» (النساء ١٥٠ - ١٥١) جاء الربط بالإشارة وبعدها ضمير الفصل ولولا ضمير الفصل لصح أن تضع ضمير الغيبة موضع الإشارة.

٢ - «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» (المائدة ٨٦) يصلح الضمير «هم» أن يحل محل الإشارة دون أن يتغير المعنى.

٣ - «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ النَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ» (الاعراف ٢٦) مرة أخرى يصلح الضمير «هو» أن يحل محل الإشارة.

«وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ

أَنْ يُوَصَّلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ،
(الرعد ٢٥) أى هم الذين لهم اللعنة.

٤ - «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ
وَجِلَّةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا
سَابِقُونَ» (المؤمنون ٥٨ - ٦١)

٥ - «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ،
(النور ٦٢)

٦ - «الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ
سَبِيلًا» (الفرقان ٣٤)

٧ - «وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ» (غافر ٤٠)

٨ - «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ» (غافر ٦٤)

٩ - «إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ
اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفُوسِ» (الحجرات ٣)

١٠ - «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (التغابن ١٠)

١١ - «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ،
(البينة ٧)

وقد يكون الربط بالوصول عند إرادة وصف المرجع بصفة تدل على مدحه أو ذمه
ودليل صحة الربط بالوصول أيضا أن يصح لضمير الغيبة أن يعاقبه في موقعه وهذه
المعاقبة هي التي دعت البلاغين إلى تسمية هذه الظاهرة: «الإظهار في موطن الإضمار»

ولكن المسألة كما يتضح ليست مسألة إظهار ولا اسم ظاهر وإنما هي اختيار ضمير موصول ليحل في موقع ضمير شخصى بسبب مطابقة القصد واختلاف اللفظ، وكلا الضميرين في النهاية عوض عن إعادة الذكر التى ذكرنا أنها الاصل فى الربط وفيما يلي شواهد على الربط بضمير الموصول :

«وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ» (الأنعام ٧) أى لقالوا:

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (الأنعام ٢٥) أى يقولون :

ولكن العدول عن الضمير المتصل إلى ضمير الموصول كان لارادة ذمهم بالكفر.

٢ - «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شِرْكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ» (الأنعام ٢٢) أى نقول لهم .

٣ - «وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَا حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ» (الأنعام ١٢٤) أى سيصيبهم .

٤ - «وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» (التوبة ٩٠) أى «وقعدوا، فحل الموصول محل واو الجماعة.

٥ - «وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِفِرَّانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ» (يونس ١٥) أى «قالوا».

٦ - «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ

بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ، (يونس ٤٥) أى
قد خسروا .

٧ - « إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ
مُسْتَكْبِرُونَ لَا جِرْمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْتَكْبِرِينَ » (النحل ٢٢، ٢٣) أى يعلم إنكارهم واستكبارهم فلا يحبهم .

٨ - « إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ
عَمَلًا ، (الكهف ٣٠) أى أجرهم .

٩ - « وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ
لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، (الحج ٥٤) أى
لهاديبهم .

١٠ - « وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ
» (الحج ٧٢) أى فى وجوههم .

١١ - « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا
يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ
جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ، (الفرقان ٣ ، ٤) أى « وقالوا » .

١٢ - « قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ، (العنكبوت ٢٢) أى
« نحن أعلم به » .

١٣ - « وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ
يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانِ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ ، (سبا ٤٣) أى « وقالوا إن هذا
إلا سحر مبين » .

١٤ - « أَقْمَنَ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ، (الزمر ١٩)
أى « تنقذه » .

١٥ - « وَإِذَا تَتَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ، (الاحقاف ٧) أى « قالوا » . وقد يتم الربط بالصفة التى
دخلت عليها «ال» الموصولة لتؤدى الغاية التى من أجلها استعمل ضمير
الموصول فى الشواهد السابقة وذلك كقوله تعالى :

١ - « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ
عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ، (البقرة ٩٨) أى « لهم » .

٢ - « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ
يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ، (النساء ٦١) أى « رأيتهم » .

٣ - « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكْذِبُونَكَ وَلَكِنْ
الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ، (الانعام ٣٣) أى « ولكنهم » .

٤ - « ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ
نُرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ، (التوبة ٢٦) أى
« جزاؤهم » .

٥ - « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي
مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ، (ابراهيم ١٣) أى « لنهلكهم أى
الذين كفروا » .

٦ - « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ

كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ، (الحجر: ١٠-١٢) أى «فى قلوبهم».

٧- «وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ، (النحل: ٣٠) أى «نعم دارهم».

٨- «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا، (الإسراء: ٤٧) أى «إذ يقولون».

٩- «وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا لَدَىٰ جُنُودِنَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ لَنَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ، (الكهف: ٤٨، ٤٩) أى «فتراهم».

١٠- «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا، (الفرقان: ٢٢) أى «لا بشرى يومئذ لهم».

١١- «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ، (الشعراء: ١٧٣) أى «فساء مطرهم».

١٢- «فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ، (القصص: ٤٠) أى عاقبتهم».

١٣- «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصَّدَقِ إِذْ جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ، (الزمر: ٣٢) أى «مثنوى لهم».

١٤- «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ

الْمُبْطُلُونَ ، (العنكبوت ٤٨) أى « إذا لارتابوا » .

وقد يؤدى عدم المطابقة فى اللفظ إلى الربط بلفظ فيه مدح أو ذم ولكنه لا يعد من الصفات المشتقة وذلك كلفظ قوم وأئمة ونحو ذلك مما سنرى فى الشواهد الآتية:

١ - « إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ ، (آل عمران ١٤٠) أى «فقد مسهم» .

٢ - « الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ، (النساء ٧٦) أى «فقاتلوهم» .

٣ - « وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُمْ لَوْ لَأَنَّ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يُفْقَهُونَ حَدِيثًا ، (النساء ٧٨) أى «فما لهم» .

٤ - « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَعْفُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، (الأنعام ٦٨) أى «فلا تعقد معهم» .

٥ - « وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا إِنَّهُمْ الكُفْرَ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ، (التوبة ١٢) أى «فقاتلوهم» .

٦ - « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِمُهُمْ وَيُصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، (التوبة ١٤) أى «ويشف صدوركم» .

٧ - « إِنَّمَا النِّسْيَةُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَحِلُّونَهُ عَامًا

وَيَحْرَمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِنُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ
سَوْءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ، (التوبة ٣٧) أى «والله لا
يهديهم» .

٨ - « قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذِرُونَ »
(الأنبياء ٤٥) أى « ولا يسمعون الدعاء، إن قلت لهم ذلك .

٩ - « وَإِذَا صرِفْت أَبْصَارَهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، (الأعراف ٤٧) أى « لا تجعلنا معهم» .

١٠ - « فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ
فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ، (الأعراف ٩٢) أى «فكيف آسى عليكم» .

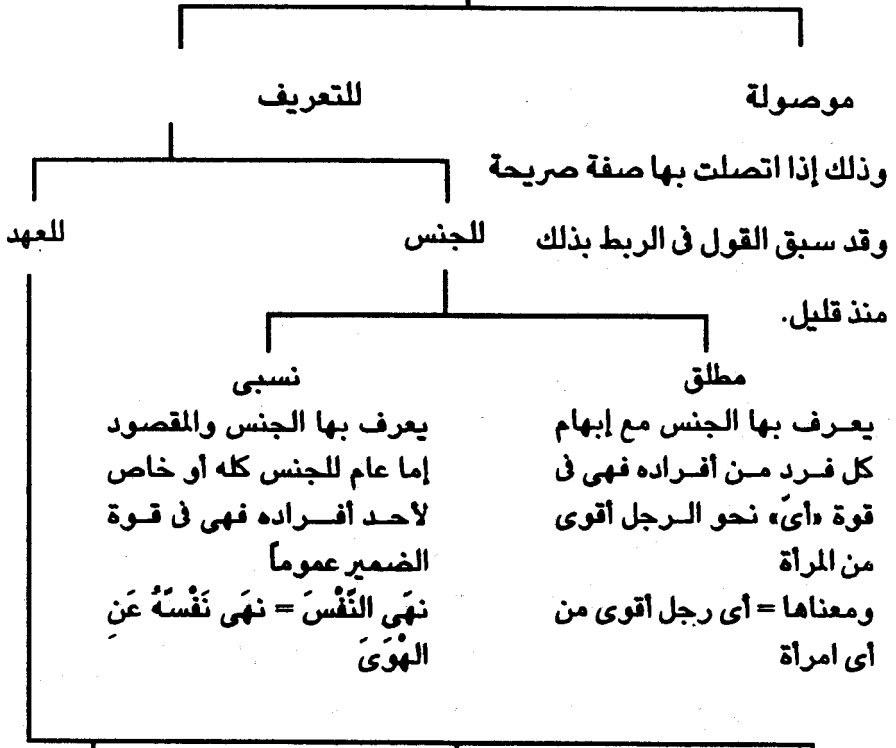
١١ - « فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عُنَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »
(المؤمنون ٤١) أى «فبعدا لهم» .

١٢ - « فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ » (القصص ٢٥) أى «نَجَوْتَ منهم» .

١٣ - « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ »
(الصف ٥) أى «والله لا يهديهم» .

وقد يكون الربط في بعض الحالات بواسطة «ال» التى للتعريف، ولبيان
المقصود بهذا القيد نعرض البيان التالى لأنواع «ال» لنفرق بين صور الربط
بها ودلالة كل نوع من أنواعها :

ال



للعهد الحضورى

يعرف بها حاضر يراه
المتكلم والسامع فهي
أيضاً في قوة ضمير
الإشارة
نحو:

من الرجل؟ = من هذا
الرجل

للعهد الذهنى

تعرف مفهوماً مشتركاً
بين المتكلم والسامع إذا
ذكر انصرف الذهن إليه
فهي في قوة ضمير
الإشارة

نحو: «النبى أوتى
بالمؤمنين من أنفسهم»
(الأحزاب ٦)
= هذا النبى الذى
تعرفونه

للعهد الذكرى

تعرف مذكوراً سابقاً
وتكون في قوة ضمير
الغائب نحو:

رأيت رجلاً فسلمت على
الرجل = فسلمت عليه

ونحو: «مثل نوره
كمشكاة فيها مصباح
المصباح في زجاجة
الزجاجة كأنها كوكب
درى» (النور ٣٥)

يتضح من هذا البيان أن «ال» تربط إذا كانت موصولة أو للجنس النسبى أو للعهد الذكري ولكنها لا تربط إذا كانت للجنس المطلق أو للعهد الحضورى أو الذهنى لإشارتها فى هذه الأنواع الثلاثة الأخيرة إلى حقيقة لا تشير إلى كيان آخر ولا إلى ما سبق ذكره، أما الأنواع الثلاثة التى يربط بها فى السياق فجميعها فى قوة ضمير الغائب كما اتضح فى التعقيب على شواهد الموصولة التى صلتها صفة صريحة وفى شرح الجنس النسبى والعهد الذكري فى البيان الموضح فوق هذا الكلام.

أحس عند هذه النقطة أن تقسيم الجنس إلى مطلق ونسبى تقسيم غير تقليدى ومن ثم يظل بحاجة إلى فضل إيضاح. كلا النوعين ينتمى إلى الكليات المنطقية دون شك فالرجل يصدق على كل رجل كما أن النفس تصدق على كل نفس ولكن النفس تنتمي إلى قسم من الأجناس لا يستقل بالوجود المطلق وإنما يكون فهمه بالإضافة إلى ذى نفس أما الرَّجُل فمفهوم غير إضافى بمعنى أنه إن صح أن نقول «نفس فلان» فلا يصح أن نقول «رَجُل فلان» إلا على التأويل بلفظ «خادم» أو «تابع» أو نحوهما من الألفاظ التى تتسم بالإضافة والنسبية. والنسبية إحدى العلاقات العقلية التى تقوم الألفاظ فى إطارها فإذا قلت «أب» فذلك يفهم بالنسبة إلى «ابن» ويفهم «الزوج» بالنسبة إلى «الزوجة» و«العقل» بالنسبة إلى «العاقل» و«العين» بالنسبة إلى «ذى العين» و«الطويل» بالنسبة إلى «من هو أقصر منه» وهكذا فإذا دل المفهوم النسبى على الجنس صح أن تلحقه اللام الرابطة وفيما يلي شواهد على الربط بأنواع «ال» :

١ - «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ» (النساء ١) أى

«أرحامكم»

٢ - «وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ»

(الأعراف ٤٦) أى «على أعرافه» أى على أعراف الحجاب وهو السور الفاصل

بين الجنة والنار والأعراف هي الزوائد الرأسية المبنية فى أعلى السور كما

يلاحظ في مباني الحصون سميت بذلك تشبيها لها بأعراف الديكة.

٣- « قَاضِرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ » (الأنفال ١٢) أى «فوق أعناقهم» .

٤- « وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » (يوسف ٥٣) أى إن «نفسى لأمارة بالسوء» وإنما عدلت عن الإضافة إلى التعريف بآل لتجعل السوء طبيعة جنس النفوس التى منها نفسها فيبدو ذنبها أخف مما لو أضافت النفس إلى ضميرها هى.

٥- « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا » (الاحزاب ١٠) أى «زاغت أبصاركم وبلغت قلوبكم حناجركم» .

٦- « فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى » (النازعات ٣٧-٣٩) أى «ماواه»

٧- « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ » (النازعات ٤٠) أى «نهى نفسه عن هواها»

٨- « فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ » (النازعات ٤١) أى «ماواه» .

كان هذا بيانا للربط بالضمير عوضا عن إعادة الذكر ثم للربط بما يحل محل الضمير عند عدم المطابقة بينه وبين المرجع في اللفظ أو في القصد وبقي من القول في الربط بالضمير أن نتكلم عن قضيتين مهمتين هما:

رتبة الضمير والمرجع - قرب المرجع وبعده

هنا يرد على المسألة سؤال مهم جدا عما إذا كان من الضروري أن يذكر المرجع في الكلام وللإجابة على ذلك نشير إلى ما تعودته النحاة من إرجاع الضمير إلى مصدر متصيد من الفعل أى غير مذكور في الجملة نحو قوله تعالى :

« وَإِنْ تَخَفُواهَا وَتَوُثُّوَهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » (البقرة ٢٧١) أى «
فإخفاؤها وإيتاؤها الفقراء خير لكم، وقوله تعالى: «فَإِنْ تَبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ» (التوبة ٣) أى «فتوبتكم خير
لكم، وقوله تعالى: «وَلَكِنَّ صَبْرُكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» (النحل ١٢٦) أى
«لصبركم خير لكم، وقوله « ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ حُرْمَاتُ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ
رَبِّهِ » (الحج ٣٠) أى « فتعظيمه خير، وقوله « فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا
الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (الجمعة ٩) أى « ذلكم السعى
والترك، وهكذا نرى المصدر المتصيد يعود عليه ضمير الغائب في الآيات
السابقة إلا في آية الجمعة فقد أشير إليه بضمير الإشارة وفي كل ذلك لم يذكر
صراحة وهو مرجع ضمير الغائب ولم يذكر صراحة وهو مشار إليه، وفوق
ذلك يمكن أن نورد الآيات التالية التى لا دليل على مرجع بعض الضمائر فيها
إلا قرينة السياق والمعنى الدلالى للجملة: « فَلَا أُقْسِمُ بِالْجَوَارِ الْكُنُوسِ
وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ إِنَّهُ (أى القرآن) لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ
(أى جبريل) ذى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحَبُكُمْ
(أى محمد) بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ (أى رأى محمد جبريل) بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ وَمَا
هُوَ (أى محمد) عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ (أى القرآن) بِقَوْلِ شَيْطَانٍ
رَجِيمٍ قَائِنٍ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ (أى القرآن) إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ
يَسْتَقِيمَ » (التكوير ١٥-٢٨)

لقد تكرر ضمير الغائب في هذه الآيات في قوله إنه - رآه - وما هو - إن هو
دون أن يتقدم عليه مرجعه وإنما دل السياق على المرجع إما بإشارة إليه بعد
الضمير كما في قوله «مجنون» أو «بالأفق» أو «ضنين» أو «قول» أو «ذكر»
فكل كلمة من هذه تشير إلى المقصود بالضمير، والنتيجة التى يؤدى إليها هذا
الكلام. أن الضمير قد يكون له مرجع صريح وقد يكون له مرجع متصيد من
الفعل وقد تدل عليه قرينة السياق العام للكلام كما في آيات التكوير السابقة

وقد لا يظهر مرجعه كما في « إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأْيَاهَا » (النور ٤٠) إذ لا تجد قبله ما يصلح مرجعاً إلا لفظ الظمآن، والظمآن لا يقصد البحر اللجي ليشرب منه .

هل يتحتم عند ذكر المرجع أن يتقدم المرجع؟ هناك عاملان يتحكمان في رتبة الضمير والمرجع، ذاك هما اللفظ وأصل الرتبة، والأصل أن يتأخر الضمير ويتقدم المرجع لفظاً ورتبة كما في قوله تعالى : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » (القصص ٧٦) فهناك ضمير في «كان» يعود على قارون وفي «عليهم» يعود على قوم موسى وفي «أتيناه» يعود على قارون وفي «مفاتيحه» يعود على «ما» وفي «تنوء» يعود على المفاتيح وفي «قومه» يعود على قارون وكل المراجع في هذه الآية تقدمت لفظاً ورتبة وتأخر الضمير ، ولكن ضمير الشأن من بين كل ما عداه إنما يعود على متأخر لفظاً ورتبة ولا يتقدم مرجعه أبداً لأن مرجعه جملة مفسرة له ولا يتقدم المفسر «بكسر السين» على المفسر (بفتحها). أما ما عدا ذلك فيجوز لكل ضمير أن يعود إلى مرجع تأخر عنه إما في اللفظ فقط وإما في الرتبة دون اللفظ، وتعلق اللغة العربية على رتبة الضمير والمرجع أكبر اهتمام لارتباط هذا الأمر بأمن اللبس، غير أن الأساليب العربية التي تترجم عن لغات أجنبية بدأت في يومنا هذا تمارس إعادة الضمير على متأخر في اللفظ والرتبة كقولهم : « في مؤتمره الصحفي بالأمس قال الوزير كذا، وربما سهل ذلك لهم أن رتبة الجار والمجرور من الفعل والفاعل غير محفوظة وإن كانت في أصلها متأخرة عنها.

وهل يتحتم أن يعود الضمير إلى أقرب مذكور؟ ربما بدأت الإجابة على هذا السؤال بتقرير مبدأ عام يشمل جميع العلاقات النحوية، ذلك أن العلاقات إذا

اتضح ولم يحط بها اللبس فإنه يمكن للمتكم أن يمارس في شأنها قدرا من الحرية يباعد به بين طرفي العلاقة. يصدق ذلك علي علاقة المبتدأ وخبره وعلاقة الصفة وموصوفها وعلاقة الحال وصاحبها وعلاقة المتعاطفين وعلاقة الجار والمجرور ومتعلقه وعلاقة الضمير ومرجعه الخ.

لقد رأينا شراح المتون كيف يباعدون بين المبتدأ والخبر لأن شرح المبتدأ أو التعليق عليه استغرق صفحة كاملة أو صفحتين فإذا جاء الخبر علم القاريء أن كل ما مر بعد ذكر المبتدأ لا يعد فاصلا نحويا بينه وبين الخبر وإنما هو فاصل في نوع آخر غريب على الجملة المكونة منهما - أما الصفة فقد يفصل بينها وبين موصوفها كما في قوله تعالى : « قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالَمٌ الْغَيْبِ » (سبأ ٣) إذ فصل جواب القسم بين الصفة وموصوفها. وأما فصل الحال عن صاحبها وإن كان بحال أخرى أطول منها فنحو « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَلِيمًا » (الكهف ٢١) وأما تباعد المعطوف والمعطوف عليه فنحو قوله تعالى :

١ - « وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبِرًّا بِالَّذِي » (مريم ٣١ ، ٣٢) أي « وجعلني برا بوالدتي ».

٢ - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرٍ نَاطِرِينَ إِنَاءً وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ » (الاحزاب ٥٣) أي « غير ناظرين ولا مستأنسين » ولكن الاعتراض طال بين المتعاطفين.

وأما البعد بين الجار والمجرور ومتعلقه فنحو « لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » (الرعد ١١) أي له معقبات من أمر الله يحفظونه. إذ لا يصح أن نعلق الجار والمجرور بالفعل « يحفظونه » لأنه لا

يمكن لشيء أن يحول دون أمر الله. مثل هذا هو المقصود بقريئة السياق، وأما عود الضمير إلى أبعد مذكور فمثل ما في قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ آبَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ» (يوسف ٧، ٨) فالضمير في «قالوا» للإخوة بقريئة قولهم «آبينَا» مع أن السائلين أقرب إلى الضمير من الإخوة وكذلك «وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذُّبُّ» (يوسف ١٧) فالضمير ليوسف وليس للمتاع لأن الذئب لا يأكل المتاع. ونجمل القول إنه إذا اتضح المعنى عاد الضمير إلى مرجعه دون اشتراط قربه أما إذا خيف اللبس فإن الضمير يجب أن يعود إلى أقرب مذكور. أو بعبارة أخرى وجب على المتكلم أن يجعل المرجع أقرب شيء إلى الضمير.

وكل أداة داخلية على جملة لإفادة معنى الجملة فهي رابطة تقوى بها الصلة بين كل المفردات الداخلة في حيزها. يصدق ذلك على النفي وعلى الأمر باللام والنهي والاستفهام والشرط والقسم والتعجب الخ. فأما في النفي فإن حرف النفي ينفي كل ما في حيزه فإذا نفيت بـ «لا» مثلا فقد نفيت إسناد خبرها إلى اسمها فكانت «لا» بهذا النفي رابطة مفيدة لسلب الإسناد ففي قوله تعالى: «فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفْتٌ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ» (البقرة ١٩٧) نجد أن «لا» نفتت حل كل واحد من هذه الثلاثة أثناء الحج نفيًا قاطعًا يرقى إلى مستوى الأمر بالاجتناب أي إلى مستوى النهي مما يجعل الأسلوب الخبري هنا خبريًا في الشكل إنشائيًا في المضمون. والأمر باللام والمضارع تركيب تربط فيه اللام بين عنصرى الإسناد وهذا واضح ولكن ربطها كذلك يتناول حتى ما يعرف باسم جواب الأمر إذا لو حذف اللام من المضارع لضاعت الرابطة بين الأمر وجواب الأمر فإذا قلت: «فليعرف كل امرئ واجبه يحمد» ثم حذف لأم الأمر عرفت المقصود بالملاحظة السابقة. ويقال الشيء نفسه عن «لا» الناهية كما في قوله تعالى: «وَلَا تَمُنُّنَّ تَسْنَكُنَّ» (المدثر ٦) فلو حذف «لا» لارتفع المضارعان ولأصبح ثانيهما حالًا لا جوابًا. ويربط حرف

الاستفهام بين عناصر الجملة التي دخل عليها حتى ليصبح كل ما في حيزه مشمولاً بالمعنى العام الذي عبر عنه الحرف. فهناك فرق بين «ما كان هذا؟» و «أين كان هذا؟» و «متى كان هذا؟» بحيث يكون الاستفهام الأول عن الماهية والثاني عن المكان والثالث عن الزمان ويصبح هذا هو معنى الجملة ولا يأتى معنى «كان» و «هذا» إلا فى المرتبة الثانية. لأنهما يبقيان لو حذفت أداة الاستفهام فلا يتغير شكلهما وإن تغير بعد الحذف مضمونهما. أو بعبارة أخرى تغير نوع ارتباطهما إلى ما سنعرفه عند تناولنا للربط بالمطابقة بعد قليل.

ثم تأمل ارتباط الشرط بجوابه بواسطة أداة الشرط فى قوله تعالى : « إن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ » (محمد ٧) فلولا الأداة لارتفع الفعلان وأصبح ثانيهما حالا كما حدث فى شاهد النهى من قبل. وفى قوله تعالى : « وَكَلِمَاتُ اللَّهِ مَا أَشْرَكُوا » (الأنعام ١٠٧) لو لم تكن الأداة موجودة لتحولت «ما» إلى معنى المصدرية ولاصبح المعنى والعياذ بالله : « شاء الله إشراكهم ». إلى هذا الحد ربطت «لو» بين عناصر الجملة ففرضت على الجملة معنى الشرط والجواب. وأداة القسم أيضا تربط بين القسم وجوابه ولا يكون القسم إلا على زعم تأكيد صحة قضية هى التى تسمى الجواب أى أنه لا قسم إلا وله جواب فى قوله جل شأنه : « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَمَا أَنْكُمْ تُنطِقُونَ » (الذاريات ٢٢) لو لم تكن أداة القسم لأصبح الضمير فى «إنه» عائدا إلى رب السموات والأرض لا إلى ما سبق ذكره من آيات الله فى الأرض والآنفس والأرزاق التى فى السماء. وبهذا يتغير المعنى مما يدل على ارتباط الجملة والجواب بأداة القسم. وأداة التعجب تربط عناصر الجملة. بدليل اعتماد المعنى عليها فلورفعت من موقعها لتغير المعنى ، فإذا قلنا : « ما أوسع شهرة زيد » فالمعنى على التعجب فلو حذفنا «ما» لتغير المعنى وكان علينا أن نبحث لضمير الفاعل المستتر فى «أوسع» عن مرجع يلائمه ولتحول الكلام من الإنشاء

الإفصاحى إلى الخبر. ويقال ذلك أيضا عن التعجب في قوله تعالى : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ » (القارعة ١٠).

وهناك أيضا الأدوات الداخلة على الأجوبة ولها وظيفتان أساسيتان : الأولى هى الربط وإيضاح أن الكلام يأخذ بعضه بحجز بعض (كما يقول عبد القاهر) والثانية أمن اللبس بجعل الأداة الداخلة على الجواب قرينة على أن ما بعدها جوابٌ وليس شيئا آخر. ولتوضيح هاتين الوظيفتين نسوق الإيضاح التالى :
أولا إذا نظرنا إلى تركيب أسلوب الشرط وجدناه مركبا من عنصرين أولهما الشرط والثانى الجواب وكل من العنصرين جملة وإن تعودنا أن نركز النظرة من الشرط على فعل الشرط لأن الأثر الإعرابى لأداة الشرط يظهر فى الفعل بالذات لا فى جملة الشرط كلها ومن هنا لا يرد على ألسنتنا التعبير بعبارة « جملة الشرط » وإنما نتكلم عادة عن « فعل الشرط ». أما بالنسبة إلى الجواب فقد تعودنا أن نراه جملة تامة إن صلح فعلها للجزم جزم وإلا فالجملة جميعها فى محل جزم. أما من حيث دخول الرابط على جملة الجواب فقاعدة ذلك تدخل تحت مبدأ المعاقبة، فإما أن يصلح الجواب للحلول محل الشرط ودخول أداة الشرط عليه وإما ألا يصلح أو بعبارة أخرى : إما أن يكون الجواب صالحا أن يعاقب الشرط وإما ألا يكون. فإن كان فلا حاجة له إلى رابط يتضح به أنه الجواب. ففى قوله تعالى : « **إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ** » (محمد ٧) يمكن للجواب أن يكون شرطا بدليل « **إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ** » (آل عمران ١٦٠) ولو نظرنا إلى هذا الشاهد الأخير لوجدنا جواب الشرط جملة اسمية منسوخة بلا النافية للجنس ليست تصلح لمعاقبة الشرط ومن هنا اقترن جواب الشرط بالغاء الرابطة لاحتمال ورود اللبس عليها فلولا الغاء لصلحت جملة الجواب أن تكون حالا من ضمير المخاطبين الذى فى « ينصركم » ولظل السامع ينتظر الجواب الذى لا دليل على حذفه . ويقال هذا أيضا فى نحو « **وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ** » (البقرة ٢٧٢) ونحو « **مَنْ عَمَلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** » (فصلت ٤٦) لأن الغاء منعت الجار والمجرور أن يتعلق

بفعل الشرط. وإذا كان الطرد علة من علل النحو فإنه يكفي أن يرد اللبس على بعض الحالات للقول بطرد اتصال الرابط بالجواب إذا لم يصلح لمعاقبة الشرط ويذكرنا هذا بقول الفقهاء «ما أسكر كثيره فقليله حرام» وإن اختلفت الحالات قلة وكثرة.

ثانيا إذا نظرنا إلى مثال مثل : «لولا زيد أكثر مال أبيه ما أجزل العطاء» أدركنا أن في الكلام لبسا لأن المعنى يصلح لاحتمالين: الأول أن تكون جملة «كثير مال أبيه» جواب «لولا» وأن تكون الجملة التي بعد ذلك تَعْجِيبَةٌ تَعْجِبُ من تكريم زيد بمال أبيه إلى الدرجة التي منعت هذا المال أن يكثر وهذا التقدير موافق لرأى القائلين بأن شرط «لولا» كون عام محذوف دائما. أما الاحتمال الثاني فهو أن تكون عبارة «كثير مال أبيه» خبرا لزيد والجواب «ما أجزل العطاء» إذ تكون «ما» نافية لا تعجيبية ولنا في تفسير هذا التركيب أن نقول بتقدير «أن» محذوفة بعد لولا أو نرتضى أن يكون خبر زيد كونا خاصا على نمط قول المعري : «فلولا الغمد يمسه لسالا». ولكن قول المعري واضح بسبب إيقاع اللام الرابطة موقعها الذي يتضح به الكلام. أما في مثالنا السابق فإن اللام تصلح لأحد موقعين لو وضعت في أي منهما لاتضح المعنى. ذاك الاحتمالان هما :

١ - لولا زيد لكثير مال أبيه . ما أجزل العطاء ! (أي عطاءه)

ب - لولا زيد أكثر مال أبيه لما أجزل العطاء

هكذا نرى أثر الرابط في إيضاح الأجوبة

وليس الربط لجواب القسم بأقل خطرا، فإذا تأملت جملة مثل «بالله لا هتدين إلى الخير» وجدت اللام رابطة لجواب القسم وقد ترتب على وجودها تأكيد المضارع بالنون فلو حذفنا اللام لحقت بها النون. وفي هذه الحالة تصبح الجملة: «بالله أهتدى إلى الخير» ولا تعود الجملة قسما كما كانت وإنما يتعلق المجرور بالفعل «أهتدى» وليس

بفعل متقدم محذوف تقديره «أقسم».

لاحظ أيضا مكان الفاء مما يلي :

أ- أما الزاهد في الخير فغير زاهد

ب- أما الزاهد ففي الخير غير زاهد

ثم قارن بذلك عبارة

أما الزاهد في الخير غير زاهد.

وسترى إن فعلت أن الربط بالفاء قد حدد معالم الجواب وأنقذ الكلام من براثن اللبس. أقول من براثن اللبس لأن اللبس يترىص بأنماط اللغة فإذا لم يكن المتكلم على وعى بمواقع كلماته فلربما قال مالا يريد أن يقول أما إذا احتاط للمعنى برصد القرائن هنا وهناك فإنه لا يقع في اللبس: انظر إلي قوله تعالى: « قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ» (المائدة ٤) تجد الواو تصلح من الناحية النحوية البحتة للعطف على الطيبات كما تصلح للاستئناف وعلى الأول تكون «ما» موصولة وعلى الثانى شرطية جوابها «فكلوا» والقريئة على إرادة المعنى الثانى «الشرط» أن الجوارح لا يحل أكلها شرعا سواء علمت أم لم تعلم ومع أن الفاء رابطة لم تغن عن هذه القريئة لأن الفاء نفسها تصلح للاستئناف عند إرادة المعنى الأول.

وأخيرا تأتي الحروف الداخلة على المفردات إذ نجد لكل نوع منها اتجاهه الخاص في الربط بين مدخوله وعناصر الجملة الأخرى. وأول ما نذكر من ذلك حرف الجر الذى يعد رابطة بين المجرور والمتعلق فيجعل الأول من تقمة معنى الثانى على أحد المعانى المذكورة في باب حروف الجر. ومعنى أدائه وظيفة الربط بين العنصرين المذكورين أنه إذا تعددت المشتقات في الجملة فأولاهما

بتعليق الجار والمجرور ما استقام معه المعنى أو بدلت عليه القرينة وقد رأينا ذلك من قبل عند الكلام في تعليق الجار والمجرور من قوله تعالى : «لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» (الرعد ١١) إذ علقنا الجار وَالْمَجْرُورَ (من أمر الله) بنعت مقدر للمعقبات فجعلنا المعقبات من أمر الله ومنعنا التعليق بالفعل «يحفظونه» وهو أقرب شيء إلى المجرور لأنه لا يمكن لشيء أن يحفظ غيره من أمر الله. ومثله ما في قوله تعالى : «وَأَنَّ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا» (يونس ٢٤) إذ من الواضح أن الجار والمجرور متعلقان به «قادرين» والمعنى وظن أهلها أنهم مسيطرون، عليها مَا لَكُونُ لَامرًا فهذا التركيب المثبت يأتي عند النفي شبيها بقوله تعالى : «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ» (النحل ٧٥) أي لا يملك شيئًا فكان أهل الأرض يظنون أنهم يملكونها فيكون ذلك من أشرط الساعة.

وحرف العطف يربط بين المتعاطفين من جهة التشريك أو الترتيب والتعقيب أو التراخي أو الإضراب أو الاستدراك أو التسوية. فبعض هذه المعاني كما ترى ربط بالإيجاب وبعضها ربط بالسلب (أي إيجاب حكم الأول للثاني أو سلبه منه) ومعني أدائها لوظيفة الربط يتضح حين تتعدد احتمالات العطف ولكن القرينة تحكم بأحقية واحد منها دون غيره كما في قوله تعالى : «انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ» (الأنعام ٩٩) إذ يصلح الينع من الناحية التركيبية الصرّف أن يعطف على الثمر كما يصلح أن يعطف على ما أضيف إليه الثمر وهو ضمير الغائب. ثم تاتى القرينة من الاستعمال اللغوي إذ يقال للثمر إنه يانع ولا يقال ذلك للشجر. بذلك نعلم أن العطف على الثمر وأن الواو وربط بين الثمر والينع.

ولكل معنى من معاني العطف حرف يختص بالدلالة عليه ولكنه لا يحول بين الحروف الأخرى وبين الدلالة على هذا المعنى بواسطة النقل فقد تدل «إلا» على الاستدراك نحو «طَهُ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذَكَّرَ لَنْ

يَحْشَى» (طه ٢٠١) أى «لكن تذكرة» إذ لا وجه للاستثناء وكدلالة «أو» على التسوية نحو «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» (التوبة ٨٠) وكدلالة «أم» على الإضراب في قوله تعالى : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُمُ النَّبَأَسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ » (البقرة ٢١٤) أى بل ظننتم أنكم ستدخلون الجنة قبل أن تمروا بتجارب الجهاد كما مر الذين من قبلكم من أتباع الرسل فلقد مستهم البأساء والضرء وزلزلوا الخ.

وتربط واو المعية صاحبا بمصحوب لا يستقيم عطفه على الأول لعدم صحة المشاركة في الحدث فإذا قلت «سرت والنيل» فإن النيل لا يصح منه السير وإذا قلت : «صحوت وشروق الشمس» فإن الشروق لا يصحو كما يصحو الإنسان فإذا تأرجح المعنى بين العطف والمعية فالعطف أولى إلا أن تقوم قرينة على العكس فإذا سمعت من يقول : « أَحَبَبْتُ الزَّهْرَ وَحُلُولَ الرَّبِيعِ » فليست تعلم من مجرد التركيب ما إذا كان حلول الربيع محبوبا أو مصحوبا إلا أن تدل قرينة على ذلك فإذا لم تدل فالعطف أولى والخيار غير واقع بسبب وضوح المعنى بالقرينة في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (البقرة ٢١) فالواو عطف على الضمير في «خلقكم» إذ لا يصلح «الذين من قبلكم» أن يكون مصحوبا للناس أو على الأصح الواو في «اعبدوا» لأن الموتى لا يخاطبون ولا مصحوبا للضمير في «خلقكم» لجواز العطف وهو أولى من المعية. ولولا أن السنة حثت على طاعة أولى الأمر لقلت إن أولى الأمر مفعول معه في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » (النساء ٥٩) أى وليطعه

معكم أولو الأمر منكم، ولكن المعية هي المعنى المقصود في قوله تعالى :
«فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ» (يونس ٧١) ما دام الشركاء لا يكونون موضع
إجماع فلا يعطفون على الأمر وإنما يكونون شركاء في الإجماع فينصبون على
المعية.

ويربط حرف الاستثناء بين المستثنى والمستثنى منه على سبيل إخراج
المستثنى من حكم المستثنى منه ويربط الظرف بين ما أضيف إليه وبين متعلقه
سواء أكان المضاف إليه مفرداً أم جملة كما في قوله تعالى « فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ
الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ » (البقرة ١٩٨) إذ ربطت « عند » بين المشعر ومعنى الحدث
الذى في « اذكروا » فجعلت الذكر في جوار المشعر وكما في قوله تعالى : « وَادْكُرُوا
إِذَا أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ
وَآيَدَكُمْ بِبَنِيهِ » (الأنفال ٢٦) حيث ربطت « إذ » بين سبق القلة في العدد وبين
الذكر الذي هو جزء من معنى « اذكروا » وإنما ذكرت الظروف المضافة بين
الروابط هنا لازدواج علاقتها فهي متعلقة بما قبلها مضافة إلى ما بعدها فلا بد
أن يكون موقعها موقع ربط ومالنا نذهب بعيداً ومن حروف الجر ما يفيد
«الظرفية» ويربط في الوقت نفسه بين المجرور والمتعلق كما رأينا من قبل.

ومن وسائل الربط المطابقة وإنما كانت وسيلة للربط لأن في اشتراك
العنصرين اللغويين في محور واحد من محاورها نوعاً من التصنيف يحمل في
طيه دعوى ضمنية بانتماء كليهما إلى صنف واحد وارتباط أحدهما بالآخر
بواسطة هذه الشركة. والمقصود بالمحاور أن المطابقة إنما تكون في أمور معينة
دون غيرها وهذه الأمور مغان نحوية عامة إذا تقاطع أحدها مع الآخر كما
تتقاطع مربعات الجدول نشأ من هذا التقاطع عنصر لغوي ما كالضمير
وحروف المضارعة وعلامات التثنية والجمع وعلامات التانيث والتعريف الخ.

وتبدو صورة التقاطع على النحو التالي :

العدد الشخص		مفرد		مثنى		جمع	
		مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث
متكلم		أنا	أنا	نحن	نحن	نحن	نحن
مخاطب		أنتَ	أنتِ	أنتما	أنتما	أنتم	أنتن
غائب	معرفة	هو	هي	هما	هما	هم	هن
	نكرة	اسم ظاهر	اسم ظاهر	اسم ظاهر	اسم ظاهر	اسم ظاهر	اسم ظاهر

هذا ويعرف القارئ أين يضع حروف المضارعة وعلامات التثنية والجمع والتأنيث والتعريف في هذا الجدول وفائدة هذه العلامات أن الاسم الظاهر وإن كان في قوة ضمير الغائب يمكن أن يخبر به عن ضمائر التكلم والخطاب كما يخبر به عن الغيبة في حالة الأفراد فإذا لحقت به العلامات المذكورة اتسع نطاق الإخبار به فشمّل بقية الضمائر، أي أن الضمائر ثابتة الدلالة ولكن في الاسم الظاهر مرونة بسبب ما يلحق به من هذه العلامات وفائدة هذه المرونة الوصول إلى المطابقة التي تعد وسيلة من وسائل الربط في الكلام. دعنا نختبر قيمة المطابقة في جملة مثل:

هذان الغلامان الذكيان يقرآن

هناك مطابقة بين الاشارة والبدل والنعته في التذكير والتثنية
والرفع والتعريف

يضاف إلى ذلك ما بين النعت والمنعوت والمضارع من مطابقة في الغيبة.
وبين فاعل المضارعة وكل ما تقدمه مطابقة في التثنية أيضا فلما تحققت
المطابقة في جميع هذه النواحي اتضح انتماء كل من كلمات الجملة إلى اخواتها
وأصبحت الجملة مفيدة بإحكام الربط.

انظر كيف يقوم الظاهر حين تلحقه العلامات بالوفاء بحاجات الضمائر من
مختلف الانواع من حيث المطابقة:

أنا قائم	أنت قائم	هو قائم
نحن قائمان	أنت قائمة	هي قائمة
نحن قائمون	انتما قائمان	هما قائمان
	انتما قائمتان	هما قائمتان
	انتم قائمون	هم قائمون
	انتن قائمات	هن قائمات

فإذا لم يلحق شيء من ذلك بالظاهر فهو في قوة ضمير الغائب فقط، ويمكن
لعلامة التعريف عندئذ أن تلحق كل ظاهر دون أن تغير فيه طابع الغيبة.

غير أن محاور المطابقة لا تعبر عنها الضمائر والعلامات اللاحقة بالكلمات
فقط إذ يمكن لأحد المحاور أن يكون نتيجة للمعنى المعجمي للكلمة وهو ما
يسمى المعنى المفرد الذي يكشف عنه في المعجم فالمعروف أن لفظ « عصبية »
مثلا مفرد من الناحية النحوية إذ يثنى فتلحقه العلامة فيصير « عصبيتان »
ويجمع فيصير « عَصَبٌ » و « عصبات » ولكن هذا المفرد يدل بمعناه المعجمي

علي جماعة من الناس يصحب بعضهم بعضا ولكونهم جماعة جاز أن يخبر بلفظ عصبية عن ضمير المتكلمين فجاء «نحن عصبية» في قوله تعالى: «إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبية» (يوسف ٨) وانظر كذلك إلى قيمة المطابقة بالمعنى المعجمي في الآيات الكريمة الآتية:

«إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرِّ ذِمَّةٍ قَلِيلُونَ» (الشعراء ٥٤)

«فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ» (القصص ٨١)

«مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا» (يس ١٥)

«وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ» (الأنفال ٢٦)

«أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ» (القمر ٤٤)

«إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ» (التغابن ١٥) المصدر لا يجمع بحسب

الأصل ومن هنا صح الإخبار به عن الجمع.

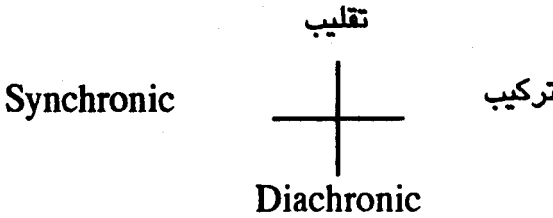
وقد يصلح اللفظ للمطابقة باعتبارين: لفظه ومعناه كما في قوله تعالى: «أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا» (القصص ٧٨) فالضمير المفرد «هو» عاد على «من» باعتبار لفظها أما معناها فيشمل كثيرا من القرون الهالكة. وقد يصلح المذكوران سابقان لمطابقة اللفظ فيختار أحدهما كقول المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي، كان يمكن أن يقول «أدبه» ليطابق «الذي» ولكنه قال «أدبي» ليطابق ضمير المتكلم «أنا» فأصبح الاسم الموصول زائد على مطالب النحو حتى إنه ليتم المعنى النحوي بدونه ولكن قيمته في الكلام إيقاعية فحسب.

الفصل الخامس

قرينة التضام في التركيب القرآني

لا جديد تحت الشمس. هكذا قالوا وهكذا يصدق النحاة العرب هذا القول. لقد ظهرت مناهج حديثة لدراسة اللغة يفخر بها أصحابها ويرى كل صاحب مذهب أنه جاء بما لم يأت به الأوائل جاء البنيويون بمذهبهم فما لبثوا أن أعلنوه حلا غير مسبوق لتفسير كل أنظمة اللغة، ثم جاء التوليديون فشهرُوا باغراق البنيويين الأمريكيين في تجاهل المعنى وتوجيه العناية كلها إلى المبنى وأنشأوا لأنفسهم مذهباً يفرقون به بين بنية عميقة لا تصلح أن توضع في كلمات لأنها فكرية منطقية خالصة وبنية أخرى سطحية هي واحدة من إمكانيات التعبير عن البنية العميقة بعناصر لغوية. وفي النحو العربي كثير من هذا وكثير من ذلك وما بقى بعد هذين الكثيرين فهو من مميزات النحو العربي التي يعتز بها ويفخر، ولإيضاح هذا الكلام نسوق فكر البنيويين فيما يختص بالمحورين الشهيرين: المحور الرأسى Diachronic أو محور التقلب والمحور الأفقى Synchronic أو محور التركيب ونرسمهما متقاطعين هكذا.



والمقصود بهذين المحورين أن العلاقات في داخل نظام اللغة لها أهميتها الخاصة وأننا لو طبقنا فكرة نوعى العلاقة وهى العلاقة التقليدية والعلاقة التركيبية على عناصر اللغة لوجدنا أن العلاقة التركيبية مثلا تحكم الترابط بين مفردات الجملة وعناصر النص وأن العلاقة التقليدية مثلا أيضا تكشف عن التنوع في داخل المصنوفة أو الجدول، ولكن طبيعة العلاقتين أعقد بكثير من هذا التبسيط الذى يكاد يكون مخلا، وأشهر ما طبق البنويون عليه لايضاح هاتين العلاقتين هو أصول الأصوات (الفونيمات Phonemes وفروعها (الالفونات allaphanes) والمعروف أن أصول الأصوات وحدات صوتية معقولة وأن فروعها عمليات حركية منطوقة فى اللغة العربية للنون أصل واحد نعتد به ونكتبه بصورة واحدة كما لو كنا ننطقه بطريقة واحدة ولكنك إذا راقبت نفسك وأنت تنطق كلمات مثل ينفع - ينظر - من رأى - من لام - ينشأ - ينصح - ينجح - ينكر - ينقل - فسوف ترى نطق النون في كل كلمة من هذه يختلف عن نطقها في كل كلمة أخرى ويتضح ذلك في اختلاف مخرج النون في كل كلمة عنه في غيرها. وهذه النونات جميعا تعد فروعاً للوحدة الصوتية المعقولة التى نسميها النون ونعدها واحدة من ثمانية وعشرين حرفاً.

والمعروف أننا إذا استبدلنا شيئاً بشيء فالعلاقة بين الشئين علاقة تقليدية لا تركيبية. لقد جعل البنويون الفرق بين الأصل والفرع أى بين الحكم على صوت ما بأنه أصل أو فرع مرتباً بصلاحه للاستبدال أو عدم صلاحيته. فقالوا: إذا حل صوت محل صوت آخر في بيئة صوتية معينة ثم تغير المعنى بحلوله فالصوتان من أصلين مختلفين. فإذا تصورنا بيئة صوتية مكونة من:

صوت في صدارة الكلمة + ألف المد + ل

ثم جئنا بكلمات على غرارها مثل قال - نال - صال - عال - غال - كال - مال

وكلها أفعال ثلاثية ماضية جوفاء حكمنا من خلال اختلاف معنى كل كلمة عن اختها بأن كل صوت في صدر الكلمة يختلف في أصله عن كل صوت آخر مما يقع في الصدر من هذه الكلمات والقاعدة الأخرى أو الوجه الآخر للقاعدة السابقة أن الصوت إذا لم يصلح للحلول محل صوت آخر فهما من أصل صوتي واحد، فالنون في ينفع مثلا تنطق باتصال الشفه السفلي بالأسنان العليا فهي شفوية أسنانية وهذا النطق الشفوي الأسنانى لا يصلح في كلمة مثل ينقل لأن «ينقل» تنطق نونها في مخرج القاف وهو اللهاة وما أبعد الشقة بين المخرجين ولو أنك تكلفت نطق «ينقل» بنون «ينفع» لرد ذلك عليك مرفوضا لأنه نطق غير عربي أى لا تعترف به القواعد الصوتية للغة العربية. الخلاصة أن تغير المعنى عند المعاقبة يدل على اختلاف الأصلين وامتناع المعاقبة يدل على وحدة الأصل.

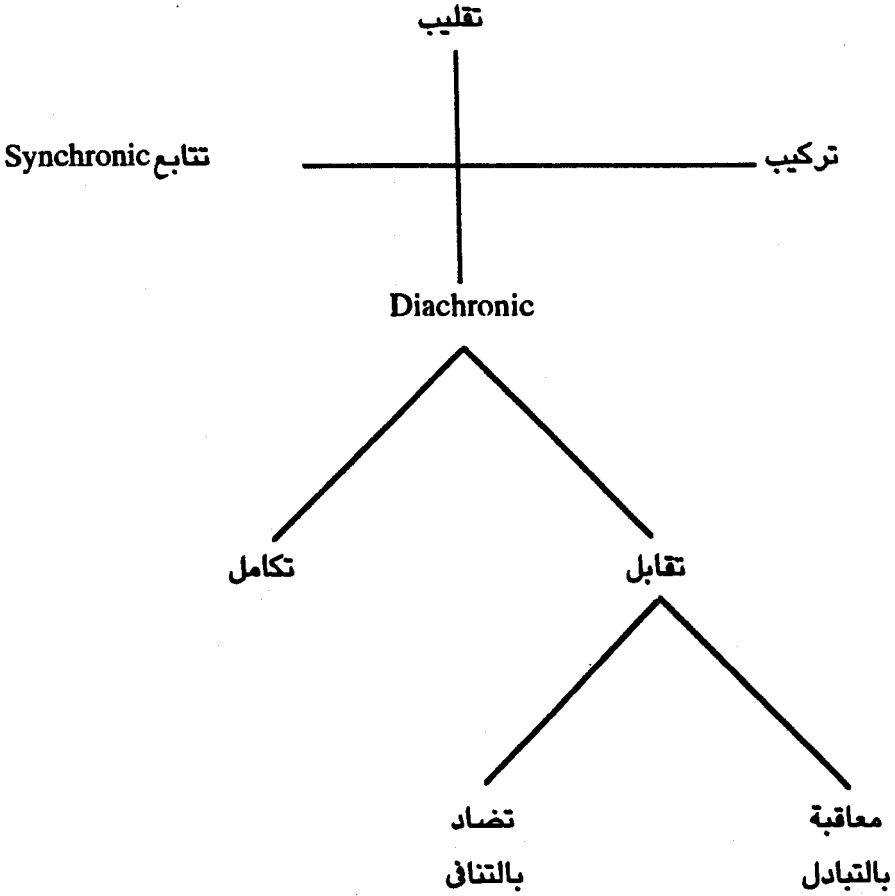
وربما كان من المجدى أن نسوق مثلا آخر للعلاقة التلقينية Diachronic ما يكون بين مفردات الجدول الإسنادى الواحد من علاقة رأسية بسبب تقلاب الأصل على مختلف الصور وذلك على النحو التالى:

أنا	ضربتُ	أضرب
نحن	ضربنا	نضرب
أنت	ضربتَ	أضربُ
أنت	ضربتِ	أضربى
أنتما	ضربتما	أضربا
أنتما	ضربتما	أضربا
أنتم	ضربتم	أضربوا
أنتن	ضربتن	أضربن

هو	ضربَ	يضربُ
هي	ضربتْ	تضربُ
هما	ضربا	يضربان
هما	ضربتا	تضربان
هم	ضربوا	يضربون
هن	ضربنَ	يضربنَ

فالعلاقة بين كل ماض وماض أو بين كل مضارع ومضارع أو بين كل أمر وأمر هي علاقة رأسية قوامها تقليب الفعل على حالات الإسناد إلى الضمائر وهذه العلاقة التقلبية لا تسمح لأى اثنين من هذه الصيغ أن يتواليا على السطر لينشأ عنهما تركيب أو جملة ويقال مثل ذلك فى مشتقات المادة الواحدة وفي مفردات كل جدول على الإطلاق.

أما العلاقة الأخرى التركيبية Synchronic فهي علاقة أفقية بين مفردات الجملة كعلاقة الإسناد أو التعدية أو الغائية أو المعية الخ وحين حاولت الكشف عن هاتين العلاقتين فى النحو العربي وجدت نظام النحو ينمى فى داخله العلاقة التقلبية ويثريها حتى يصبح الشكل الإيضاحى السابق بحاجة إلى التعديل على النحو التالي:



وكل واحدة من المعاقبة والتضاد والتكامل فروع على العلاقة التقليدية وجميع ذلك يقف بإزاء التتابع الذي هو مظهر العلاقة التركيبية والمقصود بالمعاقبة التبادل وهو صلاحية العنصرين اللغويين أن يحل أحدهما محل الآخر. والمقصود بالتضاد التناهي وهو علاقة عنادية بين مفهومين إذا تحقق أحدهما امتنع الآخر. والمقصود بالتكامل أن يتكون من مجموع الوحدات المتكاملة مجموعة يتمثل بها نظام فرعي من أنظمة اللغة كما رأينا في الجدول

الإسنادي السابق الذي تمكنا بواسطته من التعبير عن تقلاب الصيغ المسندة إلى الضمائر بحيث اتضح من تجاورها في الجدول أنها تقع في منظومة فرعية متكاملة لكل من عناصرها موقعه في الجدول وهذا الجدول أحد الأنظمة الفرعية في اللغة.

أما وقد وصلنا إلى هذه النقطة التي حاولنا بالوصول إليها أن نقدم بيانا نظريا للتقلاب والتركيب فإننا ننطلق الآن إلى الكشف عن مجالات المعاقبة والتضاد والتكامل والتتابع في النحو العربي على النحو التالي:

أ- المعاقبة : عندما نسمع أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض يكون معني ذلك أن بعضها يعاقب بعضا أي يقع موقعه ويؤدي وظيفته، هذا هو معني المعاقبة وهو ما نلمحه في مفهومات مثل الإغناء ومعاقبة الوصف للفعل ومعاقبة الجملة ذات المحل للمفرد والمصدر المؤول للمصدر الصريح ومعاقبة المفعول معه للفعل المضارع المنصوب بعد وأو المعية ومعاقبة المفعول لأجله للمضارع المنصوب بعد اللام ومعاقبة أن وما دخلت عليه لمفعولي ظن ومعاقبة ذكر الخافض لنزع الخافض ومعاقبة الإظهار للإضمار والذكر للحذف والحقيقة للمجاز وهم جرا وواضح أن المعاقبة تقلب لا تركيب.

ب- التضاد - ويتضح التضاد في التقسيمات الثنائية كالخبر والإنشاء + وكالجملة الاسمية والجملة الفعلية والعلاقة الإعرابية والمحل الإعرابي وكالإعمال والإهمال وكالعمدة والفضلة وكالجمود والاشتقاق وكالتمام والنقص والخفة والثقل والراجع والمرجوح وكالأولى وغير الأولى وكالإفادة والإحالة وكاللبس وأمنه الخ، وكل عنصر في هذه الأزواج إذا تحقق ارتفع قرينه والعلاقة بينهما من قبيل التقلاب لا التركيب.

ج- التكامل : التكامل يكون بين أفراد كل مجموعة من المباني كمشتقات المادة ومفردات جدول الإسناد ومفردات جدول التصريف (التي تبين من

خلالها صلاحية اللفظ لمختلف أنواع الزوائد الدالة على المعاني كالتثنية والجمع والتعريف والتنكير (الخ) والضمائر ومبنيات الظروف ومجموعات الحروف (كحروف الجر وحروف العطف الخ) والقرائن اللفظية والنظم الفرعية التي يتكون منها النظام الأكبر للغة وكل أنواع التقسيمات ومحاور المطابقات وحقول المعجم الخ وكل ذلك تتكامل مفرداته ولا تتابع فالعلاقة من قبيل التقليب لا التركيب.

د - التتابع : ويفهم هذا في العلاقات التي تقوم علي السطر بين عناصر أنماط الجمل والمركبات وبين التابع والمتبوع والمفسر والمفسر والتميز والمميز والضمير ومرجعه وتحمل الضمير وعدمه والمطابقة بين العنصرين والرتبة بينهما والفصل والوصل والافتقار والاختصاص والاقتران والعامل والمعمول وتقدير الجملة والتركيب الخ. فالعلاقة في كل موقع من هذه المواقع إنما تقوم بين عنصرين من عناصر النص أفقيا علي السطر لا رأسيا في الجدول.

هذا عن العناصر البنيوية في النحو العربي أما العناصر التوليدية التحويلية فحسبنا أن نرى دعوى النحاة أن اللغة سليقة وأن بعض حالات الحذف لا يقدر المحذوف فيها إلا في ضوء فهم معين أقرب ما يكون إلي البنية العميقة وأن بعض البنى السطحية نحو « **وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** » (آل عمران ١٠٢) ليس معناها في الحقيقة نهيا عن الموت وإنما هو أمر بالتمسك بالإسلام حتى الموت وكون البنية السطحية نهيا لا يطعن في أن معناها الأمر وانظر أيضا إلى قولهم إن مفعولى ظن والثانى والثالث من مفاعيل أعلم وأرى أصلها المبتدأ والخبر وأن مفعولى أعطى ليس أصلهما المبتدأ والخبر وأول هذين المفعولين هو الآخذ ولو كانت رتبته التأخير وثانيهما هو المأخوذ ولو تقدم نحو « **يُوتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ** » (البقرة ٢٦٩)

وقولهم إن التمييز قد يحول عن الفاعل أو عن المفعول الخ مما يقترب كثيرا

من أفكار التوليديين.

والعلاقتان التخليبية والتركيبية كلتاهما ذواتا صلة وثيقة بقريئة التضام التي نعرف من خلالها إمكان التوارد والمعاقبة والتنافي أو التضاد والتكامل الذي يظهر بوضوح أن العنصرين المتكاملين لا يتعاقبان، أما التتابع فهو المسرح الأصيل لقريئة التضام في السياق.

فلا يكاد باب من أبواب النحو العربي يخلو من ظاهرة التضام إما في صورتها الإيجابية كالاقتدار والاختصاص والتوارد، وإما في صورتها السلبية كالتنافي أو التنافر. والمعروف أن الاقتدار والاختصاص والتنافي من ظواهر استعمال العناصر التركيبية وأن التوارد والتنافر من ظواهر استعمال الكلمات المعجمية، فاما الاقتدار فإما أن يكون للفظ بحسب أصل الوضع وعندئذ يسمى متأسلا وإما أن يكون للباب بحسب التركيب فيسمى غير متأسل. فالافتقار المتأسل هو افتقار العناصر التي لا يصح أفرادها في الاستعمال وإن صح ذلك عند إرادة الدراسة والتحليل. مثال ذلك افتقار حرف الجر إلى المجرور وحرف العطف إلى المعطوف وحرف الاستثناء إلى مستثنى إن حذف وجب تقديره كما في «ليس إلا» و«أو الحال» إلى جملة الحال والضمير إلى مرجعه والموصول إلى صلته وبعض الظروف إلى مضاف إليه إما مفرد وإما جملة. وغير المتأسل كافتقار المضاف إلى مضاف إليه والحال إلى حدث تلابسه وفعل التعجب إلى تمييزه والمبتدأ إلى خبره وإنما سمي غير متأسل لأن الاقتدار هنا غير منسوب إلى الكلمة فحين تقع الكلمة موقعها للتعبير عن الباب لا يكون الاقتدار للكلمة لأنها غير مفتقرة بحسب الأصل وإنما يكون الاقتدار للباب فكل كلمة تقع هذا الموقع يفرض عليها الباب هذا النوع من الاقتدار.

وأما الاختصاص فهو من صفات الحروف والأدوات لأن الأداة إما أن تدخل على نوع معين من الكلمات لا تتعداه إلى غيره فتسمى مختصة

كاختصاص إن وأخواتها بالدخول على الأسماء واختصاص حروف الجر بذلك أيضا واختصاص الجوازم بالدخول على المضارع، وإما أن تصلح الأداة للدخول على مختلف أنواع الكلمات مثل «ما» النافية وأدوات الاستفهام وحروف العطف فتكون غير مختصة. وقد انتفع النحاة بهذه الظاهرة في تنظيرهم للإعراب فكان من أصولهم: «لا يعمل الحرف إلا إذا كان مختصا».

والتنافي أيضا من ظواهر العناصر التركيبية ولو أن العنصر المنفى قد يكون بابا من الأبواب وقواعد ذلك عند النحاة قواعد سلبية لا تخلو من «لا» النافية كقولهم:

«لا يدخل الحرف على الحرف»

«الضمير لا يوصف ولا يضاف»

«لا تدخل حروف الجر على الأفعال»

«لا تدخل الجوازم على الأسماء»

«لا تجر حتى إلا ما كان آخر أو متصلا بالآخر»

فإذا وضعنا هذه القواعد السلبية جنبا إلى جنب مع القواعد الإيجابية للافتقار والاختصاص عرفنا موقف النحو من طوائف الكلمات التركيبية وهي أهم وسائل تركيب الكلام وأكثر الكلمات دورانا في الجمل.

أما التوارد والتنافر فمن ظواهر المفردات المعجمية «وقد سبق أن ذكرنا الفرق بين الكلمات التركيبية والكلمات المعجمية».

ويرجع ذلك إلى أن مفردات المعجم تنتظم في طوائف يتوارد بعضها مع بعض ويتنافر مع بعض آخر. فالأفعال طوائف تتوارد كل طائفة منها مع طائفة من الأسماء وتتنافر مع الأسماء الأخرى «وهذا هو معنى قول البلاغيين: «إسناد الفعل إلى من هو له أو إلى غير من هو له» والمبتدآت

والموصوفات وأصحاب الأحوال طوائف يتوارد كل منها مع كلمات دون أخرى لتكون خيرا عنها ونعتا لها وحالا منها. فمن غير المقبول أن يقال: «فهم الحجر المسألة» لأن الفعل «فهم» يتطلب فاعلا عاقلا ولا أن يقال «انكسر الخيط» لأن في الخيط من المرونة ما يحول بينه وبين الوصف بالكسر، ولا أن يقال: «دهنت الهواء بزيد» لأن الهواء لا يدهن وليس زيت دهانا.. فهذه التراكيب تشتمل على كلمات متنافرة ومن ثم تفتقد عنصر الإفادة وإن تحققت لها صحة التركيب النحوي بحيث يمكن إعرابها. ومعنى هذا أن الجمل المذكورة تتسم بالإحالة.

وللنحو شروط تضبط توارد طائفة مع أخرى لا يكاد يخلو منها باب من أبواب النحو وإليك بعض هذه الشروط المعجمية:

١ - يشترط للمفعول المطلق أن يشارك فعله في مادة اشتقاقه.

٢ - لا يكون التوكيد لفظيا إلا مع تكرار اللفظ.

٣ - إذا أفاد الفعل مشاركة أو تسوية أو مخالفة أو نحوها وجب أن يكون فاعله مثنى أو جمعا أو معطوفا عليه.

٤ - لا يضاف اللفظ إلى ما في معناه.

٥ - لا تكون الحال من مادة الفعل الذي نصبت به إلا مع تخصيص الحال نحو سعى ساعيا إلى حتفه.

٦ - لا تأتي الحال من المضاف إليه إلا بشرطين أحدهما معجمي والآخر نحوي يقول ابن مالك: «ولا تجز حالا من المضاف له.. الخ».

٧ - لا حذف إلا بدليل يدل على المحذوف.

٨ - لا تبني النكرة على الضم في النداء إلا مع القصد.

٩ - يلزم الربط بإعادة اللفظ إذا خيف اللبس.

١٠ - لا تدخل «أن» المصدرية على فعل لا مصدر له كعسى وليس ونعم وبئس الخ.

١١ - لا يأتي المطاوع إلا من فعل يمكن لمفعوله أن يتأبى على قبول الحدث فلا يجوز «انقتل» أو «انضرب».

١٢ - تعتمد المطابقة أحيانا على اختلاف الاعتبار كما نقول: العرب أمة. فيؤنث فعلها وهي شعب فيذكر الفعل فيقال: قال العرب وقالت العرب.

١٣ - المناسبة المعجمية ضرورية بين اللفظين فلا يجوز أن يقال «صعد إلى أسفل الجبل أبدا» ولا اشترتت الطمأنينة بالحيطه إلا على سبيل المجاز.

١٤ - على الرغم من وصف الفعل فقط بالتعدى واللزوم حتى ليوحى ذلك بأن التعدى واللزوم نحويان فقط تمتد الظاهرة على مشتقات المادة من الأوصاف كوصف الفاعل والمفعول والمبالغة وعلى المصدر أيضا فالظاهرة معجمية في أساسها.

ومما يقع في حيز القول في ظاهرة التضام الحذف والزيادة والفصل والاعتراض وإدخال اللفظ على غير مدخوله ومنه التضمن وإغناء أحد العنصرين عن الآخر والشروط التركيبية الضرورية لتأليف الفاظ السياق.

فالحذف لا يكون إلا بدليل من بنية معهودة أو نمط معروف أو قرينة قائمة أو معنى في السياق لا يستقيم إلا مع تقدير الحذف. فمن حذف جزء من البنية المعهودة، ما نراه بكثرة في الأسلوب القرأني من حذف ياء المنقوص لغير التقاء السكانيين كما في قوله تعالى:

«وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ»
(البقرة ١٨٦)

«عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ، (الرعد ٩)
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً
الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ، (الحج ٢٥)

«وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، (الحج ٥٤)

«وَجَعَلْنَا كَالْجَوَابِ وَقُدُورِ رَاسِيَاتٍ، (سبأ ١٢)

«لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ، (غافر ١٥)

«وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ، (غافر ٢٢)

«وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ، (الشورى ٣٢)

«وَأَسْتَمِعُ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، (ق ٤١)

«فَقَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ، (القمر ٦)

وهذا النوع من الحذف لا يعد من قبيل ظاهرة التضام لأنه مقصور على
الكلمة المفردة.

أما حذف الأداة فقد يكون للأداة الداخلة على الجملة أو الداخلة على المفرد أو
لاحد عنصري الجملة أو للعنصرين مع ذكر الأداة الداخلة عليهما نحو «ولو...»
و«ماذا» و«لم». فمن حذف الأداة الداخلة على الجملة حذف همزة الاستفهام في
قوله تعالى:

«قَالَ وَمَنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ، (البقرة ١٢٤)

«وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، (الشعراء ٢٢)

«مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ
مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ
عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ
فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ، (محمد ١٥) أى أمثل الجنة

كمن هو خالد في النار.

ومن حذف الأدوات الداخلة على المفردات ما يسمى بنزع الخافض نحو:

«إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»
(الأنعام ١١٧)

«قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»
(القصص ٨٥)

ومن حذف الواو الداخلة مع جملة الحال «ومعها قد» ما رصده النحاة من قوله تعالى: «أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ»
(النساء ٩٠) وكذلك:

«فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»
(القصص ٢١)

«وَإِنْ أَصَابَنَّهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ» (الحج ١١)
«يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ»
(المجادلة ٦)

«مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا»
(العنكبوت ٤١)

ومن حذف «قد» الداخلة على الماضي في جملة الحال مع بقاء الواو قوله تعالى:

«إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ» (البقرة ١٦٦) أى
وقد رأوا العذاب

«الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُونَا مَا قُتِلُوا» (آل عمران ١٦٨)
أى وقد قعدوا

«قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ» (يوسف ٧١) أى وقد أقبَلُوا

وحذف حرف العطف كثير في القرآن حين يتلوه فعل ماض من مادة القول

نحو:

«فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ
نَسِيًا مَنْسِيًا» (مريم ٢٣)

«وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّمَاهُكُونُ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِن
أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا» (العنكبوت
٣١-٣٢)

«إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ»
(يوسف ٤، ٥)

«وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا
يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَآكَلَهُ الذُّنُوبُ» (يوسف ١٧)

«إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ» (ص ٢٢)
«وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلْنَا لَنَحْمِلُهُمْ فَلْتِ لَا أَجْدَمَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا
وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ» (التوبة ٩٢)

وعلى الرغم من أن فاء العطف في الشاهد الأخير تصلح أن تلحق «تولَّوا»
كما تصلح أن تدخل على «قلت» أجدنى أكثر ميلا إلى تقديرها قبل «قلت»
حسبما جرى عليه التقدير في الشواهد التي سبقت ويكون المعنى:
«إذا ما أتوك فقلت تولوا».

وقد رأينا كثرة الحذف قبل فعل القول بالذات. أما قبل غيره فسنراه عند
الكلام في الفصل البلاغى.

وفيما يلي صور أخرى من حذف الحرف:

«قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ» (الاعراف ١٢٨) أى كما أن لهم آلهة.

* «لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ» (الأنبياء ١٣)

أى وإلى مساكنكم

ذلك كان شأن حذف الحرف سواء أكان من حروف المبانى كما سبق في الكلام عن ياء المنقوص أو من حروف المعانى كالذى تلا ذلك حتى هذه اللحظة. ولكن الضمير أيضا قد يحذف سواء أكان متصلا أم منفصلا فمن قبيل حذف الضمير حذف ياء المتكلم سواء أكانت في مواقع المفعول به أم كانت في موقع المضاف إليه كما في الشواهد التالية:

* «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، (هود

٦٣ وكذلك ٨٨)

* «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ» (يوسف ١٠١)

* «فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ» (الرعد ٣٢)

* «إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ» (الرعد ٣٦)

* «رَبِّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ» (ابراهيم ٤٠)

* «قَالَ إِنْ هُوَ إِلَّا ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ» (الحجر ٦٨)

* «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ» (الحجر ٦٩)

* «فَأَيُّهَا قَارِهُبُونَ» (النحل ٥١)

* «هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُدًا» (الكهف ٦٦)

* «مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا إِلَّا تَتَّبِعَنِ» (طه ٩٢، ٩٣)

ومن قبيل حذف الضمير أيضا حذف العائد الذى به يتم الربط وذلك عند وضوح المعنى وأمن اللبس وذلك كما في الشواهد التالية:

* «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا» (البقرة ٤٨) أى لا تجزى فيه

«وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (الاعراف ٢٢) أى تعلمونه
 * «وَأُتِرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ»
 (القصص ٦) أى يحذرونه

«وَأَنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ يَدَّ فَرْضَتِكُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةٌ
 فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ» (البقرة ٢٣٧) أى فنصف ما فرضتموه.
 * «حَتَّىٰ إِذَا قُضِيَتْمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا
 تَحِبُّونَ» (آل عمران ١٥٢) أى تحبون

وقد يكون المحذوف كلمة مفردة أيا كان موقعها من الاعراب فيستدل على حذفها إما بأصل التركيب كحين يحذف المبتدأ أو الخبر وإما بوجود الحرف دون مدخوله فيقال إن المدخول محذوف وإما بقرينة السياق ومعناه العام كما يبدو في الشواهد الآتية:

«وَأِنْ كُنَّا لَأَيُّوقِيَّتُهُمْ رَبِّكَ أَعْمَالُهُمْ» (هود ١١١) أى لما يعرفوا أعمالهم
 * «كَبَّيْعَصَ ذِكْرًا رَحْمَةً رَبِّكَ عَبْدَهُ وَكَرِيًّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا» (مريم
 ١-٣) أى هذا ذكر...

«بَلَدٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ» (سبا ١٥) أى بلدتكم بلدة طيبة وربكم رب
 غفور.

«طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ» (محمد ٢١) أى اجدر بهم
 * «فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ»
 (البقرة ١٧٨) فحقيق به اتباع

«فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» (البقرة ١٨٤)
 أى فاطر فكفارته عدة..

* « وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانَ مِقْبُوضَةً، (البقرة ٢٨٣)
أي فضمانتكم رهان

* « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ، (البقرة ٢٨٠) أي فأجله
نظرة...

ولقد درج النحاة على تقدير ما أطلقوا عليه « واجب الحذف » قبل كل مصدر منصوب لم يسبق ذكر فعله ولكن هذه المصادر ينصب بعضها على معنى الإنشاء فلو قدرنا لها فعلا ناصبا لتحول معناها إلى الخبر.

انظر مثلا إلى المصادر المنصوبة التالية.

* « ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ، (مريم ٣٤)
فقوله « قَوْلَ الْحَقِّ » في موقع الاعتراض والمعنى « ذلك عيس بن مريم الذي فيه يمترون » وليس معنى الاعتراض « أقول الحق » لأن ذلك يجعله خبرا لا إنشاء ومعناه في الإنشاء قريب من معنى القسم أو التأكيد بلفظ « حقا ».

* « إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا، (لقمان ٩، ٨) إنشاء وعد ملزم

* « أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ، (الأحقاف ١٦) إنشاء وعد أيضا

* « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَأَتُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ قَرِيضَةً، (النساء ٢٤)
إنشاء فرض الإيتاء

* « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، (النساء ٣٦) إنشاء أمر بالإحسان

* « إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ

وَالْأَنْجِيلَ وَالْقُرْآنَ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، (التوبة ١١١) إنشاء تعهد
بدليل قوله «وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ».

* «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا
مَرْجِعُكُمْ» (يونس ٢٣) إنشاء الوعيد أى تمتعوا بواسطة استعمال المصدر
بمعنى الأمر أى عيشوا حياتكم القصيرة فى الدنيا ثم إلينا تعودون فى الآخرة
مثل «وَأَلَيْتُمْ تَتَعَوَّضُونَ الْعَنْكَبُوتَ» (٦٦)

* «فَاذْ لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ» (محمد ٤) إنشاء الأمر
بالضرب

ولكن هناك منصوبات تدعو الى تقدير واجب الحذف كما قال النحاة لان
معناها على غير المعانى السابقة فلا هى وعد ولا عهد ولا وعيد ولا إغراء ولا
تحذير ولا معنى آخر من معانى الإنشاء ومن ذلك قوله تعالى:

* «سُنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا» (الاسراء ٧٧) أى سنننا

* «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مُّقَدَّرًا، (الاحزاب ٣٨) أى سنننا

وقد يكون اللفظ المفرد المحذوف صفة أو موصوفا أو مضافا أو مضافا
اليه أو مفعولا به أو غير ذلك. مثال حذف الصفة قوله تعالى: «أَمَّا السَّفِينَةُ
فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَ هُمْ مَلَكٌ
يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا» (الكهف ٧٩) أى سفينة غير معيبة بدليل «فأردت أن
أعيبها» وقوله تعالى:

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ
أَوَّلَ مَرَّةٍ، (الاسراء ٧) أى المسجد الاقصى وقوله: «إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ

أَضَلُّ سَبِيلًا، (الفرقان ٤٤) أى الانعام الضالة بدليل «بل هم أضل»

ومن حذف الموصوف قوله تعالى: «مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» (آل عمران ٧)

أى وآيات أخر متشابهات وكذلك «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ الثَّقَلَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ، (آل عمران ١٣) أى وفئة أخرى وقوله تعالى «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ» (النساء ٣) أى فامرأة واحدة وقوله تعالى «وَإِذَا حِينِيْتُمْ بِنَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا» (النساء ٨٦) أى بتحية أحسن منها وكذلك «فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبِّهْمَا لِيُنزِلَ لَنَا سَالِحًا لِنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» (الاعراف ١٨٩) أى غلاما صالحا. وقوله: «وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ» (التوبة ١٠١) أى أعراب منافقون.

أما حذف المضاف (وهو يعرف في البلاغة بمجاز الحذف) فأشهر شواهدة «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا» (يوسف ٨٢٢) أى أهل القرية وأصحاب العير والقرينة على الحذف عقلية لعدم صحة سؤال البيوت والإبل. ومن ذلك أيضا «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ» (الرعد ١٧) أى يضرب مثل الحق ومثل الباطل.

وقوله «وَإِنْ أَصَابْتَهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ» (الحج ١١) أى خير الدنيا وخير الآخرة.

وقوله: «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ» (الزمر ٩) أى يحذر عذاب الآخرة وحذف المضاف اليه مشهور في الاستعمال مع التعويض عنه بتنوين العوض إذ يلحق بلفظه كل، و«إذ» حين تضاف «إذ» إلى الحين أو ما في معناه ويستعاض عنه بالبناء على الضم للفظي

قبل وبعد حين يقطعان عن الاضافة وربما كانت «إذاً» أحياناً هي «إذا»،
الظرفية لحقها تنوين العوض لحذف جملة الإضافة وفيما يلي شواهد على
حذف المضاف اليه:

* «قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ» (النساء ٧٨) أى كل ذلك

* «وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا» (البقرة ١٤٨) أى لكل واحد

* «كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ عَلَيْهِ وَرُسُلِهِ» (البقرة ٢٨٥) أى كل واحد

منهم

* «يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ»

(النساء ٤٢) أى يوم إذ نأتى من كل أمة بشهيد

* «وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ»

بِعُضْبٍ مِّنَ اللَّهِ» (الانفال ١٦) أى يوم إذ تلقونهم زحفا

* «وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ» (ابراهيم ٤٩) أى يوم إذ

تبدل الارض غير الارض

* «كَلَّمَا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ» (البقرة

٢٥) أى من قبل ذلك

* «وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ» (آل عمران ٤) أى من

قبل الكتاب الذى نزله عليك

* «أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ» (ابراهيم ٤٤) أى من

قبل يوم العذاب هذا

* «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ»

(يوسف ٧٩) أى إننا إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده لظالمون.

والقول بحذف المفعول به إنما يكون مع اختصاص الفعل بمفعول معين بحيث إذا ذكر الفعل دون مفعوله عرف المفعول ويكون هذا الاختصاص بسبب من الدلالة المعجمية للفعل أو من دلالة الجملة في عمومها. فمن الحذف الذى يدل عليه المعنى المفرد للفعل قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (البقرة ٢٨٥) أى سمعنا قولك وأطعنا أمرك

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ (الحج ٥٢) أى إلا إذا تمنى شيئالقى الشيطان الوسوسة في أمنيته أى إذا تلا ألقى الشيطان الشك في تلاوته.

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقَى لَهُمَا...﴾ (القصص ٢٣، ٢٤) فالسقيا والإصدار لا تكون إلا للأنعام هذا ما تدل عليه الأفعال يَسْقُونَ- تزدودان- نسقى- يصدر

﴿فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (الطور ٢٩) أى فذكر قومك

﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ (الحشر ٧) أى ما آفاء الله من غنيمة.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ (التوبة ٧٥-٧٦)

أما المفعول الذى يدل عليه سياق الكلام فمن شواهد ما يلي:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَقُضِيَ لِمَ﴾

يَمْسَسْنَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْ لِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (آل عمران ١٧٣ - ١٧٥) أى إنما ذلكم الشيطان يخوفكم أو لياؤه فلا تخافوهم.

* «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ» (الأنعام ٨ - ١٠) أى يدعونهم.

* «إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ سَيِّئَاتِهِمْ غَضِبَ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (الأعراف ١٥٢)، أى اتخذوا العجل إليها.

* «قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ» (الأعراف ١١٥) أى إما أن تلقى عصاك وإما أن نكون نحن الملقين حبالنا وعصينا.

* «وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ» (الأنفال ١٧) أى ومارميت المشركين إذ رميتهم ولكن الله رامهم.

* «أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» (التوبة ١٩) أى أجعلتم من يتولى سقاية الحاج.

* «قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسْحَرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ» (يونس ٧٧) أى أتقولون للحق لما جاءكم «هذا سحر» أسحر هذا؟

* «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ» (الرعد ١٤) أى والذين يدعونهم

* «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ» (الإسراء ٥٧) أى الذين يدعونهم وهم الشركاء المزعومون.

* «وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ» (النور ٤٣) أى وينزل من

السماء بردا من جبال فيها من برد.

* «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» (سبأ ٤) أى ليجزى الذين امنوا وعملوا الصالحات مغفرة ورزقا كريما.

* «أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ» (العاديات ٩ - ١١) أى أفلا يعلم أن ربه خير إذا بعثر ما فى القبور...

* «وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ» (النساء ٩) أى خافوا عليهم جور الأوصياء.

فدليل الحذف فى كل ذلك ليس فى المعنى المفرد للفظ الفعل وإنما يؤخذ من سياق الكلام فالمعروف أن الشيطان فى الشاهد الأول كان يخوف المؤمنين من أوليائه وأن المقابلة فى الشاهد الثانى بين سب الهتهم وسبهم لله تعالى وأن الفعل «اتخذ» فى الشاهد الثالث يتطلب مفعولا ثانيا وأوضح النص أنهم اتخذوه إلهها وهكذا فى بقية الشواهد.

وقد يكون المحذوف عنصرا غير نحوى ولكنه تقتضيه استقامة النص وقد يكون كلمة واحدة كفعل القول مثلا أو كلاما أطول من ذلك لربط سياق النص من الوضوح بدرجة تجعل ذكره إطنابا لا مبرر له. من ذلك مثلا قوله تعالى:

* «وَأَنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ» (الأنعام ٣٥) أى إن استطعت فافعل

* «لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهَدْيِ انْتِنَاءً» (الأنعام ٧١) أى قائلين له انتنأ

* «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ

أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ، (الأنعام ٩٢) أى قائلين لهم أخرجوا

* «وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ»

(الأنعام ١٢٨) أى يقول يامعشر الجن

* «قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ، (الأعراف ٨٨) أى كارهين أن نعود في ملكتم.

* «فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ،

(هود ٧٤) أى جعل يجادلنا

* «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا

وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاطُمْ عَنْهُ، (هود ٨٨) أى إن كنت على بينة من

ربي ألكفر به

* «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ

سَمَوْهُمْ (الرعد ٢٣) أى أقم من هو قائم على كل نفس بما كسبت ينسب إليه

شركاء.

* «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ، (إبراهيم ٤٨) أى

والسموات غير السموات.

* «قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ

فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، (الإسراء ٥٠ - ٥١) أى

كونوا كذلك فلا بد من إعادتكم وبعثكم.

* «فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، (مريم ٢٩) أى

أشارت إليه أن كلموه أو اسألوه

* «إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ، (طه ١٠) أى آنست نارا

وسأذهب إليها لعل آتيتكم منها بقبس.

* «قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ
يَبْنَؤُا مَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي، (طه ٩٢ - ٩٣) اى قال وقد اخذ بلحية
أخيه ورأسه يجره إليه ياهرون مامنعك.....

* «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ، (الفرقان ٢٠) اى لنعلم
أتصبرون أم لا.

* «وَتَقَفَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ
عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحْطَطُ بِمَا لَمْ تَحْطُ بِهِ، (النمل ٢٠ - ٢٢) اى وجاء الهدم فعلم بما قاله
سليمان فخاف العقوبة فمكث غير بعيد.

* «إِذْ هَبَّ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ
قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ، (النمل ٢٨ - ٢٩) اى فذهب الهدم
بالكتاب فالقاه إليهم فلما وقع في يدها قالت يا أيها الملأ.....

* «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ
أَبْحُرٍ مَا نَفَذَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ، (لقمان ٢٧) اى وسخر ذلك لكتابة كلمات الله
مانفذت كلمات الله.

* «الْم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَأُرِيَبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ،
(السجدة ١ - ٣) اى ايصدقون ذلك أم يقولون افتراه.

* «وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلُومًا تَمَتَّعَ بِكُفْرِكُمْ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
أَصْحَابَ النَّارِ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتُ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو
رَحْمَةَ رَبِّهِ، (الزمر ٨ - ٩) اى أهذا خير أمن هو قانت.

* «أَنْذَا مِثْنًا وَكُنَّا ثُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» (ق ٢) أى أيدامتنابعث مرة أخرى ومن ظواهر التضام أيضا الزيادة.. والقول بالزيادة ينسب إلى النحو ولا ينسب للقران.. ذلك بأن الزائد إنما هو زائد على أصل النمط أى على أصل وضع الجملة، فَلْجُمَلَةٌ أركانها وفضلاتها من المنصوبات، والمجرورات، فإذا ورد فيها غير ذلك فهو زائد على مطالب الصحة والإفادة ومادامت زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فإن في زيادة المبنى تأكيدا للمعنى وهذا ما اعترف به البلاغيون وطبقه الأدباء من كل الطوائف وما دمنا نعترف بأن النص القرآنى يشتمل على تأكيد للمعنى، فإن الزيادة إحدى وسائل التوكيد لامشاحة في ذلك. وهكذا يجب أن ندخل إلى القضية وألا ننسب القائلين بالزيادة إلى التزييد على النص القرآنى لأن الزيادة نحوية لا قرآنية، إذ ليس المقصود أن القران نزل بدون هذه الزوائد، ثم زيدت هذه عليه (حاشا لله)، كما أن القول بالحدف منذ قليل لايعنى أننا ذهبنا إلى أن بعض الفاظ القران أهدر وبقي البعض الآخر والعياذ بالله. فإذا علمنا أن كل زيادة إنما جىء بها لتأكيد المعنى أصبح من المستحسن أن نشير إلى أن الزيادة إنما تكون عادة في الحروف وبعض الضمائر. وفيما يلي طائفة من الشواهد على ذلك فمن زيادة حرف الجر قوله تعالى:

- * «وَلَسْتُمْ بِأَخَذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ» (البقرة ٢٦٧)
- * «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا» (هود ٢٩)
- * «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ» (الشعراء ١١٤)
- * «أَتَتْرَكُونَ فِيمَا هَهُنَا آمِنِينَ» (الشعراء ١٤٦) أى أتتركون ههنا
- * «وَمَا رَبِّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ» (فصلت ٤٦)
- ومن زيادة «لا» قوله تعالى:

* «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ» (الأنعام ١٠٩) أى إذا جاءت يؤمنون.

* «قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» (الأعراف ١٢) أى مامنعك أن تسجد

* «قَالَ يَٰ كَاهِرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا إِلَّا تَتَّبِعَنِ» (طه ٩٢) أى مامنعك أن تتبعني.

* «وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ» (فاطر ١٩ - ٢٢) أى وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ولا الظل والحرور وما يستوى الأحياء والأموات.

* «وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ» (فصلت ٢٤) أى الحسنه والسيئه.

* «لِيَأْتِيَ عِلْمَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ» (الحديد ٢٩) أى ليعلم.

* «فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ» (المعارج ٤٠) أى فاقسم

* «لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ» (البلد ١) أى أقسم

ومن زيادة حرف العطف قوله تعالى:

* «إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ

النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا...» (ال عمران ١٤٠) أى نداولها ليعلم.

* «قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ

وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ» (ال عمران ١٥٤) أى لبرزوا ليبتل.

* «وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَّا يَعْلَمُونَ» (الأنعام ٥٥) أى
نفسل لتستبين ويكثر فى القرآن بدء الجملة بلفظ الإشارة، ثم زيادة الواو قبل
التعليل، كما حدث فى الآية السابقة، ومن ذلك (الأنعام ٧٥) - (الأنعام ٩٢) -
(الأنعام ١٠٥) - (الأعراف ١٧٤) - (يوسف ٢١) وغير ذلك.

* «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَلْتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ» (الأنعام ١١٢ - ١١٣) أى ذرهم وما يفترون
لتصغى.

* «حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا
تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ
لِيُبْتَغِيَكُمْ» (ال عمران ١٥٢) أى حتى إذا فشلتم تنزاعتم ثم صرفكم عنهم.

* «حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ
وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» (التوبة ١١٨) أى
حتى إذا ضاقت عليهم الأرض ظنوا

* «فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ
لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بَأْمَرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» (يوسف ١٥) أى فلماذا هبوا
واجمعوا أوحينا

* «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي» (طه ٢٩) أى ألقى
لتصنع

* «فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا»
(الصافات ١٠٣، ١٠٤) أى فلما أسلما وتله نادينا

* «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ
أَبْوَابُهَا» (الزمر ٧٣) أى حتى إذا جاءوها فتحت

* «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» (الحج
٢٥) أى: إن الذين كفروا يصدون.

وقد تزداد «ما» بعد «إن» فيتحول بها التوكيد الذي في إن إلى حصر والحصر أقوى كما في قوله تعالى:

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا... (المائدة ٣٣) أو تزداد بعد حرف الجر كما سبق في قوله تعالى: «أَتَتْرَكُونَ فِيهَا هَهْنَا أَمْنِينَ» (الشعراء ١٤٦) وقوله: «مِمَّا حَطَبَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا» (نوح ٢٥) وقوله: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ» (آل عمران ١٥٩). أما زيادة الضمير فاجدني شديد الميل إلى رؤية ما أطلق عليه النحاة ضمير الشأن ضميرا زائدا عن مطلب صحة الكلام وإفادته بقصد التوكيد لأن المضمون الذي يراد التعبير عنه، إنما تعبر عنه الجملة التي بعد ضمير الشأن، وبخاصة عندما رأوا هذا الضمير مبتدأ، أما إذا دخلت عليها «إن» أو إحدى أخواتها فزيادة الضمير بعدها كزيادة «ما» في «إنما». وهكذا أرى الفرق بين قوله تعالى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» (الإخلاص ١) وقولنا «قل الله أحد» هو فرق في التوكيد بالزيادة ويمكن الوصول إلى المعنى بقولنا «إنما لا يفلح المجرمون»، في قوله تعالى: «إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْمُجْرِمُونَ» (يونس ١٧)، وكذلك «ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ» (فصلت ٢٨) لأن ضمير الإشارة عندي يصلح للشأن، وقد يزداد الضمير للتأكيد في مواطن أخرى كما في قوله تعالى:

١ — * «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» (النمل ٣) أي وهم بالآخرة يوقنون

٢ — * «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ» (النمل ٥) أي وهم في الآخرة الآخسرون أو وفي الآخرة هم الآخسرون.

ومن ظواهر التضام ظاهرة الفصل. والفصل نوعان فصل بالمعنى النحوي وفصل بالمعنى البلاغي، وكان من الأفضل أن يستعمل أحد الفريقين لفظ

«الفصل» ويستعمل الآخر لفظاً آخر يحول دون الخلط في الفهم، ولكن الخلط الناتج عن هذا المصطلح المستعمل في فرعين من فروع دراسة اللغة أيسر مما يأتي من مصطلح آخر لمصطلح «المفرد» الذي يتعدد معناه في حدود مادة واحدة هي النحو. فالمفرد

أ- غير المثنى والجمع

ب- غير الجملة وشبه الجملة

ج- غير المضاف والشبيه بالمضاف

نعود من هذا الاستطراد إلى موضع الفصل بقسميه فنبداً الكلام في الفصل النحوي. حين وضع النحاة للجملة النحوية نمطاً جعلوا للمفردات في داخل الجملة درجات متفاوتة من الارتباط وجعلوا أقوى الروابط بين الكلمتين رابطة التلازم، ثم جعلوا لمفردات الجملة ميزة انتمائها إلى الجملة، وجعلوا كل مالا ينتمى إلى الجملة أجنبياً عنها وكرهوا الفصل بين المتلازمين بأجنبي، وإن لم يكرهوا الفصل بينهما بالجملة المعترضة لمالها من استقلال في الفهم يحول دون نسبتها إلى مجرى الكلام. فالقضية كما ترى هي قضية الحفاظ على قرينة التضام أن يحيط بالكلام ليس بسبب الترخص في تطبيقها.

ومما يوصف بلفظ «المتلازمين» الأداة ومدخولها والفعل والفاعل والمضاف والمضاف إليه والمنعوت ونعته، أو قل إن شئت المتبوع وتابعه بصورة عامة وما أشبه ذلك. دعنا الآن نأت ببعض الشواهد القرآنية على ظاهرة الفصل.

١- قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَيْرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا» (النساء ٤٣) فلو بحثنا

عن التوازن بين غايتي النهى لبدت الصورة على النحو التالي:

أ- وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون

ب- ولا جنبا حتى تغتسلوا

ثم جاء تركيب الاستثناء . فصل بين المعطوف و غايته.

٢ — * «وَأُورِثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا» (الأعراف ١٣٧) فصل بين الموصوف وصفته بما عطف عليه إذ المقصود والله أعلم: مشارق الأرض التي باركنا فيها ومغاربها.

٣ — * «وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ» (هود ٦٠) فصل بالمفعول الثانى بين المتعاطفين ولا يقال فصل بين نائب الفاعل والمفعول الثانى، لأن الفعل من أخوات أعطى ومفعولها ليسا متلازمين، لانهما ليس بينهما علاقة إسناد ملحوظة، كالتى بين مفعولى ظن.

٤ — * «قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» (الرعد ٤٣) أى كفى بالله ومن عنده علم الكتاب للشهادة بينى وبينكم ففصل بالتمييز وما تعلق به من ظرفية بين المتعاطفين.

٥ — * «قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالَمٌ الْغَيْبِ» (سبا ٣) أى قل بلى وربى عالم الغيب لتأتينكم ففصل بالجواب بين الموصوف وصفته لضرورة تأخير الصفة بسبب ما يتعلق بها مما يأتى بعدها مباشرة، وهو قوله تعالى: «لَا يُعْرَبُ عَنْهُ مُقَالُ دَرَّةٍ...» مما يعد تفسيراً لقوله «عالم الغيب».

٦ — * «يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (الجمعة ١) فصل بالجارو والمجرور بين الفعل والفاعل لإفادة تقييد

التسبيح بالجار والمجرور، ثم بالفاعل بين المجرور وصفاته لثلاثا تطول الشقة بين ركني الجملة بما ليس من أركانها.

٧ - * «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا» (الأنعام ١٥٨) فصل بالمفعول بين الفعل وفاعله لثلاثا يعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة، ثم فصل بين المفعول وصفته بالفاعل لثلاثا تطول الشقة بين ركني الجملة بواسطة ما ليس من أركانها أي بالفضلة.

٨ - * «قَالَ أَتُونِي أَفْرَغْ عَلَيْهِ قَطْرًا» (الكهف ٩٦) فصل بين فعل الأمر «أتوني» ومفعوله «قطرًا» بجواب الأمر. وإنما جعلنا ذلك فصلا مع أن الفاصل جملة تامة التكوين، لأنها على رغم تمام تكوينها لم تستوف شروط الجملة المعترض، وبخاصة شرط كونها أجنبية عن السياق ولا محل لها من الإعراب. ومن الواضح أن الفعل «أفرغ» مجزوم في جواب الأمر، ومن ثم يكون جوابا لا اعتراضا. ويجوز في الجملة أيضا أن تكون من قبيل التنازع، ولكن التقدير الأول أوضح ولا يحتاج إلى القول بال حذف.

٩ - * «وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمَنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ» (التوبة ١٠١)، والمعنى أن ثمة منافقين مردوا على النفاق ممن حولكم من الأعراب، ومن أهل المدينة. فصل بالمعطوف على الخبر المقدم أي بقوله «ومن أهل المدينة» بين المبتدأ المؤخر «منافقون» وبين صفته «مردوا على النفاق»، لأنه لو اتصل الخبر المقدم بالمعطوف فقليل: وممن حولكم من الأعراب، ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق، فلربما ظن السامع أن أهل المدينة داخلون في مفهوم «حولكم» وأن مثلهم في هذه الظرفية مثل الأعراب. وواضح أن أهل المدينة بينهم وليسوا حولهم، لأنهم يساكنونهم ويخالطونهم.

١٠ - * «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أِنِّي إِلَهُ شَكَ قَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» (إبراهيم ١٠)

فصل بين الموصوف وهو لفظ الجلالة وبين صفته «فاطر» بالمبتدأ المؤخر، لأن الفصل بالصفة المركبة من الإضافة والعطف بين الخبر المقدم والمبتدأ المؤخر ليصير الكلام: أفي الله فاطر السموات والأرض شك هذا الفصل يضعف ما بين الخبر المقدم والمبتدأ المؤخر من رابطة ويجعل التركيب قلقا.

١١ - * «وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» (النساء ٣٦) فصل بين المتعاطفين وهما الوالدان، وذو القربى بالمصدر المنصوب على معنى الأمر، لأن المصدر لو تقدم فقول «وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَإِحْسَانًا بِالْوَالِدَيْنِ...» لظنه السامع معطوفا على لفظ «شيئا» أى لا تشركوا به شيئا ولا تشركوا به إحسانا بالوالدين، أى لا ينبغي لبر الوالدين أن يكون على حساب عبادة الله وحده. ولو تأخر المصدر المنصوب «إحسانا» عن قوله: «وماملكت أيمانكم» لضاع ما يحمله من معنى الأمر وضعفت الرابطة بينه وبين بقية الكلام.

هذا الذى تقدم هو الفصل النحوى الذى قوامه الفصل بين المتلازمين بفاصل هو دون الجملة، إلا أن تكون الجملة ذات محل إعرابى كما فى رقم ٨ السابق، فإنها تعد كالمفرد، لأنها حلت محله واتخذت لنفسها إعرابه، فالفصل بها كالفصل بالمفرد. أما إذا كانت الجملة أجنبية على التركيب ولا محل لها من الإعراب، وكانت مستقلة بإفادتها، فإن الفصل بها يسمى الاعتراض، كما سنرى فيما بعد.

والفصل البلاغى وإن كانت وسيلته نحوية يختلف عن الفصل النحوى، ولعل إيراده فى هذا المكان وتقديم القول فيه عن موضعه فى الدراسة الأسلوبية، إنما هو هذه الوسيلة النحوية وهى حذف حرف العطف. ولقد كان يمكن أن ندرسه فى معرض دراسة حذف الحرف، التى تقدم القول فيها لولا

أن للفصل البلاغى من خصوصية المقام ما يجعله شيئاً آخر غير مجرد الحذف النحوى. ذلك بأن الفصل البلاغى ينم دائماً عن موقف انفعال قد يكون خوفاً أو غضباً أو استعجالاً أو استغراباً أو تعجباً، وغير ذلك من هذا النوع من المواقف الجديدة. وسنرى ذلك واضحاً وضوحاً تاماً فيما نورد من الشواهد التالية إن شاء الله: قال تعالى:

«وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا / قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ / كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ» (البقرة ٦٠) الموقف موقف تعجب للمعجزة.

«وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ / غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا / بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ» (المائدة ٦٤) الموقف موقف غضب لقولهم الشنيع وتنزيهه لله سبحانه وتعالى.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ / لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ / إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا» (المائدة ١٠٥) الموقف موقف تشجيع وحث.

«وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ الْإِنِّهِنَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ / إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ / نَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ / إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ / مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ» (المائدة ١١٦ - ١١٧) الموقف موقف التبرؤ مما نسب إليه.

«قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ / لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا / رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ / ذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ / لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ» (المائدة ١١٩ - ١٢٠) الموقف موقف فصل القضاء.

قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ / قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ
 قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ / قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ /
 مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ / إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ / يَقْضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ
 الْفَاصِلِينَ / قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ،
 (الأنعام ٥٦ - ٥٨) الموقف موقف نزاع وتحد.

قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا
 يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا / وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا /
 عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا / رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ،
 (الأعراف ٨٩) الموقف موقف التبرؤ والرفض.

* «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا / الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا
 هُمُ الْخَاسِرِينَ» (الأعراف ٩٢) الموقف تشديد النكير عليهم. (لاحظ أيضا
 التكرار بإعادة اللفظ)

* «قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِي / إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ /
 إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ / قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ
 عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ» (يونس ١٦١٥) الموقف موقف رفض الانصياع
 للإغواء (لاحظ استعمال «ولا أدراكم» بدلاً من «وما أدراكم» لاتقاء التباس
 النفي بالتحجب).

* «قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا / سُبْحَانَهُ / هُوَ الْغَنِيُّ / لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ / إِنْ عُنِدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا / أَنْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا
 تَعْلَمُونَ / قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلَحُونَ / مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا
 ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» (يونس ٦٨ -
 ٧٠) الموقف موقف الاستبشاع لما قالوا.

• وَقَالَ غَسَّوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةٌ الْعَرِيزَةُ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ / قَدْ
شَغَفَتْهَا حُبًّا / إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (يوسف ٣٠) هذا موقف الغيبة
ونشر الشائعة وشهوة استباحة العرض مع الهمس والتخفى.

• قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَاتَكُمَا بِنَآئِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيكُمَا
/ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي / إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ / مَا
كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ / ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ
وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ / يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ
أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ / مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ / إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ / أَمَرَ آلَا تَعْبُدُوا
إِلَّا إِيَّاهُ / ذَلِكَ الَّذِينَ الْفُتِيمُ وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، (يوسف ٣٧-٤٠)
هذا موقف تبليغ الرسالة وهو الموقف الوحيد الذي يبدو فيه يوسف نبيا
ورسولا. فيما عدا إشارة إلى ذلك في سورة غافر ٣٤.

• وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ / قَالَ الَّذِينَ
حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا / أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا /
تَبَرَأْنَا إِلَيْكَ / مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ، (القصص ٦٣) وهذا موقف فزع
وتمحل أعذار.

• وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا
يَعْبُدُونَ / قَالُوا سُبْحَانَكَ / أَنْتَ وَلِيِّنَا مَنْ دُونَهُمْ / بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ
الْجِنَّ / أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ، (سبا ٤٠-٤١) وهذا موقف تبرؤ من
المشركين يوم الحشر.

• قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي
شِقَاقٍ بَعِيدٍ / سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ

الْحَقُّ / أَوْلَمُ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ / الْإِنِّهِمْ فِي مَرِيَّةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ / أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ، (فصلت ٥٢ - ٥٤) وهذا موقفٌ تسفيهٌ وتهديدٌ.

«لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَىٰ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ / بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ / تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقَلُوبُهُمْ شَتَّىٰ / ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ / كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا / ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ / كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ...» (الحشر ١٤ - ١٦) هذا موقفٌ دمٍ غاضبٍ

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ / هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ / هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ / سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ / هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ / لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ / يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، (الحشر ٢٢ - ٢٤) وهذا موقفٌ تسبيحٍ وتنزيهٍ قصد به الرد على الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ / كَانَهُمْ خَشَبٌ مُسْتَدَدٌ / يُحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ / هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ / قَاتِلْهُمْ اللَّهُ / أَلَيْسَ يُؤْفَكُونَ، (المنافقون ٤) وهذا موقفٌ دمٍ غاضبٍ ودعاءٍ وتهديدٍ.

نصل الآن إلى قضية الاعتراض. والمقصود اعتراض مجرى النمط التركيبي بما يحول دون اتصال عناصر الجملة بعضها ببعض. اتصالاً تتحقق به مطالب التضام النحوي فيما بينها. والجملة المعترضة في كل أحوالها اجنبية عن مجرى السياق النحوي فلا صلة لها بغيرها ولا محل لها من الاعراب وإنما هي تعبير عن خاطر طارئ من دعاء أو قسم أو قيد بشرط أو نفى أو وعد أو أمر أو نهى أو تنبيه إلى ما يريد المتكلم أن يلفت إليه انتباه السامع. وفيما يلي طائفة من

الشواهد تشتمل على أنواع من الاعتراض الذى يوصل به إلى هذه الأغراض
قال تعالى:

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْذِبُونَ، (البقرة ١٠)

في الآية اعتراض للدعاء على مرضى القلوب المذكورين.

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا (وَلَنْ تَفْعَلُوا) فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ، (البقرة ٢٤)

وهذا الذى في الآية اعتراض للتعجيز والتحدى بواسطة تأييد النفى

مستقبلا.

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (لَيْسَ لَكَ مِنَ
الْأَمْرِ شَيْءٌ) أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ، (آل عمران ١٢٧ -
١٢٨)

وفي هذه الآية اعتراض بالجملة المنفية لتنبية النبي عليه السلام إلى أن النصر

والهزيمة كليهما بأمر الله الذى له الاختيار وحده فيما يريد.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا (وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ) وَمِنْ
ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ، (الأنعام ٨٤)

جاء الاعتراض للدلالة على أن الله هدى أصولاً لإبراهيم كما هدى فروعاً

ليكون إبراهيم أو غل في الهداية أو لما بين إبراهيم ونوح من شبهة في التعرض

للهلاك ثم النجاة أثناء الدعوة.

اتَّبِعْ مَا أوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ،

(الأنعام ١٠٦)

الاعتراض لاعلان التوحيد والتنزيه.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ (يَا شُعَيْبُ) وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مَلَّتِنَا، (الأعراف ٨٨)

الاعتراض بالنداء ليكون التهديد بالاخراج أكثر توجهاً إلى شعيب وإن
شاركه أتباعه في تلقى التهديد.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ (إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً) مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ
الْمُجْرِمُونَ، (يونس ٥٠)

جاء الاعتراض بالشرط بين عناصر مفسر الجواب إذ لو كان «ماذا
يستعجل» هو جواب الشرط لاقرن الجواب بالفاء لكون الجواب يبدأ بـ «ما»
والتقوير.

قل أرايتم الوعد ماذا يستعجل منه المجرمون إن أتاكم عذابه بياتا أو نهاراً
قَالُوا يَا لَوْطُ إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ
(وَلَا يَلْتَفَتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ) إِلَّا أَمْرَاتِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ، (هود ٨١) أَى
اسر بأهلك إلا أمراتك والاعتراض للتحذير.

قَالُوا تَاللَّهِ (لَقَدْ عَلِمْتُمْ) مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ،
(يوسف ٧٣) أَى تالله ما جئنا لنفسد والاعتراض لإثبات علم المخاطبين
بمضمون جواب القسم.

فَأَمَّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ
العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ (فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) أَوْ
يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ، (النحل ٤٥ - ٤٧)

جاء الاعتراض للتنبيه إلى قدرته تعالى عليهم ولرعاية الفاصلة.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا
كُنْتُ (وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ

يَجْعَلُنِي جَبَّاراً شَقِيًّا، (مريم ٣٠ - ٣٢) أى جعلنى مباركا أينما كنت وبراً بوالدتى وجاء الاعتراض بجملة تشتمل على التكاليف وقد سبقتها ولحقت بها نعم الله عليه.

«ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ (قَوْلَ الْحَقِّ) الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ، (مريم ٣٤) أى ذلك عيسى ابن مريم الذى فيه يمترون وجاء الاعتراض لتأكيد أنه كذلك.

«اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ (الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ) يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ، (النور ٣٥) أى فيها مصباح يوقد من شجرة مباركة واعتراض لبيان أحوال إضافية للمصباح تكشف عن قوة إضاءته.

«أَلَمْ يَرَوْا (كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ) أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ، (يس ٣١) أى ألم يروا أنهم إليهم لا يرجعون. وجاء الاعتراض لبيان كثرة الأجيال الهالكة.

«هَذَا عَطَاؤُنَا (فَأَمْنٌ أَوْ أَمْسَكٌ) بِغَيْرِ حِسَابٍ، (ص ٣٩) أى هذا عطاؤنا بغير حساب وجاء الإعتراض ليمنحه حرية التصرف فيما أعطاه الله.

«هَذَا (فَلْيَذُوقُوهُ) حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ، (ص ٥٧) أى هذا حميم وغساق فليذوقوه، واعتراض بجملة الأمر لبيان استحقاقهم أن يذوقوه.

«وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ نَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّأُوهُمْ فَتُصَيِّبُكُمْ مِنْهُمُ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ (لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً، (الفتح ٢٥) أى ولولا أن تطأوا بغير علم رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم فلو تزيّلوا لأصابتكم منهم معرة لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما واعتراض بقوله «ليدخل الله في رحمته من يشاء» ليدل على أن عدم دخول المسلمين مكة في هذه الغزوة كان رحمة بهؤلاء المؤمنين المستخفين. وإنما لم نعد قوله: «فتصيبكم منهم معرة»

اعتراضا بين «أن تطاؤهم» و «بغير علم» لأنه معطوف بالفاء على «أن تطاؤهم».

«فَذَكَرَ فَمَا أَنْتَ (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ» (الطور ٢٩) اعترض
بجملة القسم ليؤكد نفى الصفتين عنه.

«وَأِنَّهُ لَقَسَمٌ (لَوْ تَعْلَمُونَ) عَظِيمٌ» (الواقعة ٧٦) اعترض بجملة الشرط
المحذوفة الجواب لتعظيم هذا القسم وتفخيمه ثم لبيان جهلهم بهذه الحقيقة.

«مَا أَنْتَ (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) بِمَجْنُونٍ» (القلم ٢) اعترض بجملة القسم لتأكيد
نفى ما اتهموه به باطلا من الجنون.

ومن ظواهر التضام إدخال اللفظ على غير مدخوله. وقد عرفت هذه
الظاهرة في النحو العربي بأسماء متعددة منها حذف المدخول الأصلي ومنها
نيابة الحرف عن الحرف ومنها التضمنين فمن حذف المدخول الأصلي وإدخال
اللفظ على غير هذا المحذوف قوله تعالى:

«وَإِنْ كَلَّمَا لْيُؤَقِّبِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ» (هود ١١١) إذ المعلوم أن «لما» حرف
جزم يدخل على المضارع ونعلم أيضا أن من قواعد النحاة قولهم «لا يدخل
الحرف على الحرف» ولكن «لما» بدلا من أن تدخل على الفعل المضارع دخلت
على اللام الموطئة للقسم وقد أول النحاة ذلك على حذف مضارع مجزوم بـ
«لما» والتقدير:

«وإن كلما يؤوقوا أعمالهم ثم الاستئناف بجملة «ليؤقبنهم». ومن ذلك
أيضا:

«قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ»
(الإسراء ١٠٠) إذ دخلت «لو» على الضمير وحققا أن تدخل على الفعل الماضي
وربما أول النحاة ذلك بحذف «كان» وانفصال الضمير بعد الحذف والأصل:

«لو كنتم تملكون» نقول ذلك استرشاداً بِصَنِيْعِهِمْ في قول الشاعر: أما أنت ذا نفر، إذا أولوا ذلك على نزع الخافض وحذف كان ونيابة ما عنها.. وانفصال الضمير وقدروا العبارة: «لأن كنت ذانفر» والمعروف أن نزع الخافض يطرد في «أن» و «أن» ولم يقولوا بزيادة ما لأن الحذف والزيادة لو اجتمعا في موقع واحد من الجملة لكان عبثاً. وفي رأيي أن الرواية تحتمل كسر همزة «إما» بتقدير «إن» الشرطية وما النائية عن «كان» أو أن تقدير فتح اللام في «لأن كنت» على معنى القسم الذي جوابه مقدر أى لنحن أكثر عدداً أولى من كسرها وعندئذ تكون الفاء سببيه تشرح سبب كثرة عددهم وأما نيابة الحرف عن الحرف فمصدرها المبدأ الذي يسمح للمبنى الوظيفي أن تتعدد معانيه وإنك لورجعت إلى معاني حروف الجر مثلاً في أى من متون النحو لوجدت المعنى الواحد ربما عبر عنه عدد من الحروف وحسبنا أن نقتبس شطرة واحدة من الفية ابن مالك لنستدل بها على ما نقول وهي قوله:

«على للاستعلاء ومعنى في وعن»

فلم يجعل معنى «على» الاستعلاء فقط وحين أراد أن يعدد معانيها الأخرى لم يقل «والظرفية والمجازة» وإنما قال «ومعنى في وعن» مما يدل صراحة على نيابة «على» عن «في» و «عن». ولو قرأنا قوله تعالى: «كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَحْكُمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ» (الحج ٢٢ - ٢٤) لصادفنا «من» الجارة تتكرر عدة مرات بمعانٍ مختلفة على النحو التالي:

١ - منها = ابتداء الغاية

٢ - من غم = السببية (أى معنى اللام)

٢ - من تحتها = زائدة للتأكيد

٤ - من أساور = معنى الباء

٥ - من ذهب = البيان وهو (معنى التمييز) أى أساور ذهب

٦ - من القول = البعضية

فهذه ست معان عبرت عنها «من» نابت في أحدها عن اللام وفي غيره عن الباء ، وقد تأتي «من» بمعنى «دون» كما في قوله تعالى :

«وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِيٌّ مِنَ الذُّلِّ» (الإسراء ١١١) أى دون الذل.

«إِنَّكُمْ مَنَا لَا تُنصِرُونَ» (المؤمنون ٦٥) أى دوننا.

«إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا» (النجم ٢٨) أى دون الحق.

وقد تأتي «من» للمجازة (أى بمعنى عن) كقوله تعالى : «أطعمهم من جوع وأمّتهم من خوف» (قريش ٤) وتنوب اللام عن «على» نحو «دعائنا لجنته» (يونس ١٢) وعن «عن» نحو «قال الذين كفروا للذين آمنوا ، (يس ٤٧) وتأتى بمعنى السببية نحو «أقم الصلاة لذكرى» (طه ١٤) والظرفية نحو «أقم الصلاة لذلوك الشمس» (الإسراء ٧٨) وتنوب «عن» عن اللام نحو «وما نحن بتاركى الهتنا عن قولك» (هود ٥٢) وكذلك تأتي «على» للاستعلاء نحو «ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام» (الحج ٢٨) وتأتى بمعنى المعية نحو «إن ربك ل ذو مغفرة للناس على ظلمهم» (الرعد ٦) ونحو «أبشّرتمونى على أن مسنى الكبر» (الحجر ٥٤) وبمعنى «أمام» نحو «ولتصنع على عيني» (طه ٣٩) وتنوب «فى» عن «على» نحو «ولأصلبكنم فى جذوع النخل» (طه ٧١) وقد أتى «بل» للتأكيد نحو «بل الذين كفروا فى عزة وشقاق» (ص ٢) وايضا «بل هم فى شك من ذكرى بل»

لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابَ ، (ص ٨) وقد تاتى «اذ» للسببية نحو « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ ، (الاحقاف ١١) وقوله « فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأَوْلئك عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ، (النور ١٣) وقد تاتى «ار» نائبة عن همزة التسوية و «ام» التى تعطف بعدها كما فى قوله تعالى :

١ - « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، (الإسراء ٥٠ ، ٥١) أى سواء اكنتم حجارة أم حديدا أم خلقا فلا بد من البعث .

٢ - « قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، (الاسراء ١٠٧)

٣ - « قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ، (الإسراء ١١٠)

٤ - « اصْلَوْهَا فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ، (الطور ١٦)

٥ - « وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ ، (الملك ١٣)

ومعنى التسوية هذا يؤديه تكرار «إما» أيضا نحو

« حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَآيُوعِدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ، (مريم ٧٥) أى سواء اكان المرئى العذاب أم كان الساعة .

« إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ، (الإنسان ٣) أى سواء اكان شاكراً أم كان كفوراً وليست النياية خاصة بالحروف فقط فقد ينوب المصدر عن فعل الامر وقد تنوب عناصر بعينها عن المفعول المطلق وقد ينوب المفعول عن الفاعل وقد تنوب الفتحة عن الكسرة وقد ينوب العوض عن العوض وقد ينوب جواب القسم عن جواب الشرط والعكس صحيح وقد تنوب صيغة «فعل» بضم العين عن «نعم وبئس» وقد ينوب الفاعل عن الخبر إذا كان المبتدأ وصفاً وقد تنوب الحال عن الخبر أيضا وقد تنوب صيغة صرفية عن صيغة

أخري كالذى تقدم من نيابة المصدر عن فعل الامر ونيابة وصف «فاعل»،
المنون عن المضارع المفيد للحال أو الاستقبال وهلم جرا.

ومن صور النيابة التضمين وإن كان لفظ التضمين يعنى معاني أخرى في
فروع أخرى بلاغية ونقدية فهو في الشعر تعلق قافية بيت بالبيت الذى يليه،
وفي البديع أن يأخذ الشاعر أو الناشر آية أو حديثاً أو بيتاً أو شطراً من بيت أو
عبارة من كلام غيره دون أن يغير لفظاً منه أو معنى، والتضمين في البيان أن
تعدى الفعل بغير حرفه أما في النحو فهو إشراب كلمة معنى كلمة لتقع موقعها
وتتبعوا بيئتها في الكلام وتؤدى وظيفتها النحوية ، وقد رأينا نموذجاً من ذلك
في نيابة الحرف منذ قليل ولكن ظاهرة التضمين النحوى أوسع مدى من إقليم
الحروف كما يبدو من الشواهد التالية : قال تعالى :

« قَلَمًا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ » (هود : ٧٠) ضمن «تصل» معنى
«تمتد» لأن الأيدي لم تمتد حتى تصل أو تقصر دون الوصول.

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا » (النحل ٩٢)
ضمن «نقض» معنى «جعل» أو «صير»، فانتصب به مفعولان أصلهما المبتدأ
والخبر، ولا يمكن إبقاء «نقض» على معناه الاصلى وإعراب «أنكاثاً» حالاً لأن
ذلك يقتضى أن الغزل كان أنكاثاً حال النقض أى نقضت غزلها وهو أنكاث
وهذا غير المقصود لكون النقض عند ذلك يصبح تحصيل حاصل لما بين الحال
والفعل الناصب لها من ملابسة في الزمن والوقوع .

« يَعْظَمُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا » (النور ١٧) ضمن «يعظكم» معنى
«ينهاكم» على أن يعرب ما بعدها وهو المصدر المؤول منصوباً على نزع
الخافض أى ينهاكم عن العود لمثله وذلك لأن «وعظ» يتعدى بالباء كأن يقال
«وعظه بالحكم» ولو قدرنا الباء في مكان «عن» لتغير المعنى.

« وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا اقْتِرَانًا مَهْجُورًا ، (الفرقان ٣٠) ضمن «اتخذ، معني « جعل ، أو « صير » لان هناك فرقا في المعنى بين الاتخاذ والتحويل وأن المفعول الثاني للاتخاذ ينتسب إلي الفاعل بعلاقة الانتقاء والاصطفاء إذ تقول اتخذت زيدا صديقا أى انتقيته لهذه النسبة والناس لا يتخذون الشيء مهجورا وإنما يجعلونه كذلك.

« فُتَبِّسَمَ ضَا حَكَأَ مِنْ قَوْلِهَا ، (النمل ١٩) ضمن «ضاحكا، معني «عاجبا» أى «متعجبا» لان المعنى الحر في لتعدية الضحك بواسطة «من» هو السخرية والمعروف أن سليمان لم يسخر من النملة التي قالت هذا الكلام وإنما تعجب لما للنمل من حسن التدبير والاعتراف لبعض أفرادها بالقيادة والإرشاد ووجوب الطاعة.

« فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، (ص ٣٢) ضمن «أحب» معني « فضل » فعدى الفعل بـ « على » وهو يصل إلى مفعوله بنفسه.

« وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى » (فصلت ١٧) ضمن «استحبوا» معني «فضلوا» وسلط الفعل علي المفضل عليه بواسطة «على» كما يحدث مع الفعل «فضلوا» مع العلم ان «استحب» يتعدى بنفسه لا بالحرف ولا يتطلب لمفعوله مفاضلة ويكفي أن يقال إن الدعاء وقت الشدة «مستحب» دون أن نقول إنه مستحب على عدمه.

« وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ، (فصلت ٢٢) ضمن «تستترون» معني «تتحاشون» أو «تتجنبون» أو «تتقون» وإنما عبر بالاستتار لأن شهادة الجلود تعنى أنها لم تكن مستورة عند المعصية.

وأما إغناء أحد العنصرين عن الآخر فيبدو في عدة ظواهر في النحو العربي

ومن ذلك :

١ - إغناء الحركة عن الحركة كإغناء الفتحة عن الكسرة في إعراب ما لا ينصرف وعكسه في جمع المؤنث السالم.

٢ - إغناء «يا» النداء عن الفعل «أدعو» بدليل أن ما بعدها إما منصوب أو في محل نصب.

٣ - إغناء فاعل الوصف عن خبره عندما يكون الوصف مبتدأ.

٤ - إغناء الحال عن الخبر عندما يكون المبتدأ مصدراً أو تفضيلاً.

٥ - إغناء «أن» وما بعدها عن نصب مفعولى ظن.

٦ - إغناء المتقدم عن المتأخر من جوابى الشرط والقسم عند اجتماعهما.

٧ - إغناء العوض عن المعوض في كل صور التعويض.

وأمر أخري مشهورة في النحو العربي وكلها مستعمل في تراكيب القرآن لا يفتقر في شهرته إلى الاستشهاد على وجوده.

يبقى مما عددناه من مظاهر التضام ما أشرنا إليه باسم الشروط التركيبية التي تتضح بتحققها خصوصية السياق ومعناه التركيبى ومن ذلك :

١ - أن «أن» إذا سبقها علمٌ أو نحوه كانت مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوفاً فإذا وقع المضارع بعدها جاء مرفوعاً نحو « علم أن سيكون منكم مرضى » (المزمل ٢٠)

٢ - إذا كانت الجملة المفسرة لضمير الشأن مشتملة على مؤنث ظاهر غير فضلة وفعل لحقت به علامة التانيث رجح تانيث الضمير للقصة على تذكره للشأن وذلك كقوله تعالى : « فإنها لا تعمى الأبصار » (الحج ٤٦)

٢ - إذا اضيفت «أى» وحذف صدر صلتها بنيت على الضم نحو « ثُمَّ لَنُنزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ آيَهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتْيَاءً (مريم ٦٩) وقوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ (الإسراء ٥٧) .

٤ - إذا لم يعتمد المبتدأ الوصف على نفسى أو استفهام أو مبتدأ أو موصوف ضعف عند بعض النحاة ولكنه لا يمتنع في الكلام كقوله تعالى : « وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأعراف ١٢٩) »

٥ - إذا لم تكن جملة الخبر عين المبتدأ في المعنى وجب اشتمالها على رابط يعود على المبتدأ نحو « والله يريد أن يتوب عليكم » (النساء ٢٧) وقوله تعالى : « فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ » (النساء ٩٩)

٦ - قد يقترن الخبر بالفاء إذا كان المبتدأ موصولا نحو « وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » (محمد ٨)

٧ - شرط نقصان « دام » أن تقترن بـ « ما » المصدرية الظرفية .

٨ - أشهر ما تزداد كان في الكلام وهى بلفظ الماضى .

٩ - إذا انتقض النفى بيلا امتنعت الباء الزائدة .

١٠ - يندر في خبر فعل كاد وأخواتها أن يكون غير الفعل المضارع .

١١ - إذا أهملت « إن » المخففة لزمتم اللام الخبر لتكون فارقة بين التأكيد والنفى .

١٢ - إذا استعملت « ضرب » في المثل نصبت مفعولين نحو « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، (النحل ١١٢) »

١٣ - يطرد نزع الخافض قبل أن وأن .

١٤- لا يجوز حذف عامل المصدر المؤكد.

١٥- يعد الظرف متصرفا إذا صح أن يخبر عنه أو يضاف إليه.

١٦- قد توصف النكرة بالوصول إذا كان الوصول مسبوqa بصفة أخرى مفردة نكرة نحو «وَيْلٌ لِّكُلِّ هَمْزَةٍ لَمَزَةٍ الَّتِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ» (الهمزة ٢٠١)

١٧- إذا صدرت جملة جواب القسم بفعل ماض متصرف مثبت فحقها أن تقترن باللام وقد أو باللام وبما نحو «ثَالِثٌ لَقَدْ أَتَرَكَ اللَّهَ عَلَيْنَا» (يوسف ٩١)

١٨- لا يتعلق بفعل ظاهر من حروف القسم إلا الباء.

١٩- المبهم لا يتضح معناه إلا بالإضافة أو الوصف أو التمييز.

٢٠- بعض الظروف ملازمة للإضافة.

وهكذا نجد الشروط التركيبية من هذا النوع تعبيراً صادقاً عن طرق التركيب والتضام بين الكلمات وهكذا تعد الشروط المذكورة جزءاً لا يتجزأ من قرينة التضام.

الفصل السادس

الإعراب في التركيب القرآني

لم تحظ واحدة من قرائن النحو بمثل ما حظى به الإعراب من اهتمام النحاة، سواء منهم من ربط الإعراب بالمعنى ومن لم يربطه. نعم إن من النحاة من أنكر صلة الإعراب بالمعنى وجعل الحركات الإعرابية من مظاهر طلب الخفة هرباً من ثقل الإسكان فمثل الحركات في رأيه مثل التخلص بالكسر من التقاء الساكنين ومثل اجتلاب همزة الوصل وحركتها اتقاء البدء بالساكن. ولكن الرد على هؤلاء يأتي من جهات:

أ - أن علامات الإعراب ليس كلها حركات فقد يُدل على الإعراب بالحرف ولم يقل أحد إن الحروف من وسائل طلب الخفة.

ب - أن بعض المفردات يشتمل على مناسبة صوتية لحركة الإعراب كالذي نلاحظه في تغير حركة الراء في كلمة «امرئ» بحسب تغير حركة الاعراب فنقول:

قال امرؤ القيس - قرأت امرأ القيس - عجبت لامرئ القيس

أنت امرؤ فاضل - وماز لت امرأ فاضلاً - يالك من امرئ فاضل

فلولا اطراد التغير في الحركة الأخيرة ما تغيرت حركة المناسبة.

ج - أن القرآن الكريم نزل معرباً ووصل إلينا بالتواتر معرباً تلقته الأذان عن الشفاه وحكته السنة الأبناء عن روايات الآباء فما سمعنا يوماً أن واحداً من القراء روى اطراد الإسكان ولو على سبيل الشذوذ.

د - أن الحديث النبوي قد رواه الأعاجم بلفظه حيناً وبمعناه حيناً آخر فلم نجد أحداً يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم نصاً سكنت فيه أواخر الكلمات.

هـ أن الشعر العربي وصل إلينا معربا وما كان له أن يكون إلا معربا لأن كميات حركة الإعراب محسوبة في وزنه وهي جزء أصلي من قافيته وروح الشعر هي الحركات لاسواكن الحروف لأن الشعر إنشاد والانشاد لا يكون على ساكن.

و - أن المعنى قد يتوقف على الإعراب في بعض الحالات كما في «اتخذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ» (التوبة ٣١).
ز - أن الاعتداد بالحركة في القافية كان وراء تقسيمها إلى مطلقة ومقيدة.
ذلك رد على من ينكر صلة الإعراب بالمعنى ويجعله سعيا إلى طلب الخفة.

أما الذين اعترفوا بصلة الإعراب بالمعنى فقد بالغوا في ذلك حتى خرجوا عن جادة الصواب فلم يكن خطؤهم أقل من خطأ أولئك المنكرين. لقد لقيت قرينة الإعراب من هؤلاء قدرا من الحفاوة جعلهم يتجاوزون النظر إلى وضعها بين قرائن النحو إلى أن يجعلوها النحو كله تقريبا، وبنوا على الإعراب هيكلا نظريا أطلقوا عليه اسم «العمل النحوي» صيروا هذا الهيكل غاية تقصد إليها دراسة النحو وينتهي إليها فهمه ويسعى إلى تحصيلها تعليمه. وهكذا أصبح النحو عندهم ضبط أو آخر الكلم بحسب المعنى. ولكن الناظر إلى أنواع الكلم يرى أن بعضها يقبل التغير الإعرابي في آخره والبعض الآخر يأبى هذا التغير إما لتعذر ظهور الحركة على المفرد أو ثقله أو لأن العنصر الذي يستحق الإعراب مركب والمركب لا تظهر عليه الحركات والذي يقبل الإعراب من المفردات هو الكلمات المتمكنة وهي التي تتوافر لها الصفات الآتية:

- أ - أن تخلو من شبه الحرف لفظيا ومعنويا.
- ب - أن تكون ذات أصل اشتقاقى قوامه الأصول الثلاثة: فاء الكلمة وعنيها ولامها.
- ج - أن تكون ذات صيغة صرفية
- د - يضاف إلى ذلك وإن لم يكن شرطا في التمكن أن تكون الكلمة منتهية

بحرف تظهر عليه العلامة الإعرابية دون تعذر أو ثقل.

وتتحقق هذه الشروط للأسماء والأوصاف بحسب الأصل وللمضارع الصحيح الآخر بعلّة الشبه شريطة ألا تتصل به إحدى النونين (نون التوكيد ونون النسوة).

ولكن طائفة أخرى من المفردات وما يقوم مقام المفردات تتأبى على قبول علامة الإعراب فلا يتضح معناها النحوي (كالفاعلية والمفعولية الخ) بواسطة الحركة الإعرابية وإنما تقدر عليها الحركة تقديرا لتعذر ظهورها أو ثقله. ومن ذلك:

أ - الاسم المقصور والمضارع المعتل بالالف تقدر الحركة عليهما للتعذر

ب - الاسم المنقوص والمضارع المعتل الآخر بالياء أو بالواو تقدر الحركة عليهما للثقل في حالة الرفع لهما وحالة الجر للمنقوص.

أضف إلى ذلك طوائف أخرى لا تقبل الحركات لفظا وإنما تنسب إلى الإعراب تقديرا. ومن هذه الطوائف:

ج - المبنيات من الأسماء والضمائر الشخصية والإشارات والموصولات ومبنيات الظروف والمضارع المبنى.

د - الماضى والأمر اذا وقعا موقعا يستحق الإعراب.

هـ - المركبات العددية.

و - الجمل ذوات المحل وهى التى تحل محل المفرد

ز - العناصر التى لا تستحق الإعراب لاعتماد معناها على أمور أخرى غير الإعراب كالاقتدار والاختصاص والرتبة وهى الحروف والأدوات وجوامد الألفاظ غير المنصرفة كعسى وليس الخ.

ح - وأخيرا يأتى عنصر مركب هو المصدر المؤول الذى ينسب إلى ما

يستحقه المصدر الصريح من إعراب. هذه الأنواع الأخيرة (ج د هـ و) تنسب إلى المحل الإعرابي ولا تنسب الطائفة (ز) إلى إعراب أبداً وأما (ح) فيقال فيه: «أن وما بعدها في تأويل مصدر مرفوع أو منصوب أو مجرور حسب الموقع، وهي عبارة غامضة لا يتضح منها أيهما المرفوع الخ هو المؤول أم الصريح الذي آل إليه المؤول.

فإذا كانت هذه الطوائف لا يستبين معناها بالعلامة الإعرابية فإن نسبتها إلى تقدير الحركة أو المحل لا تعد قرينة لأن من شأن القرينة أن تقود الفهم لا أن يخرعها الفهم لأن تدخل الفهم بالاختراع يجعل المخرع نتيجة متأخرة عن الفهم لا قرينة متقدمة عليه تقوده إلى المعنى. ومن ثم لا يجدى لتكشف المعنى أن تنسب العنصر اللغوي إلى حركة مقدرة أو محل مقدر لأن ذلك يلحق التكتشف ولا يقود إليه كشأن القرائن. والواقع أن القول بالمحل الإعرابي لا ينتمى إلى قرينة الإعراب وإنما هو نوع من استعمال فكرة «المعاقبة» في الموقع، وقد جاء شرح هذه الفكرة في صدر الكلام عن قرينة التضام.

حتى حين تظهر الحركات الإعرابية على أواخر المفردات ومن ثم يتضح أمامنا إعراب هذه المفردات لا يعد ذلك كافياً لبيان معنى الجملة. دعنا نذهب أبعد من ذلك فنقول إنه حتى لو تضافرت قرائن أخرى مع الإعراب كالرتبة والربط وما قد يكون هناك من افتقار أو اختصاص فإن هذه القرائن ستصل بنا إلى نقطة المعنى الإعرابي التحليلي ولا تتخطاه بالضرورة إلى معنى التركيب في عمومه كما يبدو من العبارة الآتية:

«تربص الصباح بالقصيدة فمرجها فكانما ابتلع موق إبطها»

إذا كان الكلام هو القول المفيد فليس هذا كلاماً ولئن أمكن إعراب مفرداته. لنحن قادرون أن نلاحظ على هذه المفردات فقدها للتناسب للأسباب الآتية:

١ - الصباح لا يتربص لأنه لائية له

٢ - والقصيدة لا يتربص بها لأنها لا تصلح ضحية كيد ولا تمرج لأنها ليست مما يقبل ذلك.

٣ - والصبح لا يبتلع شيئا لأن كل ما فيه شأنه البروز والوضوح أما الليل فقد يبتلع الأشياء مجازاً.

٤ - فإذا ابتلع شيئا فلن يبتلع الموق لأن الموق لا جسم له.

٥ - وليس للإبط موق وإنما يكون الموق للعين

وهكذا نجد هذه المفردات تفتقد المناسبة المعجمية التي هي قوام التوارد وهو نوع من التضام قسيم للتلازم والتنافي. تلك المناسبة هي السبب في قول النحاة إنه إذا أمكن العطف امتنع المفعول معه بمعنى أننا إذا نظرنا إلى عبارة مثل: أحب تلاوة القرآن وأذان الفجر. فإن أذان الفجر لا يصلح مفعولا معه لإمكان أن يكون هو محبوبا معطوفا على تلاوة القرآن فالعطف أولى أما إذا قلت: سار زيد ويمين الطريق فذلك لا يصلح للعطف لأن يمين الطريق لا يسير ومن ثم يكون مفعولا معه. فالقضية التي تحكم ذلك هي قضية المناسبة المعجمية التي بها يصلح الأمران أن يعطف أحدهما على الآخر أولا يصلح فينصب على المعية.

ولقد يسيء النحاة في بعض الحالات فهم دلالات الإعراب بسبب تمسكهم بفكرة العامل دون نظر إلى القيم الأسلوبية للجملة وقد حدث ذلك بصورة خاصة في فهمهم للمصادر المنصوبة على الإنشاء والتي عدوها منصوبة بواجب الحذف تمسكا منهم بفكرة العامل النحوي. ففي قوله تعالى: «إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ» (الذاريات ٢٥) يخلو للنحاة أن يقدرُوا ناصبا للمصدر فيقولوا إن أصله: «نسلم سلاما» وهكذا ينقلب المعنى رأسا على عقب فيتحول إلى الخبر بعد أن كان للإنشاء ولو كان خبرا لارتفع المصدر الأول كما ارتفع المصدر الثاني في الآية وقد جاء ردا على التحية إذ قاله

ابراهيم لضيفه وقد ارتفع المصدر الثانى على الإخبار لانه استجابة لإنشاء التحية الذى عبر عنه المصدر الأول. يكفى فى هذه الحالة ونحوها أن نعرب المصدر منصوباً على معنى الإنشاء ونجوز بهذا من تحريف مقاصد الأساليب. ويصدق ذلك على تراكيب قرآنية كثيرة مثل قوله تعالى:

«ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ» (مريم ٣٤) فعبارة «قول الحق» إنشاء لتأكيد الجملة ومن ثم لامناص من اعتبار هذا القول اعتراضاً (أى جملة معترضة) لمجرى الكلام الذى هو فى الأصل: «ذلك عيسى بن مريم الذى فيه يمترون».

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا» (لقمان ٨، ٩) فقوله «وعد الله حقاً» يشبه قولنا «يمين الله صدقاً» وهو قسم بدليل قول امرئ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

«لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ» (الزمر ٢٠) وهذا كسابقه يعد من قبيل القسم ولو قدر له محذوف لتحول خبراً.

«أُولَئِكَ الَّذِينَ نُنْقِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقِ» (الأحقاف ١٦) وهو إنشاء كسابقه.

«فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ» (محمد ٤) فهذا فى قوة «فاضربوا الرقاب» ولا يحتاج إلى تقدير فعل الأمر لأن لكل منهما مقاماً يستعمل فيه ليؤدى معنى الأمر.

«وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّوجَّلاً» (آل عمران ١٤٥) أى قضاء مبرماً بحسب وقت محدد فهذا أيضاً من قبيل الإنشاء الذى يمتنع به الاعتراض والأخذ والرد... ومثله قوله تعالى:

* «وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (النساء ١٢) وهذا يعنى إنشاء الفرض والتكليف وكذلك:

* «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» (النساء ٢٤) فهذا أيضا إنشاء تكليف لا يحتمل تقدير واجب الحذف. ومثله:

* «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً» (النساء ٢٤) ولا يقولن قائل إن «فريضة» حال فيذهب ذلك بالمعنى المقصود وهو إنشاء الفرض. ومن هذا القبيل كل ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا» أو «وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا» كما في: النساء ١٢٢ والتوبة ١١١ ويونس ٤ والنحل ٢٨ وكذلك قوله تعالى:

* «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ» (يونس ٢٣) والمقصود بالمتاع العيش المؤقت فكأنه يهددهم بما معناه: أقيموا مؤقتا في دنياكم وبعدها ستعودون إلينا. ومنه أيضا قول يوسف لإخوته:

* «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ» (يوسف ٧٩) لأنك لو ذهبت تلتمس ما تقدره هنا فإما أن تقدر فعلا من لفظ المصدر فتقول: «أعوذ بمعاذ الله» وفي هذا ركة وإطناب لا مبرر له وإما أن تقدر ما يجعله منصوبا على نزع الخافض فتقول: «ألجا معاذ الله» أى إلى معاذ الله وهذا أكثر ركة وإطنابا وتحويلا للآية عن المعنى المراد.

وليس معنى هذا اننى أنكر القول بالحذف جملة وتفصيلا وإنما ينصب الإنكار على جملة ما سموه واجب الحذف على نحو ما رأينا بل اننى لا أكاد اعترض على القول المأثور عن النحاة: «لولا الحذف والتقدير لفهمت النحو الحمير» فمادام الحذف يعتمد على وجود دليل على المحذوف فإن إدراكه يعد مظهرا من مظاهر قرينة السياق التى سنتكلم عنها بعد قليل. دعنا نسق مثلا

يتضح به ما نقول: ففى قوله تعالى: «قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» (هود ٨٧) يقوم اختلاف الضمائر بين «تأمرك» و«نترك»، دليلا على المحذوف لان أصل الأمر يتطلب أحد احتمالين:

أ - تأمرك أن تترك (أنت)

ب - تأمرنا أن نترك (نحن)

أما أن يتجه الأمر إلى شعيب ويكون التنفيذ منهم فذلك يحتاج إلى أن يقوم شعيب بعمل ما يؤدي إلى تنفيذهم للأمر وليس فى طوق شعيب أكثر من الدعوة ومن هنا يأتى تقدير الآية هكذا:

«يا شعيب أصلاتك تأمرك (أن تدعونا إلى) أن نترك ما يعبد آبأؤنا»

أو «يا شعيب أصلاتك تأمرك (بدعوتنا إلى) أن نترك ما يعبد آبأؤنا»

هذا حذف قام عليه الدليل ولا مناص معه من تقدير المحذوف وإلا تعثر الفهم. والمعروف كذلك أن أدوات الشرط وهمزة التسوية وهمزة إرادة التعيين والفعل «يستوى» وصيغ المشاركة كل ذلك يقتضى أمرين يستويان أو يعين أحدهما أو يعطف أحدهما على مشاركته أو يجاب عن أحدهما بالآخر فحين يأتى فى القرآن أحد الأمرين دون الآخر فان الأداة أو الهمزة أو الفعل هو دليل الحذف. فمن ذلك قوله تعالى:

* لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلْ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا» (الحديد ١٠) أى «لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل (ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل) أولئك (الأولون) أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد (ه) الله الحسنى»

* «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ

تَمَتَّعَ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا
وَقَائِمًا يَخْذُرُ الْأَخْرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ» (الزمر ٨، ٩) أى هذا خير أمن هو
قانت أناء الليل فالقرينة هنا من وجهين:

أ - أن «أم» لا تعطف إلا إثر همز التسوية أو همزة التعيين.

ب - ما يأتى بعد ذلك من قوله تعالى: «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين
لا يعلمون»

* «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَمَا
تَاتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ» (يس ٤٥ ، ٤٦) أى
إذا قيل لهم ذلك أعرضوا والقرينة:

أ - أن إذا تفتقر إلى الجواب ولا جواب لها في الآية.

ب - أن في قوله تعالى: «إلا كانوا عنها معرضين» ما يشير إلى الجواب
المحذوف.

* «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ»
(هود ٨٨) أى: أرايتم إن كنت على يقين من أمر ربي وكان ربي قد رزقني رزقا
حلالا (أكنت فاعلا ما تفعلون مما نهيتكم عنه أو تاركا دعوتكم إلى عبادة الله
وترك التطفيف في الكيل والوزن) إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت.

* «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»
(إبراهيم ٤٨) أى والسماوات غير السماوات.

فالحذف كما رأينا أمر لا مفر من القول به إذا أردنا أن نفهم الاستعمال
اللغوي على وجهه الصحيح لأن للحذف من المبررات أموراً لا مناص من
الاعتداد بها منها:

١ - الافتقار فإذا لم يذكر ما تقتقر إليه الكلمة فلا بد من القول بحذفه

٢ - الاختصاص فإذا رأينا اللفظ يدخل على غير ما يختص بالدخول عليه قلنا بالحذف

٣ - الرتبة فإذا وجدنا مثلاً دليلاً على الجواب متقدماً ولم يذكر الجواب متأخراً قيل إن الجواب محذوف فسرره ما تقدم

٤ - الربط فإذا لم يذكر الربط في أماكن وجوب ذكره قلنا بحذف الرابط.

٥ - المعنى المعجمي كما لاحظنا منذ قليل في فعل التسوية والمشاركة.

٦ - المعنى التركيبي للجملة كأن يذكر المبتدأ ويحذف الخبر أو العكس

٧ - المعنى الدلالي كما رأيناه في الشاهد الخامس فوق هذا الكلام (ابراهيم ٤٨)

أما التقدير فهو أوسع من مجرد تقدير العلامة الإعرابية أو تقدير المحذوف إذ قد يكون التقدير بالقول بالزيادة كما في قوله تعالى «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ» (الواقعة ٧٥) أو القول بالفصل كما في قوله تعالى: «أَفَى اللَّهِ شَكَ قَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» (ابراهيم ١٠) أو القول بإضمار العامل كما في قوله تعالى «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ» (الانعام ١٤٨) أى ولا أشرك أبائنا بدليل ما بعده من قوله «ولا حرمنا» أو تقدير المستتر كما في «أُرْسِلُهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ» (يوسف ١٢) ففي الفعل الأول ضمير واجب الاستتار وفي الفعلين الآخرين ضميران جائزا الاستتار، أو تقدير الضمير المحذوف في «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتِغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ» (الإسراء ٥٧) أى يدعونهم أو تقدير المفسر كما في قوله تعالى: «إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ» (الانشقاق ١) أو تقدير التقديم والتأخير كما في «مَتَى نُصِرُ اللَّهُ» (البقرة ٢١٤) أو تقدير اعراب الجملة باعراب المفرد كما في اعراب الجمل ذوات المحل أو تقدير المصدر المؤول بمعنى المصدر الصريح أو تضمين الكلمة معنى أختها أو نيابة الحرف عن الحرف

ونياحة العوض عن المعوض والمصدر عن الفعل وبعض الحروف عن الفعل
ايضا كيا النداء وأداة الاستثناء وإغناء الحال عن الخبر والفاعل عنه أيضا
ونياحة مادل على المصدر عن المصدر وتأويل الجامد بالمشتق وتقدير فك
المسبوك وسبك المفكوك. كل أولئك داخل في مفهوم التقدير وهو ما قصده
النحاة بقولهم: «لولا الحذف والتقدير لفهمت النحو الحمير».

ويخضع الاعراب لمطالب ظواهر موقعية معينة كالتقاء الساكنين في نحو
«لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ» (النساء ١٣٧) حيث أحلت الظاهرة الكسرة محل
السكون وكالمناسبة الصوتية عند أمن اللبس في قوله تعالى «إِنَّ هَذَا ن
لَسَاحِرَانِ» (طه ٦٣) إذ المعروف أن اسم إن يجب أن يليها بلا فاصل إلا أن
يكون الخبر ظرفاً أو جاراً ومجروراً فيجوز عندئذ أن يفصل الخبر بين إن
واسمها ولما كان الخبر في هذه الآية غير ظرف ولا مجرور عرف أن اسم إن هو
«هذان» على رغم كونه مرفوعاً وأن ذلك قد جعل بين الاسم والخبر مناسبة
صوتية قوامها اشتراكهما في الألف والنون. ومما يخضع له الاعراب من
الظواهر الموقعية كراهية توالي الأمثال في نحو قوله تعالى «قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ الْآ
تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ» (يوسف ١١) إذ ضعفت الحركة عن الفصل بين المثليين
المتفرقين فسلك النطق بهما مسلك الدالين في «مد» و«رد» إذ أصلهما «مدد»
و«ردد» ولعل الإدغام الكبير في قراءة أبي عمرو هو ذهاب إلى مدى أبعد من
ذلك في هذا الاتجاه نفسه. ومن ذلك أيضاً «وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ
اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ» (النور ٥٢) إذ جاء سكون القاف عزوفاً عن
توالي خمس حركات تبدأ بفتحة التاء من «يتقه» وتنتهي بضممة الهمزة من
«أولئك» هكذا (ت ق ه ف أ) فذلك من توالي الأمثال الذي تكرهه اللغة العربية
وتأباه. وأشهر ما يخضع له الإعراب من الظواهر الموقعية ظاهرة الوقف
بالسكون عزوفاً عن التحريك وذلك لما بين الوقف والصمت الذي يليه في النطق
من مجانسة ولما بينه وبين الحركة من تضاد ولأن الحركة قصيرة فالواقف

عليها كالذى يجرى ثم يقف فجأة ولذلك أطيلت الحركات في القوافي حين كانت الحركة ضرورية لموسيقى الشعر فالشعر كالغناء مسرحه الحركة لا السكون.

ومما يحسن أن نشير إليه بمناسبة الكلام في قرينة الإعراب ما ذكره النحاة من أن الرتبة في نحو قولك: «ضرب موسى عيسى»، و«لقى هذا ذلك»، و«زارت هذه تلك»، تغنى عن قرينة الإعراب ومن ثم تصبح من ضرورات التركيب بل تصبح الرتبة بهذا أهم قرائن التركيب وأوضح ما يعتمد عليه فهم المعنى. غير أن ثمة قرائن أخرى يمكن أيضا أن تقوم في تراكيب أخرى بما قامت الرتبة في هذا التركيب السابق ومن ذلك:

أ - عدم انتقال الفعل. أو بعبارة أخرى علاقات المعانى المفردة لألفاظ الجملة بعضها ببعض فعلى الرغم من أن سلمى والكمثرى مقصوران كما كان موسى وعيسى في الجملة السابقة نجد بين الجملتين فرقا في العلاقات بين المفردات ففي المثال السابق يمكن لعيسى أن يضرب موسى كما ضربه موسى فكان الاحتياط دون ورود هذا الفهم باللجوء إلى الرتبة لتعرف أن السابق منهما هو الضارب أما الكمثرى فلا يمكن أن تأكل سلمى ولذلك تحول الفعل بهذه العلاقة إلى فعل غير منتقل فأصبح عدم الانتقال قرينة على المعنى تقدمت الكمثرى أو تأخرت. فإذا وضعنا موسى في مكان سلمى انضمت قرينة المطابقة إلى عدم انتقال الفعل فاتضح المعنى بقرينتين لا بقرينة واحدة كما يبدو من «ب» التالية:

ب - مطابقة الفعل لفاعله وعدم مطابقته لمفعوله ففي قولنا: «ضربت هذا هذه» قامت المطابقة بإيضاح المعنى وعلم منها أن «هذه» هي الفاعل بحكم ما في الفعل من تاء التانيث وإن فصل المفعول بين الفعل وفاعله ومن هنا نذكر في هذا التركيب بالذات قول ابن مالك:

نحو أتى القاضى بنت الواقف

وقد يبيح الفصل ترك التاء في

ونحیی هذا العالم الفاضل لإیراده حرف «قد» فی البیت لإفادة أن ذلك لا یطرد دائما وإنما یمکن أن تلزم التاء أحيانا علی رغم الفصل علی نحو ما نجده فی المثال الذی بین أیدینا أى أن ترك التاء هنا غیر مباح علی رغم الفصل.

ج - القرینة الخارجیة: كان نشیر إلى امرأة تحمل طفلة أو تمشی معها ثم نقول ولدت هذه تلك أو تقول فی أُنْثِیْنِ هَاتَانِ ولدت إحداهما الأخری فیفهم من فارق السن أن الكبرى هی التي ولدت الصغری وليس العکس، وهكذا یصبح فارق السن قرینة خارجیة علی معنی نحوی.

د - الإبتاع بالنعته أو العطف أو التوكید أو البديل أو البیان مع وضوح الإعراب علی التابع دون المتبوع نحو ضرب عیسی نفسه موسى. ضربت سلوی الصغیرة سلمی وضرب هذا وأخاه موسى أو ضربت هذه الفتاة تلك المرأة وفی كل ذلك نرى القرائن الأخری تغنی عن الاعراب مما یدل علی أن المعنی النحوی لا یعتمد فی كل أحواله علی الإعراب ولا یمتغنی فی كل أحواله عنه ولا یقوم إلا فی القلیل النادر علی قرینة واحدة لا یمتغنی عنها وإنما شأنه أن یعتمد علی عصبه من القرائن التي تتضافر علی بیان المعنی حتی لقد یزید بعضها عن الضروری فیکون عرضة للترخص علی نحو ما سنرى فیما بعد.

هـ - قرینة السیاق: هی التي تصرف المعنی عن المفعولیة إلى التبعية بالنسبة للموصول فی قوله تعالى: «لَا یَضِلُّ رَبِّي وَلَا یَنْسَى الَّذِی جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَكَّ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا» (طه ٥٢، ٥٣). فلقد فصل الفعل المنفی «ینسى» بین لفظ «ربی» ونعته وهو «الذی» فجعل هذا الموصول من حیث التركیب كأنه مفعول «ینسى»، ولكن قرینة السیاق حالت دون هذا الفهم ودون أن یمکن «الذی» فی محل نصب. وأكدت كونه نعته للفظ «ربی» فی محل رفع، ومعنی حیلوله قرینة السیاق دون فهم المعنی علی المفعولیة أن المعنی لا یمتغنی معها لأن المعنی عند ذلك سیؤول إلى: لا یضل ربی ولا ینسى ذاته.

الفصل السابع

قرينة السياق في التركيب القرآني

أشرنا من قبل إلى أن النمط التركيبي قد يتعدد معناه. ونحب أن نذكر هنا بعض الأسباب التي من أجلها يتعدد معنى النمط فمن ذلك:

١- تعدد معنى الأداة ذات الصدارة في الجملة كما في قوله تعالى: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا هَيْبَةُ» (القارعة ١٠) إذ تصلح «ما» للاستفهام كما تصلح للتعجب.

٢- تعدد معنى الصيغة كما في قوله تعالى: «أَنَا أُنَبِّئُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ» (النمل ٣٩) إذ يصلح لفظ «أُنَبِّئُكَ» أن يكون مضارعاً ناصباً لمحل الكاف وأن يكون اسم فاعل مضافاً إلى الكاف.

٣- تعدد احتمالات العلاقة النحوية كأن يصلح المعطوف أن يعطف على هذا اللفظ أو ذاك وكاحتمال تعلق الظرف أو الجار والمجرور الخ كما في قوله تعالى: «لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» (الرعد ١١) إذ يصلح الجار والمجرور «من أمر الله» أن يكون صفة للمعقبات أو أن يتعلق بالفعل «يحفظونه».

٤- تعدد احتمالات المعنى الوظيفي للكلمة المقررة كما في قوله: «وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا» (النور ٣٣) إذ يصلح «الكتاب» أن يكون بمعنى الصحيفة وأن يكون مصدراً بمبنى المكاتب.

٥- تعدد احتمالات الذكر والحذف كما في قوله تعالى: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ» (الانعام ١٠٨) إذ يحتمل التركيب أن يكون فيه الحذف والآ يكون أي أن المنهى عن سبهم هل هم «الذين يدعون» أو «الذين يدعونهم» أي هل هم المشركون أو الشركاء؟

٦- تعدد احتمالات تمام الجملة أو افتقارها إلى ما بعدها كما في قوله تعالى: «وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا» (يونس ٦٥) فهل تمت الجملة عند لفظ (قولهم) أو يكون ما بعد ذلك مقولا للقول. وذلك ما نجده أيضا في تعانق الوقف في نحو: «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ» (البقرة ٢).

٧- تعدد احتمالات المعنى المعجمي للكلمة المفردة كما في قوله تعالى: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ» (الانفال ٤٨) إذ لا يدري من مجرد الكلمة ما إذا كان المقصود رؤية بصرية أو ظنية أو رؤيا منامية.

٨- احتمالات الدلالة اللفظية أو الفوقية كما في قوله تعالى: «وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ» (آل عمران ١٠٢) فاللفظ نهى عن الموت والمعنى الفوقى أمر بالتمسك بالإسلام حتى الموت.

تلك نماذج للأسباب التي يتعدد من أجلها معنى النمط التركيبي للجملة فيصبح النمط بحاجة إلى قرينة يتبين بها المعنى المراد. ولما كان تعدد المعنى يكشف عن عدم كفاية القرائن النحوية الدالة على الأبواب المقررة كان معنى ذلك أن النمط التركيبي أصبح بحاجة إلى قرينة من خارج الجملة تعرف غالبا باسم «قرينة السياق». وقرينة السياق هذه هي كبرى القرائن النحوية لأنها قد تعتمد على شيء من هذه القرائن النحوية المفردة أو تتجاوزها إلى أمور دلالية من العقل أو من المقام المحيط بالجملة، حتى إن تخطيط الأسس التي يمكن أن تقوم عليها هذه القرينة تبدو على النحو التالي:

فمن القرينة المبنوية (أي المتعلقة بالمبنى اللفظي) ما في قوله تعالى: «وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزِلُّوكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ» (القلم ٥١) فالدليل على أن «إن» مخففة من الثقيلة وأن معنى السياق هو التاكيد وليس الشرط كون الفعل «يكاد» مرفوعا غير مجزوم، ثم وجود اللام في خبر إن المخففة وعدم وجود ما يصلح للشرط، وكذلك قوله تعالى: «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ» (هود ٨٠) إذ يقوم عدم الجواب قرينة سياقية على أن

«لو» للتمنى وليست للشرط. ومنه أيضا قوله تعالى: «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي» (الكهف ٢٨) إذ المعروف أن «هو» التي هي ضمير فصل إنما تتوسط بين اسم لكن وخبرها ولا تلي لكن مقدمة عليهما معافدل ذلك على إرادة التأكيد بقريئة مبنوية إما على أن السياق المقصود «لكن ربي هو الله». أو على أن الضمير للشأن أي: «لكنه الله ربي» وانفصل الضمير لزيادة التوكيد.

ومن اعتماد القرينة السياقية على قرينة نحوية علاقية ما نجده في قوله تعالى: «وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ» (الكهف ٥٨) إذ يآذن التركيب أن يكون خبر المبتدأ إما «الغفور» وإما «ذو الرحمة» على زعم الغفور صفة للمبتدأ، وإما جملة «لو يؤاخذهم» على زعم ما قبلها صفتين للمبتدأ وتأتي القرينة السياقية من الإضراب عن تعجيل العذاب إلى ضرب موعد مقبل لهم والدليل قوله تعالى: «بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً» فدل ذلك على أن الخبر قوله تعالى: «لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب» وقد جاءت القرينة السياقية الدالة على ذلك من علاقة الإضراب المعبر عنها بحرف الإضراب «بل». ومثل ذلك ما في قوله تعالى: «وَرَبِّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» (الأنبياء ١١٢).

فليس الخبر في هذه الآية هو «الرحمن» وإنما هو «المستعان» لأن المقام مقام استعانة بالله ويدل على ذلك قوله قبل ذلك بقليل: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذِنْتُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ» (الأنبياء ١٠٩) فالوقف موقف مواجهة بينه وبينهم، فليس المقصود أن يطعمهم في الرحمة وإنما المقصود أن يستعين عليهم بالله. ومن ذلك قوله تعالى: «وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ» (النحل ٦٠، ٥) فالجار والمجرور في قوله «لكم» الأولى يمتنع تعليقهما بالفعل «خلقها» بسبب علاقة التوازي بين ما في الآيتين بواسطة العطف هكذا:

١- لكم فيها دف و منافع ومنها تأكلون

ب- ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون

مما يجعل الجار والمجرور خبرا مقدما في الحالتين وهكذا تكون جملة «والانعام خلقها» جملة مستقلة، ومنه أيضا قوله تعالى: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (آل عمران ١٨) فالقرينة السياقية التي تحول دون عطف الملائكة على الضمير هي علاقة الملابس بين الحال المفردة وفعل الشهادة إذ قال «قائما» ولم يقل «قائمين» وكذلك تكرر جملة «لا إله الا هو» مما يدل على أن المعنى «شهد الله وشهد الملائكة وأولو العلم»، وكذلك: «فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانكَبُوا لِلَّهِ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ» (النساء ١٠٣) فليس المقصود «فاذكروا الله في حالة القيام» وإنما المقصود اذكروه حالة كونكم «قائمين» بدليل علاقة العطف إذ عطف قوله «وعلى جنوبكم» فدل على أن المقصود ذكر أوضاع أجسامهم عند ذكر الله، والفرق بين حالة القيام وبين وضع القائمين واضح.

ومن اعتماد قرينة السياق على المعجم ما نجده من ضرورة تقدير الحذف في قوله تعالى: «اتَّقُوا لَوْنَ الْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسْحَرُ هَذَا وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُونَ» (يونس ٧٧) أي اتقوا لَوْنَ الْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ هَذَا سَحْرًا؟ أسحر هذا؟ وتأتى ضرورة التقدير من أن القول يفترق إلى مقول ولا تصلح جملة «أسحر هذا» أن تكون هذا المقول لأنها استفهام والاستفهام يدل على التردد وعدم الجزم وهم في كفرهم ابعدما يكونون عن التردد وعدم الجزم. من هنا يقدر المحذوف خبرا مثبتا بحيث ينسجم مع اتهامهم للحق ودعواهم أنه سحر. وأساس كل ذلك أن المعنى المعجمي للفظ القول يقتضى مقولا مقدرا إن لم يكن هذا المقول مذكورا. ومن ذلك ما يبدو من الفارق بين المعنيين اللذين يفهمان من لفظ «يعدلون» ويختلفان بحسب ما يصحب الفعل من «الذين كفروا» أو «أمة يهدون بالحق» في قوله تعالى: «ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» (الانعام ١) أي يجعلون لربهم عديلا وشريكا، وقوله: «وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ»

(الاعراف ١٨١) أى يقسطون، فاللفظ المصاحب للفعل كان مرتكزا لدلالة السياق على أحد المعنيين ولنسبة المعنى الذى دل عليه السياق إلى الفعل. ولعل إدراك المعنى عند الجناس أو التورية في كثير من الحالات يعتمد على مثل هذه القرينة (قرينة السياق). ومنه أيضا ما نراه في قوله تعالى: «لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ» (يس ٢٥) فلقد أعرب بعضهم «ماء»؛ اسما موصولا ولكن إيراد قوله «أفلا يشكرون» تعقيبا على «وما عملته أيديهم» يجعل «ماء» نافية لأن أكلهم من ثمر لم تعمله أيديهم يستوجب الشكر أكثر من أكلهم من الذى عملته أيديهم وهكذا يعتمد اعراب «ماء» على عنصر معجمي في السياق فتعتمد قرينة السياق على هذا المعنى المعجمي.

ومن اعتماد قرينة السياق على اللغة (والمقصود هنا ما بين عناصر الكلام من مناسبة أو مفارقة في المعنى) قوله تعالى: «انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ» (الانعام ٩٩) إذ نجد بين أيدينا في الآية الكريمة «نبات كل شيء» وثمر هذا النبات ولدينا بعد ذلك ضمير متصل مضاف إليه في «ينعه» يصلح أن يعود من حيث التركيب على النبات كما يصلح أن يعود على الثمر. ولكن استجلاء العلاقة المعجمية بين الالفاظ يكشف لنا عن المناسبة بين الينع والثمر فيقال «ثمرة يانعة» وعن المفارقة بين الينع والنبات فلا يقال «نبات يانع» وهكذا تحكم قرينة السياق بإعادة الضمير على الثمر دون النبات. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ» (آل عمران ١٩٨) إذ إن وضع لفظ الخير بإزاء لفظ الأبرار يحكم بأن «ماء» التى في صدر الجملة موصولة ويمتنع فيها أن تكون نافية وذلك لما بين البر والخير من مناسبة معجمية لا يمكن معها أن يتنافى أحدهما مع الآخر. ومن ذلك أن الآية ١٩٦ من سورة البقرة نصت على جمع العديدين في قوله تعالى: «فَمَنْ لَمْ يَسْتَنْطِعْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ» فدل الجمع على أن «أذا» خالصة للظرفية مبرأة من الشرطية فالمعنى «وسبعة عند رجوعكم» وليس المعنى: «إذا

كنتم في الحج فصوموا ثلاثة وأما إذا رجعتم فإن الثلاثة تتحول إلى سبعة، فلما جاءت جملة «تلك عشرة كاملة» نفت معنى الشرط عن «إذا» وجعلتها خالصة للظرفية أى بمعنى «عند»، والمعنى «وأضيفوا إلى الثلاثة سبعة عند رجوعكم»، ومن ذلك أيضا «هَذَا عَطَاؤُنَا أَمْئِنٌ أَوْ أَمْسَكَ بِغَيْرِ حِسَابٍ» (ص ٢٩) إذ يصلح الجار والمجرور بحكم التركيب أن يتعلق بِالْعَطَاءِ أَوْ بِالْفَعْلَيْنِ «أَمْئِنٌ أَوْ أَمْسَكَ» ولكن قوة المناسبة بين العطاء ونفى الحساب وضعف المناسبة بين الامسك وعدم الحساب مكنت قرينة السياق من أن توضح تعلق الجار والمجرور «بغير حساب» بلفظ «عطاؤنا» أضف إلى ذلك أن العطاء رزق والله تعالى يرزق من يشاء بغير حساب ولكنه لا يأمر بالامسك بغير حساب. وهكذا يكون الفعلان معا في موقع الاعتراض بين أجزاء جملة واحدة هي «هذا عطاؤنا بغير حساب».

نصل عند هذه النقطة إلى قيام قرينة السياق على أساس من المنطق أى من علاقات المعانى بعضها ببعض وليأذن القارىء ببيان ذلك أولا بواسطة بيت من الشعر قبل أن نورد الآيات التى تشهد على ذلك قال الشاعر:

أنا ابن آية الضيم من آل مالك وإن مالك كانت كرام المعادن
فإذا تأملنا «إن» من قوله: «وإن مالك كانت...» وجدناها تصلح:

أ - نافية فيكون المعنى: ولم تكن مالك كرام المعادن

ب - شرطية فيكون المعنى: حتى إن كانت مالك كرام المعادن

ج - مخففة من الثقيلة فيكون المعنى: وإن مالكا كانت كرام المعادن

والشاعر يفخر ببنيوته لأبوة الضيم من آل مالك فلو جعلنا المعنى على النفى لوقع البيت في التناقض من حيث لا يجتمع الفخر بهم ونفى كرم المعادن عنهم ولو جعلناه على الشرط لأصبح الفخر بالبنة والتقييد باشتراط الكرم من قبيل تحصيل الحاصل بواسطة القيد وهو معنى فاسد فالمرء لا يقول: «أنا عريق

النسب وإن كنت كريم المعدن». فلم يبق إذا إلا أن تكون «إن» مخففة من الثقيلة والمعنى تأكيد كرم المعدن مما ينسجم به أول البيت مع آخره. ويعلم القارىء أن التناقض وتحصيل الحاصل من العلاقات العقلية بين المعانى. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا» (هود ٢٤) فعلى الرغم من أن فى الآية أربعة ألفاظ عطف لاحقا على سابقتها نرى الفارق العقل بين الاثنين (المثلة فى الفريقين ويستويان» وبين الأربعة (المثلة فى الألفاظ المتعاطفة) يحكم بأن العطف من قبيل عطف الصفات لا عطف الافراد ويجعل المعنى: مثل الفريقين كالأعمى الأصم والبصير السميع أى أن ثمة شخصين أحدهما أعمى أصم والثانى بصير سميع وهما لا يستويان مثلا وبذلك نحكم بزيادة الواوین اللتين قبل الأصم والسميع أضف إلى ذلك الطباق الذى بين السلب الذى يتمثل فى الأعمى الأصم وبين الايجاب ممثلا فى السميع البصير ولا شك أن السلب والايجاب من الامور العقلية أيضا. وينتهى الامر بانشاء تقابل ثنائى لا رباعى تقضى به قرينة السياق. ومن ذلك قوله تعالى «قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ» (النمل ٤٩) فَالْمَلَّاخِظُ أَنَّ الْفِعْلَ «تَقَاسَمُوا» يَصْلُحُ لِأَن يَكُونَ مَاضِيًا وَلِأَن يَكُونَ أَمْرًا وَهُوَ عَلَى الْمَاضَى فِي مَوْضِعِ الْبَدَلِ مِنْ «قَالُوا» وَعَلَى الْأَمْرِ جُزْءٌ مِنْ مَقُولِ الْقَوْلِ. وَلَكِنَّ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ الْفِعْلِ وَمَا يَتْلُوهُ مِنْ قَوْلِهِ «ثُمَّ لَنَقُولَنَّ» تَدُلُّ عَلَى جَوِّ الْمَكِيدَةِ وَالتَّرْبِصِ لِأَنَّ الْمَعْنَى: «لَنَفْعَلَنَّ ثُمَّ لَنَنْكُرَنَّ أَنَّنَا فَعَلْنَا» وَهَذَا بِالضَّبْطِ مَا يَقْضَى بِهِ مَنْطِقُ الْعَقْلِ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْآيَةِ وَهَكَذَا تَقْضَى قَرِينَةُ السِّيَاقِ بِأَنَّ «تَقَاسَمُوا» فِعْلٌ أَمْرٌ وَليْسَ فِعْلًا مَاضِيًا وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا» (الأنعام ٣٤) فَقَوْلُهُ «حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا» غَايَةُ تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ لِلْفِعْلِ «أَوْدُوا» وَلَكِنْ تَعْلِيقُ «حَتَّى» بِالْفِعْلِ «أَوْدُوا» لَا يَحْمِلُ فِي طَيْهِ أَى عِزَاءً أَوْ تَشْجِيعًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَا إِذَا تَعَلَّقْتَ «حَتَّى» بِالْفِعْلِ «صَبْرُوا» فَإِنَّ

في ذلك من العزاء والتشجيع ما فيه لان المعنى عندئذ: «فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل» (الاحقاف ٣٥) وهكذا تكون «ما» في «ما كذبوا وأوذوا» مصدرية أى على التكذيب والإيذاء الواقعين عليهم. وهكذا تستند قرينة السياق إلى العلاقات العقلية الدلالية. ومنه «قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ» (هود ٨٧) فالمنطق يقضى بأن يكون «ان نفل» مفعولا به للفعل «نترك» وليس للفعل «تأمرك» فالمصدر المؤول معطوف عليه «ما يعبد آباؤنا» والاستفهام انكار لطلب ترك الامرين كليهما.

والامر في الكلام العادى اوضح من كل ذلك فقد تفوتك صلاة الجماعة ثم تدخل المسجد فترى رجلا تتوسم أنه لم يصل فتطمع أن تنضم اليه في الصلاة طلبا لصلاة الجماعة فتسأله: «صليت؟» بدون الهمزة ولكن مع نغمة السؤال. هنا تكون النغمة هي القرينة الوحيدة للمعنى السياقى ولو لم تكن نغمة الاستفهام لكانت هذه الجملة اثباتا. وقد تسأل شخصا تلقاه بقوله: «أنت فلان؟» بدون الهمزة ولكن مع نغمة السؤال فيجيبك بالاثبات أو النفي. وهكذا يكون التنعيم مستنفاً لقرينة السياق.

وأما الظروف الحسية والنفسية المحيطة بالنص فامتلتها في القرآن كثيرة منها ما في قوله تعالى: «وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ» (الاعراف ٤٨) فهؤلاء الرجال الذين خاطبهم أصحاب الاعراف عهدت لهم سيمتا الغنى والكبرياء في الدنيا وكان ذلك من المدركات الحسية فلما كان نصيبهم في الآخرة العذاب والهوان سألهم أصحاب الاعراف على سبيل السخرية والتهكم عما اذا كان غناهم وكبرياؤهم قد أغنيا عنهم من الله شيئا وانتفى بقرينة السياق هكذا أن يكون المعنى على النفي أى «لم يغن عنكم جمعكم» -بدليل- «يعرفونهم بسيماتهم» لان مضمون النفي معلوم سلفا لهؤلاء الرجال فلا حاجة إلى إيضاحه فضل ايضاح ثم بدليل مواصلة السؤال في الآية التي بعد ذلك:

«أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ» (الاعراف ٤٩) ومنه أيضا: «وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ» (الأحزاب ٤٨) اذا يصلح التركيب لجعل الأذى منهم له أو منه لهم. ولكن الظروف الحسية التي يعرفها النبي صلى الله عليه وسلم ان الأذى واقع منهم عليه وليس منه عليهم فأصبح المعنى «ولا تجزع لإيذائهم إياك وهذا شبيهه بقول العزيز ليوسف «يوسف أعرض عن هذا» (يوسف ٢٩) وقوله وتوكل على الله أى تجاهل ما حدث وليس المقصود لا تعد إلى ذلك مرة أخرى وكذلك: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ النَّسَاءِ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نُنصِرُ اللَّهَ» (البقرة ٢١٤) إذ يحتمل التركيب أحد معنيين: «متى ننصر الله» و«متى ينصرنا الله» ولكن الذين آمنوا ينصرون الله بحكم إيمانهم ويلقون العنت والعذاب لهذا السبب ويدركون ذلك إدراكاً حسياً ومن ثم يكون المعنى: «متى ينصرنا الله» ويؤيد ذلك ما تلا ذلك من وعد الله لهم بالنصر بقوله: «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» وأما الظروف النفسية كالحب والكرهية والغضب والرضا والطمع والقناعة فظاهرة في قوله تعالى: «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَأَمَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَيُرْغَبُونَ أَنْ تُنكحُوهُنَّ» (النساء ١٢٧) فالتركيب صالح لمعنى «وترغبون في أن تنكحوهن» وكذلك «وترغبون عن أن تنكحوهن» وقد حذف حرف الجر قصداً ليعم التركيب حالتي الرغبة فيهن والرغبة عنهن لأن اليتيمة ذات المال إما أن تكون جميلة فيرغب وليها في أن ينكحها استثنائاً بمالها وجمالها وإما أن تكون قبيحة فيعضلها رغبة عنها وطمعاً في مالها وهكذا تكون الظروف النفسية متكاً لقرينة السياق دالة على أن حذف حرف الجر مقصود ليشمل التركيب الحالتين كليهما حالة الرغبة فيهن وحالة العزوف عنهن مع استبقائهن من أجل مالهن في الحالتين.

وأما المحيط الاجتماعي حين يكون متكاً لقرينة السياق فمنه قوله تعالى:

يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ
بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ « (التوبة ٣٤) إذ كان النبي صلى الله عليه
وسلم وكان أصحابه معه يعلمون من المحيط الاجتماعي الذي يحيط بهم ما
المقصود بهذا الكلام وبالأخبار والرهبان فالسياق بالنسبة إليهم تركز دلالاته
على الظروف الاجتماعية ويدل على المعنى بمعونة هذه الظروف أما نحن الآن
فإننا بحاجة إلى معرفة سبب نزول الآية حتي نتضح لنا دلالة السياق على هذا
الحبر أو ذاك الراهب الذي دل عليه لفظ «كثير». وكذلك الحال في معرفة
الحالفين من قوله تعالى : « وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمُنْكُمْ » (التوبة ٥٦) والذي
أدى النبي من قوله تعالى « وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ »
(التوبة ٦١) والمعاهد في قوله تعالى « وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْنَأْتِيَنَّكَ مِنْ
قُضَيْلِهِ لِنُصَدِّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ » (التوبة ٧٥) والمعذرون في قوله
تعالى : « وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ » (التوبة ٩٠) والمعوقون في
قوله تعالى « قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوَّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا
يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا » (الاحزاب ١٨) والذي نهر والديه في قوله تعالى : «
وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفْ لَكُمْ أَنْ تُعَدِّدَنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي
« (الاحقاف ١٧) كل ذلك كان في المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه النبي
وأصحابه فكان معنى السياق واضحاً لهم كل الوضوح على حين نحتاج نحن
الآن إلى معرفة أسباب النزول. أي أنهم عرفوا المعنى من حاضرهم ونحن
نعرفه الآن من التراث.

وقد تركز قرينة السياق على العادات والتقاليد كما في قوله تعالى : « مَا
جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ » (المائدة ١٠٣) إذ كان
الذين كفروا يفترون على الله الكذب ويجعلون هذه الأنواع من الإبل من تقاليد
عبادتهم للطاغوت ، ومثله : « وَلَا تَعْضَلُوهُمْ لِيُدَّهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُمْ »
(النساء ١٩) وكذلك : « وَلَا تُكْرَهُوا قِتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا
لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » (النور ٣٣) وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لَا يَحِلَّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ، (النساء ١٩) ومنه ايضا « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ، (الانفال ٣٥) وكذلك « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ، (الاحزاب ٥) وكذلك : « وَلَا تَبْرَجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ، (الاحزاب ٣٣) .

كل اولئك إشارات إلى عادات وتقاليد كانت للعرب يفتقر فهم النص إلى معرفتها أى أن هذه المعرفة هي المتكا الذي لا بد منه لقرينة السياق.

وقد تكون هناك إشارات إلى الماثورات والتاريخ ايضا فيفتقر فهم النص إلى معرفة ذلك كما في قوله تعالى : « كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، (آل عمران ١١) وقوله تعالى : « وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِنْهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ، (النجم ٥٠ - ٥٤) وكذلك : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودَ وَعَادَ وَفِرْعَوْنَ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبِعَ كُلُّ كَذَّبَ الرَّسُلِ فَحَقَّ وَعَيْدٌ ، (ق ١٢ - ١٤) ومن ذلك ايضا « أَوْكَالِذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ... (البقرة ٢٥٩) ومن هذا القبيل كل ما في القرآن من خبر الأولين وقصص الأنبياء .

وهكذا تمتد قرينة السياق على مساحة واسعة من الركائز تبدأ باللغة من حيث مبانيها الصرفية وعلاقتها النحوية ومفرداتها المعجمية وتشمل الدلالات بأنواعها من عرفية إلى عقلية إلى طبيعية كما تشتمل على المقام بما فيه من عناصر حسية و نفسية واجتماعية كالعادات والتقاليد واثورات التراث وكذلك العناصر الجغرافية والتاريخية مما يجعل قرينة السياق كبرى القرائن بحق لأن الفرق بين الاستدلال بها على المعنى وبين الاستدلال بالقرائن اللفظية النحوية كالبنية والإعراب والربط والرتبة والتضام الخ هو فرق ما بين الاعتداد بحرفية النص والاعتداد بروح النص . وقرينة السياق هي التي يحكم

بواسطتها على ما إذا كان المعنى المقصود هو الأصلي أو المجازي وهي التي تقضى بأن في الكلام كناية أو تورية أو جناسا الخ وهي التي تدل عند غياب القرينة اللفظية على أن المقصود هذا المعنى دون ذلك إذ يكون كلاهما محتملا، وسنرى في فصل لاحق كيف حالت قرينة السياق في القرآن دون تطرق اللبس إلى المعنى عندما يسمح التركيب بورود الاحتمالات المتعددة للمعنى .

الفصل الثامن الرفضة في التركيب

من المعروف أن المعنى النحوي (الوظيفي) ليس من شأنه أن يستبين بواسطة قرينة لفظية أو معنوية مفردة، بل لابد أن يتضافر عدد من القرائن على بيان المعنى. ذلك بأن اللغة ظاهرة إنسانية والإنسان بطبعه قلما يكتفى لإدراك شيء ما بقرينة واحدة تدل على هذا الشيء. وإنك لو سألت شخصا ما عن عنوان تريد الوصول إليه ولم تكن تعرفه من قبل فإن هذا الشخص لا يكتفى بتعداد اتجاهات الطريق الذي تسلكه إلى العنوان وإنما تجده بعد وصف الطريق وإيراد نقط منعرجك إلى اليمين وإلى الشمال يعتمد إلى تحديد العنوان المطلوب بعدد من القرائن أيضا فهو مبنى من ثلاثة طوابق على يمين الطريق تحته مكتبة ومحل بقالة وهو على ناصية شارع كذا وشارع كذا وأمامه أضواء إشارة المرور وهكذا يعدد القرائن ليعين قدرة السائل على معرفة العنوان المقصود. وإذا كانت منعرجات الطريق إلى العنوان وكان العنوان نفسه يتسم بتعدد القرائن وتضافرها فإن الجملة كذلك ذات معالم يتضح بها معناها وهذه المعالم هي القرائن بأنواعها اللفظية والمعنوية والسياقية ومن شأنها أن تتعدد لضمان إدراك المعنى.

قد يكتفى السائل لمعرفة العنوان ببعض القرائن التي سمعها منك ثم لا يعلق انتباهه ببقيتها إذ يمكن أن يعرف العنوان بمجرد عشوره على التقاطع وإشارة المرور وعدد طوابق المبنى وموقعه على يمين الطريق ثم لا يعير انتباهه للمكتبة والبقالة «إحدهما أو كليهما» ومعنى ذلك أن واحدة أو اثنتين من عدة قرائن لم يكن لها أثر في إدراك المقصد إذا اتضح العنوان بدونها ومن ثم أسقطهما انتباه السائل من حسبانته ولم يعتدّ بهما بين القرائن، أو بمصطلح هذا البحث أصبحت القرينتان محلا للترخص عند وضوح المقصد بدونهما بسبب هذا الوضوح.

وكذلك الحال في القرائن النحوية. فهي تتضافر لبيان المعنى الواحد تدعيما
لقدره السامع على إدراك هذا المعنى فإذا اتضح المعنى ببعضها أمكن بسبب
أمن اللبس أن يتم الترخص في بقيتها خذ مثلا لذلك قول العرب:

«خرق الثوب المسمار» برفع الثوب ونصب المسمار على عكس قاعدة إعراب
الفاعل والمفعول. والمعروف أن الفاعل يعرف بالقرائن التالية:

١- أن يكون اسما

٢- أن يكون مرفوعا

٣- أن يتقدمه فعل

٤- أن يكون الفعل مبينا للمعلوم

٥- أن يدل الاسم على من فعل الفعل أو قام الفعل بواسطته

ولقد تحققت هذه القرائن في «المسمار» ما عدا الإعراب بالرفع. وكانت
القرينة الخامسة بالذات سببا لإمكان الترخص في الإعراب لأن الفعل غير
منتقل فيكون الخارق هو المسمار ولا يمكن للشوب إلا أن يكون مخروقا
بالمسمار وهذا واضح من قرينة الإسناد وإن تم الترخص في الإعراب. فمثل
الإعراب هنا مثل المكتبة والبقالة في المثال الذي سقناه للعنوان منذ قليل.

ومن أصول النحاة أن الرخصة مرهونة بمحلها فلا يقاس عليها وشرطها
أن يؤمن معها اللبس وأن تكون من الفصيح في عصر الاستشهاد أما نحن الآن
فترخصنا في قرائن النحو يقع في قبيل الخطأ إلا أن يكون ضرورة شعرية فتلك
لا تقاس بمقياس الصواب والخطأ وإنما ينظر إليها بمنظار الحسن والقبح.
وليس القرآن شعرا ولا ترد عليه الضرورة ولكن الترخص في القرائن مع هذا
شائع في تراكيب القرآن عند أمن اللبس لا بسبب الضرورة وإنما لأسباب
أخرى جمالية كرعاية الفاصلة وكالمناسبة الصوتية وهلم جرا مما سنراه عند

إيراد الشواهد على ظاهرة الترخص في تركيب القرآن. وسنورد فيما يلي قرائن النحو مرتبة متوالية وتحت كل قرينة منها شواهد من ترخص القرآن في هذه القرينة:

أولا- الترخص في قرينة البنية:

يتم الترخص في قرينة البنية بتغيير هيكلها أو بحذف بعض حروفها أو زيادة حرف أو أكثر عليها أو تغيير حرف منها فمن تغيير هيكل بنية الكلمة قوله تعالى: «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ» (البقرة ٩٨) إذ تحول ميكَال إلى ميكَال. وقوله «قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدَى إِلَّا أَنْ يَهْدَى» (يونس ٣٥) إذ تحول الفعل «يهتدى» إلى صورة أخرى هي «يهدى». وكذلك «مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ» (يس ٤٩) إذ جاء الفعل «يختصمون» على صورة «يخصمون» وكذلك «وَالنَّيْنِ وَالزَّيْتُونَ وَطُورِ سِنِينَ» (التين ٢٠١) بدلا من «طور سيناء».

وأما الترخص في البنية بحذف بعض حروفها فأوضح صورة حذف ياء المتكلم أو ياء المنقوص المقترن بال أو الفعل المعتل الآخر بالياء أو بالواو كما في الآيات الآتية:

*- «أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» (البقرة ١٨٦)

*- «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي» (هود ٦٤) وانظر

أيضا (هود ٨٨)

*- «وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي» (هود ٨٩) وانظر أيضا (هود ٩٢)

(٩٢).

*- «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ» (يوسف ١٠١)

* - فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ، (الرعد ٣٢ و غافرة)

* - إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَابِ، (الرعد ٣٦)

* - رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ، (ابراهيم ٤٠)

* - قَالَ إِنْ هَؤُلَاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُونَ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ (الحجر ٦٨، ٦٩)

* - ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغِ، (الكهف ٦٤)

* - هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ، (الكهف ٦٦)

* - إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ، (الحج ٢٥)

* - وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، (الحج ٥٤)

* - وَجَفَانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورِ رَاسِيَاتٍ، (سبا ١٢)

* - لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ، (غافر ١٥)

* - وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ، (الشورى ٣٢)

* - وَأَسْمَعُ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، (ق ٤١)

* - فَنُتَوَّلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكْرٍ، (القمر ٦)

* - فَسَتَعَلِّمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ، (الملك ١٧)

وأما زيادة حرف على بنية الكلمة فقوله تعالى: «سَلَامٌ عَلَىٰ الْيَاسِينِ، (الصافات ١٣٠) وأما إبدال حرف مكان حرف فقوله: «إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ، (آل عمران ٩٦) وقد يكون الترخّص بإيجاد صورة للبنية غريبة على الشائع من الاستعمال كما في قوله تعالى: «وَمَكْرُوا مَكْرًا كُبَّارًا، (نوح ٢٢)

وقوله: «إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ» (ص ٥) وكذلك: « وَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا كَذَابًا » (النبا ٢٨)

ثانياً- الترخص في قرينة الرتبة:

سبق عند الكلام عن قرينة الرتبة أن أشرنا إلى أنها من نوعين أحدهما الرتبة المحفوظة والثاني الرتبة غير المحفوظة ثم ذكرنا أن الرتبة المحفوظة لا تتخلف وذلك بسبب ارتباط المعنى بها وهذا هو معنى كونها قرينة أن الرتبة غير المحفوظة تأذن أحيانا بالتقديم والتأخير وهو ما يعرف بتشويش الرتبة ويتحتم فيها عكسها أحيانا أخرى إذا اقتضت ذلك ضرورة تركيبية فيصبح العكس رتبة محفوظة كرتبة الكاف في نحو « أكرمك الله ». ولكن التركيب القرآني يَتَّسِمُ بحرية اللغة لا بقيود النحو فيتحدى قواعد النحاة عند أمن اللبس يفعل ذلك لأغراض بيانية معينة فيوصل إلى هذه الأغراض دون تضحية بوضوح المعنى. ومثل موقف القرآن من قواعد النحاة مثل موقف القانون السماوي من القانون الوضعي هذا من عند الله وذاك من عند البشر والأول من عند من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والثاني صنعه من لا يصل إلى الحقائق إلا من خلال الظواهر. والقرآن نزل بلسان عربي مبين ولم ينزل بنحو عربي مطرد. ذلك بأن اللغة أوسع من النحو لأنها تشتمل إلى جانب المطرد على الشاذ والقليل والناذر والرخصة والعدول عن الأصل وهلم جرا مما اعترف به النحاة أنفسهم فقالوا إن الشذوذ لا ينافي الفصاحة كما لقي الشذوذ احترام الفقهاء فبنوا عليه بعض أحكامهم.

لا عجب إذاً أن نرى القرآن يشوش بعض الرتب المحفوظة. كما في قوله تعالى: «وَيَصْنَعُ الْفَلَكَ وَكَلَّمَ مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ» (هود ٣٨) أي كلما مروا عليه وهو يصنع الفلك سَخِرُوا مِنْهُ لأنه كَانَ يَصْنَعُهَا عَلَى أَرْضٍ جَافَةٍ قَبْلَ نَزُولِ الطُّوفَانِ وَلَمْ يَكُنْ حَوْلَهُ بَحْرٌ وَلَا نَهْرٌ تَجْرِي فِيهِ الْفَلَكَ فَكَانَ لِهَذَا السَّبَبِ مِثَارَ سَخَرِيَّتِهِمْ. وكذلك قوله: «وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ

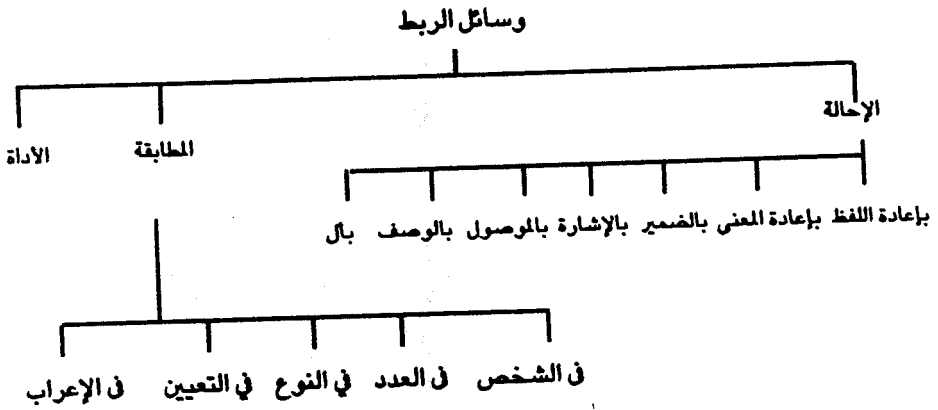
كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، (هود ٤٢) أى ناداه وهى تجرى بهم. ففى الحالتين تقدمت جملة الحال على عاملها وهو ما لم تعترف به قواعد النحاة ويشبه هذا قول الفرزدق: وأطلس عسال وما كان صاحباً دعوت لنارى موهنا فأتانى أى «أتانى ولم يك صاحباً» أو «دعوت ولم يك صاحباً» ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي» (الكهف ٣٨) على أحد التاويلين أى لكن ربي هو الله إذ أصبح ضمير الفصل غير فاصل لتقدمه على اسم «لكن» وخبرها كليهما وهو كما تقدم الخبر على الاسم بتقدم هذا الضمير إلا أن نعد هذا الضمير ضمير شان فلا يكون فى الآية شاهد على الترخص فى الرتبة، ومن ذلك أيضاً تأخر رتبة «لا» عن موقعها فى قوله تعالى: «وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ» (غافر ٥٨) أى ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء.

أما غير المحفوظة فالتقديم والتأخير فيها محكوم بمقياس الأسلوب لا بمقياس النحو فمن ذلك «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ» (البقرة ٢٦٩) إذ المعروف فى أخوات أعطى أن الآخذ هو المفعول الأول وأن المأخوذ هو المفعول الثانى وبهذا يكون الأصل فى التركيب «يؤتى من يشاء الحكمة» ولكن هذا التركيب ملبس لصالح الحكمة أن تكون مفعول «يشاء» لا مفعول «يؤتى» فعكست الرتبة لآمن اللبس ومن ذلك «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ» (الأنعام ١٠٠) و«وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ» (الأنعام ١١٢) و«أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا ذَرِيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ» (الإسراء ٣٠٢) ومن ذلك أيضاً «وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي» (طه ٢٩، ٣٠) أى واجعل هارون أخى وزيراً لى من أهلى ولكن وضع التركيب على هذا النحو يجعل من بمعنى (دون) أى اجعله معيناً لى على أهلى، وهو غير المعنى المقصود. أما لو فرضنا للتركيب أن يكون «واجعل من أهلى وزيراً لى» أو «واجعل لى من أهلى وزيراً» فإن الأسلوب القرآنى بالنسبة للفرض الأول لا يجعل فى موقع الفاصلة حرف جر وضميراً متصلاً به فى العادة وبالنسبة للثانى يكون فى التركيب

إهدار لمطالب الفاصلة. ويلاحظ أن تعليق الجار والمجرور في الفرض الأول يختلف عنه في الثاني.

ثالثاً- الترخّص في قرينة الربط:

ولقد أشرنا من قبل إلى أن الربط إما أن يكون بالإحالة أو بالمطابقة والمقصود بالإحالة أن يشتمل اللاحق على ما يشير إلى السابق وذلك بإعادة ذكره أو إعادة معناه أو الإضمار له أو بالإشارة إليه أو وصفه بموصول أو صفة أو إلحاقه بالالف واللام نيابة عن ذلك، والمقصود بالمطابقة الشركة في العلاقات الدالة على الشخص (التكمم والخطاب والنية) أو العدد (الأفراد والتنثنية والجمع) أو النوع (التذكير والتأنيث) أو التعيين (التعريف والتفكير) أو الإعراب وقد يكون الربط بالأداة كما يتضح من البيان التالي:



وقد اتضح كل ذلك في الفصل الخاص بالربط من هذا البحث.

ويكاد الترخّص في الإحالة يكون مقصوراً على الربط بالضمير لأنه أكثر وسائل الإحالة دورانا فقد يكون الضمير محذوفاً في بعض الأحوال كما في قوله تعالى:

*- «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ» (البقرة ٤٠) أي

أنعمت بها

*- « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، (البقرة ٤٨) أى تجزى

فيه

*- « قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ، (المائدة ١٨) أى

ممن خلقهم

*- « يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ، (المائدة ٢١) أى

التي

كتبها

*- « ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ،

(الشورى ٢٢) أى يبشر به

*- « فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، (الزخرف ٧١) أى تلذذ أو تلذ

به.

ومن شأن الضمير أن يعود:

أ- على مرجع مذكور.

ب- وعلى أقرب ما يصلح أن يكون له مرجعا.

ج- وأن يكون مطابقا لهذا المرجع لفظا وقصدا.

وقد يترخص في الشرط الاول عند أمن اللبس كما في قوله تعالى:

*- « وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ، (النحل

٦١) فالضمير في ظهرها، للارض ولم يسبق ذكرها وأمن اللبس بلفظ «دابة»

لأنها لا تكون دابة الا على الارض فاللبس مأمون.

*- « أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ

سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا، (النور ٤٠) (

فالضمير في «يده» لم يسبق ذكر مرجع له لان اللبس مأمون بأن صاحب اليد

لا يد أن يكون سالكا في هذه الظلمات فكأنه قال: «إذا أخرج السالك يده

لم يكذبها».

*- «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ» (البقرة ٣١) فالضمير في «عرضهم» للمسميات لا للأسماء بقريئة «فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء». ولم يسبق للمسميات ذكر واللبس مأمون.

*- «فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» (البقرة ١٨٢) لم يسبق ما يصح أن يكون مرجعا للضمير في «بينهم»، إلا «الوالدين والأقربين ويجمعهم لفظ الورثة ولكن المسافة بين الضمير وهذا المرجع بعدت بمقدار الآية (١٨١) حتى أصبحت الصلة بين الضمير ومرجعه كأنها منقطعة ولكن اللبس مأمون.

*- «وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا» (النساء ١٢٠) لم يسبق ما يصلح مرجعا للضمير في «يتفرقا» إلا ما جاء في الآية (١٢٨) من قوله: «وإن امرأة خافت من بعلها» وقد طالت المسافة أيضاً وضعت الصلة ولكن اللبس مأمون.

*- «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا» (الأنفال ١٠٩) فالضمير في «جعله» لا مرجع له إلا ما نتصيده من لفظ «الجواب» وهو اسم مصدر من «استجاب».

*- «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ» (الأنفال ٧٣) فالضمير في «تفعلوه» لا مرجع له إلا مانفهمه من «التوجيه» أو «الأمر» بولاية بعض المؤمنين لبعض.

*- «وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ» (يونس ٥٤) فالضمير في أسروا لا مرجع له إلا واحد من اثنين:

١- «الذين ظلموا» في الآية (٥٢) وقد فصل بين هذا المرجع المقترح وبين الضمير بآية كاملة في موقع الاعتراض فالمسافة طويلة بين الضمير ومرجعه.

ب - ما نفهمه من لفظ «كل نفس» من معنى الجمع ومن ثم تكون المطابقة بين الضمير ومرجعه معجمية لا نحوية وفي ذلك ما فيه من اعتماد على أمن اللبس وهو شرط الترخص.

* - «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى» (هود ٤٤) فالضمير في «استوت» يعود على «الفلك» التي في الآية (٢٧) وبين الآيتين كلام طويل ضعفت به الصلة بين الضمير ومرجعه ولكن اللبس مأمون.

* - « قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » (هود ٤٦) أى « إن عمله عمل غير صالح » ولكن لم يسبق ذكر للمرجع فحل الضمير محله واللبس مأمون.

* - « فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ » (يوسف ٢٨) أى إن هذا التدبير من كيدكن « فَمَحَلَّ الضَّمِيرِ مَحَلَّ «التدبير» لدلالة المقام على المقصود وهذه الدلالة على المقصود هي مناط ما نصفه بعبارة أمن اللبس.

* «وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ مَا كَانُ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا» (يوسف ٦٨) لم يذكر مرجع لهذا الضمير المستكن في «كان» أو «يغنى» فلا يعود الضمير إلى شيء إلا ما يفهم من السياق من أمر أبيهم إياهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة فالمعنى «ما كان هذا الأمر يغنى» ومع عدم الذكر أمن اللبس.

* «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ» (يوسف ١٠٢) فلا مرجع لضمير الغائبين في «لديهم»، و«أمرهم»، و«هم» إلا ما اشتملت عليه السورة من مكر إخوة يوسف به، ثم مكره بعد ذلك في رميه إياهم بالسرقة فالضمير للإخوة وليوسف كما يفهم من السورة، وإن لم يذكر المرجع قبل الضمير قريبا إليه مرتبطا به.

* «يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ دُوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (العنكبوت ٥٥) لا مرجع للضمير في «يقول» إلى أن نعيده إلى «قائل» متصيد من الفعل أي «يقول قائل».

* «وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظَّلْمِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا الْأَكْمَلُ خَتَّارٌ كَفُورٌ» (لقمان ٣٢) لا مرجع للضمير في غشيهم، إلا أن نعده التفاتا من ضمير «ليريكم من آياته» في الآية (٣١)، فيكون المعنى «وإذا غشيكم»، ومع ذلك يؤمن اللبس حتى مع عدم تقدير الالتفات، فالضمير لركاب البحر على أي حال.

* «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَوَقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَا عَمَلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ» (الزمر ٦٩ - ٧٠)، لا مرجع للضمير في «بينهم» لأن المقصود به الناس جميعا وقرينة ذلك قوله: «ووقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَا عَمَلَتْ»، لأنه ليس من مشاهد القيامة مشهد يقضى فيها بين النبيين والشهداء بخصوصهم.

* «إِنَّا أَنْشَأْنَا مِنْ أَنْشَاءِ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرْبًا أَثْرَابًا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ» (الواقعة ٣٥ - ٣٨)، من الواضح أن المقصود بالضمير في «أنشاناهن» الحور العين ولكن لم يسبق لهن ذكر.

* «فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُقُوفَ» (الواقعة ٨٣) المقصود الروح ولم يرد لها ذكر سابق.

* «وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» (الحاقة ٤٤ - ٤٦) الضمير في «تقول» يعود على محمد صلى الله عليه وسلم ولم يسبق له ذكر لأن الرسول الكريم في الآية (٤٠) هو جبريل.

* «لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ» (القيامة ١٦)،

١٧) من الواضح أن الضمير في «به» يعود على القران وقد أحاطت القرائن بهذا الفهم سواء قوله «لتعجل به» وقوله «إن علينا جمعه وقرانه» وقبلهما تحريك اللسان به.

وقد يترخص في الشرط الثاني عند أمن اللبس أيضا، وهو عود الضمير إلى أقرب مذكور كما في قوله تعالى:

* «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِيئِنَّا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ» (يوسف ٧ - ٨) فالواو في «قالوا» تصلح للأخوة وللسائلين، ولكن القرينة تجعلها للأخوة وتحول بينها وبين أن تكون للسائلين، وهذه القرينة هي قول الإخوة «أحب إلى أبنينا» لأن الأب لم يكن أبا للسائلين.

* «قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذُهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَيْنَا فَآكَلَهُ الذُّئْبُ» (يوسف ١٧)، فالضمير في «أكله» يصلح ليوسف وللمتاع، ولكن القرينة تجعل الضمير ليوسف، لأنه لم يعهد من الذئاب أكل الامتعة.

* «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا أَفَأَمْنُكُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُونَ لَكُمْ وَكِيلاً أَمْ أَمْنُكُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُونَ لَكُمْ عَلَيْهَا بِهِ نَبِيًّا» (الإسراء ٦٧ - ٦٩)، فالضمير في «يعيدكم فيه» يصلح للبر كما يصلح للبحر والبحر أبعد من الضمير، ولكنه هو المرجع بقرينة «فيغرقكم».

* «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ أَنْتَ أَكَلْتَهَا وَلَمْ تَظَلْمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ» (الكهف ٢٢ - ٢٤)، فالضمير

في «له ثمر» يصلح لأحدهما وللنخل وللزعر وللنهر، وواضح أن الثمر لا يكون للنهر وهو أقرب مذكور، وإنما يكون لأحد الرجلين فهما أولى به من النخل والزعر. وقد يترخص في الشرط الثالث بإعادة الضمير على بعض ما سبقه كما في قوله تعالى:

* «لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» (الفتح ٩) إذا لم يقل تعززوهما وتوقروهما لذكر التسيب بعد ذلك وهو لا يكون إلا لله سبحانه.

* «فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ» (يونس ٨٣)، فالضمير المستتر في «يفتنهم» يعود على فرعون دون الملا مع أن الذرية تخافهما معا، وقد اختلف المفسرون في عود الضمير في لفظ «ملئهم» والظاهر أنه للذرية، لأنهم خافوا ممن لم يؤمنوا بموسى من بنى إسرائيل، كما خافوا من فرعون، ولكن هؤلاء الإسرائيليين غير المؤمنين لم يكونوا بموضع القادرين على فتنة من آمنوا بموسى، ولذلك جاء الضمير لفرعون من دونهم لأنه هو القادر على أن يفتنهم بإيقاع العذاب عليهم أو بمجرد التخويف.

أما الترخص في المطابقة فأوسع مدى من الترخص في الإحالة، لأنه قد تتعدد مسالكة بتعدد محاور المطابقة. فقد تكون الرخصة في الشخص (التكلم والخطاب والغيبة)، وهذا ما يعرف بالالتفات وهو ما سنناقشه عند الكلام عن الأسلوب العدولي، لأن بينه وبين الرخصة العادية أنه يقاس عليه وإن كان عدو لا عن الأصل أما الرخصة، فقد سبق أن قلنا إنها لا يقاس عليها غير أنني أحب أن أشير هنا إلى نوع من المطابقة في الشخص إذ يختار للضمير أحد مرجعين سابقين وكلاهما يصح معه التركيب، ففي قوله تعالى: «وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ تَوَمًا تَجْهَلُونَ» (هود ٢٩) جاءت المطابقة بين الفعل المضارع «تجهلون»

* انظر الفصل الثالث من القسم الثاني

وضمير المخاطبين في «أراكم» وكان يصح نحوياً أن يقال «ولكنى أراكم قوما يجهلون» بمطابقة الفعل للقوم، ومثله أيضاً «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» (النمل ٥٥) إذ كان يصح فيه أن يقال: «قوم يجهلون». وهذا وارد في الشعر أيضاً كقول علي: «أنا الذي سمّنت أمى حيدرة» بالإحالة إلى «أنا» لا إلى «الذي» وكذلك قول المتنبي: «أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبى» وكان يصح أن يقول «إلى أدبه» وكل ذلك يخضع للاختيار الأسلوبى، لأنه أسلوب عدولى في أحد وجهيه.

وقد تكون الرخصة في العدد كما في قوله تعالى: «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ليرضوكم وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ» (التوبة ٦٢) لم يقل «أن يرضوهما» وهذا شبيه بما سبق في الكلام عن الإحالة، ولكن وجهة النظر إلى الشيء الواحد قد تختلف في مقام عنها في الآخر - ومثله قوله تعالى: «قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» (فصلت ١١)، فالرخصة هنا في موضعين: العدد والنوع والموضوعان يتضحان عند وضع «قالتا» بإزاء طائعين أى وضع للتثنية بإزاء الجمع والتانيث بإزاء التذكير. ومن الترخص في العدد أيضاً «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ» (الحجرات ١٠) إذ جاءت المفارقة بين الإخوة والأخوين، وبخاصة إذا علمنا أن كل واحد من الأخوين هو في الواقع «طائفة» بقرينة «وَأَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا» (الحجرات ٩)، وفي هذه الآية الأخيرة أيضاً قامت المطابقة المعجمية بديلاً عن المطابقة النحوية، لأن الطائفة جماعة، ومن ثم يطابقها «اقتتلوا» على نحو ما ذكرنا من قبل في تحليل قوله تعالى: «وَوَحْنٌ عُصْبَةٌ» (يوسف ٨) إذ لا يقال: «أنا عصبه»، على رغم إفراد العصبه وصلاحتها للحاق علامة التثنية بها فيقال: «عصبتان» وللجمع فيقال «عُصَبٌ».

وقد تكون الرخصة في النوع «التذكير والتانيث» كالذى سبق في آية فصلت «قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ»، وكالذى في قوله تعالى: «إِنْ نَشَأْ نُفْرِزْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ» (الشعراء ٤) لأن الأعناق إنما تكون خاضعة، أو «خاضعات» ولا تكون «خاضعين» ولا سبيل إلى أن تجعل «لها»

خبرا عن «ظلت» و«خاضعين» حالا منهم هم لفساد المعنى عند تقديره «فُظِّلَتْ
أَعْنَاقُهُمْ لَهَا». حالة كونهم «خاضعين» لأن ذلك يقتضى أن يكون الخضوع
واقعا أثناء التنزيل وقبل تدبر ما في الآية التي نزلت.

وربما تأتى الرخصة في مطابقة التعريف والتنكير فتوصف النكرة
بالمعرفة. وشرط ذلك أن يسبق الوصف بالمعرفة وصف للنكرة بنكرة مثلها
يكسبها قدرا من التخصيص يقربها من المعرفة فيسوغ عندئذ وصفها
بالمعرفة ويغلب في هذه المعرفة أن تكون من قبيل الموصول كما في قوله تعالى:

* «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ
اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» (ق ٢٤ - ٢٦).

* «هَذَا مَا نُوَعِدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْبَاطِنَ الْغَيْبِ وَجَاءَ
بِقَلْبٍ مُنِيبٍ» (ق ٢٢ - ٢٣).

* «لَكِنِّي لَا أَشَاءُ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ
مَخْتَالٍ فَخُورَ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ» (الحديد ٢٣ - ٢٤)
وفي هذه الآية أيضا مطابقة معجمية بين «كل مختال» وبين «الذين».

* «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ،
(الهمزة ١ - ٣) أما في هذه الآية فقد روعيت المطابقة في الأفراد بين «همزة»
و«الذى» وجاء الترخص في مطابقة التعريف والتنكير فيها. ولم تراع المطابقة
المعجمية بين «كل» وبين الموصول، لأن «كل» تدل معجميا على الجمع
والموصول يدل نحويا على المفرد.

أما الترخص في مطابقة الإعراب فسوف نؤجل الكلام فيه إلى مناسبة القول
في الترخص في قرينة الإعراب.

يأتى بعد ذلك دور الترخص في الربط بالأداة، وقد سبق أن بينا المقصود
بالأداة ونضيف هنا أن الأداة تقع في أنواع:

١ - الأدوات ذوات الصدارة الداخلة على الجمل والتي يناط بها معنى الجملة.

٢ - الأدوات الناسخة.

٣ - الأدوات الداخلة على الأجوبة

٤ - الأدوات الداخلة على ما يحل محل المفرد

٥ - الأدوات الداخلة على المفردات وهي التي تربط المفردات بغيرها من عناصر الجملة.

فأما الأدوات ذوات الصدارة فأشهر ما ينالها من الترخص حذف أداة الاستفهام اعتمادا على نغمة الكلام أو على قرينة أخرى، مما سبق ذكره منذ قليل كما في قوله تعالى: «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ» (الشعراء ٢٢) وقوله «قَالَ وَمَنْ ذُرِّيَّتِي» (البقرة ١٢٤)، ومن ذلك أيضا حذف الأداة في قوله تعالى: «قَالَ أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ» (الشعراء ٤٩) أي «أأمنتُم له قبل أن آذن لكم، ومنه حذف حرف النفي في قوله تعالى: «قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يُونُسُ» (يوسف ٨٥) ومثله قول امرئ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

وأما قول عنتره "

وخلال الذباب بها فليس ببارح غردا كفعل الشارب المترنم

فقد وضع «ليس» موضع «لا» وحول الفعل إلى اسم فاعل مجرور بالباء

الزائدة للتأكيد.

وقد تحذف اللام الموطئة للقسم كما في قوله تعالى: «وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (المائدة ٧٢) وقوله: «وَإِنْ قَوْلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ» (الحشر ١١)، بقرينة العطف على «لَنْ أَخْرِجْتُمْ

لَخَرُجَنَّ مَعَكُمْ، وفي كلتا الحالتين بقريئة اللام في الجواب.

وأما النواسخ فقد يترخص بحذفها ويبقى مايدل على ذلك، فيكون هذا الدليل هو القريئة المانعة من اللبس، فإذا نظرنا مثلاً إلى قول الشاعر: «قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا» فلامنا ص من فهم «كان» مقدرة محذوفة واسمها ضمير مستتر فيها ويبقى خبرها مذكورا منصوبا بحسب القاعدة، وإنما قدرنا «كان» محذوفة لأننا لم نعهد في التركيب العربي (وإن عهدنا في الأسلوب) دخول «إن» الشرطية على اسم منصوب واكتفاء كل منهما بالآخر. ولكن مالنا ولقول الشاعر وفي القران من ذلك ما يؤيد قولنا بالترخص، كما في قوله تعالى:

* «حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَآيُوعِدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا» (مريم ٧٥)، أى إما أن يكون العذاب وإما أن تكون الساعة أى إما أن يروا هذا أو ذلك.

* «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا» (الإنسان ٣) فلدينا في التركيب «إن الشرطية» وبعدها «ما» الزائدة للتوكيد (وإن جعلها البعض نائبة عن كان على غرار إِمَّا أَنْتَ ذَا انْفِرْ)، ثم يأتى الاسم المنصوب بعد ذلك وبهذا يكون التركيب شبيها بقول الشاعر «إن صدقا وإن كذبا».

* «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا» (المعارج ١٩ - ٢١) نحن هنا مع «إذا» الشرطية أخت «إن» السابقة ولم يقع الترخص بالحذف في شرطها، كما حدث في حالة «إن»، ولكن حذف الناسخ جاء في الجواب أى «إذا مسه الشركان جزوعا وإذا مسه الخير كان منوعا» وإنما عدنا ذلك من قبيل الترخص في الربط نظراً لما يستكن في الفعل الناسخ المحذوف من ضمير رابط هو اسم كان المحذوفة والترخص في الأدوات الداخلة على الأجوبة وارد في القران، كذلك إذا أمن اللبس وقد يكون ذلك فيما يدخل على جواب الشرط كما في قوله تعالى: «وَأَنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» (الأنعام ١٢١)، وفي هذا إما تقدر حذف اللام الداخلة على «إن» أو حذف الفاء الداخلة

على الجواب.

فشيبه ذلك قول الشاعر «من يفعل الحسنات الله يشكرها» وقوله «فأما

القتال لاقتال لديكم»

نصل بعد ذلك إلى الأدوات الداخلة على ما يحل محل المفرد ومنها السواو
الداخلة على جملة الحال، وكذلك «قد» فمن قبيل حذف الواو فقط ما في قوله
تعالى: «فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ» (البقرة
٦٠) أى «وقد علم كل أناس مشربهم» وقوله: «وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ
الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى» (طه ٧٥) أى «وقد عمل ومن حذف
«قد» فقط «يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ» (المائدة
١٣) أى «وقد نسوا» وقوله تعالى: «وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا» (الأنعام ٢٥) أى «وقد جعلنا وقوله:
«قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ» (يوسف ٧١) «وقد أقبلا» وقوله: «قَالَ
رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا» (مريم ٨) أى «وقد كانت»
وقوله: «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ» (طه ٨٥) أى
«وقد أضلهم» وقوله: «وَقِيلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ
وَرَأَوْا الْعَذَابَ» (القصص ٦٤) أى «وقد رأوا العذاب» ومنه: «وضرب لنا مثلا
ونسى خلقه» (يس ٧٨) أى وقد نسى خلقه

وكذلك «قَالُوا أَنْوْمِنَ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ» (الشعراء ١١١) أى وقد

اتبعت الأردلون

ويحتمل «وندى نوح ابنه وكان في معزل» (هود ٤٢) أى وقد كان في

معزل

والاحتمال الآخر في الشاهد الأخير أن تكون جملة «وكان في معزل»

اعتراضية لان النداء يجعل «يابنى أركب معنا» في حكم مقول القول. وهكذا

تكثر الشواهد على الحذف حتى ليكاد يرقى إلى مرتبة الاختيار الأسلوبى متجاوزا الوصف بالترخص، ومن حذفهما معا قوله تعالى: «أَوْجَاءٌ وَكُمُّ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ» (النساء ٩٠) أى «وقد حصرت» وقوله: «وَأَنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ» (الحج ١١) أى «وقد خسر» وقوله: «فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (القصص ٢١).

ومن حذف ما يدخل على ما يحل محل المفرد حرف الجر ويسمى حذف هذا الحرف «نزع الخافض» وهو يطرد قبل أن المشددة وأن الخفيفة عند أمن اللبس وهذا الأطراد يخرج من قبيل الرخصة ويسلكه في قبيل الأسلوب العدولى، أما الذى يعد من قبيل الرخصة، فهو نزع الخافض قبل الاسم المفرد، وإنما عد ذلك من الربط لما ينسب إلى الجار والمجرور من التعليق بأحد عناصر الجملة فهذا التعليق هو الربط. وقبل أن نورد الشواهد على هذه الظاهرة القرآنية أحب أن أشير إلى مايلي:

١ - أن كل ظرف في اللغة العربية فهو على معنى «فى» ومن ثم يصدق عليه القول بنزع الخافض بمعنى من معانى هذه العبارة.

٢ - وكل مفعول لأجله فهو على معنى اللام، ومن ثم يصدق عليه هذا القول أيضا.

٣ - أما الإضافة فعلى الرغم من أنها على معنى حرف الجر فالمضاف إليه مجرور فعلا وينسب جره بالإضافة إلى الخافض الذى نزع.

من هنا أجد بعض ما أورده هنا يصلح إلى جانب إعرابه على نزع الخافض أن يكون ظرفا أو مفعولا لأجله، وفيما يلي طائفة من الشواهد على هذه الرخصة:

* «وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا» (الأعراف ١٥٥) أى «من قومه»

* «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ» (التوبة ٥) أى «في كل مرصد»

* «اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا» (يوسف ٩) أى «في أرض ما»

* «قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى» (القصص ٨٥) أى «بمن جاء»

* «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» (العنكبوت ٧) أى «ياحسن الذي كانوا يعملون».

* «وَصَاحِبَيْهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا» (لقمان ١٥) أى «بمعروف»

* «وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَأُرِيْبَ فِيهِ» (الشورى ٧) أى «بيوم الجمع»

* «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» (الشورى ٥١) أى «بوحى» بقرينة أو يرسل بنصيب المضارع مما يدل على أن مقدرة منزوعة الخافض ومن هنا يجرى المصدر الصريح مجرى المصدر المؤول في التقدير.

* «وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى» (النجم ١٣) أى «في نزلة»

وإذا كان نزع الخافض الداخل على «أن» و«أن» من قبيل الأسلوب العدولى بسبب اطراده، فإن الشواهد السابقة تمثل نزع الخافض من الاسم المفرد ويعد الخافض المنزوع لهذا السبب من الأدوات الداخلة على المفردات فنزعه عنها من الترخص، وهناك أدوات أخرى كحرف العطف مثلا تدخل على المفردات، كما تدخل على غيرها ويرد عليها الترخص بالحذف. وهنا أيضا نحب أن نفرق بين الحذف التى ينشأ عنه ما سميناه قبل ذلك بالفصل البلاغى وهو من الأسلوب العدولى، وبين الحذف الذى لا يستقيم المعنى معه إلا بتقدير المحذوف فيعد من قبيل الترخص. فلست أعد من قبيل الترخص ما أراه من حذف حرف العطف في آيات مثل:

* انظر ص ٢٤٥ وما بعدها

* «فَاجَاءَهَا الْمُخَاضُ إِلَى جِدْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا» (مريم ٢٢) أى «فقال يا ليتنى»

* «وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي» (هود ٨٠ ٧) أى «فقال يا قوم»

* «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنِ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا» (العنكبوت ٣٢) أى «فقال إن فيها لوطا فقالوا..»

* «وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ...» (يوسف ١٧) أى فقالوا يا أبانا...

* «إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ» (ص ٢٢) أى فقالوا لا تخف.

وذلك على الرغم من أن علاقة القول في كل الآيات السابقة هي الترتيب والتعقيب فتقدير الفاء قبل القول في كل آية منها تقدير يدعو إليه المعنى، ومع ذلك لا يعد ذلك من الترخص لأنه تصرف أسلوبى مألوف والإلف يقرب به من الأطراد على نحو ما سنرى في الكلام عن الأسلوب العدولى وفرق بين الأطراد وبين ارتهان الرخصة بمحلها وعدم جواز القياس عليها. ولكن الترخص واضح في قوله تعالى: «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ» (التوبة ٩٢) لأن المعنى إما أن يكون:

أ - إذا ما أتوك فقلت.... تولىوا....

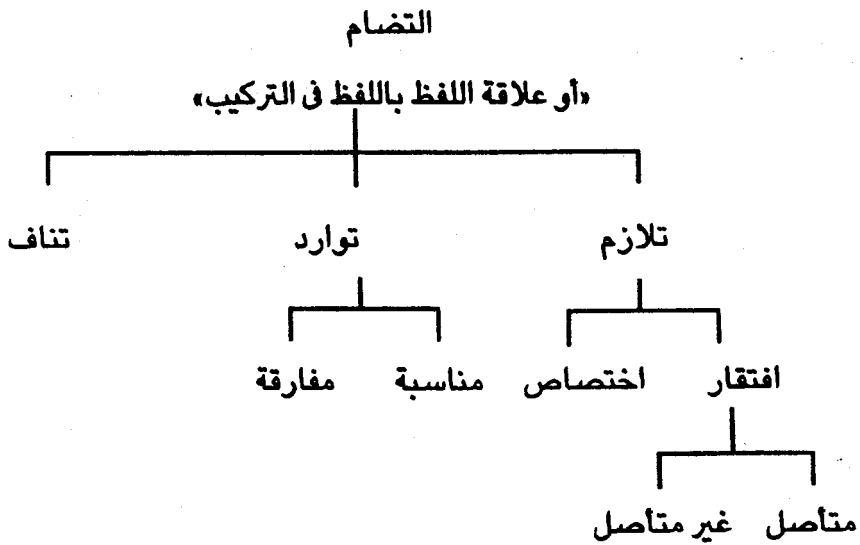
أوب - إذا ما أتوك قلت..... فتولىوا.....

فلا مناص من تقدير الفاء العاطفة في أحد الموقعين ليكون الفعل الآخر جوابا لشرط «إذا» والفاء في المعنى الأول عاطفة على الشرط وفي الثانى عاطفة على الجواب.. وتشير قرينة السياق إلى أن المعنى الأول هو المقصود لسببين أولهما أن العفو عن هؤلاء المعسرين لم يترتب على قول النبي لهم، وإنما على صدق

نواياهم بدليل أنهم «تولوا» باكين ومن ثم لم يكن عليهم من سبيل.. أما الثانى فأولى بجملة الشرط التى وقعت صلة للذين أن يتحد الضمير الرابط فيها بوقوعه فى الشرط والجواب معاُن: «إذا أتوك تولوا» مقدم فى هذا الموقع بالذات على «إذا أتوك قلت» ليكون الكلام عنهم على طول الخط وفى ذلك تكريم لهم.

رابعا: الترخص فى قرينة التضام:

قلنا قبل ذلك إن ما يقصد بلفظ التضام «واللفظ قديم ولكن معناه هنا من وضعنا، إما أن يكون لزوم لفظ «وهو التلازم» أو مناسبتة له بحيث لا يمتنع أن يصاحبه «وهو التوارد» أو تنافره معه بحيث لا يردان معا متواليين فى تركيب واحد «وهو التنافى» وقلنا أيضا إن التلازم قد يكون افتقارا أو اختصاصا وأن الافتقار قد يكون بأصل الوضع وقد يكون بنمط التركيب «والأول يسمى المتأصل ويسمى الثانى غير المتأصل» أى أن الصورة تبدو على النحو التالى:



والترخص في الافتقار إنما يكون بالحذف سواء في الافتقار المتأصل وغير المتأصل ويكون في الاختصاص بإدخال اللفظ على غير ما اختص به وفي المناسبة بالمفارقة وفي التناهي بالزيادة والجمع بين المتنافيين.. فأما بالنسبة للحذف فينبغي مرة أخرى أن نفرق بين الرخصة والأسلوب العدولي.. ذلك أن التصرف في الأساليب اللغوية كثيرا ما يجعل الحذف وسيلة أسلوبية فنية فيلقى قسطا من حمل الأثر الفني على حذف المضاف أو المضاف إليه وحذف الموصوف أو الصفة وحذف المفعول به مع وضوح علاقة التعدية في الفعل أو يكتفى بالأداة المفتقرة إلى الجملة دون ذكر الجملة إتكالا على ما سبق من ذكرها، كما في إغناء أدوات الاستفهام «متى وأين ولم وكيف الخ» عند تكرار جملتها أو يحذف المبتدأ أو الخبر أو الفعل الخ مع قيام الدليل على المحذوف في كل ذلك والقاعدة تقول: «لا حذف إلا بدليل».. وكل ذلك أسلوب عدولي يهش له الاستعمال ويخف إلى تأويله النحو وتقوم على أمن اللبس فيه القرائن.

أما الترخص في التضام فهو إهدار قرينة التضام تحديا للقاعدة فلا يخف النحو إلى تأويل الرخصة ولكن المعنى معها واضح واللبس مأمون أيضا لأن بقية القرائن تجبر ما وقع من إهدار لإحداها.. دعنا أولا نمهد لبيان هذا الترخص في حالة الافتقار بقول الشاعر:

نحن الأولى فاجمع جموعك ثم وجههم إلينا

فالمحذوف صلة الموصول «الأولى» وقد أمن اللبس مع الحذف بسبب قرينة السياق وهي اجتماع الفعلين «اجمع» و«وجه» في البيت ثم الضمير في «إلينا» وذلك يدل على التحدى فكأن الشاعر يقول «نحن الأولى نتحداك» أو «الأولى يتحدونك».. ومن قبيل ذلك في الاستعمال القرآني قوله تعالى: «وَإِنْ كُنَّا لَمَّا لِيُوقِنَهُمْ رَبِّكَ أَعْمَالَهُمْ» (هود ١١١)، فالمعروف أن «لما» أخت «لم» وكلتاهما حرف جازم يفيد النفي ويفتقر إلى المضارع من الأفعال ليفيد انتفاءه في الماضي غير أن المنفى مع لَمَّا نفي مقيّد بتوقع الحدوث في الحاضر المستمر أى أن الفعل

معها يتوقع حدوثه في آية لحظة.. غير أن المضارع الذي تفتقر إليه «لما» قد حذف ولكن اللبس مأمون مع ذلك.. فما قرينة المعنى بعد الحذف؟ القرينة في توالي «لما» واللام الموطئة للقسم لما يترتب على هذا التوالى من تناقض بيانه كما يلي:

١ - أن «لما» تفيد النفي وأن اللام تفيد تأكيد الإثبات فلا يجتمعان..

٢ - أن اللام ذات صدارة فلا يعقل أن يتقدمها لفظ داخل عليها.

٣ - أن من أصول النحاة أن الحرف لا يدخل على الحرف ولكن قد يدخل على جملة مبدوءة بحرف.

يؤخذ من كل ذلك أن لام القسم بداية جملة مستأنفة وبهذا تقف «لما» واضحة الافتقار إلى فعل مضارع يتحمل نفيها.. ولا يبقى بعد ذلك إلا التفكير في تقدير هذا الفعل وهنا يأتي دور دليل المحذوف.

ويقع هذا الدليل في جملة القسم وبالتحديد في قوله «ليوفينهم» لأن هذا وعد من الله سبحانه يوضح أنهم حتى الآن «لما يوفوا أعمالهم» وهكذا يكون التقدير.

والمعروف أيضا أن أداة الشرط تفتقر إلى شرط وجواب، بل إن الجواب هو الرسالة الحقيقية والشرط إنما هو قيد لوقوع مضمون الجواب ومن هنا يصبح جواب الشرط بالغ الأهمية في الكلام ولكن أمن اللبس قد يبيح حذفه أحيانا بقرينة السياق والشواهد على ذلك كثيرة منها:

هَأَلُوا إِنَّا نَطِيرِنَا بِكُمْ لَنْ لَمْ نَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَنْزَلْنَاهُمْ (يس ١٨ - ١٩) فالتقدير «أئن ذكرتم تطيرتم» بقرينة «قالوا إننا تطيرنا بكم».

* وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (يس ٤٥ - ٤٦)

والتقدير «وإذا قيل لهم اتقوا.. أعرضوا» بقرينة السياق في الآية التالية..
والمعنى «أعرضوا وديدنهم الإعراض».

* «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ» (النور ١٠ - ١١) والجواب محذوف تقديره «لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم، لأن سياق الآية رقم ١٤ يؤكد ذلك وهو:

«وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ». (النور ١٤)

* ومثله أيضا «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَّحِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» (النور ٢٠ - ٢١) فالجواب محذوف تقديره «ما زكى منكم من أحد أبدا» بقرينة سياق الآية رقم ٣٢ وفيها «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّىٰ مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا». (النور ٣٢)

المعروف أن فعل التسوية يحتاج إلى متساويين بالسلب أو الإيجاب ولكننا نقرأ قوله تعالى: «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ» (الحديد ١٠) والتقدير «لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل» بقرينة السياق الذي يتلو ذلك.. أى أن العديل الثانى فى تقى المساواة لم يعطف على الفاعل «العديل الاول» وإنما استقل بجمله مستأنفة جعلت هى دليل المحذوف.

أما الترخص فى الاختصاص فأشيعُ صورهُ التضمين وبخاصة عندما يدخل الفعل على حرف جر ليس له كما فى قوله تعالى: «وَقَدْ أَحْسَنَ بِي» (يوسف ١٠٠) أى «أحسن إلى» لأن حرف الجر الذى يستعمل مع فعل الإحسان هو

«إلى» ولكن التضمين أسلوب عدول شائع ومألوف في الاستعمال وقد قربه الشيوع من الاطراد فلم يعد ينظر إليه نوع النظرة إلى الرخصة لأنه يقاس عليه ولا يقاس عليها.. ومن الترخص في الاختصاص في القرآن الكريم حذف متعلق الظرف «إذ» واستعمالها أداة للاستفتاح والتأكيد كما في قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، (البقرة ٣٠) = لقد
 وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، (البقرة ٣٤) = لقد
 وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، (البقرة ٤٩)
 = لقد

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ، (البقرة ٥٠) = لقد
 وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ، (البقرة
 ٥١) = لقد

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، (البقرة ٥٣) = لقد
 وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ،
 (البقرة ٥٤) = لقد

ومنه استعمال أداة التشبيه ولا مشبهه وذلك كقوله تعالى:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا، (البقرة ١٤٣)
 كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ، (البقرة ١٥١)
 كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ، (الأنفال ٥)

والترخص في المناسبة يكون بالفارقة والمفارقة نوعان أولهما يستعصى على التبرير حين تتناقض الكلمة مع الكلمة كقول قطرب: «يرقون بالنحو إلى أسفل» أو حين لا يكون للكلمة مع أختها معنى كما في قول المجنون بن جندب:

محكوكة العينين معطاء القفا كأنما قدت على متن الصفا

ترنو إلى من شرك أعجفا كأنما ينشر فيه مصحفا

والقرآن أسمى من التناقض وأجل من أن يعبث بالقول دون الوصول إلى الفائدة.. والنوع الآخر من المفارقة يأذن للتبرير وذلك حين تكون المفارقة بإسقاط العلاقة المعجمية العرفية الاجتماعية بين الكلمة ومدلولها وإنشاء علاقة أخرى فنية أو ذهنية فردية غير اجتماعية ينشئها المتكلم في ظل قرينة من الكلام يفهم منها إحلال علاقة محل علاقة.. ذلك هو المجاز.. فإذا قرأت: «وَلَوْ أَنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَاةَ بِالْهَدَىٰ» (البقرة ١٦) فأول ما يصادفك في فهم هذه الآية ما بين الشراء والضلالة من مفارقة لأن الضلالة ليست سلعة تباع وتشتري فهذه هي القرينة على عدم إرادة المعنى المعجمي العرفي الاجتماعي وعليك حينئذ أن تبحث عن مبرر تضام كلمتين بينهما مفارقة معجمية وستلجأ عندئذ إلى استنباط العلاقة الفنية الفردية التي أنشأها المتكلم «علاقة المشابهة» ويكون العثور على هذه العلاقة بالرجوع إلى الكلمة المناسبة في هذه الجملة وإنشاء علاقة التشبيه بينها وبين الكلمة المذكورة غير المناسبة فتقول مثلا «شبه مطلق الاستبدال بالشراء وهو استبدال خاص ثم حذف وأقام الخ» هذا هو النوع الثاني.. غير أن ذلك ليس من قبيل الترخص وإنما هو من قبيل الأسلوب العدولي لأن الرخصة مرهونة بمحلها وهذا يقاس عليه وقد شاع في الأدب حتى رقى إلى مصاف المطرد من اللغة على رغم كونه يبنى على المفارقة المعجمية أى عدم مناسبة إحدى الكلمتين للأخرى بحسب المعنى الأصلي.

أما الترخص في التنافي فمثاله أن «ال» الموصولة من شأن صلتها أن تكون صفة صريحة والمقصود هنا هو الصفة بمعناها الصرفي «أى المشتقة» لا بمعناها اللغوي العام ولكن في الشعر العربي شواهد قليلة على إدخال «ال» هذه على المضارع الذى يتنافى معها بحسب الأصل مثل قول الشاعر: «مه أنت

بالحكم الترضى حكومته» أو ما ورد في بيت آخر من قوله: «صوت الحمار
البيجع».. ولم يرد بالقرآن شيء من هذا النوع من الترخص الذى نسبه النحاة
إلى القلّة وإلى ذلك أشار ابن مالك بقوله:

«وكونه بمعرب الأفعال قلّ»

خامسا - الترخص فى الإعراب:

شروط الرخصة فى أى قرينة ألا يتوقف عليها المعنى وأن يؤمن اللبس مع
الترخص لهذا السبب وكل الحالات التى يؤمن فيها اللبس مع الترخص فى
الإعراب تعود إلى إغناء قرينة أو أكثر عن دلالة الإعراب على المعنى ولقد سبق
أن أشرنا إلى أن الإعراب لا يدل على المعنى النحوى للفظ المقصور ولا المنقوص
فى حالتى الرفع والجر ولا المبنيات ولا الماضى والأمر من الأفعال ولا المضارع
الناقص فى حالة الرفع ولا المركبات العددية ولا الجمل ذوات المحل ولا المصادر
المؤولة وأن دلالة الإعراب إنما تكون فى الألفاظ المتمكنة والمضارع الصحيح
الآخر. وفيما يلى طائفة من صور الترخص فى الإعراب مع بيان ما أمن به
اللبس فى الكلام:

* قالت العرب: «هذا جحر ضب خرب» بجر «خرب» وحقها الرفع لأنها
صفة الجحر، وقد فسر النحاة ذلك على إعراب الجوار (أى المناسبة الصوتية
بين الكلمة وجارتها) وقد أمن اللبس بالمناسبة المعجمية بين الصفة
وموصوفها وبالمفارقة المعجمية بين الكلمة وشريكها فى الإعراب لأن الضب لا
يوصف بالخراب وإنما يوصف به الجحر.

* قالت العرب: «خرق الثوب المسمار» برفع الثوب (وهو المفعول) ونصب
المسمار (وهو الفاعل) وقد أمن اللبس لأن الفعل غير منتقل أى لا يجوز لفاعله
أن يُظن مفعولا ولا لمفعوله أن يُظن فاعلا فاتضح معنى الإسناد ومعنى
التعدية من مجرد علاقة الكلمات بعضها ببعض كما فى المثال السابق فأمن اللبس

أما في القرآن الكريم فنجد الشواهد التالية:

﴿إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة ٣) بجر لفظ الرسول على قراءة، وقد خرجها البعض على القسم أي «وحق رسوله» وهو معنى لا يدعوا إليه المقام، وإنما أمن اللبس بالمفارقة في السياق بين البراءة وبين الرسول، وكذلك بين عدم صحة عطف الرسول على المشركين لانتفاء الجامع، ومن هنا كان الرسول معطوفا على لفظ الجلالة سواء رفع أو خفض، وقد سبق أن وصفنا قرينة السياق، بأنها كبرى القرائن النحوية

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ (البقرة ١٧٧)
فالبارون بحسب نص الآية أربعة أصناف:

أ - من امن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبیین.

ب - من أتى المال على حبه ذوی القربى والیتامى والمساکین وابن السبیل والسائلین وأتاه أيضا في عتق الرقاب، ثم صلی وزكى.

ج - الموفون بعهدهم إذا عاهدوا

د - الصابرون في البأساء والضراء وحين البأس.

فإذا نظرنا إلى الواو العاطفة قبل «الصابرين» وجدناها قرينة واضحة الدلالة على عطف الصابرين (وهي منصوبة) على «الموفون» (وهي مرفوعة) ولا تكون إلا كذلك. بل إن النحاة أنفسهم (وهم أحرص الناس على دلالة الإعراب) لم يجدوا ذلك إلا من قبيل العطف، وذلك لمكان الواو وإن سموا ذلك «قطع العطف» والتمسوا له مختلف صور التخريج.

﴿ قَالَ تَعَالَى: «لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا

أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا، (النساء ١٦٢) فالَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ:

أ- الراسخون في العلم منهم

ب- المؤمنون

ج- المقيمون الصلاة

د- المؤتون الزكاة

أما «المؤمنون بالله واليوم الآخر» فيحتمل الاستئناف على معنى الإخبار
بالالف واللام وبذا تكون «أولئك» هي الرابط بين المبتدأ والخبر لما في الجملة من
رائحة الشرط (أى من آمن آتيناها). نعود إلى فكرة الترخص إذ نرى لفظ
«المقيمين» تحف به المرفوعات من أمامه وورائه والعلاقة بينه وبين هذه
المرفوعات علاقة العطف بقريئة الواو، وإذا اتضح معنى العطف بقريئة غير
الإعراب أمكن الترخص في الإعراب كما نراه واقعا هنا.

* «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»، (المائدة ٦٩)
فالصابغون معطوف على اسم إن الذى قبله بقريئة الواو أيضا أما خبر إن فهو
الجملة الشرطية التى أولها «من آمن.....»

* «إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ» (طه ٦٣) لايتقدم خبر إن على اسمها إلا أن يكون
ظرفا أو جارا ومجرورا وليس قوله «لساحران» من هذا القبيل فعلم أن
«هذان» اسم إن فجاء الترخص في الإعراب لأمن اللبس وإيجاد نوع من
المناسبة الصوتية بين اسم إن وخبرها.

* «قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَأْتَمَنَّا عَلَى يُوسُفَ» (يوسف ١١) قوله «تأمننا»
فعل مضارع يستحق الرفع فاعله مستتر يعود على الأب ومفعوله ضمير

المتكلمين المتصل به. ولكن إعراب الفعل بالرفع كان موضع ترخص فلم تظهر الضمة على آخره لما عرض للكلمة من إدغام النونين إحداهما في الأخرى.

ولكن اللبس مأمون بقريئة السياق لأن عبارة «مالك» دون الوقف عليها حالت بين «لاتأمناء» وبين أن تكون نهيا هذا من جهة ومن جهة أخرى لا يصح في الأذهان أن ينهى الأبناء أباهم عن أن يأمنهم إذ لو فعلوا لكان ذلك منهم إقرارا بسوء النية. فلم يبق إلا أن تكون «لا» نافية والفعل مرفوعا واللبس مأمونا، هذا على أن النون الأولى متحركة وإذا تحرك أول المثلين، فإن الإدغام يسمى الإدغام الأكبر ومنه أيضا قوله تعالى: «قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ» (الكهف ٩٥) إلا أن الحركة الملقاة فيه حركة بناء ويشبه ذلك إدغام المثلين في «شدّ» و«ردّ» ونحوهما غير أن الإدغام هنا في الكلمة الواحدة وماسبق كان إدغاما في الكلمتين.

القسم الثاني
دراسات أسلوبية

الفصل الأول

تأملات في القيم الصوتية في القرآن الكريم

نعنى بالقيم الصوتية تلك الخصائص التي تتمايز بواسطتها الأصوات ويتعلق بها نوع من المعانى يسمى المعانى الطبيعية، التي لا توصف آثارها بأنها عرفية ولا ذهنية لأنها في الواقع مؤثرات سمعية انطباعية ذات وقع على الوجدان «تدركها المعرفة ولا تحيط بها الصفة»، فمثل تأثيرها في وجدان السامع مثل النغمة الموسيقية تطرب لها ثم لا تستطيع أن تقول لم طربت. ونستطيع أن ننسب إلى الأسلوب القرآني من هذه القيم عددا نأمل أن نتناوله بالدراسة منه الإيقاع والفاصلة والحكاية والمناسبة وحسن التأليف. وسنتناول - إن شاء الله - كل واحدة من هذه الظواهر على حدة في الفقرات التالية:

أولا- الإيقاع:

لقد جعلنا من عادتنا العقلية أن نُحْكَم الربط بين مصطلح «الإيقاع» والشعر الموزون فنقول: «إيقاع الشعر» ونحن نعنى «وزن الشعر»، ولم تعرف تقاليدنا الفكرية إدراك الرابطة التي تربط الإيقاع بصور التعبير الأخرى بل إننا كلما تمثلت ظاهرة الإيقاع لإدراكنا غلفناها بطائفة من الصور المجازية في التعبير عنها. وقد بدأ هذا التغليف بالمجاز منذ قال القائل: «إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة... الخ» فأين الحلاوة والطلاوة (وهما من حس اللسان والنظر) من الإيقاع (وهو مما تحسه الأذن)؟ أما هنا فنحن نحاول أن نكشف عن الظاهرة كشفا علميا وأن نخضعها لنوع من الوصف يجعل الكلام عنها من قبيل الحقيقة وليس من قبيل المجاز. إن المدخل إلى دراسة الإيقاع لا يكون إلا من خلال معرفة المقاطع اللغوية العربية المختلفة الكميات وما يتصل بذلك من

قواعد النثر في الكلام. وحين حاول العروضيون أن يصلوا إلى دراسة تقلبات أجزاء التفعيلات حددوا الأسباب والأوتاد وصاغوا لها عبارتهم المشهورة «لم أر على ظهر جبل سمكة، ولكنهم لم يحددوا مقاطع اللغة العربية لأن أغلب الفاظ هذه العبارة مكون من أكثر من مقطع واحد. ولو حاولنا أن نقطع هذه العبارة بحسب مقاطع اللغة لبدت على النحو التالي:

لَمْ - أ - رَ - عَ - لَأ - ظَهْرَ - رَ - جَ - بَ - لِنَ - سَ - مَ - كَ - تَنَ، تلك أن دراسة المقاطع في العربية لها شروطها التي لا تتحقق إلا برعايتها ومنها مايلي:

١- كل حرف متحرك فهو بداية مقطع.

٢- كل صوت ساكن بعد حركة أو مد فهو نهاية مقطع، وقد يشدد هذا

الساكن عند الوقف.

٣- هناك مقطع بحسب الأصل ومقطع بحسب الاستعمال ويتصل هذا

التفريق في الغالب بهمزة الوصل.

٤- نحن معنيون في هذه الدراسة بالمقاطع الاستعمالية لا التنظيمية لأن

موضوعنا هو الإيقاع وهو ظاهرة استعمالية.

قد يكون رقم ٢ السابق بحاجة إلى فضل إيضاح لأننا لم نحدد طبيعة

اتصال التفريق بين موضوعنا وبين نوعي المقاطع تحديدا واضحا. ولهذا

نسوق مايلي:

١- يعترف نظام اللغة العربية بإمكان افتتاح الكلمة العربية بحرف ساكن

ولكنه لا يجيز الابتداء به فإننا قلنا: «انطلقوا» فإن أول حرف من حروف الكلمة

هو النون الساكنة أما الألف فليست أكثر من (وسيلة كتابية) تشير إلى موقع

«الوصل»، فهي ليست من بنية الكلمة ومثلها كمثل الألف التي جاءت بعد واو

الجماعة من كلمة «انطلقوا» السابقة لتدل على أن الواو للجماعة، وليست

للجمع وتظهر فائدة هذه الأخيرة في التفريق بين «قاتلوا زيدا» و«قاتلوا زيدا»

مثلاً.. إذ تشير بوجودها إلى أن الواو في العبارة الأولى للجماعة (أى أنها ضمير) كما يشير غيابها من المركب الإضافي في العبارة الثانية إلى أن الواو للجمع (أى أنها حرف). ولما كانت كلمة «انطلقوا» في حال نطقها بحاجة إلى همزة وصل يتوصل بها إلى نطق أول الكلمة، أصبحت المقاطع الاستعمالية (أى الصوتية) للكلمة على النحو التالي:

ء ن - ط - ل - قُو

ولو وقعت الكلمة في الوسط فلم يبدأ بها السياق لكان على الحرف الذى قبل النون الساكنة أن يحمل الحركة التى كانت للهمزة التى بديء بها الكلام من قبل، وأن يكون هذا الحرف مع النون مقطعا واحداً. فإذا نظرنا إلى هذه الكلمة نفسها في قوله تعالى: «فَانْطَلِقُوا وَهُمْ يَخَافُونَ» (القلم ٢٣) وجدنا المقطع الأول على صورة «فَن» أى أن الفاء حلت محل همزة الوصل التى في المقطع (ء ن) السابق.

لجاء هذا الفهم لاغبار عليه عند النظر إلى الاستعمال الذى يأتينا بمقاطع صوتية بل إن المقاطع الصوتية هى طلبتنا في هذه الدراسة. لكن ماذا عن التأصيل النظرى بحسب نظام اللغة وبخاصة في ضوء الشرط الثانى الذى يجعل كل صوت ساكن بعد حركة نهايةً لمقطع. النون في كلمة «انطلقوا» ساكنة. فالنون إذاً نهايةً مقطع ولكن أين بداية هذا المقطع بحسب أصول اللغة؟ إنه لا بداية له من حيث التأصيل وإن كانت له بداية في الاستعمال «نخلص من ذلك إلى أن النون في «انطلقوا» مقطع تأصيلى بذاته، به بدأ المقطع وبه انتهى، ويحسن أن يسمى مقطع الوصل لأنه تأصيلى لا يوجد إلا في الذهن بواسطة التجريد العقلى ولا يوجد في الاستعمال.

هـ= يأتى هذا المقطع ذو الوجهين (مقطع الوصل) في أسماء بعينها وفي أداة التعريف وفي ماضى الخماسى والسداسى وأمرهما ومصدرهما وأمر الفعل الثلاثى. ولنا أن نذكر قول ابن مالك «أل حرف تعريف أو اللام فقط» لنرى أن اللام فقط مقطع تأصيلى مستقل.

بهذا نصل إلى نقطة يحسن عندها أن نعرض صور المقاطع الاستعمالية الصوتية للغة العربية وسنرى أنها كما يلي:

المقطع الأول: صوت متحرك وليس بعد حركته صوت ساكن مثل المقاطع الثلاثة في لفظ «ضَرَبَ» مبنيا على الفتح، فكل مقطع منها صوت متحرك ليس بعده سكون هكذا: ضَ - رَ - بَ - ويرمز لهذا المقطع بالرمز «ص ح».

المقطع الثاني: صوت متحرك بعد حركته صوت ساكن، ومثال ذلك المقاطع التي تتكون منها عبارة «لَمْ يَكْتُبْ». فاللام في «لم» متحركة بعدها ميم ساكنة ومثلها الياء في «يَكُ» وكذلك التاء في «تُب» فهما متحركتان بعد كل منهما صوت ساكن أيضا، ويرمز لهذا المقطع بالرمز «ص ح ص».

المقطع الثالث: صوت صحيح يتلوه مدّ وليس بعد المد سكون: «وَأَفَانِي» فكل من الواو والفاء والنون جاء بعده مدّ وليس بعد المد سكون، والرمز الدال على هذا المقطع هو «ص م».

المقطع الرابع: صوت يتلوه المد وبعد المد سكون كما في «ضالين» و«طامة» و«صاخة» فالمقطعان في كل من هذه الكلمات كما يلي: ضَالٌ - لِينٌ، طَامٌ - مَةٌ، صَاخٌ - خَةٌ، أى أن المقطع الأول من كل هذه الكلمات من هذا النوع (ضالٌ - طامٌ - صاخٌ) ويرمز له بالرمز «ص م ص».

المقطع الخامس: صوت متحرك وبعد الحركة صوتان ساكنان كما في الوقف على «قبل» و«بعد» وكما في المقطع الثاني من مقاطع «دويبة» (دُ - وَيْبُ - بَةٌ) تصغير «دابة» و«صويخة» (صُ - وَيْخُ - خَةٌ) تصغير «صاخة» ويرمز له بالرمز «ص ح ص ص».

المقطع السادس: صوت يتلوه مدّ وبعد المد صوتان ساكنان ولا يرد هذا المقطع إلا عند الوقف على ألفاظ مثل «حاجٌ» و«تامٌ» و«خاصٌ» و«ضالٌ» فهو

مقطع مرهون بموقع معين ويرمز إليه بالرمز «ص م ص ص» وربما حسن أن يسمى مقطع الوقف.

والمقطع الأول يسمى اختصارا بالمقطع القصير والثاني متوسط مقفل والثالث متوسط مفتوح والرابع طويل المد والخامس طويل التسكين أما السادس فيسمى مقطع الوقف كما قلنا، وهكذا يمكن تلخيص بنية المقاطع الصوتية في اللغة العربية على النحو التالي:

١- القصير ورمزه ص ح

٢- المتوسط المقفل ورمزه ص ح ص

٣- المتوسط المفتوح ورمزه ص م

٤- طويل المد ورمزه ص م ص

٥- طويل التسكين ورمزه ص ح ص ص

٦- مقطع الوقف ورمزه ص م ص ص

وليس مما يقع في اهتمام دراسة الايقاع أن نتكلم عن المقطع التأصيلي المجرد تجريدا ذهنيا (مقطع الوصل) الذي لا يتحقق في الاستعمال، وإنما ننظر إليه حين يتحقق في صورة المتوسط المقفل «ص ح ص» بعد أن تجتلب همزة الوصل وحركتها أو آخر حرف من الكلمة السابقة وحركته، فيكون الساكن الموصول بالهمزة خاتمة المقطع الصوتي المذكور هكذا:

ص = همزة الوصل أو آخر حرف من الكلمة السابقة.

ح = الحركة.

ص = الساكن الذي توصلنا إلى النطق به بواسطة الهمزة.. أو آخر الكلمة السابقة. دعنا بعد ذلك نلق نظرة على الثبر: ما معناه وما قواعده لنستطيع بعد

ذلك أن نتكلم عن الإيقاع. إذا سمع أحدنا شخصا غيره، يتكلم فسوف يلاحظ أن الكلام لايجرى على طبقة صوتية واحدة بل يرتفع الصوت عند بعض مقاطع الكلام أكثر مما يرتفع عند غيره، وذلك مايعرف باسم «التنغيم» وبه يرتبط معنى الجملة إثباتا أو تأكيدا أو استفهاما أو إنكاراً أو غير ذلك. أما المتكلم نفسه فسوف يرى أن الصوت، الذى يتم عنده الانتقال من طبقة صوتية إلى طبقة صوتية أخرى يتطلب قدرا من ضغط الحجاب الحاجز على الرئتين يزداد به مقدار النفس المطلوب لإحداث الصوت فعندما يسלט هذا القدر الزائد على الأوتار الصوتية يعلو الصوت عما جاوره فيحظى فى السمع بوضوح أكبر من وضوح مايحيط به من الأصوات. هذا الوضوح النسبى يسمى النبر. حاول أن تنطق الصيغ الصرفية التالية ثم لاحظ الاختلاف بينها من حيث موقع الوضوح السمعى:

فعل - فاعل - فعيل

فأوضح الأصوات فى الصيغة الأولى (وكل ماياتى على مثالها بالطبع) إنما هو فتحة الفاء وفى الثانية ألف المد وفى الثالثة ياء المد (لاحظ اختلاف البنية المقطعية لكل صيغة عنها فى الأخرى). فالنبر فى الصيغتين الأولىين على المقطع الأول وفى الثالثة على المقطع الثانى. فإذا ثنيت فقلت: فعلان وفاعلان وفعيلان انتقل النبر فى جميع ذلك إلى المقطع الأخير (أى إلى ألف التثنية) مما يدل على أن مواقع النبر فى الكلمات تخضع للتبديل بحسب التجرد والزيادة واختلاف البنية المقطعية للكلمة، وسنرى من بعد أن النبر فى السياق ربما اختلف عن النبر فى الافراد فتحكمه مطالب أخرى هى مطالب «الإيقاع» فى السياق المتصل.

وللنبر فى اللغة العربية قواعد مطردة، بل إن اطرادها ربما كان أثبت من اطراد قواعد النحو، ثم إن قواعد النبر قليلة لأنها تدور حول احتمالات توالى العدد القليل من المقاطع فى الكلمة أو فى السياق، وهى لقلتها يسهل تذكرها

والتطبيق عليها وتناولها بالدرس ثم استنباط ما يأتي عن هذا الدرس من نتائج. وهذه القواعد كما يلي:

١- يقع النبر على المقطع الأخير من الكلمة المفردة (أو الصيغة التي عليها الكلمة إن شئت) إذا كان هذا المقطع الأخير طويلاً، سواء أكان من النوع الرابع (ص م ص) أو الخامس (ص ح ص ص) أو السادس (ص م ص ص) من الأنواع الستة السابقة. مثال ذلك ما تلاحظه من موقع النبر في نحو:

مَفْعُولٌ - يَفْعَلَانُ - فَعَلْتُ - البارُّ

بإسكان الآخر في كل ذلك.

٢- ويقع في الكلمات ذات المقطع الواحد على هذا المقطع الواحد أياً كانت كميته نحو:

قِ - قِمٌ - ما - قالٌ - قلٌ - حاجٌ

٣- يقع النبر على المقطع الذي قبل الأخير في الحالات التالية:

أ- إذا كان ما قبل الأخير قصيراً والأخير متوسطاً أو قصيراً في كلمة ذات مقطعين أو مبدوءة بهمزة وصل قبلهما كما في:

كُتِبٌ - صُوِرَ - انطلقٌ - اخرجي - ارعوي

ب- إذا كان ما قبل الأخير متوسطاً وكان الآخر متوسطاً أو قصيراً كما في:

عَلِمٌ - قاتلٌ - معلّمٌ - مُقاتِلٌ - استوثقٌ - استلقِ - حذارِ

ج- إذا كان ما قبل الأخير طويلاً واغتفر فيه التقاء الساكنين والآخر غير طويل كما في:

ضالّةٌ - طامّةٌ - دُوَيْبَةُ - حُوَيْبَةُ

٤- يقع النبر على المقطع الذي يسبق ما قبل الآخر إذا كان هذا المقطع قصيراً

أو متوسطاً بعده قصيران أو قصير ومتوسط نحو:

عَلَّمَكَ - عَلَّمَكُمْ - بَيْنَكُمْ - بَيْنَكَ - نَظَرَةٌ - ابْتِسَامَةٌ

٥- يقع النبر على الثالث مما قبل الآخر إذا كان الآخر قصيرا أو متوسطا قبله ثلاثة قصار نحو:

ضَرَبَكَ - بَقْرَةٌ - يَرِيئِي - تَعْدُهُمْ - وَجَدَكَ - نَكَرَهُمْ

٦- لا يقع النبر على مقطع قبل ذلك المذكور أخيراً.

هذا هو نبر الكلمة المفردة (والإفراد هنا بالمعنى الإملائي وإن كانت مركبة بالمعنى النحوي بواسطة وصل الضمائر والحروف الزائدة). ولكن الاستعمال اللغوي لا يتم من خلال إفراد الكلمات لأن الكلمة المفردة ذات معنى مفرد والمعنى المفرد لا يتصف بالإفادة. فإذا كانت الإفادة هي مطلب الاتصال اللغوي فأولى بهذا الاتصال أن يتم من خلال سياق لغوي مركب ذي علاقات نحوية ومعان دلالية وقرائن من كل نوع يتوصل بها إلى الإفهام والفهم. وحين تتجاوز الكلمات في السياق اللغوي تنشأ من تجاورها ظروف جديدة تفرض على النبر أن يقع في مواقع من الكلمات لم تكن له في حالة الأفراد. وهذه الظروف الجديدة هي مقتضيات الإيقاع الذي ينسب إلى السياق ولا ينسب إلى المفردات.

غير أن الكلمة المفردة إذا تعددت مقاطعها حتى صارت من حيث مطلق حركاتها وسكناتها بوزان كلمتين قصيرتين لم تقنع ببنيتها بالنبر الذي شرحنا قواعده منذ قليل، وإنما تضع على موقع مما يسبق هذا النبر نبرا آخر أقل قوة من ذلك يسمى النبر الثانوي. انظر مثلا إلى الكلمات التالية تجد كلا منها بوازن كلمتين قصيرتين:

صافَات = «قال» ساكنة اللام مرتين

مستقيم = جاء أمس

يستبقون = لَيْسَ يَهون

هنا يأتي النبر الثانوى قبل النبر الأوّلى لىوجد توازنا بين أجزاء الكلمة. وهذا النبر أيضا يخضع لعدد من القواعد أقل مما سبق يمكن تلخيصها على النحو التالى:

١- يقع النبر الثانوى على المقطع السابق للنبر الأوّلى مباشرة إذا كان هذا السابق طويلا نحو:

الصفات - الضالّين - اتحاجونى

٢- ويقع على المقطع الثانى مما يسبق النبر الأوّلى إذا كان هذا الثانى متوسطا والذى بينه وبين النبر الأوّلى قصيرا أو متوسطا نحو:

مستبقيين - مستقيم - مستعدّ - يستخفون - عاشرناهم - قاتلوهم

٣- ويقع النبر الثانوى على المقطع الثالث مما قبل النبر الأوّلى فيما يلى:

أ- إذا كان هذا الثالث قصيرا بينه وبين النبر الأوّلى قصيران نحو:

بقرتان - كَتَبَتْاه - كَلِمَتان

ب- أو كان متوسطا بينه وبين النبر الأوّلى قصيران نحو:

يَسْتَبِقُونَ - مُحْتَرَمَان - مُنْطَلِقَات

أو قصيرا فمتوسطا نحو:

يَسْتَقِيمُونَ - مُسْتَطِيلَان - مُسْتَطِيعَات

ذلك النبر الثانوى يوضح من مقاطع الكلمة مالولاه لطفى فى السمع، ويوجد من التوازن بين جزئى الكلمة مايجعلها أكثر قبولا فى الذوق وإراحة للأذن وإن كان هذا القبول وتلك الإراحة ماتزال على مستوى الكلمة المفردة لا على مستوى السياق. فماذا عن النبر فى السياق؟

إذا تأملنا النص المتصل (السياق) لاحظنا أنه يشتمل على كلمات تختلف طولاً وقصراً بين أن تكون على حرف واحد كجاء الجر ولامه، وبين أن تكون على عدد أكبر، حتى إن الكلمة قد تكون فعلاً من ستة أحرف أسند إلى ضمير متصل ذى حرفين نحو «يستخرجون» و«يستغفرون» فإذا عطف هذا الفعل بالفاء زاد على حروفه حرفاً نحو «فيستغفرون» بل قد يزيد عدد الحروف على ذلك كما في: «فسيكفيكم»، إذ تحف باللفظ عناصر الزيادة في أوله عطفًا وتنقيساً والضمائر المتصلة في آخره: خطاباً وغيبة: فإذا علمنا أن هذه العناصر التركيبية الجامدة كالحروف والضمائر قد تقل حروفها حتى لاتصلح للإفراد، أدركنا أنها قلما يصدق عليها ما تقدم إيضاحه من نبر الكلمة المفردة ولكنها مع ذلك جزء من السياق لا يمكن تجاهله في الاستعمال، أي عند الأداء الفعل للكلام. وهكذا نجد تدخل هذه العناصر في مجرى السياق يفرض على السياق توزيعاً جديداً للنبر يقسم أصوات السياق إلى دفعات، كل دفعة منها بوزان كلمة عربية حتى إن امتدت هذه الدفعة على نهاية كلمة وبداية ما بعدها، فمزجت نهاية السابقة وبداية اللاحقة في خفقة واحدة من خفقات النَّقْس عند التكم - إن توالى هذه الدفعات (أو الخفقات) غير المرتبطة بحدود الكلمات المفردة بدءاً ونهاية هو مانعرفه باسم الإيقاع في الكلام.

مثال ذلك أن الفعل «سارعوا» في حال الإفراد يشتمل على نبر أولى على ألف المد من مقطعه الأول ولكنه إذا عطف بالواو فصار: «وَسَارِعُوا» تغيرت خطة النبر فيه فاشتمل على نبر ثانوى على حركة الواو ونبر أولى على حركة الراء، فصار كأنه كلمتان إحداهما «وَسَاءَ» والثانية «رِعُوا» وكتاهما تشبه الفعل «رَمَى» من حيث مطلق الحركات والسكنات فتستحق من النبر ما يستحق الفعل «رَمَى». ويصدق ذلك على قوله تعالى: «وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا» (آل عمران ٢٠٠)

وإذا تأملنا كلاماً متصلاً لاحظنا تشابه المسافات بين نبر ونبر أو تقارب

الشبه بينهما، فقد يكون بين النبرين مقطع واحد أو مقطعان أو ثلاثة على أكثر تقدير، دون أن يقع النبر على أحد هذه الثلاثة. ثم إن النبرين المتواليين قد يكونان من قبيل النبر الأولى وقد يكون أحدهما ثانويًا. وهذا التشابه أو قرب الشبه بين كميات المسافات يمنح الأذن إحساسًا بالإيقاع. ولكن اللغات تختلف في تحديد مواقع النبر حتى إن لكل لغة إيقاعاً خاصاً تمتاز به بين لغات البشر. فالقواعد التي أوردناها ونسبناها إلى النبر في اللغة العربية لاتصدق على لغة أخرى غيرها، بل حتى على اللهجات العامية المعاصرة في العالم العربي. فهذه اللهجات تختلف عن العربية الفصحى في تحديد مواقع النبر كما تختلف كل واحدة منها عن الأخرى في هذا المجال.

وفي طوق منشئ النص أن يمنحه من رشاقة الإيقاع ما لا يستطيعه المتكلم العادي، حتى إذا ما قرأت هذا النص المنثور أحسست له خفة على اللسان وراحة في الأذن وقبولاً في النفس يقترب بك مما تجده من ذلك لوزن الشعر، وبهذا يمتاز نص عن نص. وإن بعض الأساليب النثرية ليستحق عن جدارة أن ينسب إلى الإيقاع أو ينسب إليه الإيقاع فيوصف بأنه ذو أسلوب موسيقى موقع أو رشيق دون أن يلجأ منشئه إلى المحسنات اللفظية من أي نوع. أنظر مثلاً إلى أسلوب الجاحظ أو إلى أسلوب أبي حيان التوحيدى أو أسلوب طه حسين أو أسلوب الزيات ثم تأمل هذه الخاصية الإيقاعية وستجدها حقيقة واقعة تحس بها ولا تستطيع وصفها لأنها «تحيط بها المعرفة ولا تدركها الصفة» كما قال الموصلي.

وحيث أحس الشهاب الخفاجى بالإيقاع القرآنى لم يستطع الإشارة إليه على علته وإنما انتقى من العبارات القرآنية ما أمكن أن يطوعه للوزن الشعري. أما الإيقاع الذى يستعصى على الوزن فلم يكن فى طوق الخفاجى أن يكشف عنه أو أن يشير إليه. لقد بنى الخفاجى منظومته الشعرية التى ضبط بها كميات البحور وتفعيلاتها على هذه العبارات القرآنية المذكورة ليسهل على المتعلم تذكر

المنظومة. وحسبنا أن نورد أمثلة من هذه المنظومة توضيح موقف الخفاجي
الذي أشرنا إليه:

١- قال في تحديد كمية بحر الطويل:

أطال عزولى فيك كفرانه الهوى
فعلون مفاعيلن فعولن مفاعلن
وأمنت ياذا الطبى فأنس ولا تنفر
فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

٢- وقال في البسيط:

إنى بسطت يدي أدعو على فئة
مستقلن فاعلن مستقلن فعلن
لاموا عليك عسى تخلو أماكنهم
فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم

٣- وقال في المديد:

يامديد الهجر هل من كتاب
فاعلاتن فاعلن فاعلاتن
فيه آيات الشفا للسقيم
تلك آيات الكتاب الحكيم

٤- وقال في المتقارب:

تقارب وهات اسقنى كأس راح
فعلون فعولن فعولن فعولن
وباعد وشاتك بعد السماء
وإن يستغيثوا يغاثوا بماء

وهكذا تمضى شواهد القرآنية لتكون نماذج للوزن المحكم للمجرد الإيقاع
الذي يتسم بالمقاربة، وما أبعد الفرق بين الإحكام والمقاربة.

نخلص مما سبق بيانه من أمر النبر بالحقائق التالية:

١- أن هناك فروقا بين النبر الأوّلى والنبر الثانوى يمكن تلخيصها في النقط

التالية:

١- أن النبر الأوّلى مطلب صرفى مسرحه الكلمة المفردة، ولكن النبر الثانوى
مطلب إيقاعى يتحقق في إحدى بيئتين، أولاهما الكلمة التى طالت بنيتها حتى

احتاج النطق بها إلى إيجاد توازن صوتي بين أجزائها، والثانية بيئة السياق الذي تدعو الحاجة فيه إلى الإيقاع بسبب ما يعرض له من إرباك نبر الكلمات بسبب اللواصق والحروف والأدوات التي تعرض في السياق.

ب- أن النبر الأولي يحسب بواسطة التراجع من نقطة انتهاء الكلمة، وأن الثانوي يحسب بالتراجع من نقطة وقوع النبر الأولي.

ج- أن المسافة بين النبر الثانوي والأولي الذي بعده إذا نظرت إلى مطلق الحركات والسكنات فيها وجدتها في وزان كلمة عربية. وهكذا إذا نظرنا إلى كلمة مثل: «يستعينون» وجدنا بها نبرا أولياً على المقطع الأخير «نُون» ونبراً ثانوياً على المقطع الأول (يَسْتَعِي) أي أن كمية ما قبل النبر الأولي هي بمقدار كلمة عربية، أي أن ما قبل النبر الأولي هو «يَسْتَعِي» وهو في الكمية يساوي «يرتقى» أو «يستقي» أو «جاهدوا» أو أية كلمة لها هذه الكمية. ولكن هذه الكمية لما كانت جزء كلمة ولم تكن كلمة تامة صالحة للإفراد، وقع النبر عليها ثانوياً لا أولياً، على حين تستحق الكلمات الأخرى التي على وزنها: (يرتقى... الخ) نبراً أولياً على أول مقطع في كل منها بسبب استقلالها وصلاحيتها للإفراد.

د - أن النبر الثانوي أضعف جهداً من النبر الأولي لأن ضغط الحجاب الحاجز على الرئتين عند إيقاعه أضعف منه عند إيقاع النبر الأولي.

٢- لو اتحدت كميات الكلمات العربية فتشابهت في بنيتها لوقع النبر فيها على صورة واحدة وكان النبر في اللغة العربية صرفياً كله، أو لجاء إيقاع اللغة متساوي المسافات رتبياً مملاً كوقع خطوات المشي، كما في عبارة «من تأنى نال ما تمنى» إذ يقع النبر فيها على كل مقطع بعد مقطع بانتظام، ولكن اختلاف الكلمات طولاً وقصراً وتجرداً وزيادة واتصالاً وانفصالاً حال دون هذه الرتابة وذلك الملل وجعل اللغة إيقاعاً لا مجرد وقع. ولكن الإيقاع المقصود هو إيقاع في نطاق التوازن لا في نطاق الوزن. فالوزن في العربية للشعر والتوازن في الإيقاع للنثر. والذي في القرآن إيقاع متوازن لاموزون.

٣- أن الوزن والتوازن كليهما من صور الإيقاع وهما أيضا من القيم الصوتية التي تصلح أن تكون مجالا للفن والجمال. أما الوزن فبحسبك أن تتأمل ما يمنحه من الجمال للشعر والموسيقى ونحوهما، وأما التوازن فيكفى أن تنصت إلى صوت قارئ مجيد يرتل القرآن الكريم (ولا أقصد ترتيل التطريب بل الترتيل بدون تطريب) وسترى عندئذ أن ما في القرآن من جمال التوازن قد يجاوز أحيانا جمال الوزن. وانظر كذلك إلى الكثير من أساليب الترتيل - وبخاصة ما بنى منها على قصار الجمل - وسوف ترى لها جاذبية خاصة تجتذب إليها انتباهك، وتمنح أذنك من المتعة ونفسك من الارتياح مالا تجده في بعض الشعر والغناء.

وكلما تقاربت أعداد المقاطع بين النبرين أو انتظم اختلاف بعضها عن بعض حسن إيقاعها والعكس صحيح، بمعنى أن هذه الكميات بين نبر وآخر إذا تباينت ولم تتقارب احس السامع كأن المتكلم يتعثّر في مشيته، بل ان المتكلم نفسه لا بد أن يحس هذا الإحساس. أما هذا التقارب وذاك الانتظام فهو الذي نجده في إيقاع الأسلوب القرآني كما يتضح مما يلي من الشواهد وقد تم اختيار هذه النماذج اعتباطا، فيصدق على غيرها من آيات القرآن ما يصدق عليها:

١- «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ» (البقرة ١٩)

٢- «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ» (البقرة ٢٢)

٣- «زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَأْتَبِ» (آل عمران ١٤)

٤- «وَأَنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَأَنْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَنْتُمْ أَخَذْتُمْ بِهَا تَنَاوًا وَاللَّامُ مَبِينَةٌ» (النساء ٢٠)

٥- «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصًا» (المائدة ٤٥)

٦- «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» (الأنعام ٥٩)

٧- «وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (الاعراف ٨٥)

٨- «يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسِرَرِي اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (التوبة ٩٤)

٩- «وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْفَتَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (يوسف ٢٥)

١٠- «وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا» (الكهف ١٦)

دعنا نجرب تقطيع الآية الأولى إلى دفعات النبر فيها لنرى كيف يحدث الإيقاع من تقارب الأطوال بين المسافات بين كل نبر وآخر أو انتظام لتتلاف

المقاطع في مجموعات فارقة بين مواقع النبر:

أوك - صيب - من السد - ماء - فيه ظل - مات و - رعد و - برق - يجع
- لون - أصاب - بعهم - في آ - ذانهم - من الص - واعق - حذر ال - موت
وال - لاه م - حيط - بالكا - فرين.

بين النبر الأول والثاني مقطع واحد هو (ك) وبين الثاني والثالث اثنان هما
(يب) وبين هذا والذي بعده اثنان هما (ن السد) وبعد النبر التالي مقطع واحد
هو (ع) وهكذا يستمر الفارق في هذه الحدود فيكون الإيقاع. حاول مثل هذا
التقطيع في بقية الآيات السابقة وستعلم عندئذ أن المقصود بالإيقاع ليس هو
الوزن المحكم وإنما هو التوازن الناشئ عن تقارب الشبه بين المسافات
الفاصلة بين كل نبر ونبر ثم ترى من بعد أن هذا التوازن هو مصدر رشاقة
الأسلوب وسبب قوى من أسباب ارتياح النفس له واحتفاؤها به.

لقد رتل الله القرآن ترتيلاً (الفرقان ٢٢) وأمر رسوله أن يرتل القرآن
ترتيلاً (المزمل ٤) والمعروف أن الترتيل مصدر رتل يرتل وأنه وضع
المجموعات في أرتال كل رتل منها طائفة مجتمعه وبين كل رتل وما يليه انقطاع
مؤقت. فاما الترتيل بالنسبة لله تعالى فذلك أنه أنزل القرآن منجماً حسب
الوقائع وأسباب النزول فإذا أنزلت آية أو آيات عد ذلك رتلاً قائماً بذاته بعده
فترة انقطاع الوحي ثم يعود الوحي برتل آخر من الآيات وهكذا وهذا
المعنى لا يمس موضوعنا (وهو الإيقاع) مساً مباشراً. أما الترتيل بالنسبة إلى
النبي صلى الله عليه وسلم فهو طريقة من طرق الأداء والقراءة. فتجويد
القرآن يشتمل إلى جانب إعطاء الأصوات حقها على أمور أخرى منها المد
بأنواعه والغنة والسكت وما إلى ذلك مما يعد من قبيل الانقطاع المؤقت
لتوالي الأصوات التي تتكون منها الألفاظ. فالمد كالسكون والسكون كالسكوت
وانقطاع الكلام، وقل ذلك عن الغنة لأنها مد، مقيد بالنون، وقل ذلك أيضاً
عن السكت وهكذا. فإذا قرأ القارئ مع الترتيل أتى بكل رتل وآخر وبينهما
فترة انقطاع هي إما مد أو غنة أو سكت الخ.. هذا النوع من الترتيل يضيف
إلى إيقاع القرآن الكامن في نغمه إيقاعاً آخر طارئاً عليه من خلال الأداء

والقراءة فإذا اجتمع الإيقاع الصوتى وذلك الإيقاع الترتيل لم يكن للأذن إلا أن تستمع وتنصت وتستمتع بالجمال وسبحان الله تعالى إذ يقول لعباده المؤمنين: «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (الأعراف ٢٠٤).

ثانيا - الفاصلة:

حين سمع كفار قريش تلاوة القرآن لأول نزوله حاروا في أمر نظمه. فلقد كانوا يعرفون من ضروب الكلام العربى لآيامهم الشعر والخطابة والسحر وسجع الكهان ولم يكن القرآن في تراكيبه ولا في أسلوبه يشبه واحداً من هذه الأضرب. ولكنهم لم يؤمنوا بأن هذا الطراز الفريد من النظم من وحى السماء فنسبوه إلى البشر منكرين مصدره الالهى فكان عليهم وقد أنكروا ذلك أن يلحقوه بنوع من أنواع الكلام التى تقدم ذكرها. فنظروا في خصائص تراكيبه وفي أسلوبه وفكروا في أمره فلم يستطيعوا أن ينسبوه إلى الخطابة لاختلاف بينه وبينها في الأسلوب والوظيفة ولأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقم بينهم خطيباً بما أنزل عليه من القرآن، ولم ينسبوه إلى سجع الكهان لوضوح مقاصده وغموض السجع ولأنه ليس مسجوعاً ولا يلتزم ذلك في أسلوبه. بقى من أنواع الكلام في عهدهم السحر والشعر. ولم يترددوا في اتهام القرآن بنسبته إلى أحد هذين النوعين. أما السحر فقد راعهم أن القرآن حين هدى الله به من هدى من المؤمنين نأى بعضهم بدينه عن أهله وذويه وخاصم أهله وذويه تمسكا بدينه فرأى المشركون أن القرآن وقد فرق بين المرء وأهله لا بد أن يكون سحراً لأن ذلك شأن السحر: «إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ» (المدثر ١٨ - ٢٥) كان هذا كيد الوليد بن المغيرة. أما كيد غيره من مشركى قريش فقد جاء بنسبة القرآن إلى الشعر لقد رأوا للقرآن فواصل تنتهى بها آياته كما رأوا فيه مدحا وذما ووعدا ووعيدا وشيئا من الأغراض التى يرمى اليها الشعر ففسرهم ذلك عما في القرآن من أمور لا

تكون في الشعر كعدم الوزن وكطلب الهداية والدعوة إلى دين الله وما في القرآن من تشريع ونحوه فانزلقوا إلى نسبة القرآن إلى الشعر على الرغم من ذلك. وهكذا نسب المشركون القرآن إلى السحر مرة وإلى الشعر مرة أخرى.

كان من اليسير دفع الشبهة الأولى عن القرآن لأن السحر لا يأتي للإصلاح ولا للدعوة ولا يكون بلغة واضحة بله تلك اللغة المعجزة التي نزل بها القرآن ثم إن السحر يفرق ولكن القرآن يوحد والسحر يهدم ولكن القرآن أنشأ عقيدة وشريعة وأقام خير أمة أخرجت للناس مادامت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله. كل ذلك كان من أثر القرآن الكريم وقد تم كله فيما لا يتجاوز عمر رجل واحد منهم فلقد كان عمر رضى الله عنه أحد من نصبوا أنفسهم لعداء الدعوة أول الأمر وقد كان عمر نفسه هو الذي تمت الفتوح في عهده شرقا وغربا. لقد علم ذلك عامتهم كما علمه خاصتهم فانفقى عندهم ما زعمه الوليد من أن القرآن سحر. وأما دعواهم أن القرآن شعر فقد كان دفعها يتطلب معرفة بالفروق العديدة بين القرآن والشعر من حيث الصياغة والاسلوب والاعراض وقد كان خاصتهم يعرفونها أكثر مما يعرفها عامتهم ومن هنا نهض النص القرآني برفض هذه الدعوى من جهة: «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ» (الحاقة ٤١) ونفى صفة الشاعر عن النبي صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى من خلال ذم بعض سلوك الشعراء: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَأَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالًا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذُكِّرُوا اللَّهُ كَثِيرًا وَأَتَّصَرُّوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا» (الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٧) فهم يهيمون في كل واد يتكسبون بالشعر وهم يقولون مالا يفعلون حين ينسبون إلى أنفسهم مغامرات مع النساء أو بطولات ضد الأعداء لم تقع منهم ولا عرفوا بها. ولم يكن هذا من خلق النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم وهو الذي عرف طول عمره بالصادق الأمين. بقى أن نعرف الفروق النظرية بين القرآن والشعر وهذا ما نتصدى لبعضه في الفقرات التالية إن شاء الله.

لقد مر بنا بيان المقصود بالإيقاع المطلق المتوازن غير الموزون. واتضح لنا الفرق بينه وبين الإيقاع الموزون في الشعر وهذا أحد الفروق الهامة بين الأسلوبين الشعري والقرآني. ونود الآن أن نذكر الفرق بين الفاصلة القرآنية والقافية الشعرية. لقد تعود العربي أن ينظر إلى شطرات قصيدته فيجعلها أزواجا كل زوج منها بيت. والبيت عند العربي في الحقيقة خباء أو خيمة، فكان القصيدة كانت في نظر الشاعر أشبه بمضرب من مضارب الخيام. وإذا كان للخيمة عمود فلا بد لبيت الشعر أن يقوم على عمود ولكن العمود نسب إلى الجنس ليعم كل أفراده فقول: «عمود الشعر» وكما تسقط الخيمة بإزالة عمودها ينهار البيت أو القصيدة عند عدم رعاية عمود الشعر. ولعل من أشهر ما يعد من عمود الشعر الوزن والقافية. أما الوزن فقد مضى القول في الفرق بينه وبين الإيقاع القرآني وأما القافية فهنا مجال التفريق بينها وبين الفاصلة.

إن تقفية الشعر تعنى تطابق خواتيم الأبيات من الناحية الصوتية. وقد جعل الالتزام بالقافية جزءا من عمود الشعر الذي لا يكون الشعر شعراً إلا به - وفي القرآن من الفواصل ما يتشابه جرسه في الأذن ولا يتطابق بالضرورة في الحرف. فحين سمع المشركون هذه الفواصل ولمحوا تشابه أجراسها غرتهم عن ملكاتهم وأذواقهم فربطوا بينها بالباطل وبين تقفية الشعر ثم ادعوا لأدنى ملابسة أن القرآن قول شاعر ومن هنا جاء الرد القرآني عليهم ليقول لهم: «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ» (الحاقة ٤١) إن من يتأمل الفاصلة القرآنية ليجد الفارق كبيرا بينها وبين قوافي الشعر. ولقد يمكن تلخيص الفوارق بينهما على النحو التالي:

١ - تتطلب القافية التطابق التام بين عدد من الحروف في آخر كل بيت من القصيدة. فإذا قرأت مثلا قصيدة شوقي:

سلوا قلبي غداة سلاوتابا لعل على الجمال له عتابا

وجدت التقفية تحتم أن تنتهي أو آخر أبيات القصيدة بألف بعدها باء بعدها

الف، وألفت ذلك ملتزما في نهاية كل بيت من القصيدة بل إن ذلك التزم أيضا في شطري مطلع القصيدة على نية «التصريح».

وكذلك الحال إذا قرأت أية قصيدة جاهلية أو إسلامية جارية على شروط عمود الشعر. بل إن محاولات التجديد في الشعر حين ثارت على الإطراد المطلق للقافية لم تطرحها اطراحا تاما ولو فعلت لخرج ما أتى به هذا التجديد عن حدود الشعر وهكذا منح التجديد التفقيه (أو اضطر إلى منحها) اطرادا مقيدا كما في الموشحات الأندلسية ونحوها. وحين بالغ أصحاب الحدائث من جيلنا هذا فعمدوا إلى أن يطرحوا القافية افتتانا بما رأوا من تقاليد الآداب الأخرى رمونا بالخنثى المشكل من القول فلم نجد لهم شعرا ولم نجد لهم نثرا وانتهوا بنا إلى بلية الدعوة إلى الغموض فباءوا بالتخليط والهديان. ذلك أن لكل أمة ذوقها وقد تمسك الذوق العربي بعمود الشعر حتى يومنا هذا وما هو بمزحرجه عن عمود الشعر أن يبتلى بتخليط قوم أو هذيانهم. لم يكن عمود الشعر إذاً اجتهادا نظريا من العلماء وإنما كان من قبل ذلك في ضمير كل شاعر عربي سواء فطن الشاعر إلى ذلك أم لم يفتن. كان عمود الشعر اكتشافاً للعلماء ولم يكن اختراعا أي أنه ينسب إلى التطبيق ولا ينسب إلى النظر.

أما الفاصلة فلا تلتزم شيئا من ذلك إذ تراها تجرى في عدد من آيات السورة على نمط ولكنها سرعان ما تتحول عنه إلى نمط آخر. وفي خلال جريها على نمط واحد قد يكون ما يقوم عليه النمط مقصورا على حرف مد فقط كما في قوله تعالى: «حَنَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَمَنْ النَّاسُ مَنِ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» (البقرة ٧ - ٨) فلا تصلح إحدى الفاصلتين أن تقفو الأخرى في شعر. وقد يقوم النمط على صفة من صفات حرف في الفاصلة كصفة الضيق مثلا (والمقصود ضيق الفم بتقريب جزء من جسم اللسان من الحنك الأعلى أثناء النطق) وهي الصفة التي يشترك فيها الواو والياء كما في قوله تعالى بعد

الآيتين السابقتين: «يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» (البقرة ٩) فهل يصلح للتقنية أن تقوم على توالى ثلاث كلمات مثل التي انتهت بها الآيات الثلاث (عظيم - مؤمنين - يشعرون)؟!

٢ - في كثير من سور القرآن لا يلتزم شيء بعد الحرف الضيق (الواو أو الياء) كما في سورة الحج فإنا قرأت هذه السورة مثلا وجدت فواصل الآيات لا تحمل شيئا أي شبه بالتقنية لأن فواصل الآيات تجرى على النحو التالي:

عظيم - شديد - مريد - السعير - بهيج - قدير - القبور - منير - الحريق
 - للعبيد - المبين - البعيد - العشير - ما يريد - ما يغيظ - من يريد - شهيد
 ثم يترك الحرف الضيق إلى الالف فيأتي لفظ «ما يشاء» ثم تعود الفاصلة إلى
 الحرف الضيق مرة أخرى فنقرأ: الحميم - الجلود - جديد - الحريق - حرير
 - الحميد - اليم - السجود - عميق - الفقير - العتيق - الزور - سحيق -
 القلوب - العتيق - المختبين - ينفقون - تشكرون - المحسنين - كفور - قدير
 - عزيز - الأمور - ثمود - لوط - نكير - مشيد - الصدور - تعدون -
 المصير - مبين - كريم - الجحيم - حكيم - بعيد - مستقيم - عقيم - النعيم
 - مهين - الرازقين - حلیم - غفور - بصير - كبير - خبير - حميد - رحيم -
 كفور - مستقيم - تعملون - تختلفون - يسير - نصير - المصير - المطلوب -
 عزيز - بصير - الأمور - تفلحون - النصير.

وهكذا جاءت نهايات الآيات على النحو التالي:

أء = ١ يد = ١٢ يم = ١٢ يز = ٢

وب = ٢ ور = ٨ ون = ٦ وط = ١

بيج = ١ ير = ١٧ ين = ٦

ود = ٣ يق = ٦ يظ = ١ المجموع = ٧٨

وقد جاءت الياء في سبع وخمسين فاصلة وجاءت الواو في عشرين والألف في فاصلة واحدة ولم يلتزم حرف من الحروف بعد الياء ولا بعد الواو.

وانظر بعد ذلك ان شئت في فواصل سورة الرعد تجد الواو والنون قد ختمت الآيات الخمس الأولى ثم عدلت الفواصل التالية عن ذلك فلم تلتزم الا ألف المدمع قطع النظر عما يتلوها من الحروف التي تختتم بها الآيات. وهكذا تجد الفواصل تتوالى بعد ذلك على النحو التالي:

العقاب - هاد - مقدار - المتعال - النهار - وال - الثقال - المحال - ضلال - الأصال - القهار - الأمثال - المهاد - الألباب - المثياق - الحساب - الدار - باب - الدار - متاع - أناب - ثم تأتي الواو في كلمة «القلوب» ثم تعود الألف مرة أخرى فنجد: مآب - متاب - ميعاد - عقاب - هاد - واق - النار - مآب - واق - كتاب - الحساب - الحساب - الداء - الكتاب.

ويسود هذا التباين بين الفواصل في سور كثيرة من القرآن منها:

آل عمران - هود - ابراهيم - مريم - النور - لقمان - فاطر - الصافات - ص - الزمر - فصلت - الذاريات - الواقعة - الحشر - المعارج - المدثر - القيامة - المرسلات - النازعات - عبس - التكوير - الانفطار - الانشقاق - الطارق - الغاشية - الفجر - البلد - الشرح - العلق - وغير ذلك من قصار السور.

ولسنا نجد شيئاً مما التزمته الفواصل القرآنية يصلح أن يكون قافية. فالواو والميم في الشعر لا تقفو الياء والنون وكذلك لا يكفى للقافية أن تعتمد على المد الضيق دون نظر إلى ما بعده من بيت الشعر فكلمة «أمين» مثلاً لا تقفو كلمة «أدريس» ولو كانت الياء قبل الآخر في كل منهما ولا يمكن قبول احدى هاتين الكلمتين لتقفو كلمة مثل «نوح» على رغم ضيق المد في هذه وتلك. وكذلك لا يكفى القافية أن يكون الحرف الأخير ألفاً مطلقة اذا اختلفت حركات ما قبلها

وسكناته فلا يعد من التقفية أن تتوالى كلمات مثل: عجا - همسا - تسليما - كثيرا - أصيلا - عزيزا - كما في سورة الأحزاب. ومغزى كل ذلك أن مطالب الفاصلة تختلف اختلافا تاما عن شروط القافية.

ومع ذلك تأتي الفاصلة في نهاية الآية لتحقيق للنص جانبا جماليا لا يخطئه الذوق السليم لأننا مهما يكن من شيء نحس أنها تضيء على النص قيمة صوتية منتظمة ينقسم سياق النص بها إلى وحدات أدائية تعد معالم للوقف والابتداء وتتضافر مع الإيقاع الذي سبق شرحه فينشأ من تضافرهما أثر جمالي لا يبعد كثيرا عما نحسه من وزن الشعر وقافيته ولكن هذا الأثر يمتاز عن ذلك بالحرية من كل قيد مما تفرضه الصنعة على الوزن والقافية. ولأمر ما كان الوقف على رؤوس الأي سنة إلا أن يفسد به المعنى. ذلك أن الوصول بالقراءة إلى فاصلة الآية يتفق في الأغلب الأعم مع طاقة النفس الواحد لدى القارئ فيقف القارئ عند الفاصلة ليتزود بزيادة نفس جديد وليحس عند الفاصلة بأنه يقف لدى معلم من معالم السياق المتصل تحف به روائق الإيقاع وروائع المعنى من كل جانب.

وللفاصلة بتركيب الآية التي ختمت بها إحدى علاقيتين:

١ - فقد تكون الفاصلة جزءا من تركيب الآية مكملا لبنيتها فلا يتصور تمام معنى الآية إلا به كما في قوله تعالى: «وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلُوفًا مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتُحِثُّونَ الْجِبَالَ بَيْوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنْ صَالِحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنُتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَآخَذَتُهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَإِصْحَتْ لَكُمْ

وَلَكِنْ لَا تَحْبُونَ النَّاصِحِينَ*» (الاعراف ٧٤ - ٧٩) فكل آية مما سبق تنتهى بكلام ذى علاقة عضوية سواء من حيث التركيب أو الأسلوب بما سبق من بقية الآية فلا تكاد الآية تستغنى عنه دلاليا لشدة الارتباط بينه وبين بقية اجزائها.

٢ - وقد تاتى الفاصلة بعد تمام المعنى فتكون تذييلا للآية كالتعليق أو التعقيب على محتواها كالذى نجد في قوله تعالى: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحْبُونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدِ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ كُمْ صَرَفَكُمُ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ (وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَغِمَ لَكُمْ لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ (وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) * ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بَيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) * إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ (إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ) * (آل عمران ١٥٢ - ١٥٥) فقوله تعالى «والله ذو فضل على المؤمنين» وقوله «والله خبير بما تعملون» ثم قوله «والله عليم بذات الصدور» وكذلك «إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ» إنما جاء بعد تمام المعنى فكان في موقع التذييل من الآية فأكسبها على جمالها جمالا وحدد معالمها وميزها عن غيرها وأبرز ما تمتاز به من مضمون خاص. والملاحظ أن هناك انسجاما وتألفا بين مضمون الآية ومضمون التذييل فليس في القرآن آية يدعو

مضمونها إلى العقاب وتذليلها إلى المغفرة والرحمة وليس فيه من آية تتضمن رضوانا من الله ينتهي تذليلها بالوعيد وشدة العقاب وهلم جرا.

ولكن الفواصل مع ذلك توقيفية فقد يتحقق في اللفظ تمام المعنى وحروف الفاصلة ولكنه مع ذلك لا يعد من الفواصل. انظر ما سبق من قوله تعالى: «مَنْ بَعْدَمَا أَرَآكُمْ مَا تَحِبُّونَ» وقوله تعالى: «لَنْ نَسْأَلَهُمُ الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ» (آل عمران ٩٢) وكذلك لم تكن عبارة «كيف يشاء» فاصلة في قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (آل عمران ٥ - ٦)، وكذلك عبارة «مَنْ يَشَاءُ» في الآية رقم ١٣ وعبارة «إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَامُ» في الآية رقم ١٩. هذا والعكس واقع في القرآن أيضا، فقد تكون الفاصلة دون تمام المعنى، وقد تحقق لها جرس ما يحيط بها من الفواصل، كالذي في سورة البقرة من قوله تعالى: «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَازِبٌ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *» (البقرة ٢ - ٥)، فالذين يؤمنون بالغيب صفة للمتقين ومعنى ذلك أن المعنى لم يتم عند الفاصلة الأولى، لأن الصفة تخصص الموصوف، وهو بدونها عام يحتاج إلى هذا التخصيص. فإن قلت إن «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» مبتدأ خبره «أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ» قلت إن الفاصلة في الآيتين الثالثة والرابعة جاءت قبل تمام المعنى، لأنها جاءت قبل استكمال الخبر، فالآيات شاهد على هذه الظاهرة كيفما كان الإعراب. ومعنى هذا كما سبق أن الصلة غير مطردة بين الفاصلة وتمام المعنى.

والفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة مهمة تراعى في كثير من آيات القرآن، وربما أدت رعايتها إلى تقديم عنصر أو تأخيره من عناصر الجملة. واقد يتكلم

البلاغيون في أغراض التقديم والتأخير فيوردون من أسباب ذلك أمورا تدور حول رعاية المعنى، ربما جعلوا «الاهتمام بمدلول اللفظ» عنوانا يندرج تحته الكثير من هذه الأمور. وهذا أمر لا اعتراض عليه. ولكنني لا أعلم واحدا منهم جعل من أغراض التقديم والتأخير الانتفاع يجرس اللفظ، ربما تركوا ذلك لاهتمامات الشعراء أنفسهم عند اختيارهم للقوافي. أما في القرآن الكريم فإن أحد الأسباب يمكن أن يوصف بأنه «رعاية الفاصلة» قارن من ذلك مايلي:

- | رتبة أصلية | رتبة مشوشة من أجل الفاصلة |
|--|--|
| ١ - وينفقون مما رزقناهم | «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» (البقرة ٣) |
| ٢ - وهم يوقنون بالآخرة | «وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» (البقرة ٤) |
| ٣ - وكانوا يظلمون أنفسهم | «وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ» (الاعراف ١٧٧) |
| ٤ - «فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» (النساء ٤٦، ١٥٥) | «فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ» (البقرة ٨٨) |

لاحظ على وجه الخصوص رقم ٤ فإنك واجد فيه شاهدين من القرآن اشتملا على الفاظ بعينها اختلفت رتبتهما في أحدهما عنها في الآخر رعاية للفاصلة. وقد يتجاوز التقديم والتأخير رتبة الألفاظ إلى رتبة الأحداث التاريخية، فيتم تشويش تتابع الأحداث لرعاية الفاصلة، كما في قوله تعالى: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ رِجْوًا» وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقُصِّصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا» (النساء ١٦٣ - ١٦٤)، فانظر كيف تقدم عيسى على سلفه وتقدم سليمان على داود وكيف تقدما معا على موسى رعاية للفاصلة. بل حتى عند التفصيل المشتمل على شيء من الطباق

نجد «فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ» (البقرة ٨٧) بدلا من «ففریقا کذبتم وفریقا قتلتم»، وكذلك: «قَالَ سَتَنُنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» (النمل ٢٧) بدلا من «أَمْ كَذَّبْتَ»، وأيضا: «قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ» (النمل ٤١) بدلا من «أَمْ لَا تَهْتَدِي»، أو «أَمْ لَا» كل ذلك يشهد على أن الفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة معينة في القرآن الكريم وهذه الوظيفة جمالية تستحق الرعاية ولو تعارضت رعايتها مع بعض أنماط التراكيب النحوية.

والمعروف أن اللغة العربية أوسع من النحو العربي لأن النحو قواعد أنيط بها تنظيم ما أطرده من اللغة، ثم يبقى بعد ذلك جزء من اللغة لا يخضع لقواعد النحو، بسبب عدم اطراده وهو جزء من اللغة يتساوى مع المطرد في الفصاحة. فمن قواعد الأصول عند النحاة قاعدة تقول: «الشذوذ لا ينافي الفصاحة». ولقد نزل القرآن بلسان عربي مبين (لا بنحو عربي متين)، وهكذا امتدت تراكيبه على رحابة اللغة، ولم تنحبس في بوتقة القواعد النحوية، فالقرآن يهيمن على اللغة كلها ما أطرده منها وما لم يطرد. أضف إلى ذلك أن القراءة سنة متبعة، لأن القرآن مروى بلفظه عن النبي صلى الله عليه وسلم، الذي تلقاه عن جبريل عليه السلام. وقد رواه الصحابة والتابعون، ومن تبعهم بالتواتر جمعا عن جمع. وهذا النص المروى ربما تحدى أصول النحاة بالعدول أو تحدى قواعدهم بالترخص، وقد يكون هذا العدول عن الأصل أو ذاك الترخص في القاعدة لرعاية الفاصلة. فمن المقرر في القواعد أن الألف تنوب عن التنوين الذي بعد الفتحة عند الوقف، كما سبق في قوله تعالى: «فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» (النساء ٤٦ - ١٥٥)، ولأن التنوين الذي نابت عنه الألف لا يجتمع مع أداة التعريف (ال) خلت النصوص العربية من الجمع بينهما حتى في قوافي الشعر، لأن الألف التي تجامع (ال) في قوافي الشعر ألف إطلاق وليست ألف إبدال أو تعويض. ومع ذلك تأتي ألف الإبدال في القرآن في كلمات اقترنت بأداة التعريف، وكانت

الالف في هذه الحالة لرعاية الفاصلة، كما في قوله تعالى:

١- «وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا» (الأحزاب ١٠)

٢- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» (الأحزاب ٦٦)

٣- «إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا» (الأحزاب ٦٧)

ولقد تتوالى الفواصل في آيات متتابعة ومعناها مع تواليها واحد أو متشابه. وإنما توالت على رغم وحدة المعنى لغرض لولاه لأجزاء عن التوالى فاصلة واحدة. من ذلك أن المؤمنين هم بالضرورة موقنون، لأنهم لا يؤمنون إلا مع رسوخ اليقين بما امنوا به وهم بالضرورة يعقلون ما أيقنوا به، لأن يقينهم لا يأتي إلا نتيجة تدبر ودلالة عقلية، أي «المؤمن» «يوقنون» و«يعقلون» ومعنى هذه الالفاظ كما يتضح متشابه إلى درجة قرب دلالتها من التوحيد، وهذه الالفاظ تتوالى في موقع الفاصلة في قوله تعالى: «إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبَأَى حَدِيثَ بَعْدُ اللَّهُ وَأَيَّاتِهِ يُؤْمِنُونَ *» (الجناتية ٣ - ٦)، ففي هذه الآيات القرآنية ذكر لبعض الآيات الكونية التي تدرکها الحواس، ومن ثم كان من شأن إدراكها أن يؤدي إلى الإيمان واليقين والافتناع العقلي، بأن الإبداع لا يكون بلامبدع. فليس الإدراك الحسى لايات الكون إلا وسيلة موصلة إلى الحكم العقلي المؤدى إلى اليقين والإيمان. وقد عدت الآيات القرآنية من ذلك ما يلي:

١ - خلق السموات والأرض وهو لضخامته وخفاء مبدعه يدعو إلى الإيمان

والتسليم.

٢ - خلق الإنسان والدواب وهو يتم في دقة وروعة قد يخضع للملاحظة

التي تؤدي إلى اليقين.

٢ - اختلاف الليل والنهار (أى تعاقبهما) والمطر الذى تحيا به الأرض بعد موتها والرياح التى تهب حيناً وتسكن حيناً.

وهذه أمور تتصل بمصالح الناس، ويجب أن يتفكروا فى قوانينها، وأن يعقلوا حدوثها لينتفعوا بها.

ثم يطرح فى الآية الأخيرة سؤالاً يقول: أبعد هذه الآيات المذكورة شىء هو ادعى للإيمان؟ وهذا فيما يبدو نوع من الإجمال، ثم التفصيل، لأن خلق السموات والأرض يشتمل على الإنسان والدواب والليل والنهار إلخ.. فأجمله أولاً وجعله موصلاً للإيمان، ثم سأل عنه آخرأى شىء ادعى منه للإيمان. وبين الإيمان فى الآية الأولى والإيمان فى الآية الأخيرة جاء اليقين والنظر العقلى ليكونا عنصرين من عناصر هذا الإيمان. وسواء أكان اليقين والنظر العقلى عنصرين من عناصر الإيمان أو قريبيى المعنى منه أو مرادفين له لابد أن يثور فى أذهاننا سؤال عن السبب الذى دعا إلى إيراد هذه الكلمات بهذا التتابع مع شدة الترابط فى المعنى بينها. ولست أرى لذلك جواباً أقرب من رعاية الفاصلة.

ومعنى هذا الذى تقدم أن الفاصلة القرآنية لاتدل بالضرورة على تمام المعنى، ومن ثم تصبح وظيفتها فى القرآن غير نحوية ولا دلالية. فإذا لم يكن للفاصلة غرض نحوى ولا دلالى، فماذا يكون الغرض منها إذا؟ أغلب الظن أن الغرض منها جمالى صرف وإن توافقت أحياناً مع تمام المعنى. فالذى يبدو للوهلة الأولى عند النظر إلى الفاصلة أنها قيمة صوتية جمالية ترتبط أشد الارتباط بموسيقى النص القرآنى، كما ارتبط الإيقاع بذلك من قبلها.

ثالثاً- الحكاية:

عند إطلاق لفظ الحكاية يرد على معناه الاصطلاحى أكثر من احتمال:

١ - فقد يرد على الذهن حكاية اللفظ المسموع، كما سمع ولو تعارضت

صورته المحكية مع حالته الإعرابية، كما إذا سمعت من يقول «قابلت اليوم زيدا» فتسأله «من زيدا» بنصيب زيد.

٢ - وقد يرد عليه حكاية الجملة بعد القول على صورتها عند سماعها بلا تغيير فيها ولا تبديل وحينئذ تعرف الجملة بأنها «جملة محكية» وتعرب في محل نصب على أنها مقول القول وهي التي قصدها ابن مالك عند ذكر كسر همزة «إن» إذ يقول «أوحكيت بالقول». ويعدها النحاة من الجمل السبع التي لها محل من الإعراب.

٣ - وقد يرد عليه ما عرفه اللغويون العرب باسم حكاية الصوت للمعنى بحيث يوحى جرس أصواتها بمعناها الذي رصد لها في المعجم فيلتقى الجرس والعرف عندئذ على مصادفة ومحض اتفاق، ولكن انتقاء اللفظ بقصد استعماله يكون عن تعمد وحسن اختيار.

٤ - وثمة أمر رابع لم يعرف باسم الحكاية وإن كان اختيار الكلمات يقع فيه لجرسها وإن كان هذا الجرس لا يتفق مع المعنى المعجمي ويعرف هذا النوع من الكلمات في عرف اللغويين بالألفاظ السكسة وفي عرف النقاد بالكلمات الشعرية وكلتا الطائفتين تصف هذا النوع بأنه «حسن الجرس» وإن كان لا يحكى شيئا بعينه.

وربما ألت دراستنا للحكاية في القرآن بأى واحد من الأنواع الأربعة المتقدمة، حيثما وجد في النص القرآني.

وأول ما يصادفنى من ذلك استعمال التشديد بعد قلب التاء من جنس ما بعدها ليبدل على التردى الجماعى أو على المبالغة في التناقل أو الاستعصاء على الهدى أو نحو ذلك من المعانى المشابهة التي يجمعها عدم التقدم إلى الإمام والإخلاق إلى الأرض كما يتضح من الآيات التالية:

١ - «حَتَّى إِذَا آدَارُكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ
أَضَلُّونَا...» (الأعراف ٢٨) أصل الفعل «تداركوا» ولكن التاء قلبت دالاً
وَادغمت في الدال فلما سكنت اجتلبت لها همزة وصل للتوصل إلى النطق بها
وسيعلم من يتأمل الفرق في الإيحاء بين أصل الفعل والصورة التي استعمل
بها أن التشديد هنا يوحي بتداعيتهم في النار متزاحمين بغير نظام، بل إن
اشتمال التشديد على سكون، ثم حركة يدل على أن تزاحمهم على النار جعل
بعضهم يعوق بعضاً قبل أن يتردوا فيها، فكان النقطة التي تداعوا عندها كانت
كعنق زجاجة.

وهذا شبيهه بإيحاء التكرار في قوله تعالى: «فَكُبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ»
(الشعراء ٩٤) أى وقع بعضهم فيها فوق بعض.

٢ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قُلْنَا إِلَى
الْأَرْضِ» (التوبة ٢٨).

وهنا أيضاً نجد أصل الفعل «تناقلتم» وقد جرى فيه مثل ما حدث لسابقة
فقلبت التاء ثاء وادغمت في الثاء فسكنت فاجتلبت لها همزة وصل إلخ.... فإذا
علمنا أن للتشديد عنصرين أولهما ثاء ساكنة والثاني ثاء متحركة (لأن الحرف
المشدد بحرفين) احسبنا للسكون الذى فى العنصر الأول إيحاء بالإخلاق إلى
الأرض وعدم الرغبة فى الخروج للجهاد، مما يدل على أن الصوت يحكى الفعل
أو على الأصح «عدم الفعل».

٣ - «أَقْمَنَ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي»
(يونس ٣٥)

وفى هذه الآية أيضاً نرى التاء تنقلب إلى حرف من جنس ما بعدها وهو
الدال، ثم تدغم فيها لأن أصل الفعل «يهدى» وكان التشديد قد جاء هنا ليبلغ
رسالة خاصة تدور حول ملحظ فى استعمال الفعل هو الدلالة على أن هذا

الشخص المشار إليه لايتهدى بنفسه، وأنه إذا جاء من يقوده إلى الطريق السوى لم يسلس قياده له، فكان وصوله إلى الهداية آخر الأمر يأتي بعد أخذ ورد وكان الذي ندب نفسه لهدايته يأخذ بيده جذبا إلى الغاية المرجوة، لكنه يحاول الإفلات منه، فما يصل به إلى الغاية إلا بعد مشقة هذا ما يوحى به السكون الذي يسبق الحركة في التشديد وهو إحياء من طريق الحكاية ومنه أيضا: «ادَارْ أُنْتُمْ فِيهَا» (البقرة ٧٢).

ثم انظر إلى ما يوحىه تعزيز التفخيم من الإحساس بالمبالغة في الحدث أو في الصفة في قوله تعالى:

١ - «وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ» (فاطر ٢٧)

فكان ارتفاع أصواتهم بالصراخ ومشاركتهم جميعا فيه وتكرار ذلك منهم لا يكفي أن يعبر عنه بالفعل المجرد فيقال مثلا «وَهُمْ يَصْرُحُونَ فِيهَا» فجاءت تاء الافتعال لتدل على المبالغة في إيقاع الحدث، وقد قصد لها أن تجاور الصاد المطبقة فتتحول بالمجاورة إلى التفخيم ليكون في تفخيمها فضل مبالغة في إيقاع الفعل.

٢ - «الْكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى تِلْكَ إِذَا قَسَمَةٌ ضِيْرَى» (النجم ٢١ - ٢٢)

لولم تقصد المبالغة في وصف هذه القسمة التي جعلت لله البنات ولهم البنين بأنها غير عادلة لكان يمكن أن يقال «تلك إذا قسمة جائرة» ولكن لفظ «ضِيْرَى» جاء هنا ليحقق غرضين مهمين أحدهما رعاية الفاصلة التي غلبت فيها الألف المقصورة والثاني الإحياء بما في الضاد من تفخيم بأن الجور في هذه القسمة لا مزيد عليه، والثالث ما في «ضِيْرَى» وهي للتفضيل من زيادة في معناها على معنى «جائرة» التي هي صفة مشبهة.

٣ - «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَبْرَأَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْعَالَمِينَ» (الرعد ٢٩)

في آية أخري من القرآن نقرأ «وَأَمَّا مَنْ أَمَّنْ وَعَمَلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَى» (الكهف ٨٨)، والمعروف أن الحسنى مؤنث «أحسن» والطوبى مؤنث «أطيب» وكتاهما أفعل تفضيل، فلماذا عبر عن الجزاء في الرعد بالطوبى، وفي الكهف بالحسنى؟ لعل الجواب أن سياق النص في الكهف كان يقارن من ظلم فاستحق العذاب بمن آمن وعمل صالحاً فاستحق الحسنى، أما الرعد فالسياق يدور حول الذين امنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، وهذه درجة فوق درجة العمل الصالح الذى يبلغ درجة الاطمئنان، ومن هنا كان جزاؤهم أعظم ولذا اختير لفظ «طوبى» دون لفظ «حسنى» لما فيه من تفخيم يدل على المبالغة في الوصف، ولأن استعمال «حسنى» مع مايلي ذلك من قوله «وحسن ماب» يجعل تكرار الفاظ المادة الواحدة غير مستحب.

٤ - «وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّاهَا وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا قَالَهُمْهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا» (الشمس ١ - ١١)

يقول الله تعالى في سورة النازعات «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا» (النازعات ٣٠) ولو أننا قارنا سياق هذه الآية بسياق آية الشمس «وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّاهَا» لوجدنا ماكان دالاً في «دحاها» قد تحول إلى طاء في «طحاها»، ولقد عرفنا من دراسة سيبوية لصوتى الدال والطاء أنه لافرق بينهما في النطق إلا التفخيم، فلو فحمت الدال لصارت طاء كما يقول، ومعنى ذلك أن العنصر الذى طرأ على الفعل «دحاها» عندما ورد في سورة الشمس هو التفخيم، فما دلالة التفخيم هنا؟ لو نظرنا إلى الفرق بين السياقين لوجدنا في سورة النازعات سياق «إثبات» مجرد وما في سورة الشمس سياق «قسم» ولاشك أن في القسم تأكيداً ليس له مثل في الإثبات، فإذا سلمنا بهذا الفرق بين السياقين أدركنا أن التفخيم الذى في «طحاها» جاء لمناسبة ما في القسم من تأكيد، بل إنه جاء

ليضيف إلى القسم فضل تأكيد أى ليدل على مبالغة في إيقاع الحدث. ومثل ذلك مانجده في سورة البقرة من قوله تعالى: «وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ» (٢٤٥) مقارنة بقوله: «وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ» (٢٤٧) إذ جاء التفضيم في الأولى مع الضم وجاء الترفيق في الثانية مع السكون.

٥ - ومما يندرج تحت هذه الظاهرة ترك الكلمة الخالية من التفضيم وانتقاء أخرى تشتمل على التفضيم في مقام المبالغة كما سبق في اختيار «طوبى» و«ضيزى»، إلخ.. فإله سبحانه يقول:

١- «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» (البقرة ١٤٣)

ب - «فَكَفَّارُتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ» (المائدة ٨٩)

ج - «قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ» (القلم ٢٨)

د - «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى» (البقرة ٢٣٨)

فعبّر بالتوسط وأراد الحسن فكان انتقاء التوسط لما فيه من تفضيم الطاء، وقد جاء المعنى على الترتيب:

وكذلك جعلناكم أمة حسنة - من أحسن ما تطعمون أهليكم - قال أحسنهم - والصلاة الحسنى.

وإذا نظرنا إلى بعض ما يسمونه المحسنات اللفظية البديعية وجدنا هذا النوع من التحسين إنما هو تسخير واع لما يمكن للقيم الصوتية وظاهرة الحكاية أن تثيره في نفس المتلقى يصدق ذلك على الجناس تاما كان أم ناقصا وعلى المشاكلة في اللفظين، وما أشبههما من المحسنات. وإن النص القرآنى ليحسن استعمال ذلك ويحمله من الأغراض ما لا يمكن الوصول إليه إلا من

خلاله، وفيما يلي طائفة من الشواهد على ذلك:

١ - «وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مَوْسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَالْهَيْكَةَ» (الأعراف ١٢٧).

انظر إلى استعمال الفعل «تذر» و«يذر» إذ يتفقان لفظا ويختلفان معنى، فأما بالنسبة لفرعون فإنه إذ «يذر» موسى إنما يتوانى عن عقابه فالترك هنا نوع من التسامح، وأما بالنسبة لموسى فإنه «يذر» فرعون بمعنى «يتخلى» عنه وعن الهته ليعبد الله إلها واحدا.

٢ - «سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ» (التوبة ٩٥).

هنا أيضا نجد فعل الإعراض يستعمل بمعنيين، فيكون من ذلك اتفاق في اللفظ واختلاف في المعنى. فالإعراض المقصود بالفعل المضارع مسامحة وغفران، ولكن الإعراض الذى قصد بفعل الأمر مغاضبة وترك وإهمال أى إن هؤلاء سيحلفون طلبا للغفران، ولكن الله يأمر المسلمين بمغاضبتهم.

٣ - «وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ» (آل عمران ٤٢) فقوله «اصطفاك» أولا بمعنى «اختارك» والثانى بمعنى «فضلك»، فالاتفاق في اللفظ دون المعنى.

٤ - «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا» (الشورى ٤٠)

السيئة الأولى ذنب والسيئة الثانية جزاء، وهكذا يتفق اللفظ ويختلف المعنى وصولا إلى المشاكلة.

٥ - «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» (الزخرف ٤٤ - ٤٥)

السؤال الأول حساب والثاني استفهام.

٦ - «يَابْنِي أَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ
التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ» (الاعراف ٢٦)

اللباس الأول من الملابس والثاني ملابس ومقاربة أى مصدر «لابس
يلابس».

٧ - «وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُفَسِّمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِئُوا غَيْرَ سَاعَةٍ» (الروم
٥٥)

الساعة الأولى القيامة والساعة الثانية البرهة.

٨ - «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (الاعراف ١٩٤).

«تدعون» الأولى بمعنى تزعمون والثانية بمعنى أسألوهم، وقد يكون هناك
تقارب في اللفظ دون تطابق، وهنا يختلف المعنى بالطبع، كما في الايات التالي:

١ - «فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا وَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا
الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ» (الكهف ٣٥ - ٥٤).

إذ يشترك اللفظان «مصرفا» و«صرفنا» في أصل الإشتقاق مع الاختلاف في
المعنى فالمصرف المهرب والتصريف الإجراء والتقليب.

٢ - «وَجَعَلْنَاكَ مِنْ سِبْأٍ نَبِيًّا يَقِينٍ» (النمل ٢٢)، «وهم ينهون عنه ويناون
عنه» (الانعام ٢٦). بين اللفظين جناس ناقص ولاصلة بينهما في المعنى.

٣ - «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ
الْخَلْقَ» (العنكبوت ١٩ - ٢٠)

اشترك اللفظين في السين والياء والراء، ربما الهى عن أن المادة الاشتقاقية
للأول (ي س ر) وللثاني (س ي ر).

٤- «وَلَا تُطِيعُ فِكُمْ أَحَدًا أَبَدًا»، (الحشر ١١).

٥- «كَلَّا بَلْ لَأَتَكْرِمُونَ الْيَتِيمَ»، (الفجر ١٧).

وهكذا ترقى القيمة الصوتية إلى حكاية معنى عرفى رصده المعجم للفظ أو
معنى طبيعى مما تَسْتَوْحِيهِ النفس ولا تستطيع وصفه، فإن أمكن أحيانا أن
نشير إليه من بعد فإننا لَنَسْتَطِيعُ تفسير العلة التى جعلته موحيا على هذا
النحو، فمثل التأثر به كممثل التأثر باللحن الموسيقى نظرب له ولا ندرى لماذا،
وهكذا يمكن أن ننسب إلى التفخيم مثلا إحياء بالمبالغة فى إيقاع الحدث أو فى
الوصف، فإذا سألنا أنفسنا عن السبب فى ذلك لم نستطع لهذا السؤال جوابا،
والذى جئنا به هنا من الشواهد، إنما هو نماذج مما نجده فى النص القرانى من
استعمال حكاية الصوت للوصول إلى أغراض إيحائية بالمعانى الطبيعية التى
تضيف إلى المعانى العرفية للألفاظ أبعادا إضافية ما كان لها أن تتحقق لولا ما
تحمله حكاية الصوت من طاقة إيحائية. وتتضح الطاقة الإيحائية للصوت
كذلك فى إبداع القرآن ألفاظا لم تكن من قبل أو تحويل ألفاظ عن معانيها التى
كانت لها إلى معانٍ أخرى تتناسب مع إحياء أصوات الألفاظ. مثال ذلك مانجده
من ألفاظ فى الآيات التالية:

١- «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَأَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ رَقُومٍ»،
(الواقعة ٥١- ٥٢)

يوحى هذا اللفظ بأمرين كل منهما كرية:

أ- اشترك مادة «ز ق م» مع مادة «س ق م» فى كل شىء إلا اختلاف الزاى
والسين من حيث الجهر والهمس. ومن هنا يوحى «زقوم» بالسقم.

ب - توالى القاف (التي يقرب مخرجها من البلعوم)، والميم (التي يقتضى نطقها إقفال الشفتين) يوحي بأن ثمرة هذه الشجرة تستعصى على البلع ويطول استعصاؤها بإيحاء تشديد القاف وطول الواو التي بين القاف والميم، ويضاف إلى ذلك مشاركة هذه الكلمة لكلمة «لقمة» في حرفين من حروفها مما يعزز فكرة إرادة البلع مع المشقة. واشتمال اللفظ على الزاى والقاف وهما الحرفان اللذان في «رَق» الطائر فرخه.

٢- «وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ» (الحاقة ٣٦- ٣٧)

يوحي لفظ «غسلين» بأن هذا الطعام «غسالة» لشيء آخر، وأنه غير مستساغ بسبب ما في مخرج الغين من التأخر في مكان الغرغرة التي تكون عند إرادة تنظيف الحلقوم، كما أن الغين صوت يستعمل ساكنا عند إرادة التعبير عن التقزز.

٣- «عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا» (الإنسان ١٨)

يوحي لفظ «السلسبيل» بالسلاسة والسهولة ويسر الاستساغة، وذلك لما بين اللفظين من شركة في بعض الحروف، وفي رتبة هذه الحروف. يضاف إلى ذلك شركة مشابهة بين هذا اللفظ وبين «الاسبال» (مصدر أسبل يسبل)، وهو قد يكون للستر أو للثياب قصدا لاتقاء الفضول مما يوحي بأن هذه العين لاتزاحم عليها، فهي في متناول عدد محدود من الشاربين.

٤- «الْأَحْمِيمَاءُ وَالْغَسَاقَاءُ» (النبأ ٢٥)

اشتق من مادة (غ س ق) في القران ألفاظ «الغسق» و«الغاسق» و«الغساق»، ويبدو أن القسط المشترك بين هذه المشتقات الدلالة على أمور كرية، فالغسق الظلمة والغاسق الليل الشديد الظلمة، وكلاهما كرية، لأنه يؤدي إلى توقع المجهول. أما الغساق ففيه تسخير للتشديد الذي على السين لإيجاد توكيد للكراهية التي تستفاد من حروف المادة. وقد جاء «الحميم» طباقا للبرد الذي في الآية السابقة وجاء «الغساق»، ليكون طباقا للشراب في تلك

الآية التي تقول «لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا، مما يوحى بالتضاد بين الشراب والغساق، كما كان هناك تضاد بين البرد والحميم، وإذا كان هناك تضاد بين الشراب والغساق، فمعنى ذلك أن الغساق شئ لا يشرب، لأنه كراهية وقد فسروه بالصديد، أما كراهية شربه فتستفاد من إحياء الغين والقاف، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

٥ - «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِينٍ» (المطففين ٧)

هذا اللفظ «سجين» مكون من الحروف الذي يتكون منها لفظ «السجين» ومن أكثر ما يتكون منه لفظ «سجيل» وهو اسم المادة التي منها الحجارة التي يكون بها القذف والعقاب، كما في قوله تعالى: «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ مَنضُودٍ» (هود ٨٢)، «فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل» (الحجر ٧٤)، «ترميمهم بحجارة من سجيل» (الفيل ٤)، وفيها أيضا حرفان من (س ج ر) التي صيغ منها الفعل في قوله تعالى: «ثم في النار يسجرون» (غافر ٧٢)، ولا شك أن اشتراك الكلمات في أكثر حروف المادة يجعل إحداها عند سماعها تذكر بالأخرى، وبخاصة إذا كانت الحروف غير المتشابهة، مما يعد في العربية من قبيل الحروف الاستمرارية المتوسطة التي لا ينحبس الهواء في نطقها وكلها ينطق في اللثة. تلك الحروف هي النون في «سجن» و«سجين» واللام في «سجيل»، ثم الراء في «يسجرون» وإن النون ليخرج النفس في نطقها حرا من مجرى الأنف ويخرج في نطق اللام حرا من جانب اللسان ويخرج في نطق الراء مع التكرار فلا يحبسه حابس. وصفة الاستمرار هذه هي من مقومات المدود والحركات مما يجعل الأصوات الثلاثة السابقة معها تتسم بالضعف، ويجعل الجميع، مما يعرف في العربية بأنه «حاجز غير حصين»، ومن ثم يكون اختلاف الكلمات بحسبها كلا اختلاف، ويكون إحياء إحدى هذه الكلمات بالأخرى أمرا واردا، لأنه من قبيل أثر

القيمة الصوتية في توليد المعنى الطبيعي الذي جعلناه من قبل بإزاء المعنى العرفي المعجمي.

٦- «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيَيْنَ» (المطففين ١٨)

صيغ هذا اللفظ من مادة العلو «ع ل و» التي تميز بها تصوير الجنة في القرآن، كما تميز تصوير جهنم بالاستفقال، ففي الجنة «غرف من فوقها غرف»، وهي بذاتها «جنة عالية قطوفها دانية»، وإذا جرت الأنهار، فإنها لا تجري فيها، وإنما تجري من تحتها، وأما النار فإن أهلها لا يصعدون إليها صعوداً، وإنما يقذفون فيها ويسمى أسوأ مكان فيها «الدرك الأسفل». وإذا ارتبطت الجنة في التصوير بالعلو وارتبطت النار بالاستفقال، فإن الأثر الذي يتركه لفظ «عليين» في النفس وفي الفهم وفي المخيلة، لا بد أن يرتبط بالجنة حتى وإن لم يقم للكلمة معنى عرفي يعزز هذا الأثر الإيحائي، أثر القيمة الصوتية أو الحكاية.

٧- «وَمَرَّاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ» (المطففين ٢٧)

لقد تكفلت الآية التالية بشرح المقصود بلفظ «تسنيم» فجاء فيها: «عينا يشرب بها المقربون»، وليس اهتمامي هنا بالمعنى العرفي المعجمي الذي شرحتة هذه الآية، وإنما اهتم بالمعنى الطبيعي الإيحائي الذي تحكيه أصوات الكلمة. أول انطباع يرد على النفس من هذا الاسم إنه يبدو كأن بينه وبين لفظ «نسيم» صلة قرى فالفارق بينهما لا يعدو أن يكون قلباً مكانياً لصوتى السين والنون، ولا شك أن النسيم اللفظ ما يجري به الهواء لما فيه من الرقة والرطوبة والإنعاش الذي ينشأ منهما، وإذا كان الأمر كذلك، فما أجمل أن يخرج شراب أهل الجنة بماء هذه العين، لأن ماءها كما صورته الحكاية يقوم بين أنواع الماء مقام النسيم بين حالات الهواء.

٨ - «لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ» (الغاشية ٦)

أشهر ما يصاغ من حروف هذه المادة هو لفظ «الضراعة» وسواء أكان معنى «الضريع» في المعجم أنه نبات شوكى أو غير ذلك من المعانى التى نسبت إلى اللفظ، فإن انتباهنا فى هذا الفصل منصب على إحياءات حكاية الأصوات للمعانى. والذى توحى به أصوات لفظ «ضريع» أن فى هذا الطعام ذلا يودى إلى تضرع منهم إلى الله أن يعفيهم منه فلا هو مسمن ولا مغن من جوع فهو فى النهاية لا يساوى بذل الجهد فى أكله.

وهناك إحياء من نوع آخر لا يعود إلى أصوات الكلمات، وإنما يعود إلى الدلالات الهامشية للألفاظ والعبارات، فما كان من هذا الإحياء حسنا حرص النص به على الألفاظ، وما كان سيئا ممجوجا أطرح النص ما يودى إليه من ألفاظ أو عبارات. ومن ذلك ما يلى:

١ - لقد سأل زكريا ربه: «أَنْتَى يَكُونُ لِي عُلَامٌ؟» (ال عمران ٤٠) وسألت مريم ربها «أَنْتَى يَكُونُ لِي وَلَدٌ؟» (ال عمران ٤٧) فأجاب الله زكريا بقوله: «كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ»، وأجاب مريم بقوله: «كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ». ذلك أن التعبير بلفظ «يفعل» فى حالة زكريا لا يثير خواطر سيئة، لأن زكريا وامراته زوجان فلا شبهة إن حملت المرأة، لأن زوجها بجانبها، وقد كان إخصابها بواسطة تسخير زوجها لذلك والتسخير والإخصاب من فعل الله. أما فى حالة مريم فإن التعبير بلفظ «يفعل» ربما أثار خواطر سيئة فاللفظ لهذا غير مناسب، ومن هنا جاء الفعل «يخلق»

٢ - «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» (النساء ١١)

لاشك أن المقيس عليه عند التقسيم هو نصيب الذكر، لأنه هو الذى يمتلئ الواحد الصحيح من الناحية الحسابية ولو اعتدت الآية بذلك لقلت: «للأنثى

نصف حظ الذكر، أو «للأنثى نصف الذكر» على حذف مضاف، ولكن لفظ «الذكر» من المشترك اللفظي حتى ليدل بين معانيه على عضو الذكورة من الرجل، ولما كان الأمر كذلك حَالَ معنى الملكية الذي في اللام الجارة للأنثى دون أن يأتى لفظ «الذكر» بعد الأنثى على أى صورة نظرا لما يثيره ذلك من معنى ممجوج مرفوض. وهكذا جعل النصف وهو نصيب الأنثى مقيسا عليه وجعل الواحد الصحيح، وهو نصيب الذكر مقيسا، فقيس نصيب الذكر بضعف نصيب الأنثى.

٣ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»
(النساء ٥٩).

لم يتكرر الفعل «أطيعوا» مع «أولى الأمر» لأن المطلوب منهم أن يكون عملهم تطبيق ما في كتاب الله وسنة رسوله، فإن لم يفعلوا فلا طاعة لهم وإن فعلوا فإن طاعتهم ليست من أجلهم هم، وإنما لكونهم أحسنوا التطبيق.

٤ - «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى» (المائدة ٨٢)

لم يقل: «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا النصارى» لثلاث أسباب النصارى في موقع يشته على الفهم للوهلة الأولى، بأنه بدل من الذين آمنوا، ولأن تبديلهم للإنجيل لم يجعلهم أنصارا لعيسى عليه السلام بسبب ما يفترونه عليه فهم «يقولون» إنهم نصارى، ولذلك جاء الفعل «قالوا».

٥ - «وَشَرُّهُ بِئْمَنٍ بِخَسٍ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَأَنَّهُمْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ»
(يوسف ٢٠)

للفعل «شرى» معنيان ضدان

١- أول المعنيين «اشترى» ومنه قول عنتره:

حصانى كان دلال المنايا فحاض غمارها وشرى وباعا

فالطباق الذى بين «شرى» و«باع» يدل على أن «شرى» بمعنى «اشترى».

ب- الثانى معنى «باع» وهو المعنى المقصود فى هذه الاية وقرينة المعنى لفظ «بثمن»، وكذلك لفظ «الزاهدين» لان الزهد فى شىء يتنافى مع شرائه ودفن الثمن له، ولكن ينسجم مع بيعه، ولكن الاية (تكريما لنبي الله يوسف) لم تعبر عن بيعه بلفظ البيع الذى يكون للعبيد، وإنما جاءت بلفظ هو من الاضداد، ليكون فى التعبير به تخفيفا لوقع العبارة فى النفس.

٦- «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ» (يوسف ٢٣).

تجنبنا الآيه لفظ «سيدته» تكريما له وتحقيرا لها، وهذا شبيه بما فى الاية

الأخرى:

«وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته» فليس هو سيدا ليوسف وليست هى سيدة له. ومما يدل على إرادة تجنب لفظ السيادة فى حالة يوسف بذاته قوله تعالى: «والفيا سيدها لدى الباب» فجعله سيدها ولم يجعله سيده هو. أما قول يوسف «إنه ربي» (يوسف ٢٣)، فذلك كلام يوسف وليس كلاما عن يوسف.

٧- «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ» (يوسف ٤٦)

آخر أداة النداء ليكون تعبيرا عن رأى الفتى فى يوسف وأنه يعده صديقا بعد ما رأى من حسن سيرته ودعوته إلى ترك عبادة الارباب المتفرقين إلى عبادة الله الواحد القهار. ولو قال: «أيها الصديق يوسف» لأوحى ذلك بأن لفظ الصديق كان لقباً متعارفاً له ينادى به كما ينادى «الشيخ فلان».

٨- «قَالُوا سَفَرُوا مِنْ أَجْلِ آيَاتِهِ» (يوسف ٦١)

المراودة دعوة بإغراء وتصميم، وربما اشتملت على مواثبة تؤدي إلى الظفر بالمطلوب، وهذا ما حدث من امرأة العزيز التي كانت «تراود فتاها عن نفسه» ولما كان إخوة يوسف يعلمون من حال أبيهم بعد فقد يوسف أنه سيضن عليهم بأخيه عدلوا عن التعبير بمجرد الطلب إلى التعبير بالمراودة.

٩- «إِذْ هَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ» (يوسف ٩٢)

«فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا» (يوسف ٩٦)

في الآية الأولى استعمل فعل الإتيان وفي الثانية فعل الارتداد. ذلك أن مطلب يوسف في الآية الأولى كان معلقا بإتيان أبيه وأهله أجمعين إلى مصر، أما الآية الثانية، فالكلام فيها عن المعجزة معجزة رد البصر بعد فقداه أضف إلى ذلك ما في مطلب المشاكلة في الآية الأولى بين «يأت» و«أتوني».

رابعا- المناسبة:

يقصد بالمناسبة الصوتية أن يكون الصوتان المتجاوران أو اللذان يفصل بينهما حاجز غير حصين أن يكونا على صورة لا يرد فيها تنافر أحدهما مع الآخر لافي الأداء ولا في السمع، وتخضع بعض صور المناسبة الصوتية في اللغة العربية للتقعيد، ويظل بعضها الآخر للاختيار الأسلوبى الفردى الفنى. ومما يخضع للقاعدة:

١- تفخيم لام لفظ الجلالة وترقيقة بحسب الصوت الذى يسبقه.

٢- تحريك ضمير الغيبة بحسب ما يسبقه أيضا.

٣- كسرة المناسبة قبل ياء المتكلم عند الإضافة وياء مخاطبة في الفعل

٤ - بناء الماضى والأمر على الضم لمناسبة واو الجماعة.

٥ - تحريك اخر كل فعل بالفتحة إذا اسند إلى الألف.

٦ - الفتحة الدالة على الألف المحذوفة في نحو يسعون ويرضون.

٧ - الجر بالكسرة لما دخل عليه حرف الجر الزائد

٨ - اتباع العين للفاء في جمع المؤنث السالم من الثلاثى نحو سجديات.

أما الجانب الأسلوبى الفردى الاختيارى من المناسبة فقد اشتهر منه أمران:

١ - إعراب الجوار مع أطراح الإعراب بحسب القاعدة، ويعد ذلك نوعا من الترخص فى القرينة الإعرابية وقد سبقت الإشارة إليه فى موضعه من هذا البحث. ويعد ذلك فرديا اختياريا، لأنه يتم بالاختيار الحر من قبل منشئ النص، وقد كانت له مندوحة عن استعماله، فإن اضطر إلى ذلك فى الشعر، فهو ضرورة.

٢ - الإتيان وهو يتم بإيراد لفظين بينهما شبه تقفية، وقد اشتهر من ذلك عبارات مأثورة مثل حيص بيص وشذر مذر، بحيث لا يعطف أحد اللفظين على الآخر، فإن عطف نحو أهلا وسهلا، فليس ذلك من الإتيان، ولنشئ النص أن يصوغ من ذلك ما شاء باختياره، وهو مسئول عما يفعل فى معيار النقد.

أما المناسبة بحسب القاعدة، فلا فضل فى رعايتها لأسلوب على آخر، بل شجاعة الصياغة، قد تتمثل فى عدم رعايتها، كما فى قوله تعالى: «وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُيَوَّتِّهِ أَجْرًا عَظِيمًا» (الفتح ١٠).

إذ جاءت الهاء من «عليه» مضمومة على الرغم من الياء الساكنة التى قبلها،

والاسلوب القرآنى فى عموم أحواله يراعى أو ينسجم مع هذه القواعد التى تحكم هذا النوع من المناسبة، وأما المناسبة الفنية التى لا تحكمها القاعدة، فهى التى نحاول أن تعرض لمظاهرها فى الأسلوب القرآنى فنقول وبالله التوفيق:

لعل أشهر مظهر قرآنى للمناسبة الصوتية التى لا تحتتمها القاعدة هى الفاصلة القرآنية، لأن طبيعة الفاصلة أنها إتيان بخواتم الآيات طبقا لاختيار أسلوبى مقصود، بحيث يكون ثمة مناسبة صوتية بين رأسى الآيتين، وأكبر دليل على أن ذلك أمر اختيارى أنك فلما تجد واحدة من طوال السور فى القرآن تلتزم فيها فاصلة من جرس واحد (وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك فى كلامنا عن الفاصلة)، وإذا لم يلتزم فيها ذلك، فلا مشاحة فى أن الأمر يحكمه الاختيار، دون القاعدة. ولكون المناسبة الصوتية تعتمد على الانسجام لاعلى المطابقة التامة وجدنا الفاصلة القرآنية تتحقق بالصوتين المنسجمين، ولا يتحتم فيهما أن يكونا متطابقين (ارجع إلى ماسبق فى دراسة الفاصلة)، ومن هنا نجد الباء فى «المخبتين» تنسجم مع الواو فى «يُنْفِقُونَ» (الحج ٣٤ - ٣٥) والياء فى «قدير» و«عزیز» تنسجم مع الواو فى «الأُمُور» و«كُمُود» و«لُوط» (الحج ٣٩ - ٤٣)، بقطع النظر عن الصوت الواقع فى نهاية كل كلمة من هذه الكلمات. ومغزى هذا أن المناسبة الصوتية هى المبدأ الذى تقوم عليه الفاصلة القرآنية، وأما القافية الشعرية، فلا تقنع بالمناسبة، وإنما تتخطاها إلى المطابقة. وفى المناسبة كما رأينا حرية وانطلاق واختيار أسلوبى، ولكن المطابقة التزام وتقييد وقاعدة تتحكم فى الاختيار، وتسلم أحيانا إلى الضرورة.

والذى يلى الفاصلة من مظاهر المناسبة الصوتية فى القرآن الكريم هو «الإمالة» وهى تكاد تكون ظاهرة نجدية لا ترد لدى الحجازيين إلا قليلا. وعلي الرغم من أن ارتباط الإمالة بالمناسبة تحكمه بيئات صوتية خاصة تصبح

الإمالة بها ظاهرة موقعية، لا يمكن أن يعد هذا الارتباط قاعدة من القواعد الملزمة لأي قارئ من قراء القرآن الكريم، لأنه في موقع المختار بين استعمال قراءة الإمالة وعدمه، وإذا ثبت له الاختيار أصبح استعمال الإمالة أو تركها قراراً يتخذه القارئ، كما يختار المتكلم تقديم الخبر أو تأخيره على المبتدأ في الاستعمال، ومعنى كون المناسبة هي سبب الإمالة أن الألف، إنما تمال للمح الملايسة بينها وبين الياء أو الكسرة، فهذه الملايسة تجعل المناسبة غاية أسلوبية صوتية. وقد تكون ملايسة الألف للياء أو الكسرة على إحدى الصور الآتية:*

١ - إبدال الألف من ياء متطرفة كما في رمى وهدى

٢ - حلول الياء محلها في بعض تصاريف الكلمة، كما في التثنية في نحو كبرى وسعدى وكالبناء للمجهول لنحو دعا وتلا

٣ - إبدال الألف من عين الفعل الأجوف الذي إذا أسند إلى التاء كسرت فاؤه كما في بَاعَ وَسَالَ وَمَالَ.

٤ - وقوع الألف بحيث تتلوها الياء كما في دَائِنَ وَبَائِعَ وَشَائِعَ.

٥ - وقوعها بعد الياء إما متصلة بها كما في حَيَّانَ أو منفصلة عنها بحرف واحد كما في هيفاء أو منفصلة عنها بحرفين أحدهما الهاء كما في بينى وبينها.

٦ - وقوعها قبل الكسرة مباشرة كما في عالم الغيب أو بعدها وبينهما حرف نحو سريع الحساب أو بينهما حرفان أولهما متحرك غير مضموم وثانيهما الهاء كما في مناكبها أو أولهما ساكن مطلقاً نحو إفلاس أو بينهما متحرك وساكن معهما الهاء نحو درهماك.

* انظر شذا العرف للشيخ أحمد الحملاوي.

٧ - السعى إلى إيجاد المناسبة بين كلمتين في إحداهما إمالة لأحد الأسباب المتقدمة كما في إمالة ألف الضحى (مع كونها واوية) لمناسبة الإمالة في سجي وقل ذواتى الألف المبذلة من ياء متطرفة.

وتتمتع إمالة الألف لأسباب منها أن يتصل بها حرف يستحق التفضيم كالراء غير المكسورة وكحروف الاستعلاء السبعة غير مكسورة أيضا أى أن التفضيم يدفع الإمالة والكسرة تآذن لها وهذا هو المقصود بكون الإمالة من المناسبة الصوتية.

ومن المناسبة الصوتية أيضا أن الثلاثى الساكن العين إذا كان اسما غير صفة وجمع بالالف والتاء حركت عينه بمثل حركة الفاء سواء أكان تانيثه حال الأفراد بالتاء كسجدات وخدمات وقبلات أم كان بغير التاء كدعدآت وهندآت جملاآت (في دعد وهند وجمل) ولئن جاز في مكسور الفاء ومضمومها تسكين العين لم يجز في مفتوح الفاء إلا إتباع حركة العين حركة الفاء للمناسبة، ولكن هذه المناسبة تحكمها القاعدة فهى تركيبية وليست أسلوبية. فإذا لم تكن العين ساكنة كما «في أَيَّامِ نَحْسَاتٍ» (فصلت ١٦) «فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ» (البقرة ٣٧)، «وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلَهُمُ الْمَثَلَاتُ» (الرعد ٦) لزمت العين حركتها وامتنع الاتباع وإذا لم تكن العين مفردة بل كانت مشددة كما في «عمآت» فلا مجال للاتباع وإذا كانت العين الساكنة واوا أو ياء كما في «ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ» (النور ٣١) و «فَاسْتَبْقُوا الْخَيْرَاتِ» (البقرة ١٤٨) بقيت عين الكلمة على سكونها أما فيما عدا ذلك فإننا نجد الأسلوب القرآنى يميل إلى الربط بين الفتحة وحرف الحلق في أول الكلمة كما في «كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ» (البقرة ١٦٧) وقوله «وَقُلْ رَبِّ اعْبُدْكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ» (المؤمنون ٦٧) أو حرفا حلقوميا نحو «وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ» (الانعام ٩٣) وإن لم يطرد ذلك اطرادا تاما. وفي غير هذه الحروف تُسَوِّدُ الضمة كما في «ظَلَمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ» (النور ٤٠)

وكذلك « وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ » (التوبة ٩٩) وأيضا « إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » (الحجرات ٤) وكذلك « وَالْحَرُمَاتُ قَصَاصٌ » (البقرة ١٩٤) و « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » (الانعام ١٤٢)

ويبدو أن «فعلات» بكسر فاء الكلمة لم ترد في القرآن.

قلنا إن المناسبة في الحالة التي بين أيدينا (أى جمع المؤنث الثلاثى بالالف والتاء) قضية تركيبية تحكمها القاعدة وليست أسلوبية تتصل بالاختيار الفردى أما ما يتصل بالاختيار من مثل ذلك فهو «اتباع» الحركة أختها في الفاظ مفردة مثل :

* « وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ » (الحج ٥)

* « فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ » (يونس ١٦)

وقد تدعو المناسبة إلى وصف اللفظ بصفة من مادة اشتقاقه كما في قوله تعالى : « وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ » (آل عمران ٤) إذ عدل بالاختيار الأسلوبى عن لفظ «المكدسة» مثلا إلى لفظ «المقنطرة» سعيا إلى إيجاد المناسبة بين الموصوف وصفته وإلى تحميل العبارة دلالة إضافية على معنى «التراكم». وقد تدعو المناسبة أحيانا إلى استعمال لفظين متشابهى الجرس لإعطاء العبارة معنى غير ما تعطيه ألفاظها بواسطة معانيها العرفية كما في قوله تعالى :

* « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ » (آل عمران ١٣٤) لإفادة

الشمول أى في كل الأحوال.

* « لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ » (النساء ١٤٣) لإفادة الشمول أيضا أى

ليس إلى أى من الفرقاء

* « فَكَلِمَةٌ هَنِئِنَّا مَرِينًا » (النساء ٤) لتأكيد المعنى أى هنيئا حقا

* « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » (النساء ١٢) لتأكيد المعنى أى أنه عليم نوعا
خاصا من العلم تدعمه الحكمة.

ومن المناسبة أيضا أن يأتى ثانى اللفظين من مادة اشتقاق الاول وإن
اختلف جرسهما كما في قوله تعالى :

* « قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » (آل عمران ٨١)

* « بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » (آل عمران ٧٦)

* « فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » (آل عمران ١٥٩)

* « وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُيُوعًا يَشْتَرُونَ » (آل عمران ١٨٧)

* « وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا »
(النساء ١٣٠)

فهناك مناسبة اشتقاقية بين «اشهدوا» و«الشاهدين» ثم «اتقى» و«المتقين»
ثم «توكل» و«المتوكلين» ثم «اشتروا» و«يشترون» وأخيرا بين «سعته» و
«واسع». وقد تكون المناسبة بإخضاع الحركة لما جاورها سواء أكانت الحركة
للبناء أم للإعراب . فمن إخضاع حركة البناء لما جاورها ما في قراءة حمزة من
قوله تعالى : «فَلِإِمِّهِ التُّثُّ» بكسر همزة «إم» ، ومن إخضاع الحركة الإعرابية
للمناسبة في قراءة كسر الدال في قوله تعالى : « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » . لتكون
ثمة مناسبة بين الدال واللام الجارة التى بعدها.

خامسا- حسن التأليف

ليس لحسن التأليف في متن اللغة قواعد محددة ولهذا جعلناه ظاهرة
أسلوبية لا تركيبية ذلك بأن متن اللغة جزء من فقه اللغة لا من الصرف ولا من

النحو وأقصى ما يصل إليه فقه اللغة من الضبط أمران :

أ- أن ينتفع بنتائج العلوم الأخرى ذات الضبط كانتفاعه بظاهرة الاشتقاق (وهى صرفية) فى تنظيم مادته الأصلية وهى المفردات.

ب- أن يغامر بالكشف عن اتجاهات عامة لا ترقى إلى قياسية القواعد كحين يتكلم عن حركة عين المضارع محاولا استقرار نوع اطراد لسلوكها وكقوله فى أحد اللفظين المترادفين (الطريق والسبيل مثلا) إن أحدهما يرد فى معرض الشر ويرد الآخر فى معرض الخير الخ.

ومع ذلك نجد الكلام فى حسن التأليف مهما بالنظر إلى حقلين تطبيقيين من حقول الاستعمال اللغوى :

الأول : حقل الكلام فى الفصاحة ، فلقد نسبت الفصاحة مرة إلى القبيلة فكان الكلام فيها من قبيل علم اللغة الاجتماعى ، ونسبت مرة أخرى إلى الكلام فأضافت إلى ذلك قدرا من طابع النقد الأدبى. ونسبت مرة ثالثة إلى الكلمة فكانت من فقه اللغة أو من اللغة. أما قبائل الفصاحة فقد عدّها الرواة والنحاة ست قبائل فى وسط الجزيرة وقد نسبوا ماعداها من القبائل إلى عدم الفصاحة. وجعلوا مدار التمييز بين الفريقين على مبدأ النقاء اللغوى بعدم الأخذ من لغات الأمم الأخرى أو التأثير بهذه اللغات. وأما الكلام فقد رأوه فصيحاً إذا خلا من التعقيد اللفظى والتعقيد المعنوى. وهكذا جعلوا فصاحة الكلام صفة سلبية غير إيجابية لأن البحث عن الصفات الإيجابية التى تدخل فى تعريف الكلام الفصيح ربما أدت إلى الكثير من التفصيل الذى يتناقى مع ما يتطلبه التعريف من إيجاز شأن ذلك شأن الكثير من المفاهيم التى تستعصى على التعريف الإيجابى فيلجأ عند تعريفها إلى الانتفاع بالعبارات السلبية. ولنا فى النحاة أسوة فى هذا المجال. فلقد عرفوا الحرف بقولهم « والحرف ما ليس كذلك » (أى ليس له خصائص الأسماء ولا خصائص الأفعال) كما عرفوا المفرد بالسلب ثلاث مرات فقالوا.

أ - مالميس مثنى ولا جمعا (وذلك في الصرف).

ب - مالميس مضافا ولا شبيها بالمضاف (وذلك في باب النداء)

ج - مالميس جملة ولا شبهه جملة (وذلك في باب المبتدأ والخبر).

وأما فصاحة الكلمة فقد ارتبطت بخلوها من تنافر الحروف. غير أن هذا «الخلو» السلبي يمكن أن يتحول إلى الإيجاب من خلال القول بحسن التأليف لتصبح الكلمة الفصيحة هي التي حسن تأليفها أى تناسبت أجراس حروفها الأصلية بحيث لا يكون في نطقها عسر ولا ثقل.

الثانى : حقل الكلام في الألفاظ الشعرية وغير الشعرية، وهذا الحقل أوسع من مجرد الانشغال بتجاور الأصوات وإنما يشمل أصوات الكلمة في عمومها متجاوزة كانت أم غير متجاوزة. بل إنه في بعض صورته يشمل حتى ظاهرة الحكاية (حكاية الصوت للمعنى) التي أشرنا إليها فيما سبق من هذا الفصل. وأكثر من ذلك أن جرس الألفاظ قد حمل لدى بعض المذاهب الإبداعية والنقدية الحديثة أحمالا من المعانى الأنطباعية والإيحائية حتى لقد ذهب البعض إلى جدوى تجاهل المعانى العرفية التي ينسبها المعجم للكلمات واستنباط دلالات الكلمات من جرسها لا من عرفها. هذا في الحديث، أما لدى السلف من نقادنا العرب فقد قرأنا الإشارة إلى حلاوة اللفظ وطلاوته وسلاسة الأسلوب وما فيه من ماء ورونق. وتلك عبارات لا تكاد تظفر منها بدلالة على شئ محدد فهي نفسها لا تقي بأكثر من دلالات انطباعية.

ولقد ربط المتأخرون من البلاغيين بين حسن التأليف ومخارج الحروف فرأى البهاء السبكي في كتابه «عروس الأفراح» ونقل عنه السيوطى في المزهري* أن رتب الفصاحة متفاوتة فإن الكلمة تخف وتثقل من حرف إلى حرف لا يلائمه قريبا أو بعدا. ثم قسم مخارج الحروف العربية إلى ثلاث

* المزهري للسيوطى ص ١١٥.

مجموعات أنشأ بينها احتمالات للتأليف فخرج منها بتقسيم أنواع الاصول الثلاثة للكلمة إلى اثنتى عشر احتمالا. وجعل المخارج القصوى هي الاعلى والمخارج التى يشارك فى نطقها اللسان هي المخرج الأوسط أما المخرج الأدنى فهو المجموعة الشفوية . ورتب الفصيح وغير الفصيح على توالى أصول الكلمة بحسب هذه المجموعات على النحو التالى :

ع د ب	مثل	فالادنى	فالاوسط	الاعلى	١ -
د م ع	مثل	اللاوسط	الادنى	الاعلى	٢ -
هـ م ع	مثل	الاعلى	الادنى	الاعلى	٣ -
ع ل هـ	مثل	الاعلى	اللاوسط	الاعلى	٤ -
ب د ع	مثل	الاعلى	اللاوسط	الادنى	٥ -
ب ع د	مثل	اللاوسط	الاعلى	الادنى	٦ -
ف ع م	مثل	الادنى	الاعلى	الادنى	٧ -
ف د م	مثل	الادنى	اللاوسط	الادنى	٨ -
د ع م	مثل	الادنى	الاعلى	اللاوسط	٩ -
د م ع	مثل	الاعلى	الادنى	اللاوسط	١٠ -
ن ع ل	مثل	اللاوسط	الاعلى	اللاوسط	١١ -
ن م ل	مثل	اللاوسط	الادنى	اللاوسط	١٢ -

ورتب السبكى أحسن أحوال التأليف ترتيبا تنازليا فقال أحسنها الأول فالعاشر فالسادس وأما الخامس والتاسع فهما سيان فى الاستعمال وإن

قضى القياس بأرجحية التاسع وأقل الجميع استعمالا السادس.

وفي كتاب اللغة العربية معناها ومنبأها نقد لصنيع السبكي فمن شاء فليرجع إليه، ويمكن أن نضيف هنا بعض الملاحظات الأخرى:

١- إن قول السبكي منذ قليل: « فإن الكلمة تخف وتنقل، فيه ربط حسن التأليف بطلب الخفة والمعروف أنهما يلتقيان ويفترقان لأن لكل منهما مجالا في التطبيق إذ قد يعدّ توالي النون والقاف مثلا من حسن التأليف ولكن طلب الخفة يدعو إلى إجراء صوتي ينأى بالنون عن مخرجها الأصلي لتخفي قبل اللقاف فما يبقى من صفاتها التي تمتاز بها إلا غنتها وهي أقوى صفاتها.

٢- إن الأمر في حسن التأليف لا يتعلق بالمخارج فقط وإنما يتعدى المخارج إلى الاعتداد بالصفات. فكما يتنافر الصوتان بسبب مخرجيهما يتنافران بسبب الصفتين أيضا. فثمة صفات تقف الواحدة منها من الأخرى موقفا عناديا تتاكريا بحيث لا تتفق الواحدة مع الأخرى في جوار واحد مثال ذلك أن الاستعلاء لا ينسجم مع الاستقبال ولا ينسجم الإطباق والانفتاح ولا الصغير والتعشى ولهذا امتنع توالي الجيم والصاد للسبب الأول فإننا وردت كلمة توالى فيها الجيم والصاد فهي معربة وكذلك امتنع توالي الجيم والقاف ولهذا السبب أيضا وصفت كلمة «مستشورات» بالتنافر لتجاور الصغير والتعشى وإن وقعت هذه الكلمة في نطاق ما سميناه «الترخص في التأليف» كما سنرى بعد قليل.

والذي ينبغي أن نفهمه مما تقدم أن الكلام عن ظاهرة حسن التأليف إنما يتناول الأصول الثلاثة للكلمة المفردة، أما فيما يتجاوز هذه الأصول فإننا نجد من حالات التوالى ما يدعو إلى شيء من الترخص في التأليف وذلك بقبول تتابع الأصوات كيفما اتفق إذ لا حيلة لمنشئ النص للتغلب على ما يشبه الضرورة في الاستعمال وتتضح هذه الحاجة إلى الترخص في الأحوال الآتية:

أ - الالتزام بالصيغة الصرفية .

ب - الالتزام بخصوص الزوائد في الكلمة .

ج - الالتزام بخصوص اللواصق .

د - الالتزام بصورة للضمير المتصل وخصائصه الصوتية .

هـ - الالتزام بمفصل الكلمتين بصورة كل منهما وحروفها .

وسنضرب لكل من هذه الحالات أمثلة من ترخص النص القرآني في التأليف مع الإشارات إلى وسائل هذا النص الكريم ولتطويع البيئة اللفظية بحيث يخف بها وقع الترخص أو نذكر بدائل كانت ممكنة فعدل عنها لما يحيط بها من لبس أو غيره .

أ - الالتزام ببنية الصيغة الصرفية :

١ - قال تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ » (الأنعام ٢٧) هنا صوتان حتم الالتزام ببنية الجهول أن يلتقيا وهما بمقياس التأليف متنافران . ذاك هما الواو والضمة والمعروف أن اجتماعهما يوصف بالثقل والثقل مجاف لحسن التأليف . وهناك أيضا توالي الضمة التي على الواو والكسرة التي على القاف ، وقد عودتنا طرق التصريف العربية أن تقلب الواو في مثل هذا الموضع إلى الهمزة كما في قوله تعالى « وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتُ » (المرسلات ١١) . ولكن قلب الواو إلى الهمزة هنا سيوقعنا في توالي الهمزة المضمومة والفاق المكسورة في « أَقْفُوا » وذلك أثقل من التقاء الهمزة المضمومة والقاف الساكنة (أول عنصرى التشديد) في لفظ « أَقْنَتُ » لقرب المخرجين وتوالي الحركتين العدوتين .

٢ - قال تعالى : « فَوَسَّوْا لَهُمُ الشَّيْطَانَ لِيُبَدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا » (الأعراف ٢٠) هنا أيضا التقت الواو مع الضمة وبعدهما كسرة الراء . ولو قلبت الواو همزة لتجنب ذلك لوقع اللبس إذ يصبح المبني

للمجهول وكأنه صيغ من الفعل «أورَى» لا من الفعل «وأرى» أما توالي الضمة والكسرة فقد خفف من حدته المد وهو يساوى السكون في نظام اللغة سواء أكان ذلك في الصرف أم في العروض. ومع أن «الحرف الساكن حاجز غير حصين» كما تقول أصول النحاة نراه حاجزا على أى حال وكونه كذلك جعله يحول دون التوالى المباشر للعدوتين. هذا إذا لم نضف إلى الحاجز عنصرا آخر هو صوت الراء الذى تحمل الكسرة فسبقها في النطق.

ب- الالتزام بخصوص الزوائد في الكلمة :

قلنا إن ما سبق من كلام السبكي يصدق على الأصول الثلاثة الاشتقاقية للكلمة (فاء الكلمة وعينها ولامها) أما الزيادات فهى تزداد في الكلمة بلفظها كما تقضى القواعد الصرفية مع قطع النظر عن الصوتين المتوالين فإذا كان لدينا مادة اشتقاقية مثل : (ت ب ع) وأردنا صياغة فعل منها على وزن «تَفَاعَلَ» الحقنا بأولها تاء زائدة دون أن نعبأ بتوالى التاءين فقلنا «تتابع» فإذا أردنا صياغة مضارع منها مسند إلى الغائبة مثلا قلنا «تتتابع» غير عابئين بتوالى التاءات. وإذا أورد النص القرآنى فعلا مبدوءا بتاءين زائدتين فلما أن يحذف إحداهما كما في «وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ» (الحجرات ١١) وإما أن يبقى عليهما كما في «وَأِنْ تَتَوَلَّوْا» (محمد ٣٨) وهكذا يرد الحرف الزائد بخصوصه مهما جاوره من مثله أو ماقاربه. ولهذا نجد التاء والطاء في قوله تعالى : «اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا» (الكهف ٧٧) والصاد والطاء في «فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ» (القمر ٢٧) وربما كان في ذلك ما يعتذر به عن قول امرئ القيس : «غدائره مستشزرات إلى العلا» إذ جمع بين صفير السين وتفشى الشين وصغير الزاى. ولكن بعض ذلك من زوائد الكلمة وقد رأينا أن الزوائد تأتى بنصها وكما هى .

ج- الالتزام بخصوص اللواصق :

المقصود باللواصق تلك العناصر الصوتية التى تلتصق بأول الكلمة أو آخرها لتضيف إلى الكلمة معنى صرفيا معينا، ولهذا تأتى أسماء هذه اللواصق

على صورة تركيبه إضافي المضاف فيه هو اللاصقة والمضاف إليه معناها فيقول مثلاً : ألف المتكلم كما في « أقول » وتاء التانيث كما في « قالت » وتون التوكيد كما في « ليقولن » وهكذا . ومثل هذه اللواصق كمثل حروف الزيادة إذا أتى بها جاءت بلفظها مهما جاورها من الأمثال أو الأشباه فإذا كان لبيتنا قمل مثل : « يؤمن » وأردنا توكيده بالنون الثقيلة قلنا : « لنؤمنن » كما في قوله تعالى « لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ » (الاعراف ١٢٤) ولم يطل بون ذلك توالى ثلاث نونات على صورة (ن ن ن) ومثله قوله تعالى : « لَيَكُونَنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِيحَىٰ الْأَمَمِ » (فاطر ٤٢) أما إذا كانت أولى هذه النونات ليست من بنيه الكلمة فإن اللغة إما أن تحذفها كما في « لَنُؤْمِنَنَّ » (آل عمران ١٨٦) وإما أن تفصلها عن أختيها بحاجز مهما كان غير حصين كما في « لَنَسْعَيْنَنَّ » وهكذا تجتمع الطاء والتاء في « فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ » (البقرة ٢١٧) وفي تواليهما مجاورة الاستعلاء للاستفعل كما علمنا واجتمعا أيضاً في « فَتَقَطَّعُونَنَّهُنَّ يُؤْمِنُوا لَكُمْ » (البقرة ٧٥) لأن في « أفتطمعون » ثلاث لواصل هي همزة الاستفهام وفاء العطف وتاء المضارعة للمخاطبين .

د - الالتزام بالضمير المتصل وخصائصه الصوتية :

١ - قال تعالى : « لئن بسطت إلى يدك لتفعلنني ما أنا بباسط يدي إليك لأفعلنك » (المائدة . ٢٨) هنا توالى الطاء (وهي لام الكلمة) والتاء (وهي ضمير المخاطب) لأن الاستعمال يحتم التاء للدلالة على المخاطب فالتاء بخصوصها ضرورية للدلالة على المخاطب كما أن الطاء بخصوصها لا يستغنى عنها بوصفها لام الكلمة في الفعل « بسط » ومن هنا لا يمكن اسناد « بسط » إلى المخاطب إلا بتوالي الطاء والتاء وهكذا يأتي الترخص في التأليف طبيعياً لا غير عليه .

٢ - قال تعالى : « وَسَبَّحَهُ لَيْلًا طَوِيلًا » (الإنسان ٢٦) تری الفعل « سبح » مجرداً حسن التأليف لأنه اجتمع فيه (الأوسط فالأدنى فالأعلى) ولكن للتعبية

إلى المفرد الغائب تحتم مجى الهاء بعد الحاء مع ما بينهما من قرب المخرج
وهكذا يأتي الترخص المباح بل الضروري الحسن وحينما لمز البلاغيون قول
الشاعر .

كريم متى أمدحه وأمدحه والوري معى وإذا ما لمته لمته وحدى
لم يعيبوا تجاور الحاء والهاء إذا لطلابناهم باختلاق لغة غير العربية وإنما
عابوا من البيت تكرار هذا الترخص حتى أصبح واضحا أن هناك ترخضا في
التأليف ، ومع أن الأداء القرآنى يعمد إلى إظهار الحاء والهاء في «سبحه»
(الدهر ٢٦) نجد النحاة يرون عن بعض القبائل الإدغام بحيث تكون (ح + ه)
أو (ع + ه) = (ح + ح) ويظهر ذلك في «لم يمنحهم» حتى لا يدري إن كان
المقصود : «لم يمنحهم» أو «لم يمنعمهم» .

هـ - الالتزام عند مفصل الكلمتين بتكوين كل منهما :

١ - قال تعالى : « وَإِذْ تَخْرُجُ الْمُؤْتَى بِإِذْنِي » (المائدة ١١٠) فالتقت الذال
والتاء ومخرجاها متقاربان فالذال تنطق بوضع طرف اللسان بين الأسنان
والتاء تنطق بوضعه بحيث يلامس داخل الأسنان العليا وجزءاً من اللثة
وحكمه في الكلمة الواحدة الإدغام كما في «وَأَدْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ» (يوسف ٤٥) وهذا
من المواضع التي يخاف على القارئ اللحن فيها بالإدغام لهذا السبب كما يقول
ابن البادش في الإقناع* . ولكن «إذ» كلمة مستقلة تبدأ بهمزة مكسور وتنتهى
بذال ساكنة و«تخرج» كلمة أخرى مستقلة تبدأ بتاء المضارعة ولو ذهب أحد
الصوتين لذهبت الكلمة التي هو منها فلا مناص من الترخص في التأليف
للمحافظة على الكلمتين وبالتالي للمحافظة على المعنى .

٢ - قال تعالى :

١- « فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » (المائدة ١٢)

* الإقناع لابن البادش ص ١٧٦ وما بعدها.

ب - « وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَكْثَرُوا كَثِيرًا ، (الأنعام ١٢٧) .

ج - « قَدْ ضَلُّوا وَمَا كُنُوا مُهْتَدِينَ ، (الأنعام ١٤٠) .

د - « قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَّتْ أِنَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ، (الأنعام ٥٦) .

التقت السبل والضاد في كل من هذه الآيات عند مفصل الكلمتين على رغم اتصال مخرجيهما واشتركيهما في بعض الصفات ولكن النص القرآني عالج هنا النوع من الترخص إما بقلقة السبل كما في قرأة حفص وإما بالإدغام كما في قرأة ورش. وهكذا خفت وطأة الترخص في الآيات المذكورة .

أما بالنسبة لما عناه هذه الحالات الداعية إلى الترخص في التأليف فإن بالقرآن من حسن تأليف الأصول الثلاثة للكلمات ما لا مزيد عليه ، وأقرأ كتاب الله قدر ما تشاء فاحصاً متقبلاً في طرق تأليفه للأصول الثلاثة وأن ترى فيه إلا العنوية والسلاسة والسهولة على اللسان فلا نبوة فيه ولا تنافر وإنه كما قال فيه القرشي الكافر مرعياً : « إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لم يعلو ولا يعل عليه .»

نخرج مما تقدم بالنتائج التالية :

١ - لا تجد في كتاب الله كلمة مفردة تلاحظ أي قبح من التنافر أو سوء التأليف بين أصولها الثلاثة .

٢ - هناك مواضع للتخص في التأليف ذكرناها من قبل ولا حيلة في تعديل التأليف بهذه المواضع لأن العناصر اللغوية فيها مقصودة بلفظها سواء في ذلك مباني الصيغ الصرفية أو الزوائد أو اللواحق أو الضمائر المتصلة أو مكونات المفردات فمن صاغ في العربية قولاً فلا مناص عنده من رعاية هذه المواضع لأن رعايتها جزء من رعاية الوصول إلى المعنى وهو أهم ما تحرص اللغة على الوصول إليه .

الفصل الثاني

ألفاظ وعبارات مختارة

للألفاظ المفردة أصولها الاشتقاقية وطرق صياغتها من هذه الأصول على صور معينة ولها معانيها المفردة التي تنسب إليها في المعاجم ولها أجزاسها التي تولد في النفوس قبولها أو نفورا منها وقد يكون للفظين قدر من الاتفاق في المعنى يصل إلى حد الترادف أو التداخل فإذا تداخل المعنى كان من المفيد رصد الفرق بين اللفظين وتخليص معنى كل منهما من معنى الآخر، وإذا تأملنا دور الأصول الاشتقاقية في وجود الألفاظ أو إيجادها صادفنا شبكة من العلاقات بين هذه الأصول ومعاني الصيغ الصرفية تأذن لبعض الصيغ أن تستعمل من مادة اشتقاقية بعينها وتحكم على صيغ أخرى أن تظل في حدود هذه الأصول في نطاق المهجور. مثال ذلك أن الحدث من مادة اشتقاقية معينة إذا كان للمفعول قدرة على مقاومة إيقاعه صح أن يصاغ المطاوع من هذا الحدث وإن لم يكن له قدرة على رده أو مقاومة وقوعه امتنع أن يصاغ منه المطاوع وأصبحت صيغة المطاوعة من هذه المادة من قبيل المهجور. ويمكن إختبار ذلك بالإتيان بالمطاوع منفيا بعد المتعدى من مادته كأن نقول مثلاً: أطلقته فلم ينطلق في مقابل ضربته فلم ينضرب. ومن ذلك أيضا ما يحيط من الشروط بصياغة أوزان صرفية معينة من مادة اشتقاقية أو من غيرها كشرط صياغة الصفة المشبهة أو التعجب أو التفضيل الخ مما يفهم منه أن الأصول الاشتقاقية لا تستعمل على إطلاقها وإنما يخضع استعمالها لعلاقات المعاني الوظيفية للصيغ الصرفية، وللمعاني النحوية في السياق.

وأما الصور المعينة التي تصاغ بها المفردات من هذه الأصول فهي ما نعرفه بالصيغ حيناً والأوزان حيناً آخر. ولقد مر بنا أن هذه القوالب ذات معان

وظيفية وأن هذه المعانى من شأنها أن تتعدد للصيغة الواحدة لأن المعانى الصرفية أكثر من هذه الصيغ ومن ثم لزم أن تتصرف اللغة في صيغها تصرفا اقتصاديا يسمح بأقصى قدر من الإفادة من الوسائل المحدودة المتاحة. وهكذا تصبح الصيغة غير صالحة بمفردها للدلالة على معنى معين كالذى نراه في صيغة «فعل»، مثلا إذ تصلح حال أفرادها أن تنسب للاسمية كما في سرير أو المصدرية كما في سهيل أو للوصفية كما في بخيل فلا يتعين لها واحد من هذه المعانى إلا بعد أن تصاغ الكلمة المفردة المشتقة على مثالها. هذا إذا لم يتعدد المعنى المعجمى لهذه الكلمة المفردة أيضا بعد صياغتها كما في «صريح».

ذلك بأن المعنى المفرد (معنى اللفظ المفرد وهو لا يفيد نسبة من أى نوع إسناديه كانت أم غير إسنادية) هو معنى متعدد ومحمّل ومن ثم يفتقر إلى قرينة السياق التى تحدده وقد يفتقر إلى قرينة أخرى غيرها إذا عرض له جناس أو تورية أو غير ذلك مما يعرض للألفاظ كما رأينا في قوله تعالى:

«وَلِبَاسُ الْقُوَى ذَلِكَ خَيْرٌ» (الاعراف ٢٦)

وكذلك «فَأَذَانُهَا لِلَّهِ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ» (النحل ١١٢)

وقوله: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى» (البقرة ٢٣٨)

وقوله: «لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» (يوسف ٢٤)

إذ نجد كلا من الألفاظ: «لباس» و«الوسطى» و«ربه» يحتاج إلى قرينة لبيان معناه المقصود واستبعاد معناه الآخر غير المقصود. وقد سبق أن فهمنا من اللفظ الأول مصدر الفعل لابس يلبس ومن الثانى معنى «الحسنى» ومن الثالث معنى «سيده» أى العزيز الذى رَبَّاهُ.

وأما تفاوت المفردات من حيث الجرس فقد صادف اعتراف الشعراء والنقاد منذ كان الشعر والنقد بل إنه يلحظه الناس من كل الطبقات في الاستعمال

الغوى وبينون عليه الكثير من الاحكام القيمية على شخصيات الافراد كاللباقة والتهديب والذوق والرقة والنعومة والجلافة والجفوة والخشونة إلى غير ذلك من الاحكام كما قامت الصلة منذ الزمن الاول بين الجرس والمعنى بواسطة دعوى دلالة الصوت على المعنى وقد تنبه لها اليونان اول الامر وأطلقوا عليها اسم Onomatopoea ثم عرفها العرب باسم «حكاية الصوت للمعنى»، وقد اختصرنا هذا الاسم فجعلناه «الحكاية».

وإذا شارك اللفظ اللفظ في معناه نشأ عن هذه المشاركة سؤال مهم عن مقدار هذه المشاركة فإذا ادعينا أن هذه المشاركة تامة ورد علينا الاعتراض بأن ذلك إسرافاً في استعمال الالفاظ وقد سبق أن نسبنا إلى اللغة لجوءاً إلى الاقتصاد في استعمال وسائلها المتاحة وليس من الاقتصاد في شىء أن نورد على المعنى الواحد ألفاظاً متعددة نحن أحوج مانكون إليها لنبدل على معان أخرى لحدود لها تعرض لنا كل لحظة من كل يوم. أما إذا أقررنا بأن مقدار المشاركة لا يتعدى درجة التداخل ولا يصل إلى التطابق وبأن لكل من اللفظين منطقة من المعنى لا يشاركه فيها اللفظ الآخر فقد أصبح علينا أن نرصد منطقة الاختلاف في المعنى بين اللفظين وهكذا نشأ نوع من المؤلفات في تراثنا العربى يسمى كتب الفروق لعل من أشهرها كتاب الفروق لأبى هلال العسكري.

هذه هى المحاور التى يجرى على أساسها اختيار اللفظ (محور الاصل الاشتقاقى والصيغة الصرفية والمعنى المفرد والجرس وعلاقة الالفاظ بعضها ببعض) وسنرى كيف يصرّف القرآن الالفاظ بمراوحة الاهمية النسبية بين هذه المحاور إذ يجعل أهمها الاشتقاق حيناً والصيغة حيناً آخر والجرس حيناً ثالثاً وهلم جرا.

أما اختيار العبارة فلربما قام على محاور تختلف عن حل ماسبق وتتفق مع بعضه كما سنرى بعد قليل. فالعبارة تختار لسبك تركيبها ووضوح معناها

واتجاهه إلى الصراحة أو التلميح ولناسبتها للغرض منها إيجازاً وإطناباً وحقيقة ومجازاً ولحسن جرسها ثم لانسجامها مع بيئتها من السياق وتفضيلها بعض المفردات على بعض. تلك هي المحاور التي يقوم عليها اختيار العبارة فيما أرى ولقد أحسن القرآن اختيار عبارته بحسبها كما سنرى ذلك واضحاً في الشواهد التي نوردتها في هذا الفصل من الكتاب للألفاظ أولاً ثم للعبارات ثانياً:

١- الألفاظ:

قال تعالى:

١- «وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» (يوسف ٥٢) كان يمكن أن تقول: «إن نفسي لأمارة بالسوء» فتفوت على نفسها فرصة الاحتماء بالطبيعة الإنسانية إذ تؤكد اتهام النفس على إطلاقها في موقف تسعى فيه إلى استخلاص بقية من حسن الظن بها بواسطة وقوفها موقف التائب المعترف بالخطأ. ومن هنا كان اختيار كلمة «النفس» لتعم نفوس البشر جميعاً ومنها نفسها هي.

٢- «قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (يوسف ٢٥) عدلت عن قولها: «من أراد بي» سوءاً إلى أن تجعل إرادة السوء موجّهة إلى أهله لتصرف العدوان من أن يكون عليها هي إلى أن يكون عليه هو استدراكاً لغضبه من أجل كرامته ولو قالت «من أراد بي» لتركت له الفرصة للتأمل في صدق قولها أو كذبه أو لكان له أن يقول لها: ولماذا تركت له الفرصة حتى أراد بك السوء.

٣- «كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» (يوسف ٧٦) في هذه الآية لفظان مختاران أولهما لفظ «كدنا» والمقصود

«الهمناه كيداً» والثانية «دين الملك» والمقصود العقوبة المصرية القاسية فالله تعالى ألهم يوسف أن يسأل إخوته عن جزاء السارق في عرفهم ليقى أخاه أن يؤخذ في دين الملك أى شرعه القاسى فالتعبير بلفظ «كدنا» أبلغ في الدلالة على إرادة الله ذلك من أن يقال «الهمنا يوسف كيداً» واختيار لفظ «دين الملك» على لفظ «شريعته» لأن الملك كان يحكم بإرادته الفردية فلم تكن له شريعة يلتزم بها ويخضع لحكمها لو قضت عليه والمعنى أنه ما كان ليوسف أن يرضى بإخضاع أخيه للعقوبة المصرية إلا أن يشاء الله.

٤- «إِذْ هَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا» (يوسف

٩٣)

«فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ الْفَأْهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا» (يوسف ٩٦)

لاحظ الفرق بين لفظى «يات» و«ارتد» فمناط القول فى الاول رغبة يوسف فى مجىء قومه الى مصر بدليل قوله بعد ذلك مباشرة: «واتونى بأهلكم بأهلكم أجعين» وأما مناط القول فى الثانى فهو التحول من حالة العمى بالارتداد إلى الإبصار دون تفكير فى انتقال أو عدمه.

٥- «وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا» (مريم ٥٢) ليس

للطور يمين ولاشمال وإنما هو جبل ميمون بل هو «أيمن» من غيره من البقاع بدليل قوله تعالى: «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ» (القصص ٣٠) أى نودى من الشجرة من شاطئ الوادى الايمن فى البقعة المباركة، أى الطور. فلم كان اختيار لفظ «الايمن» دون غيره؟ أولا لان الايمن هو الاكثر يمناً وثانيا لان ثمة قرينة خارجية تحول دون اعتقاد أن للطور يميناً وشمالاً لان هذا لايتحقق إلا لكائن ذى وجه يتجه به إلى أحد الاتجاهات لنقول إن عن يمينه كذا وعن شماله كذا.

٦- «أَقْمَنَ وَعَدَّنَاهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لِأَقْبِيهِ كَمَنْ مَتَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ» (القصص ٦١) انظر إلى اختيار لفظي «متاع» و«المحضرين» تجد الأول يقصد به الإمهال إلى أجل محدود وذلك معناه كلما ورد في القرآن وإنما اختير على «الإمهال» لأنه زائد عليه في المعنى لأنه يشتمل على الحروف الأصلية للمتعة وهذا المتاع الدنيوى يعقبه «الإحضار» يوم القيامة والإحضار معناه الإمساك بالمذنب ومنعه من الهرب والمثول به أمام القضاء والحساب. فهو غير مجرد «الحضور». ويؤيده قوله تعالى: «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ» (الروم ١٦).

٧- «أَجْعَلُ الْأَلِهَةَ لِلهَا وَاحِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ» (ص ٥). المعروف أن صيغة فُعال اسم كلعاب وصفة مشبهة كشجاع وإحدى صيغ المصادر إذ تدل على داء أو صوت كسعال وصراخ وقد قال ابن مالك:

لدا فُعال أو لصوت وشمل سيرا وصوتا الفعيل كصهل

ولكن إرادة المبالغة في تصوير معنى «عجيب» أدت إلى استعمال هذه الصيغة الصرفية التي لا تحتسب عادة بين صيغ المبالغة. وشبيه ذلك ماحدث باختيار الفاظ أخرى مثل «وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبَارًا» (نوح ٢٢) إذ لاتعد صيغة «فُعال» بين صيغ المبالغة وكذلك لفظ «كوثر» في «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ» (الكوثر ١) أى اعطيناك الكثير جدا.

٨- «وَالَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» (الشورى ١٦) إذ جاء لفظ «داحضة» على صيغة اسم الفاعل ومعنى اسم المفعول كما يقال طاعم وكاس وهذا الشيء تالف أو فاسد وما لحقه التلف والفساد إلا بسبب مُتلف أو مُفسد ولكن هذا المُتلف أو المُفسد ليس موضع عناية عند صياغة اللفظ. وعلي هذا لم تهتم الآية بالعنصر الذى كان

واسطة في الدحض إذ قد يكون ذلك بما هو مسجل في كتاب أعماله أو بشهادة أعضائه عليه أو بغير ذلك من وسائل الدحض فالذى يهم في النهاية أنها «داحضة» وأن هذا الدحض لحقها كما يلحق الفساد الفاسد وكما يلحق التلف التالف.

٩- «وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي مَآئِنَ مَكَانِكُمْ فِيهِ» (الاحقاف ٢٦) عبرت الآية عن النفي بلفظ «إن» لتقدم «ما» عليها وكرامية توالى لفظين مثلين كأن يقال «في ما ما مكناكم» وبخاصة لأن الفعل الذى بعد «إن» مبدوء بالميم ولما كان الحرف الساكن «أى المد الذى فى ما» حاجزا غير حصين كان استعمال «ما» بدل «إن» مما يعد توالى ثلاث ميمات وهو مكروه فى ذوق الصياغة العربية. أما لماذا لم يقل «فيما لم نمكنكم فيه» فإن «لم» تقلب زمن المضارع إلى الماضى والمراد الكلام عن حاضرهم وليس عن ماضيهم ولذا جاء التعبير بأداة الزمن الحاضر لأن «إن» = «ما» من حيث الزمن.

١٠- «قَالَ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ» (آل عمران ٤٠) «قَالَتْ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ» (آل عمران ٤٧) قال سبحانه لذكرىا «كذلك الله يفعل ما يشاء» وقال لمريم «كذلك الله يخلق ما يشاء» لأن لفظ «يفعل» لا يناسب أن تخاطب به الانثى لما تحمله الكلمة من إشارات غير مناسبة وإيحاءات ممجوجة.

١١- «كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ» (الحج ٤) انظر إلى الطباق فى اللفظ والوفاق فى المعنى بين لفظى «يضله» ويهديه» فهذا الطباق اللفظى حال بينه وبين الامتداد إلى المعنى عبارة «إلى عذاب السعير» وبنا أن ننظر الان إلى اختيار لفظ «يهديه» دون «يسوقه» أو «يلجئه» أو «يسلمه» أو «يدفعه» أو ما أشبه ذلك من الألفاظ إن فى اختيار

١- إرادة السخرية كإرادتها في «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» (ال عمران ٢١)

ب- إن من شأن الدعوة أن تكون إلى الهدى لا إلى الضلال فتحقق ذلك له باللفظ وإن فاته بالمعنى وإنما جاءت السخرية من مقابلة للتَّحَقُّقِ والفوات في لفظ واحد.

١٢- «وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ» (ص ٢٤) لفظ «كثيراً» في الآية يدل على البعضية التي يعززها معنى «من» الجارة التي بعد لفظ «كثيراً» ثم يأتي بعد ذلك قوله «بعضهم على بعض» وفيه لفظ «البعضية» ولكن هناك فرقا بين البعضية المستفادة من اللفظ الأول «من» والبعضية المعبر عنها بالتركيب الثاني لأن عبارة «بعضهم على بعض» عبارة «مسكوكة» تُؤخَذُ في جملتها لتفيد معنى التبادل الذي يستفاد وظيفيا من الصيغة الصرفية «تفاعل» كتقاتل. ولوصح لصفية «تفاعل» أن تصاغ من البغي لأجزأ في هذا المعنى أن يقال: «وإن كثيرا من الخلطاء ليتباغون» وهكذا ينحصر معنى البعضية في قوله «كثيرا من الخلطاء» وتخلص عبارة «بعضهم على بعض» لمعنى التبادل وتبرا الآية من الاطناب.

١٣- وحين عبرت الآية عن علاقة يوسف بالعزیز قالت: «الَّذِي اشْتَرَاهُ» (٢١) فلم تجعله سيده وحين عبرت عن علاقته بامرأة العزیز لم تجعلها سيدته بل قالت «وَرَأَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ» (يوسف ٢٣) وكان ذلك تكريما ليوسف أيضا كما كان احتقارا لسلوكها أو لعملها لأنها هي نفسها ربما كانت أمة تسراها سيدها وهو ما عبرت عنه الآية «وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ» (يوسف ٢٥). أما يوسف فإنه كان يقر بجميل صاحب البيت الذي رباه حتى بلغ أشده ولكنه لم يجعل العزیز سيده في كلامه وإنما اختار لفظا مشتقا من التربية قال: «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» (يوسف ٢٣) وتكلمت

الآيات عن الرب بمعنى السيد في قوله تعالى: «لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» (يوسف ٢٤) وكذلك «أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا» (يوسف ٤١) وأيضا «اذكرني عند ربك» (يوسف ٤٢).

١٤- يستعمل لفظ «شرى» بمعنيين:

١- معنى «اشترى» كما في قول عنتره:

حصاني كان دلال المنايا فحاض غمارها وشرى وباعا

إذ تقوم المقابلة بين «شرى» و«باع» قرينة على أن «شرى» بمعنى «اشترى».

ب- معنى «باع» كما في قوله تعالى: «وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ» (البقرة ١٠٢) وقوله «فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ» (النساء ٧٤) وقوله: «وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ» (البقرة ٢٠٧) أما لفظ «باع» فليس يدل إلا على معنى البيع ومن هنا كرم الله يوسف باختيار لفظ «شرى» دون لفظ «باع» في قوله تعالى: «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ» (يوسف ٢٠) وذلك لما يحمله لفظ «باع» من إحياء بالرق والمهانة ولأن ما في لفظ «شرى» من أنه من ألفاظ التضاد يخفف من هذا الإيحاء.

١٥- السنة والعام بمعنى واحد فكلاهما يعني مدة اثني عشر شهرا. ولكن القرآن الكريم يورد لفظ السنة عند إرادة الشدة ويورد العام عند إرادة الرخاء ومن هنا يقول تعالى: «وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ» (الإعراف ١٣٠) ويقول «فَلَبِثْتُ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ» (يوسف ٤٢) ويقول «قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ» (يوسف ٤٧) فيكون الدأب قرينة الشدة في هذه السنين ولكنه يقول بعد ذلك «ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ

يَعْصِرُونَ» (يوسف ٤٩) ويقول تعالى: «فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا» (العنكبوت ١٤) وفي ذلك دليل على أن الأعوام الخمسين كانت أعوام هدوء وأن السنين الباقية من عمره استغرقتها الدعوة والتكذيب والانفعال وأن نوحا ربما ظل على قيد الحياة ألفا كاملة العدد.

١٦- لقد مررنا في دراسة القيم الصوتية في الفصل السابق كيف كان جرس بعض الالفاظ القرآنية التي لا وجود لمعظمها خارج النص القرآني وذلك مثل: ضيزى - زقوم - غسلين - المهل - سقر - سلسبيل - غساق - سجين - عليين - تسنيم - ضريع - سينين - سجيل - الكوثر - غاسق - وقب - إل - الخ وقلنا إن في هذه الالفاظ حكاية للمعنى بواسطة الجرس. ولو حاولنا بيان ذلك في لفظ «زقوم» لوجدنا ما يلي:

١- القاف والميم شركة بين لفظ الزقوم ولفظ «اللقمة»

٢- الزاي رخوة «احتكاكية» والقاف شديدة «انحباسية» وتواليهما يوحى بتكلف ادخال اللقمة محتكة بالفم ففيها معنى «الزق» كما يزق الطائر فرخه.

٣- وفي الكلمة من حروف «الحلقوم» القاف ثم إن في الواو والميم من طول الاولى وإفعال الشفتين في الثانية ما يوحى بتوقف اللقمة عندا لحلقوم، لصعوبة إزديادها.

٤- أصول الكلمة هي أصل اشتقاق طائفة من الكلمات تتصل بالطعام فالطائر يزق فرخه وزقم = لقم وأزقمة = أبلعه وأزدقمه - ابتلعه وأخيرا الزقمة = الطاعون.

٥- في تشديد القاف إطالة اتصال الأعضاء في مخرجها مما يوحى ببقاء اللقمة محتبسة في الحلقوم مدة طويلة قبل الإساغة وبخاصة إذا لحق بطول التشديد طول المد الذي في الواو من «الزقوم».

بـالعبارات:

١- قد يحدث عند الإخبار بالذئ أو الألف واللام أن يراد الشرط أو يراد مجرد الخبر. أما إرادة الشرط فيبررها أن الموصولية هي المعنى الأصيل لعدد من أدوات الشرط نحو «من وما وأى»، فإذا صح أن تتحول هذه الموصولات بحسب مبدأ النقل إلى أدوات شرط فإن موصولات أخرى يمكن أن تستعمل بمعنى الشرط أيضا وأن لم تخضع لمبدأ النقل إما لكثرة حروفها فلا تصلح أداة مثل «الذئ» وإما لوجوب اتصالها فلا تصلح أيضا مثل «الألف واللام»، فإذا قصد معنى الشرط عند الإخبار بالذئ والألف واللام اقترن الخبر بالفاء وإن لم يقصد معنى الشرط لم يقترن الخبر بها. ويبدو ذلك واضحا في الشواهد التالية:

أ- إرادة الشرط ومن ثم اقتران الخبر بالفاء:

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ
ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ» (ال عمران ٩١)

أى: إن ماتوا وهم كفار فلن يقبل منهم.

«وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا» (المائدة ٣٣)

أى من سرق ومن سرقت فاقطعوا..

«وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ» (النور ٣٣)

أى إن ابتغوا المكاتب فكاتبوهم.

«وَالزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ» (النور ٢)

أى من زنت ومن زنى فاجلدوا....

ب- إرادة مجرد الاخبار فلا يقترن الخبر بالفاء:

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا» (النساء ٥٦)
«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ» (النساء ٥٧)

«الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا ابْتِغَوْا» (الرعد ٢٩)
«وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ
يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ» (الزمنون ٦٠، ٦١).
«وَالَّذِينَ يَحْكُمُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ
رَبِّهِمْ» (الشورى ١٦)

وليس معنى الشرط واردا على أي من هذه الشواهد ومن ثم يمتنع اقتران
الخير بالفاء لانعدام رائحة الشرط.

٢- حين عاد أحد الفتيين رفيقي السجن إلى يوسف يدعوه إلى تأويل حلم
الملك ناداه قائلاً: «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ» (يوسف ٤٦) مبدياً بهذا النداء رأيه
في يوسف أنه من الصديقين ولو أنه عكس النداء فقال «أيها الصديق
يوسف» لكان معنى ذلك أن لفظ «الصديق» لقب عرف به يوسف بين
خلطائه فلا يحمل النداء به من التقدير والاحترام ما حمله النداء القرآني.

٣- إن معنى التسوية في العبارة القرآنية يمكن أن يعبر عنه بطرق مختلفة
منها:

أ- استعمال لفظ التسوية نحو:

«سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ» (البقرة ٦)

ب- الأمر وقد عطف عليه النهي بأو نحو:

«اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ» (التوبة ٨٠)

ج - العطف بأو في غير ذلك نحو:

«قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ» (التوبة ٥٢).

٤ - إذا كان في القرآن اللفظ تحيل إلى متأخر لفظاً ورتبة كضمير الشأن فإن فيه أيضاً اللفظ لها إحالة مشابهة إلى كلام لاحق فهي عبارات تشبه من حيث المعنى ما في الاستعمال المعاصر من عبارة «مايل» أو «ما يأتي»: فمن ذلك:

أ - « ذَلِكَ نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ » (آل عمران ٥٨) أى نتلو عليك ما يلى:

ب - « وَقَدْ اخْتَرْتِكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى » (طه ١٣) أى فاستمع لما يأتي:

ج - « إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى » (ط ٣٨) أى أوحينا مايل

د - « أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِيمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ » (المائدة ١) أى إلا ما يلى:

٥ - كثيراً ما يعبر القرآن عن المعانى الإنشائية بالمصادر المنصوبة وقد أجهد النحاة أنفسهم في تلمس أفعال يقدرونها واجبة الحذف لتتنصب بها هذه المصادر وما كانوا بحاجة إلى ذلك ما داموا قد أحلوا بعض المصادر محل الأفعال واطلقوا عليها أسماء أفعال نحو تراك ودرار وحذار الخ والمعانى الإنشائية التى يستعمل القرآن لها هذه المصادر منها:

أ - الأمر: نحو «فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ» (محمد ٤) وايضاً «وَصِيَّةً لَأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ» (البقرة ٢٤٠)

ب - الإلزام: نحو «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً» (النساء ٢٤) وايضاً «كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» (النساء ٢٤).

ج - الإلتزام: نحو «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا» (يونس ٤).

د - الإغراء: نحو «قُلْ بَلْ مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» (البقرة ١٣٥).

هـ - إنشاء التحية : نحو « قَالُوا سَلَامًا » (الحجر ٥٢) وكذلك « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » (الفرقان ٦٣)

و - التنزيه : نحو « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا » (الإسراء ١) وكذلك « مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ » (مريم ٣٥)

ز - التأكيد : نحو « ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ » (مريم ٣٤) وكذلك « وَعَدَا عَلَيْنَا » (الأنبياء ١٠٤) و « وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ » (الأحقاف ١٦)

٦ - يستعمل النص القرآني «أم» لمعادلة الهمزة المتقدمة عليها وهذا معناها الأصلي ولكنه يسوقها أحياناً مساقاً آخر يجعلها تفصح عن همزة مقدرة ولهذا لا يعدّ مستهجنًا أن نسميها «أم» الفصيحة ، وذلك كما في قوله تعالى :

١ - « أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلَ » (البقرة ١٠٨) والتقدير : اتعتقدون أنه «مالكم من دون الله من ولي ولا نصير» أم تريدون أن تسالوا رسولكم أن يريكم الله جهره (انظر الآية ١٠٧)

ب - « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ » (البقرة ١٣٣) والتقدير اقبلتم في ذلك نبا الوصية المذكورة أم كنتم شهداء (انظر الآية ١٣٢)

ج - « أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ » (البقرة ١٤٠) يجوز أن تكون «أم» عطفًا على قوله تعالى « اتحاجوننا في الله » كما يجوز أن تكون عطفًا على همزة مقدرة.

والتقدير اتعتقدون أن ملتنا هي ملة إبراهيم أم تقولون ...

د - « أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا » (النساء ٥٣) والتقدير امن حقهم أن ينسبوا إلى الهداية من يشاؤون أم لهم نصيب من الملك (انظر الآية ٥١)

٧ - تستعمل «إلا» في القرآن للاستثناء وهذا هو الأصل فيها ولكنها تأتي أيضاً للاستدراك فتكون بمعنى «لكن» كما في الشواهد الآتية:

١ - «وَأَذِّنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» (البقرة ٣٤) أى لكن إبليس .

ب - «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ» (البقرة ١٥٩-١٦٠) أى لكن الذين تابوا.

ج - «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ» (الاعراف ١١) أى لكن إبليس .

د - «وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ» (التوبة ٣-٤) أى لكن الذين عاهدتم .

هـ - «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ» (التوبة ٧) أى لكن الذين عاهدتم .

و - «فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخُرْزِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ» (يونس ٩٨) أى لكن قوم يونس ..

ز - «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا»

(مريم ١٢) أى لكن سلاما.

ح - « طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى » (طه ١ -

٢) أى لكن تذكرة

طه « وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ » (القصص

٨٦) أى لكن رحمة .

ى - « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » (التين ٤-٦)

٨ - يصوغ الأسلوب القرآنى المصدر المؤول بواسطة عدد من الحروف

التي تدخل على الفعل المضارع كما يبدو في الشواهد التالية :

أولا - أن والفعل : وهذا هو الأعم الأغلب كما في قوله تعالى :

أ - « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُذَبَّحُوا بِقَرَّةٍ » (البقرة ١٧)

ب - « أَفَنْظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ » (البقرة ٩٠)

ج - « وَمَا هُوَ بِمُرْزِقِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ » (البقرة ٩٦)

د - « مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ
مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ » (البقرة ١٠٥)

هـ - « أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ » (البقرة

١٠٨)

و - « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ » (البقرة

١١٤) أى من أن يذكر

ز - « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » (البقرة ١٥٨)

ح - « إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ،
(البقرة ١٦٩)

ط - « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، (البقرة ١٧٧)

ي - « وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرَ لَكُمْ ، (البقرة ١٨٤)

ثانيا - ما والفعل : كما في قوله تعالى :

أ - « ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ، (البقرة ٧٥)

ب - « ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، (البقرة ٦١)

ج - « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ
لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ... ، (البقرة ١٥٩)

د - « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي
تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ
الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ، (البقرة ١٦٤)

هـ - « فَتَنَّبَرَّأ مِنْهُمْ كَمَا تَنَّبَرَّأُوا مِنَّا ، (البقرة ١٦٧)

و - « لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، (البقرة
٢٧٥)

ثالثا - اللام والفعل : وتدخل اللام على الفعل غالبا بعد فعل الإرادة كما في
قوله تعالى :

أ - « يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ، (النساء ٢٦)

ب - « يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ، (الصف ٨)

حـ « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، (المائدة ٦) »

د - « وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ ، (المائدة ٦) »

رابعاً - لو والفعل : ويكثر ذلك مع الفعل «ودَّ» و «يودُّ» كما في قوله تعالى :

أ - « يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ، (البقرة ٩٦) »

ب - « وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، (النساء ١٠٢) »

حـ - « وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ، (النساء ٨٩) . »

د - « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا ، (البقرة ١٠٩) »

هـ - « وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ ، (آل عمران ٦٩) »

و - « يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ ، (النساء ٤٢) »

خامساً - إذ والفعل : كما في قوله تعالى :

« رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، (آل عمران ٨) »

٩ - يكثر نزع الخافض في الأسلوب القرآني وبخاصة مع «أن» المشددة النون و«أن» المصدرية والمعروف أن نزع الخافض معهما مطرد. وذلك كما في قوله تعالى :

أ - « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، (البقرة ٢٥) أي بآن

ب - « إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا قُوَّهَا ، »

(البقرة ٢٦) اى من أن

ح- « وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً » (البقرة ٦٧) اى بأن

د- « أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ » (البقرة ٧٥) اى فان

ه- « أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ » (البقرة ٧٧) اى بأن

و- « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ » (البقرة ١١٤) اى من أن

ز- « وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ... » (البقرة ١٢٥) اى بأن

ح- « إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (البقرة ١٦٩) اى بأن

ط- « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » (البقرة ١٩٨) اى في أن

ي- « وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا » (البقرة ٢٢٤) اى لان (اى لاجل أن)

ك- « وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ » (البقرة ٢٣٢) اى عن أن

ل- « أَلَمْ نُرِ الْإِلَهَ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ » (البقرة ٢٥٨) اى لان

م- « ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا » (البقرة

(٢٨٢) أى إلى أن لا ترتابوا)

وقد يلزم مع تقدير الخافض المنزوع أن نقدر مفعولا لأجله محذوفا مثل كلمة « اتقاء... أو مخافة... » أو « اجتناب... » كما في قوله تعالى:

أ- « فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ، (البقرة ٢٨٢)

ب- « وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دَيْكُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ أَنْ يُوْتَى أَحَدٌ مِثْلَمَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، (آل عمران ٧٣)

ج- « يَا هَلْ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرَّسْلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، (المائدة ١٩)

وفيما يلي طائفة أخرى من العبارات القرآنية التي تشتمل على ما يستحق الملاحظة:

١٠- « ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ، (البقرة ٢٩) في هذه

العبارة ما يلي :

أ- تعدية الفعل «استوى» بحرف الجر «إلى» مما يوحي بالتضمنين أى تضمين الفعل المذكور معنى فعل آخر لا يحسن إسناده إلى لفظ الجلالة كالفعل «انصرف» أو اتجه مثلا.

ب- أن الضمير في «سواهن» غير مطابق للسماء من حيث العدد ولكنه مطابق لمتأخر عنه لفظا ورتبه أما لفظا فواضح وأما رتبة فلأن «سبع سموات» مفعول ثان للفعل «سواهن».

ج- لاحظ الشركة في أصول الاشتقاق بين «استوى» و «سواهن» .

١١- « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي

بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ» (البقرة ٣١) وفيها مايلي :

أ- ليس التعليم المذكور هنا على نحو ما نألفه اليوم من التلقين والتدريب وإنما هو إلهام وهبة واستعداد وفطرة وقدرة على استعمال اللغة.

ب- أن الضمير في «عرضهم» للمسميات لا للأسماء بدليل مطالبة الملائكة بأسماء المعروضات .

ج- لا ينبغي لهذه الآية أن تتخذ شاهدا على أن اللغة توقيفية إذا قبلنا التعليم بمعنى غرس الاستعداد الفطري.

١٢- « وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ،
(البقرة ٧٨) وفيها :

أ- أن النسب في لفظ «أمي» إلى أمة العرب منظورا إليها فيما يقابل الجاليات الكتابية التي كانت تساكنها.

ب- أن لفظ «الكتاب» في هذه الآية يعني الكتابة ولم يكن العرب أمة كاتبة فلما عرفوا بذلك نسب من يجهل الكتابة إليهم فقبل له «أمي» أي من أبناء الأمة وليس من أهل الكتابة . وقد يقصد بلفظ «الكتاب» المكاتبة أيضا كما في قوله تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا» (النور ٢٣) وقد يقصد به جنس الكتب السماوية كما في «وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ» (آل عمران ١١٩)

١٢- « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ،
(البقرة ٢١٧) وفي هذه ماياتي :

أ- ليس الذي في نص الآية (من قوله: به والمسجد) عطفًا لاسم ظاهر على ضمير متصل بحرف الجر دون إعادة حرف الجر ذلك لأن المقصود بقوله

«وكفر به» الكفر بالله سبحانه وهكذا يكون ترتيب الكلام على النحو التالي :

وصد عن * سبيل الله وكفر به (مع إعادة الضمير إلي المضاف إليه)

وصد عن * المسجد الحرام

وإخراج امله منه أما الضمير في «به» فقد عاد إلى المضاف إليه وهو لفظ
الجلالة.

فالصد عن أمرين هما سبيل الله والمسجد الحرام.

١٤- « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدَوَامًا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدْرُهُمْ أَعْبُرُ قَدْ
بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ. هَآئِنَّمْ آوَاءٌ تَحِبُّونَهُمْ وَلَا يَحِبُّونَكُمْ
وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَفُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمْ
الْأَسْمَالَ مِنَ الْغَيْظِ كُلِّ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. إِنْ
تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَرُوا
وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَمِيدٌ ، (آل عمران
١١٨-١٢٠)

وضعت هذه الآية للبطانة المنهى عنها أربع صفات ولكل صفة شرحها من
واقع الحال كما يلي :

الصفة شرحها

١- « لا يألونكم خبالا ، = « إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة

يفرحوا بها»

٢- «ودواما عنتم ، = « إن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا» (أي

أنهم يكيدون لكم)

٢ - « قد بدت البغضاء من أفواههم » = « هانتهم أولاً تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله » (أى على رغم إيمانكم بالكتاب كله)

٤ - « وما تخفي صدورهم أكبر » = « وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلو عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ».

وقد وضعت الآية هذه الشروح على طريقة اللف والنشر المشوش.

١٥ - « بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » (آل عمران ١٢٥)

الفور أول الوقت يقال: جاء فوراً وجاء من فوره أى في الحال وهذه العبارة كافية بمفردها لإيضاح معنى عدم الإبطاء، أما الآية المذكورة فقد أضافت إلى الفور إشارة إليه فاكسبت العبارة بذلك تأكيداً للفور مرجعه إلى دلالة لفظ «هذا» على مشار إليه قريب كما اكتسبت العبارة جمالا على جمالها بما اكسبتها زيادة اللفظ المذكور من توازن إيقاعي تحول به النبر الذي في أول «فورهم» من نبر أولي إلى نبر ثانوى ليفسح المجال للنبر الذى على «هذا» أن يحتل موقع النبر الأولي وبذا أصبح النبران معاً كالنبرين في كلمة واحدة مساوية لهما معا في الطول مثل: اسْتَحَلُّوْهَا أَوْ اسْتَفْزَوْنِي إذ يقع النبر الثانوى في كل من الكلمتين الأخيرتين على حركة همزة الوصل والنبر الأولي على واو المد التى تقف بإزاء الألف التى بعد الهاء من «هذا».

١٦ - « الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا الْاٰنُومَ مِنْ لَّرَسُوْلٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانَ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قِبَلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (آل عمران ١٨٢)

عدل نص الآية عن أن يقول « بالبينات وبقربان تأكله النار » إلى قوله « بالبينات وبالذى قلتم » وربما كان ذلك للأسباب الآتية :

أ - إثبات أن ذلك كان مطلباً لهم غير جاد لأنه تحقق من قبل ذلك ولم يرتدعوا به.

ب - الاستخفاف بهذا المطلب لأن عند الله من الآيات ما هو أعظم من ذلك وكان مظهر الاستخفاف الكناية عنه بالوصول وصلته. وهذا شبيه بما في الآية (١٨١) من السورة نفسها إذ يقول تعالى : « سنكتب ما قالوا » لعدم إرادة ترديد ما قالوه إذ قالوا « إن الله فقير ونحن أغنياء » .

١٧- « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ » (النساء ٢)

من الواضح أن الفعل «أكل» يتعدى إلى مفعوله بنفسه وقد تعدى فانتصب بعد لفظ «أموالهم» على المفعولية ولو أن العبارة وقفت عند هذا الحد لكانت قياسية وبحسب الأصل الاستعمالي. ولكن الجار والمجرور الذي جاء بعد ذلك أوجب إعادة التفكير في الفعل «تأكلوا» واعتقاد أنه ضمن معني فعل أجْر يتعدى بواسطة «إلى» مثل «ولا تضموا» أو «تحولوا» أو غير ذلك. ولكن الآية لو استعملت أحد هذه الأفعال الأخيرة لخلت من الطاقة التعبيرية التي تجدها لها مع استعمال الفعل «تأكلوا» لما في استعماله من الدلالة على الشراهة والاستهلاك والهضم في وقت معا.

١٨ - « فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا » (النساء ٦)

في عبارة «وبداراً أن يكبروا» ما يلي :

أ - استعمال مصدر البدار فيه إثبات لسوء النية من قبل أولياء اليتامى .

ب - وفيه أيضاً تسابق مع الزمن ومع نمو اليتامى للاستئثار بأموالهم.

ج - نزع الخافض قبل « أن يكبروا » يفتح المجال أمام تقدير لفظ مناسب إلا يكن حرف جر كاللام مثلاً فهو صالح أن يكون ظرفاً نحو « قبل أن يكبروا »

ولكن لأن لفظ «بداراً» يحمل في طيه معنى «قبل» أصبح بذاته مغنياً عن تقدير الخافض المنزوع الذي تقرره قواعد النحو في هذا الموقع ، ولعل التنوين في «بداراً» جاء لمشكلة التنوين إسرافاً ، ولو لم يكن الأمر كذلك لجاز في العبارة أن تكون « وبادار أن يكبروا» بإضافة البدار إلى المصدر المؤول ولو حدث ذلك لكان لفظ «بدار» مساوياً في الموقع والمعنى للفظ «قبل» وإن ظل إعرابه كما هو مفعولاً لأجله.

١٩ - « يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا، (النساء ٢٦-٢٨)

لدينا في هذه الآيات العبارات التالية :

يريد الله - والله يريد - يريد الله

والذي يبدو أن التقديم في العبارة الثانية جاء لسببين :

أ - كسر الوتيرة الواحدة في طريقة الترتيب

ب - الدلالة بالعبارة الثانية على أن الله وحده يريد التوبة على حين يريد

الذين يتبعون الشهوات الميل العظيم ويعزز هذه الدلالة ما نجد من المقابلة بين إرادة وإرادة .

٢٠ - « أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نُصِيْبًا مِنَ الْكُتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَانِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرُ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِالسِّنْتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ ، (النساء ٤٤-٤٦)

قدر بعض المفسرين كالجلالين قوله تعالى «من الذين هادوا» خبرا مقدما مبتدؤه «قوم» وتابعوا في ذلك مذهب سيبويه وما أنشده النحويون من قول الشاعر:

لو قلت ما في قومها لم تيثم يفضلها في حسب وميسم

ولكن الظاهر في الآية أن «من الذين هادوا» متعلق بلفظ «نصيرا» وذلك على نحو ما في قوله تعالى: «وَنَصَرْنَا مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» (الأنبياء ٧٧) وكذلك «فَمَنْ يَنْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا» (غافر ٢٩) وأيضا «وَيَا قَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتَهُمْ» (هود ٣٠)

٢١ - «وَمَنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (المائدة ١٤) وكذلك «وَلَنَجْذَنَ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى» (المائدة ٨٢)

أول ما يلاحظ في هذه الآية هو وصف النصاري بعبارة «الذين قالوا إنا نصارى» لأنهم تخطوا مجرد النصرة للمسيح إلى عبادته فأساءوا إليه وأوقفوه موقف المساءلة يوم القيامة (المائدة ١١٦-١١٨) ومن ثم فهم الذين قالوا إنا نصاري وأما وصفهم بلفظ «النصاري» مجردا في أماكن أخرى من القرآن فقد جاء في مجال ذكر عدد من الطوائف إحداهما النصاري إما على سبيل التعداد أو المقابلة أو غير ذلك.

٢٢- «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ» (المائدة ٤٨)

في العبارة تضمين الفعل «تتبع» معنى فعل آخر يتعدى بالحرف «عن» ويمكن تأويل ذلك بنحو «ولا تنحرف بسبب أهوائهم عما جاءك من الحق» وأما ما في الآية (٤٩) من قوله «ولا تتبع أهواءهم وأحذرهم أن يفتنوك» فإن

المصدر المؤول بدل من الضمير في «احذرهم» أى احذر أن يفتنوك أو احذر فتنتهم إياك.

٢٣- « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ، (المائدة ٥١-٥٢) »

أوضح معنى الفاء من قوله «فترى» هنا أنها جاءت للسببية ومعناها «ذلك بأن» أى إنما جعلنا أولياءهم منهم لأن الذين فى قلوبهم مرض «المنافقين» يسارعون فيهم أى فى اليهود وقد عطف على ذلك ما نجده فى الآية رقم (٦٢) من قوله :

« وترى كثيرا منهم يسارعون فى الأثم والعدوان » وهم يهود.

٢٤- « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ، (الأنعام ١) »

نسبت الآية السموات والأرض إلى الخلق ونسبت الظلمات والنور إلى الجعل فكانما جعلت السموات والأرض جواهر وجعلت الظلمات والنور أعراضا تنسب إلى هذه الجواهر وتدرك بها. ثم إن هذا الإبداع لم يهد الذين كفروا إلى مبدع قادر يستحق أن يعبد فاتخذوا عديلا له يعبدونه من دونه «ثم الذين كفروا بربهم يعدلون»

٢٥- « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا، (الأنعام ٩٠، ٨) »

فى هذه الآية حجتان:

الأولى أن الله لا ينزل الملائكة إلا بالحق وهو العذاب فلو أنزل عليهم ملكا

لقضى الأمر ثم لا ينظرون.

الثانية أن الإنسان ليس مؤهلاً لرؤية الأجسام النورانية ومن ثم يصور الله الملائكة في صورة الناس ليراها الناس « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا » وقد صور الله جبريل في صورة دحية الكلبي ليراها المسلمون.
كل ذلك في كلمات قليلات ولكن وافيات بالغرض .

٢٦- في العبارة القرآنية أحياناً ما يمكن أن يسمى تقارض المصدرين بحيث يأتي المصدر صريحاً في موضع المؤول و مؤولاً في موضع الصريح كما نرى في قوله تعالى : « لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ » (النساء ١٤٨) أى « لا يحب الله أن يجهر إلا من ظلم » وفيها أيضاً أن يأتي المصدر مؤولاً باسم الفاعل نحو:

أ- « وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ » (البقرة ١٧٧)

ب- « وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى » (البقرة ١٨٩) والمعنى في كلتا الآيتين « ولكن البار »

ج- « أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » (التوبة ١٩) أى ساقى الحاج وعامر المسجد.

د- « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا » (الملك ٣٠) أى « غائراً ».

الفصل الثالث

الأسلوب العدولي

أو المؤثرات الأسلوبية

جاءت الأقدمون لقواعد اللغة ومبانيها أصولاً ذهنية ورأوا أن استعمال اللغة «أى اللغة في معترك الحياة» قد يورد الأصول على حالها فينتفق المستعمل في صورته مع المجرد فيسمى ذلك «استصحاب الأصل» ففي لفظ «ضرب» مثلاً:

أ- ما تزال الأصوات تنطق في مخارجها وتبدو بصفاتهما التي تنسب إليها فالاستصحاب هنا على مستوى الأصوات إذ لم يحدث تغير ما في الأصول الثلاثة لاشتقاق الكلمة.

ب- ما تزال صيغة «فَعَلَ» ملتزمة ميزانها الصرفي لم تتأثر بإدغام ولا إقلاب ولا نقل ولا حذف.. الخ، فالاستصحاب قائم أيضاً على المستوى الصرفي.

ج- ما يزال المعنى المفرد للكلمة قائماً ولو كان متعدداً ومحتماً فشان كل معنى مفرد أن يكون كذلك ومعنى هذا الاستصحاب قائم على المستوى المعجمي.

د- فإذا وضعنا لفظ «ضرب» في جملة فقلنا «ضرب زيد أخاه» تبين لنا أن هذا اللفظ في نطاق الجملة ما يزال يلتزم فيه التعدي والمضى والتضام مع فاعل ومفعول فالاستصحاب قائم على المستوى النحوي.

هـ- فإذا تأملنا الجملة كلها وجدنا العلاقات فيها قائمة على أصولها سواء علاقة الإسناد أو علاقة التعدي أو علاقة الربط بعود الضمير أو انتقال الفعل، كما وجدنا القرائن على حالها كالإعراب والتضام والرتبة وهذا استصحاب

آخر قائم على المستوى النحوى.

وللفعل «قال» أو «مدّ» أو غيرهما أصل، كما أن لضرب أصلاً ولكن أصل «قال» و«مدّ» لم يستصحب في الاستعمال فالأصل في «قال» هو «قَوْل» والأصل في «مدّ» هو «مَدَد».

فأما العدول عن المستوى الصوتى فقد كان في «قال» من خلال قلب الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها وأما في «مدّ» فقد كان من خلال الإدغام بسبب توالي المتلين «أى الدالين».

وأما على المستوى الصرى فقد جاء العدول عن الأصل من خلال المفارقة التى بين «فَعَلَ» وهى وزن الأصل و«قَالَ» وهو ما آل إليه الفرع.. وكذلك في «مدّ» بين «فَعَلَ» و«فَعْلٌ» أو «فَلٌ».. وإذا قلنا: «مدّت المودة حبالها بين زيد وعمرو» فقد خرجنا «أو عدلنا» عن المعنى الحقيقى للفظ «مدّ» إلى معنى آخر مجازى أو بعبارة أخرى: نقلنا اللفظ من نوع إلى نوع آخر من المعنى.. هذه هى أبسط صور العدول عن الأصل في مبانى الألفاظ ومعانيها وهناك عدول عن الأصل في القواعد كالعدول عن قاعدة «عدم الابتداء بالنكرة» عندما تتحقق الإفادة مع التنكير وكالعدول عن عدم الإخبار بظرف الزمان عن أمر مادى عندما تتحقق الإفادة به أيضاً وهلم جرا مما يدل على أن الإفادة هى المطلب الأول للاستعمال اللغوى.

وإذا سلمنا بأن الإفادة هى المطلب الأول لاستعمال اللغة في أغراض الاتصال أدركنا أن أمن اللبس هو أغلى ما تحرص عليه اللغة وفهمنا لماذا جاءت عبارة ابن مالك حين يقول: «وإن بشكل خيف لبس يجتنب»

ولقد رأينا في المتلين اللذين ضربناهما بالابتداء بالنكرة والإخبار بالظرف أن الإفادة تغفر لمخالفة القاعدة وقد اتضح لنا هذا من قبل من خلال الكلام عن الترخص في القرائن النحوية إذ قيدنا الرخصة بقيود منها:

١ - أن تكون مرهونة بمحلها فلا يقاس عليها.

٢ - أن تكون من الفصيح لا ممن جاء بعد عصر الفصاحة.

٣ - أن يؤمن معها اللبس.

وإذا كانت الرخصة من حيث المبدأ عدولا عن أصل أو قاعدة مرتبطبا بهذه القيود التي قدمنا فإن ثمة عدولا آخر لا قيد عليه إلا أمن اللبس أو بعبارة أخرى لا قيد عليه إلا الإفادة.. أما ما عدا ذلك فإن هذا العدول يقاس عليه ويقبل من الفصيح وغيره.. ذلك هو ما أطلقنا عليه في عنوان هذا الفصل «الأسلوب العدولي».

هذا الأسلوب العدولي خروج عن أصل أو مخالفة لقاعدة ولكن هذا الخروج وتلك المخالفة اكتسبا في الاستعمال الأسلوبى قدرا من الاطراد رقى بهما إلى مرتبة الأصول التي يقاس عليها.. وكما يكون فهم الترخص من خلال الاعتداد بالقرائن يكون فهم الأسلوب العدولى كذلك.. فكل قرينة من القرائن صالحة أن يترخص فيها وأن يعدل عن الاعتماد عليها ولا فرق بين الحالين إلا أن الترخص مغامرة فردية للفصيح من العرب القدماء لو تكررت من المعاصرين لعدت من قبيل الخطأ، وأن الأسلوب العدولى مورد من موارد التأنق فى الأسلوب وِرْدَهُ من شاء فى القديم ويردُهُ من يشاء فى يومنا هذا.. وفيما يلي بيان بالقرائن وأمام كل منها طرق العدول الأسلوبى المطرد عن الاعتداد بها:

وسنتناول كل واحد من هذه الأساليب على حدة فيما يلي:

أولا - البنية:

يعدل عن أصل البنية إما بإجراء تصريفى فتتحول صورة اللفظ الأصلية وإما بنقل المعنى بتضمين لفظ معنى لفظ آخر أو إنابته عنه وإما بتسخير اللفظ لتوليد معان هامشية لم تكن له فى الأصل اللغوى المجرى وذلك بواسطة الحكاية أو تنكير اللفظ أو تعريفه أو تعميم الإشارة إلى المقصود باستعمال

الموصول أو إفادة معنى الشرط من خلال الموصول أيضا أو إعطاء الضمير وظيفة غير وظيفة الربط كإفادة الشأن أو الفصل.

وتفصيل ما سبق كما يلي:

١٤ - الإجراء التصريفي: من طبيعة الاستعمال اللغوي أن يسعى فيه إلى طلب الخفة اقتصاداً للجهد الحركي في النطق وتلك ظاهرة لا نعلم لغة بمنأى عنها ولقد حرصت اللغة العربية «أو بعبارة أخرى حرص الذوق العربي» على كراهية توالي المثليين والمتقاربين والمتعارضين وكان حفيا بتوالي المختلفين والمتناسبين ومن هنا وجدنا إجراءات عدولية تصريفية تتبع في صياغة البنية كالإدغام والإخفاء والإقلاب والإعلال والإبدال والنقل والقلب والحذف والمناسبة علاجا لمشاكل تجاور الأصوات الذى يتسم بالثقل.. وقد وجدنا لهذا العدول عن الأصل طابعا عرفيا في الاستعمال «على عكس الترخص في القرينة» رقى به إلى مستوى التقعيد له ومن هنا نشأت القواعد التصريفية كقولهم:

* إذا تحركت الواو أو الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفا.

* إذا اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء.

* إذا وقعت الواو أو الياء بين عدوتيهما حذفت.

* تنقل حركة الواو أو الياء عند نقلها إلى الساكن الصحيح قبلها.

* إذا وقعت الواو أو الياء متطرفة إثر ألف زائدة قلبت همزة.

كما رأينا المناسبة تحكم تقخيم اللام وترقيقها في لفظ الجلالة وتحكم حركة الهاء من ضمير الغيبة فتكسر الهاء إذ سبقت بكسر أو ياء ساكنة وتضم فيما عدا ذلك وهلم جرا.. وفي الأسلوب القرآني ما لا يحصى من هذا العدول عن الأصل ومن ثم أجد من العبث أن أحاول الاستشهاد على المطرد إذ لم يستشهد النحاة على رفع الفاعل ونصب المفعول ونحوهما وإنما استشهدوا

على ما كان من قواعدهم بحاجة إلى دليل من الاستعمال وبخاصة ما شذ عن القواعد أو ندر.

٢ - النقل: وهو إنما يكون من المعنى الأصلي للفظ عدولا إلى معنى آخر لغاية أسلوبية معينة ويكون هذا النقل بواحد من أمرين أولهما التضمين وثانيهما النيابة.

١ - التضمين: يتجاوز التضمين قرينة البنية إلى حيث يمكن عدّه ظاهرة من ظواهر التضام ذلك بأن اللفظ الذي يضمن معنى لفظ آخر يحتل موقعه أيضا فيدخل على الفاظ قد لا يدخل عليها بأصل وضعه واستعماله فيتعدى بالحرف بعد أن كان متعديا بنفسه أو يضم حرفا في موقعه الحاضر لا يضمه في موقعه الأصلي وهلم جرا وفيما يلي طائفة من الشواهد القرآنية على أسلوب التضمين الذي هو ظاهرة من ظواهر النقل.

* «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا» (النساء ٢)

فعل الأكل متعد بنفسه إلى مفعوله الواحد ولا يحتاج بعد ذلك أن يتعلق به «إلى» ولو جاز له أن يتعلق به الحرف لكان الحرف «من» نحو «ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» (الأنعام ١٢١) والمقصود بالنهي عن الأكل في آية النساء النهي عن «الضم» والمعروف أن الفعل «ضم» ينصب أحد المضمومين على المفعولية ويتعدى إلى المضموم الآخر بواسطة «إلى» ففي استعمال فعل الأكل في الآية تضمين هذا الفعل معنى فعل الضم أى «ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم» فوقع فعل الأكل في البيئة اللفظية لفعل الضم وأدى معناه وهذا هو المقصود بالتضمين الذي هو صورة من صور النقل الأسلوبى واستعمل الأكل لما فيه من الشراهة بعكس مطلق الضم.

* «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ» (المائدة ٧٧)

الفعل «غلا - يغلو» فعل لازم ولكنه في هذه الآية نصب مفعولا به «غير

الحق، إذ ضمن معنى «لا تزيدوا» أو «لا تتقولوا» فحل في البيئة اللفظية المناسبة لذلك.

* «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا، (الاعراف ١٠٣) أى: فكفروا بها.

* «قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتَكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي، (الاعراف ١٤٤) أى: فضلتك.

* «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ، (التوبة ٢٣) أى: فضلوا.

* «وَيَا قَوْمِ مَنْ يُنصِرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنِ طَرَدْتَهُمْ، (هود ٣٠) أى: من يحميني.

* «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَصَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا، (النحل ٩٢) أى: جعلت، لأن المعنى يابى أن تكون «أنكاثًا» حالا.

* «وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا، (الفرقان ٣٠) أى: جعلوا أو صيروا.

* «وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا، (لقمان ١٥) أى: وإن حرضاك.

* «يُدبِرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، (السجدة ٥) أى: ينزل.

* «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نُنَبِّئُكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكَ إِذَا مَرَّقْتُمْ كُلَّ مَرْقٍ إِنَّكُمْ لَعَلَىٰ خَلْقٍ جَدِيدٍ، (سبا ٧) أى: يقول لكم بدليل كسر همزة إن.

ففى الفعل معنى القول دون حروفه.. أى أنه ضمن معنى القول.

ب - النياية: اشتهر من أقوال النحاة قولهم إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض وورد فى مصطلحاتهم ما يدل على أن النياية واقعة عن الفاعل وعن

المفعول المطلق كما تنوب الحركة عن الحركة في إعراب الممنوع من الصرف وجمع المؤنث السالم وتنوب المعرفة عن النكرة.. الخ.

وسموا بعض النياية تعويضا كما في قولهم إن النون في المثنى والجمع السالم عوض عن التنوين في الاسم المفرد.. ولسنا معنيين في هذا المقام بكل هذه الحقائق وإنما يهمننا نياية اللفظ (أو بعبارة أدق: إنابة اللفظ) عن اللفظ.. وأول ما نورده من ذلك إنابة الجامد عن المشتق وإنابة المشتق عن الجامد ويحدث النوع الأول بكثرة في الخبر وما أصله الخبر وفي الحال والنعته كما في قوله تعالى:

* «ذَلِكَ الْكِتَابُ» (البقرة ٢) أى: ذلك المستحق لهذه التسمية.

* «وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ» (البقرة ١٠٢) أى: نحن فانتون.

* «ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ» (البقرة ١٧٨) أى: ذلك للتخفيف والخبر هو متعلق الجار والمجرور المقدر.

* «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ» (البقرة ١٨٧) أى: ملابس لكم.

* «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ» (البقرة ٢٢٣) أى: مشبهات للحرث.

* «الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ» (البقرة ٢٢٩) أى: رجعى لمرتين.

* «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ» (الأنفال ١٥) أى: زاحفين.

* «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا» (الكهف ٩) أى: عجيبين.

* «أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا» (الكهف ٢٧) أى: مكتمل الرجولة.

* «فَتُصْبِحُ صَاعِداً زَلَقاً» (الكهف ٤٠) بفتح اللام «مصدر» أى: زلق بكسرهما «صفة مشبهة».

* «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ» (الزخرف ٨٤) أى: مثاله أو معبود أو يتاله أو يُعبد.

وقد تنوب المعرفة عن النكرة والنكرة عن المعرفة فاما النوع الاول فقد مثل له النحاة بقولهم: «قضية ولا ابا حسن لها» ويجوز أن يقال: «أنت حاتم الكرم وسحبان الفصاحة» واما النوع الثانى - وهو عكس الاول - فمنه قوله تعالى:

* «وَيَلِّ لِكُلِّ هَمَزَةٍ لُزَّةٌ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ» (الهمزة ٢٠١).

* «وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ مَخْبَلٍ فَخُورِ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ» (الحديد ٢٢).

فقد وصفت النكرة بالمعرفة وكأنها معرفة. ويبدو أن ذلك إنما يكون بعد وصف النكرة بنكرة مثلها حتى تكتسب قدرا من التخصيص يقربها من المعرفة. ومن ذلك أيضا الاعلام المشتقة كشريف وأشرف وطاهر.. الخ.

٢- تسخير اللفظ لتوليد المعنى:

لكل لفظ معناه العرفى الذى ينسب إليه فى معجم اللغة، وقد يكون للفظ الواحد عدد من المعانى لا يتعين له واحد منها إلا بحسب بيئته التركيبية واللفظية فى السياق وهذا هو الذى يكشف عن القيمة الحقيقية للاستشهاد على المعانى فى المعاجم.. ولكن طاقة اللفظ تتسع لما هو أكثر من مجرد المعنى العرفى الاجتماعى بأن تشمل تسخير هذا اللفظ لتوليد معان أخرى فنية أسلوبية «ولكونها أسلوبية يمكن وصفها بأنها فردية أو شخصية». وطرق تسخير الألفاظ للوصول إلى هذه الغاية مختلفة متشعبة نعدّ منها ولا نعدّها.. فمنها ما سبق أن أشرنا إليه من حكاية اللفظ للمعنى ومنها القصد إلى تنكير اللفظ أو تعريفه ومنها استعمال الموصول قصدا إلى الاستغناء بالوصف عن تعيين

الذات ومنها التصرف في طرق الإضمار.. الخ بحيث تصبح طريقة التسخير مؤشرا أسلوبيا ذا قيمة خاصة.

وفيما يلي شرح موجز لكل طريقة من هذه الطرق على حدة:

١- الحكاية: لن أطيل في شرح تسخير الحكاية لتوليد المعنى بعد أن شرحنا المقصود بها من قبل ومثلنا لبعض صورها في كلام سابق.. غير أن الذي لا بد منه هنا هو أن نورد شواهد قرآنية على تسخير أجراس الألفاظ لتوليد أنواع المعاني فنجعل ما نسوقه من ذلك في مقامنا هذا، إضافة إلى ما سبق من شواهد على قيمة الجرس في إحداث المؤشر الأسلوبى أو الأثر النفسى المناسب (وذلك معنى من المعانى) عند الكلام عن اختيار القرآن الكريم للألفاظ.. قال تعالى:

* «وَمَنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ» (فاطر ٢٧) كان يمكن لهذا المعنى أن يوصل إليه بواسطة استعمال لفظ «صخور»، ولكن حروف هذه الكلمة هي: صاد رخوة ثم خاء رخوة أيضا ثم راء تكرارية وفي الرخاوة رخاوة وفي التكرار تخلخل أما لفظ «جدد»، فالشدة واقعة في كل حرف من حروفه مما يوحي بالقوة التى تتناسب مع تركيب الجبال.

* «لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى» (الصافات ٨) الفعل في هذه الآية معدول به عن «يتسمعون» الذى يشتمل على تاء بعدها سين، على حين تحولت التاء في الآية إلى سين وأدغمت السين في السين فصارتا سينا مشددة.. لقد دلنا الخليل على طريقة لتذوق الحروف لمعرفة مخارجها وصفاتها فأرشدنا إلى إسكان الحرف حتى نتبين منه ذلك.. وإذا أسكنا التاء حصلنا من شدتها على الصمت، وإذا أسكنا السين حصلنا من رخاوتها على الصفير وكلا الحرفين مهموس.. ولا شك أن الصفير المهموس أدل على معنى التسمع من الصمت لأننا في العادة لا نتسمع إلى الصمت وإنما نتسمع إلى الهمس.

* «وَهَلْ أُنَاكَ نَبَأَ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ» (ص ٢١) الذى فعله

المتخاصمون المحتكمون إلى داود هو أنهم «تسلقوا السور» والصيغة الصرفية في «تسلقوا» هي تفعلوا، والأصول الاشتقاقية في السور هي «س ور» وقد ضمت الآية الصيغة إلى الأصول الثلاثة فكانت نتيجة ذلك لفظ «تسوروا» الذي هو أخصر من كلمتين وأجمع للدلالة على المعنى وأكثر حكاية له.

* «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ» (الزمر ٣٢) في الآية تكرار الصياغة من الأصول الثلاثة «ك ذ ب» فجاءت أولا على صيغة «فَعَلَ» وجاءت ثانيا على صيغة «فَعَلَّ» وتعدى اللفظان بواسطة حرف الجر إلى لفظ الجلالة أولا ثم إلى «الصدق» بعد ذلك. ولا شك أن التلبث عند أصل اشتقاقى واحد هو صورة من صور إرادة حكاية المعنى كالذى نجده في «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا...» (النساء ١٣٦) وكذلك «ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ» (المائدة ٧٧).

* «قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ» (الزمر ٦٤) في هذه الآية مايلي:

أ - تقديم المفعول على الفعل لبيان عدم استحقاقه للعبادة وذلك بواسطة الاستفهام الإنكارى.

ب - لم يعين المقصود بالمفعول وإنما جعله «غير الله» لبيان أن المستحق للعبادة هو الله وحده.

ج - في الفعل دلالة بالحكاية على أن النبى صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص لا يوجه إليه مثل هذا الأمر وقد جاء التعبير عن ذلك بتسخير نون الرفع ونون الوقاية بإدغامهما معا لتقوية مدلول ياء المتكلم.

د - ختمت الآية ببيان أن من يقع في مثل هذا الخطأ فهو من الجاهلين.

* «فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ» (فصلت ١٦) في الآية أمران يحكيان أمرين:

أ - في لفظ «صرصر» تكرار من وجهين أولهما تضعيف اللفظ والثاني التكرار الذي في الرءاء من حيث النطق وفي كلا الوجهين دلالة على توالي العذاب ومكثه حتى فنى جميعهم ووصفوا بالبائسة.

ب - في همس الصاد وصفيرها وصفير السنين المهموسة حكاية لصوت الريح وربما دل تكرار الرءاء على ما تسببه الريح الباردة من رعشة تصيب البدن. وفي هذه الدلالات الآتية من أجراس الكلمات ما يعزز المعنى العرفي المراد من هذه الكلمات.

* «جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا» (الشورى ١١) كل ما جعله البلاغيون المتأخرون تحت عنوان البديع فهو من قبيل تسخير اللفظ لتوليد المعنى ومن ذلك دون شك ما يعرف باسم «الجناس» وكذلك المشاكلة واستعمال المشترك اللفظي مكررا مع اختلاف المعنى.. وهنا نجد لفظ «أزواجا» الأول بمعنى الحلائل ثم يرد ثانيا بمعنى الأصناف أو الأنواع وشبيه ذلك ما في قوله تعالى: «لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ» (الأعراف ٢٦) فاللباس الأول كسوة والثاني ملابس أي مصدر الفعل «لابس».. وصلة ذلك بالحكاية أن اللفظ الثاني يحاكي الأول في جرسه فيوهم شركة في المعنى سرعان ما تزول بالقرينة فيكون من زوالها نوع من العجب والإعجاب هو الأثر المقصود.

* «وَالَّذِي قَالَ لِيَأْتِيهِ أَفْ كُتْمًا» (الاحقاف ١٧) تكاد كلمة «أف» تنقلب بجرسها من اسم فعل إلى اسم صوت فإن ما في الفءاء من طرد النفس من الصدر حكاية للرفض وإرادة التخلص من موقف وصاحبه ولو أن الرفض بحث عن تعبير مناسب للرفض ما وجد أفضل من لفظ «أف» بسبب ما فيها من دلالة طبيعية تدعم دلالتها العرفية.. فهي تدل بجرسها على ما تدل عليه بوضعها.

ب - التنكير: ومن طرق تسخير اللفظ لتوليد المعنى تنكير اللفظ حيث يمكن

تعريفه وذلك للوصول إلى إفهام التعميم وما يتولد عنه من إيهام أو تهويل أو تحقير أو تعظيم بحسب موقع الكلمة من سياقها اللغوي والاجتماعي.. وفي القرآن من تسخير التنكير لتوليد هذه المعانى العدد العديد من الصور التي تؤدي إلى العديد من المعانى.. ونستطيع أن نورد من ذلك ما يلي:

قال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكُنَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدَقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمَسَ وُجُوهًا فَفَرَدَّهَا عَلَيَّ ادْبَارَهَا كَوْ نُلْعَنُهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ، (النساء ٤٧) وإن القارىء ليتوقع أن يجد لفظ «وجوهكم» في مكان «وجوها» ولو كان ذلك كذلك ما أصاب المعنى أى قدر من الفساد.. ولكن مجيء الوعيد في صورة التنكير نسب الوجوه إلى أصحابها ولكن بصورة غير مباشرة، ومن ثم جاءت مترفعة غير محددة لأصحاب هذه الوجوه من بين أهل الكتاب، أهم دعاء الكفر منهم فقط أم هم جميع أفراد الطائفة؟ وهكذا يقود التنكير الذهن إلى مسارب للمعنى متعددة وهو ما قصدت إليه الآية.

﴿ وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ (الأنعام ٧٠) قد يمكن أن يتوصل السامع إلى المعنى التركيبي للآية مع تعريف لفظ «نفس» بإضافته إلى ضمير «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» لو قيل «أن تبسل أنفسهم» ولكن ثلاثة أمور حدثت كان لها أثر في المعنى أولها تنكير النفس وثانيها أفرادها وثالثها وصفها بجملة «ليس لها الخ» أما التنكير فأثره شبيه بما ذكرنا في الآية السابقة وأما الأفراد فلا إيهام الشيعو في الجنس دون خصوص العدد أو تعيين المعداد وأما الوصف فإنه يضم إلى التعجيز «بقوله: ليس لها الخ» وعيدا بقوله: «وَأَنْ تَعْدِلَ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا» إذ لا بديل لها عن الإيمان.

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا، (النحل ٩٤) في القدم من التنكير والأفراد ما لاحظنا مثله في الآية السابقة من تنكير «نفس»

غير أن الخطاب هنا للمؤمنين في مقام النهي عن مجافاة العدل والإحسان ومن هنا كان السياق تحذيرا من الزلل المؤدى إلى السوء وليس وعيدا كما سبق.

ومع هذا التحذير جاء التنكير لئلا ينسب القدم إلى المؤمنين جميعا وليوحى بكون الزلل مشروطا فكان الآية تقصد البعض دون الكل وتوحى بجملة أخرى تقول: «من اتخذ إيمانه دخلا فقد زلت قدمه بعد ثبوتها».

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتًا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ (الزمر ٥٦)
جاءت هذه الآية في معرض بعث الأمل في نفوس القانتين والدعوة إلى الإنابة إلى الله والأمر باتباع ما أنزله الله قبل فوات الأوان لئلا تقول النفس الجانحة يا حسرتا.. وإنما جاء التنكير هنا ليؤدى معنى التعميم فكان المقصود هو «أن تقول نفس ما» أو «أى نفس لم تطع هذه الوصايا».

﴿ أَنْتَقُتُّونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ (المؤمن ٢٨) نكر الرجل والمقصود موسى ليحول القضية من قضية شخص بعينه إلى قضية عامة من قضايا منطق العدالة.

﴿ أَقْلًا يَكْدِبُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد ٢٤) جاء طلب التعيين بواسطة الهمزة و«أم» في هذه الآية فكان الاحتمال الأول هو ما إذا كان لهم قلوب متفتحة يتدبرون بها القرآن ولكن أمن اللبس دعا إلى السكوت عن القلوب المتفتحة اختصارا واتكالا على قرينة ورود القلوب ذوات الأقفال بعد أم ثم جاءت هذه القلوب التى بعد أم منكرة لعدم تعيين أفراد أصحابها من بين الذين فى قلوبهم مرض.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ (الحشر ١٨)
دليل إرادة العموم هنا أنك لو وضعت لفظ «كل» قبل كلمة «نفس» لظل هيكल المعنى وإطاره العام كما هو .. ومعنى هذا أن التنكير أغنى عن لفظ «كل» بما أفاده التنكير من معنى العموم فى الآية أمر من الله سبحانه للذين آمنوا

جميعا أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

* «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ» (عبس ٢٨) المعانى ولائذ القرائن سواء أكانت هذه القرائن لفظية أم معنوية أم خارجية ولقد كان من الممكن للوجوه هنا أن تفيد بتكثيرها التعميم لولا أن قامت وجوه أخرى «عليها غبرة» بعدها بقليل لتسحب على نوعى الوجوه معنى التفصيل بحيث يصبح المقصود: «بعض الوجوه مسفرة وبعضها عليه غبرة».. وبهذا تعد الوجوه الثانية قرينة لفظية على إرادة التفصيل بطائفتى الوجوه معا وليس التعميم بذكر الأولى فقط.

* «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ» (الانفطار ٥) هنا أيضا لو وضعنا لفظ «كل» قبل النفس لبقى إطار المعنى على حاله لأن «كل نفس» ستعلم يوم القيامة جملة أعمالها بطائرها الذى فى عنقها ويكتابها الذى تلقاه منشورا وبشهادة الجوارح عليها إذ يشهد عليهم «سَفَعَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجَلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (فصلت ٢٠) ثم بشهادة ذوى الحقوق المهضومة على النفس الظالمة وشكواها إلى ربها.

جـ - التعريف: قد يكون التعريف «تعريف النكرة» بال التى تفيد الجنس أو التى تفيد العهد ولكن هذه الإفادة بحكم الوضع فهى لغوية استصحابية لا عدولية أسلوبية.. أما الأسلوب العدولى فقد يحمل المتكلم أداة التعريف من المعنى ما ليس لها بأصل الوضع.. ومن ذلك قوله تعالى:

* «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ» (العنكبوت ١٧) فإن تعريف الرزق هنا أفاد أنه لا رزق إلا الله لإفادة «أل» معنى استغراق الجنس وما كان يمكن الوصول إلى هذا القصر فى المعنى لو أن الرزق قد جاء على صورة النكرة فلو قيل «فابتغوا عند الله رزقا» ما كان هذا القول حائلا دون فهم التعدد لمصادر الرزق.

* «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (العنكبوت ٦٤) ولقد أعطانا التعريف هنا معنى إضافيا إذ جعل الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية لأنها دائمة وفي هذا ما يشير إلى أن الحياة الدنيا إنما هي «حياة» ولكنها ليست «الحياة» لأنها مؤقتة لا تعدو أن تكون لهوا ولعبا ومتاعا زائلا.

* «إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» (الأحزاب ١٠) لقد خرجت الأداة هنا عن مجرد التعريف إلى الربط فأصبحت في قوة الضمير فصار المعنى: «وإذ زاغت أبصاركم وبلغت قلوبكم حناجركم».

* «فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا» (سبا ٣٧) لهؤلاء المؤمنين «جزاء مضاعف» ولكن هذه العبارة التي جرت مجرى التنكير لا تفهم أى قدر من التأكيد. ولو قيل «ضعف الجزاء» لكان التعريف المفيد للتأكيد في الآية قد أصاب الجزاء دون الضعف.. غير أن المراد إبراز المضاعفة للجزاء وليس إبراز الجزاء نفسه ولهذا لحقت الأداة بالضعف مع جعله في موقع المضاف إليه وهذا شبيه بما في قوله تعالى: «يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُفْقَرُ لَنَا» (الأعراف ١٦٩) أى يأخذون هذا العرض الأدنى.

* «وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ» (فاطر ١٢) لم يقل وما يستوى بحران بالتنكير لأن الكلام عن نوعى البحار وليس عن بحرين شائعين ولما كان نوعا البحار لا ثالث لهما كان لهما من التعيين ما دعا إلى تعريف البحرين لتدل الأداة على معنى أوسع من مجرد الجنس.

* «اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ» (فاطر ٤٣) أى ومكراً سيئاً بالعطف على «استكباراً» ولكن لما كان التنكير يضى على المكر قدرا من العموم لا يراد به التخصيص بالوصف جاء التعريف وجاءت الإضافة ليجعلا المكر محدد المعالم معروف الوصف ولذلك جاء المكر معرفة بعد ذلك في قوله: «وَلَا

يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ، وهذا شبيه بما سبق من «جزاء الضعف»
و«عرض هذا الأدنى»

* «ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ»
(المؤمنون ٧٥) لو قال بغير حق لم يكن في ذلك إشارة إلى الكفر ونكران الدين
بل إن الذي يفهم في هذه الحالة هو «ضد الباطل» وليس «ضد الإيمان» أما
تعريف الحق فقد صرف المعنى إلى الاحتمال الثاني، ومثله: «فَأَمَّا عَادٌ
فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» (الدخان ١٥).

* «يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ» (الشورى ٤٩) جاءت
الإناث نكرة والذكور معرفة من أجل الفاصلة ولو نكر لقل «ويهب لمن يشاء
ذكوراً» لتغير جرس الفاصلة واختلفت عما قبلها من قوله تعالى:

«فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ» (الشورى ٤٨)

* «وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ» (الجاثية ٢٢) لو قال «بحق»
لكان المعنى «خلقهما حقا وصدقا» ولكن تعريف «الحق» جعل المعنى «خلقهما
بما يحق له من علم وإرادة وقوة».. فالحق هنا مصدر لا صفة مشبهة إذ لو
كان صفة مشبهة لكانت «ال» موصولة لا أداة تعريف.. والموصولة لا تفيد
تعريفا ولا تخصيصا.

أما الحق بمعنى الصدق فذلك قوله تعالى: «هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ
بِالْحَقِّ» (الجاثية ٢٩).

* «وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ» (الأحقاف ١٦) هذا أيضا من
إضافة الموصوف إلى صفته «أسلوب قرآني صرف» مثل «عرض هذا الأدنى»
و«مكر السيئ» و«جزاء الضعف» والذي دعا إلى تعريف الصدق أمران:
أولهما إرادة تعيين الوعد فكان هذا الوعد كان معهودا معروفا موضع اتفاق
وإقرار وثانيهما سبب تركيبى هو التمهيد لوصف هذا الوعد بالموصول

وصلته هذا علي رغم أن تخصيص النكرة بالإضافة إلى نكرة أخرى «وعد صدق» كان يجعل النكرة صالحة للوصف بالموصول فقد وصفت به عند تخصيصها بالوصف بنكرة أخرى في القرآن والحديث والأثر كما في سورة الهمزة وفي قولنا عند إقامة الصلاة «وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته».

د - الموصول: في التراكيب العربية ما يعرف باسم: «الإخبار بالذی والألف واللام» ويسخر هذا النوع من الإخبار بالموصول لأداء معاني زائدة على مجرد الإخبار كإفادة الشرط مثلا.. فهذا التركيب إما أن يكون للإخبار المجرد من ظلال المعاني الأخرى وفي هذه الحالة تبدو الجملة الخبرية على صورتها النمطية المعروفة لا يدخل على تركيبها تعديل ما وإما أن تشرب هذه الجملة معنى الشرط فيصدق على خبرها من شروط الاتصال بالفاء ما يصدق على جواب الشرط فإذا كان خبرها جملة اسمية أو طلبية أو كأن فعلها جامداً أو كانت منفية بما أو لن أو مصدرية بقد أو بحرف تنفيس اقترن هذا الخبر بالفاء وسنورد في الأسطر الآتية إن شاء الله نماذج من كل من هاتين الطريقتين من طرق بناء الإخبار:

١ - طريقة الإخبار الخالص:

* «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (البقرة ٣ - ٥).

* «الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» (البقرة ٢٧).

* «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (البقرة ٣٩).

* «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (البقرة ٨٢)

* «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» (البقرة ١٢١).

* «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ» (البقرة ١٤٦).

* «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُمُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» (البقرة ١٥٩).

* «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ» (البقرة ١٧٤).

* «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ» (البقرة ٢١٨).

* «وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ» (البقرة ٢٢٨).

* «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ» (البقرة ٢٣٣).

* «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا» (البقرة ٢٣٤).

* «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ» (البقرة ٢٤٠).

* «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدْبَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» (البقرة ٢٦٢).

* «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ» (البقرة ٢٧٥).

* «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» (البقرة ٢٧٧).

فالمقصود بكل هذه التراكيب إلقاء الخبر صريحا ليفيد هذا الخبر وعدا أو وعيدا أو تشريعا أو أمرا بحسب موقع التركيب من سياق النص وليس بحسب عنصر لفظي معين في التركيب وقد حدث في معظم الآيات السابقة أن كان ربط المبتدأ بالخبر بواسطة الإشارة على غرار ما في «وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ» (الأعراف ٢٦) ولم يتم الربط بواسطة الفاء في كل ما تقدم.

٢ - طريقة التعبير عن معنى الشرط بالتركيب الخبري:

والمقصود بمعنى الشرط هنا توقف تحقق الخبر على المبتدأ ويستفاد هذا التوقف من الربط بالفاء من جهة ثم من وقوع هذا الربط بالشروط الواجبة لمثله في الجملة الشرطية وهي كون جملة الجواب:

اسمية طلبية وبجامد وبما ولن وبقد وبالتنفيص

فإذا كانت جملة الخبر واحدة من هذه الأنواع تعين ربطها بالفاء كذلك على نحو ما يربط بها جواب الشرط للدلالة على تشرب الجملة الخبرية معنى الشرط.

هذا وسنورد في الأسطر التالية إن شاء الله عددا من الشواهد على هذه الجملة المبدوءة بالوصول والتي يرتبط خبرها بمبتدئها بواسطة الفاء.

* «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» (البقرة ٢٧٤) أي إن أنفقوا فلهم أجرهم ومن أنفق فله أجره.

* «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» (آل عمران ٢١) أي من كانوا كذلك فبشرهم.

* «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ
ذَهَبًا وَكَوْا أَفْنَدَىٰ بِهِ» (آل عمران ٩١) أى من مات كافرا فلن يقبل منه.

* «وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ» (النساء ٣٣) أى من عقدت
* «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا» (المائدة
(٣٨).

* «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ» (التوبة ٣٤، ٣٥).
* «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ» (النور ٢) أى:
من زنت ومن زنى.

* «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ فَاجْلِدُوهُمْ
ثَمَانِينَ جَلْدَةً» (النور ٤) أى: من رمى ولم يأت.....
* «وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ
خَيْرًا» (النور ٣٣).

* «وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ
أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ» (النور ٦٠).
* «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ
اللَّهُ لَهُمْ» (محمد ٣٤).

* «وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا» (المجادلة ٣).

وقد اجتمع الشرط والخبر الخالص في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ
الْحَرِيقِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» (البروج ١٠، ١١).

والموصول يأتيه العموم من بين يديه ومن خلفه لأن دلالة في الأصل إنما هي على مطلق غائب (وبين الإطلاق والتعميم رحم وقربى) ولأنه مفتقر إلى صلة تمنح معناه شيئاً من التحديد (والافتقار في اللفظ دليل فقر في الدلالة) والدليل على عموم معناه أيضاً أنه ينقل فيكون من روابط الجملة كما رأينا في الفصل الذي يدور حول الربط كما يكون أداة للشرط أو الاستفهام بواسطة النقل وذلك شأن «من وما وأى» دون بقية الموصولات.

من هنا يأتي استعمال الموصول وفاء بإرادة العزوف عن تحديد مدلوله لفرض أسلوب معين كالتحقير في قوله تعالى مشيراً إلى امرأة العزيز: «وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا» (يوسف ٢٣) فلا هي «زليخا» ولا هي «امرأة العزيز» ولا هي «سيدته» وإنما هي تلك التي تقيم معه في بيت واحد هو بيتها وفي إضافة البيت إليها لا إلى زوجها من الإشارات المهينة ما لا يخفى.. وكالتحقير أيضاً في قوله تعالى: «وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْ» (الاحقاف ١٧) وهذا الذي قاله أحد أبناء أبى بكر رضى الله عنه وهو إما عبد الله وإما عبد الرحمن قبل إسلامه ولو شاء الله لكرمه بذكر اسمه ولكن لا كرامة مع الكفر ومن ثم جاء التعبير بالموصول هنا تحقيراً لشأن هذا القائل الذي اجتمع عليه الكفر والعقوق.. ويبدو أن قول الله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» (الاحقاف ١٨) وما عرف من حسن إسلام عبد الرحمن لا يتفقان في الدلالة على أن المقصود هو عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنه.

وقد يساق الموصول مساق التعظيم بسبب ما يحتمله التعميم من التهويل والتضخيم والتكريم كما في قوله تعالى:

«وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ» (غافر ٣٠) وكذلك قوله تعالى: «الْمَرَّتْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ» (الرعد ١) أى: «القرآن هو الحق».

وقوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» (الرعد ٣) أي: «وهو الله». وقوله: «وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ» (الرعد ٢٧، ٢٨) وقد يستعمل الموصول للاختصار نحو «وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَاهُمْ» (إبراهيم ٩) وكذلك «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» (لقمان ٢٠). وكذلك «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ» (الجمانية ١٣).

هـ - الإضمار: الضمائر عندي ثلاثة أنواع: ضمائر الأشخاص وضمائر الإشارات ثم الموصولات وقد فرغنا لتونا من الكلام في تسخير الموصولات لتوليد المعانى وسنبين إن شاء الله فيما يلي كيف يمكن تسخير النوعين الآخرين لهذا الغرض.. ولقد سبق عند الكلام عن الربط كيف كانت الضمائر بأنواعها الثلاثة صالحة للنقل إلى أن تصبح روابط بين عناصر الجملة أما الآن فإن أول ما يرد على خاطر من تسخيرها لتوليد المعانى هو التعبير عن الشأن.. والذي يصلح أن يكون ضمير شأن نوعان أحدهما ضمير الشخص وثانيهما ضمير الإشارة والمعروف أن تسخير الضمير لهذا المعنى يجعله مختلفا عن طابع الضمائر من عدة نواح لأنه:

أ - لا بد له أن يعود على متأخر لفاظا ورتبة.

ب - وأن مرجعه المتأخر لا يكون إلا جملة.

ج - وأنه يلزم الأفراد لأن مدلوله شأن لا شأنان ولا شتون.

د - وأنه يكون مبتدأ وقد يدخل عليه الناسخ.

هـ - أنه لا يتبعه تابع أيا كان هذا التابع.

وفيما يلي طائفة من الشواهد التي تبين كيف يسخر الضمير للتعبير عن

الشان وسيتضح فيها توافر الشروط الخمسة السابقة:

* «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» (الأنعام ٢١)

* «إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» (يوسف

٩٠)

* «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِنْتَقَالِ حَبِيبَةٍ مِنْ خَرَدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي

السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ» (لقمان ١٦)

* «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي» (الكهف ٣٨)

* «إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (النمل ٩)

* «إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا» (طه

٧٤)

* «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» (الشورى ١٠)

* «ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ» (فصلت ٢٨)

* «وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ» (فصلت ٢٣)

وقد تسخر ضمائر الأشخاص لتوليد معنى التأكيد، وذلك بجعلها ضمائر

فصل لامحل لها من الإعراب كما في قوله تعالى:

* «وَأَنَا لَحَنُّ الصَّافُونَ» (الصافات ١٦٥)

* «إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا» (الكهف ٣٩)

* «فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» (المائدة ١١٧)

* «تَجَدُّوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا» (المزمل ٢٠)

* «هُؤَلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ» (هود ٧٨) على قراءة نصيب «أطهر».

* «أَوْلَانِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأَوْلَانِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (البقرة ٥)

ولضمير الإشارة استعمال اخر لإفادة التلخيص لما سبق من قول تمهيدا للعطف عليه وذلك نمط من أنماط الربط شائع في الأسلوب القرآني، كما في قوله تعالى:

* هَذَا وَإِنَّ لِلظَّالِمِينَ لَشَرًّا مَآبٍ، (ص ٥٥)

* ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُنصِرَهُ اللَّهُ،

(الحج ٦٠)

* ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مَوْهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ، (الأنفال ١٨)

* ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، (الحج ٣٠)

* ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ، (الحج ٣٢)

ثانيا- الإعراب:

الإعراب كما ذكرنا من قبل قرينة محدودة مجال التطبيق في تراكيب العربية نظرا لتعذر الاعتماد عليه في كثير من عناصر اللغة، كالمبنى والمقصود وبعض المنقوص والمصادر المؤولة والجملة ذوات المحل، إلخ.. أضف إلى ذلك أن تضافر القرائن على بيان المعنى النحوي وندرة اعتماد هذا المعنى على قرينة واحدة فقط يجعل بعض القرائن المتضافرة لبيان المعنى زائدة عن المطلوب أحيانا، فإذا زاد الإعراب عن مطالب بيان المعنى كما في «خرق الثوب المسمار» ونحوه أمكن الترخص في الإعراب بعدم مراعاته، وذلك للوصول بالرخصة إلى غرض أسلوبى عدولى ما، كمراعاة القافية في الشعر في قول امرئ القيس:

كان ثبيرا في عرائن ويله كبيرا ناس في بجاد مزمل

أو مراعاة المناسبة الصوتية بين أواخر كلمتين متجاورتين، وهى التى تسمى إعراب الجوار، كما في قراءة حمزة والكسائى (عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ حُضْرٌ) (الدهر ٢١) بجر لفظ «حضر» لمناسبة الجر في آخر «سندس»، وكالذى

نراه من إشباع الفتحة في آخر الفاظ المعارف بالأداة، كما في قوله تعالى:

* وَتَنْظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، (الأحزاب ١٠)

* يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا، (الأحزاب ٦٦)

* فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (الأحزاب ٦٧)

وربما كان من الأسلوب العدولي عند الحركة الأخيرة بعامة الحاقهاء السكت في آخر الكلمات المنتهية بالياء المفتوحة، كما في آيات سورة الحاقة من قوله تعالى: «فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَذَا مَا أقرأوا كِتَابِيَةَ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ، (الحاقة ١٩ - ٢٠) وقوله: «وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَةَ يَا لَيْتَنِيهَا كَأَنَّ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَةَ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ، (الحاقة ٢٥ - ٢٩)، وأخيراً يأتي الوقف على آخر الكلام أسلوباً عدولياً عن الإعراب له مال الأصل الإعرابي من تقعيد وله ماله من أطراد.

ثالثاً - الربط:

يعدل عن الربط بأساليب متعددة منها الالتفات والتغليب والمراوحة وحذف الرابط، وفيما يلي شرح للمقصود بكل واحد من هذه الأساليب:

١- الالتفات:

وهو إما نحوي خالص، وإما دلالي خالص وإما نحوي دلالي، وسنبدأ بإيراد شواهد الالتفات الدلالي الخالص، لأنه أقل من النوعين الآخرين في الورد. ومعنى أنه دلالي خالص أن العنصر النحوي الذي من شأنه أن يكون محل الالتفات يبقى على صورته فلا يتغير من صورته شيء، ولكن دلالته عند إيراده ثانياً تختلف عنها عند إيراده أولاً من ذلك مثلاً:

* «فَكَاتَبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَنذَرُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ،

(النور ٣٣)، فالضمير في «اتوهم» لم يتحول عن صورته التي في «كاتبوهم»،
 لانه في الحالتين ضمير المخاطبين، ولكن الامر بالمكاتبة لمن يملكون رقاب هؤلاء
 الارقاء، اما الامر بالإيتاء فهو لعامة المسلمين الذين طلب منهم أن يعينوا هؤلاء
 الارقاء على الوفاء بالمال الذي كوتبوا عليه، فدلالة الضمير في الحالة الثانية غير
 دلالته في الحالة الاولى والصورة النحوية واحدة لم تختلف، أى أن الالتفات هنا
 دلالي لانحوى.

* يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ
 عَلَى الْعَالَمِينَ، (البقرة ٤٧)، فإذا نظرنا إلى الضمير في «اذكروا» وجدناه لجماعة
 المخاطبين، وهم بنو إسرائيل. ثم تمضى الايات بعد ذلك تعلق أحداثا معينة من
 أيام بنى إسرائيل بالفعل «اذكروا» بواسطة الظرف «إذ» على النحو التالي:

«وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ»، (البقرة ٤٩)

«وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ»، (البقرة ٥٠)

«وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»، (البقرة ٥١)

«وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ»، (البقرة ٥٣)

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ»، (البقرة ٥٤)

«وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ»، (البقرة ٥٥)

«وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ»، (البقرة ٥٨)

«وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ»، (البقرة ٦٠)

«وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ»، (البقرة ٦١)

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ»، (البقرة ٦٣)

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ»، (البقرة ٦٧)

ثم يبقى الضمير على صورته بعد ذلك ويختلف المخاطبون به في قوله تعالى: «أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ» (البقرة ٧٥) فاختلف المدلول مع بقاء الضمير على صورته يجعل الالتفات دلاليا غير نحوي. فإذا تغيرت الدلالة وصورة الضمير كلتاهما كان الالتفات دلاليا ونحويا في أن واحد كما في قوله تعالى:

* «كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَتَذَكِّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ» (الأعراف ٢ - ٣)، لاحظ الفرق بين ضميري الخطاب في «إليك» و«اتبعوا» فالأول للنبي صلى الله عليه وسلم والثاني لعامة المؤمنين، فاختلف الضميران دلاليا بذلك ونحويا بالفرق بين الإفراد والجمع.

* «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» (البقرة ٢٤ - ٢٥)، والفرق هنا بين الفعلين: «تفعلوا» و«بشّر».

* «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ» (البقرة ١٠٧ - ١٠٨) قارن: «تعلم» و«تريدون».

* «وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» (الحجر ٢٤) قارن: «منكم» و«ربك».

* «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» (الفتح ٨ - ٩) قارن: «أرسلناك» و«لتؤمنوا».

فإذا بقى المدلول في بؤرة القصد واختلفت صورة الضمير كان الالتفات

نحوياً فقط، وهذا كثير شائع في الأسلوب القرآني كما في قوله تعالى:

* «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرَدَّهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ» (النساء ٤٧) قارن: «لما معكم» و«نلعنهم».

* «أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ» (الأنعام ٦) قارن: «قبلهم» و«لكم». اختلف الضمير واتفق القصد لأن المقصود في الحالتين كفار مكة.

* «هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَهُمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ» (يونس ٢٢) قارن: «كنتم» و«بهم».

* «وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» (النحل ١٥ — ١٦) قارن: «تهتدون» و«يهتدون».

* «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ» (طه ٥٣)، قارن: «جعل» و«أخرجنا».

* «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَنْسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (العنكبوت ٢٣) قارن: «لِقائه» و«رحمتي».

* «خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» (لقمان ١٠) قارن: «خلق» و«أنزلنا».

* «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا

أَلْوَانُهُ (فاطر ٢٧) قارن: «انزل» و«أخرجنا».

* «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرَحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ» (الشورى ٤٨) قارن: «فرح» و«تصيبهم».

* «وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تَخْرُجُونَ» (الزخرف ١١) قارن: «انزل» و«أنشرونا».

* «الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (الزخرف ٦٩ - ٧١) قارن: «امنوا» و«ادخلوا» و«عليهم» و«انتم» على الترتيب.

وتقسيم ظاهرة الالتفات على هذا النحو من مبتكرات هذا البحث فلست أعلم من سبقني إليه.

ب - التغليب:

وهو كذلك عدول عن المطابقة. وينقسم إلى قسمين أحدهما معجمي والآخر نحوي، فهو معجمي حين يكون التغليب ملحوظا في الكلمات المفردة، ولكنه نحوي حين يكون وظيفة للضمائر، والمقصود بالكلمات المفردة ذوات المعنى المفرد، الذي يتكفل ببيانه المعجم، وذلك في مقابل الكلمات التركيبية ذوات المعنى الوظيفي الذي يتكفل ببيانه النحو كالادوات والضمائر ونحوها، وقد سبق التفريق بين هاتين الطائفتين. فإذا قلنا: «العمران» وقصدنا أبا بكر وعمر رضى الله عنهما، فقد غلبنا لفظ «عمر» على لفظ «أبي بكر» واللفظان علمان لاضميران، وكذلك يقال في «الحسنين» و«القارظين» و«الحرمين» و«ذي اليمينين» وما أشبه ذلك. ومن هذا القبيل ما نجده في قوله تعالى: «وبالوالدين

إِحْسَانًا» (الإسراء ٢٢)، لأن الولادة من وظائف الأم دون الأب، فلما كان المقصود الدعوة إلى البر بهما، وكانت الأم أولى من الأب بهذا البر حدث التغليب ليدخل الأب بواسطته إلى هذه الوصية تبعا لتلك التي حملت كرها ووضعت كرها، ثم أرضعت ولزمت خدمة وليدها حتى كبر.

أما في مقام الكلام عن حماية الطفل وإكسابه الفضائل الخلقية والنفسية، فإن الأولى بالتغليب أن يكون بلفظ «الأبوين». وإذا فخر الشاعر، فإنه يفخر بأبويه لا بوالديه، وحسبنا أن نقرأ قول الفرزدق:

أولئك آبائي فجنتي بمنلهم إذا جمعتنا يا جرير الجامع

بل إنه عندما غلبت المرأة بوظيفة الولادة في لفظ «الوالدين» جاء تغليب الرجل من زاوية أخرى بتذكير اللفظ، إذ لم يقل «بالوالدين»، وإنما قال: بالوالدين فغلبت الأنثوية مجعما وغلب التذكير نحويا، مما يدل على ميل اللغة إلى الاختصار بحذف علامة التانيث واللجوء إلى التذكير، وهو غير ذى علامة، وربما عد تلك مظهرا من مظاهر طلب الخفة. ومن ذلك أيضا «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَمِسَانِ» (الرحمن ١٩) والمقصود البحر والنهر، أما قوله بعد ذلك «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَانُ» (الرحمن ٢٢) فتغليب نحوي بواسطة الضمير، لأن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر دون النهر، ومن هذا القبيل أيضا:

«يَوْمَ نَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ،

(الحديد ١٢)

«يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ

نُورِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا» (الحديد ١٣)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ،

(التغابن ١٤)

* وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهمَا، (النساء ١٦)

جـ- المراوحة:

والمقصود بها أن يختلف النظر إلى الكلمة من حيث المطابقة بين اعتبارها مفرداً أو مثني أو جمعا، وكذلك بين أن تكون مذكرا أو مؤنثا، ففي قوله تعالى «غُلِبَتِ الرُّومُ» (الروم ٢) جاءت الروم فاعلا لفعل لحقته تاء التانيث ولو قيل «غَلِبَ الروم» لصح ذلك وأجزأ. وقد يصدق ذلك على «من» التي هي في الأصل موصولة، ولكنها تنقل من الموصولية إلى الشرط أو الاستفهام فتبقى على لفظها وعلى صلاحها أن تدل على عموم المعاني الوظيفية الاتية:

- الأفراد أو التثنية أو الجمع.

- التذكير أو التانيث.

فمن أعاد الضمير عليها مفردا مذكرا، فقد راعى اللفظ، ومن أعاده مثني أو جمعا أو مؤنثا، فقد راعى المعنى. وهذه المراوحة بين لفظها، ومعناها عدول عن استصحاب المطابقة للفظ، أو هي أسلوب عدول مقبول، مثل قبول استصحاب المطابقة تماما، ومن ثم لا يعد من قبيل الترخص، لأن الترخص قرار فردي، والعدول أسلوب اجتماعي معترف به من جميع مستعملي اللغة. ونورد فيما يلي شواهد من النوعين: النوع الذي أشرنا إليه بعبارة «غلبت الروم» والنوع الثاني المتصل بلفظ «من» ومعناها، فمن الأول:

* «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا، (التوبة ٩٨) بإعادة الضمير

مذكرا في من «يتخذ» إلى «الأعراب» ولكن:

* «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا» (الحجرات ١٤) بإلحاق علامة التانيث بالفعل

«قالت».

* «أَوَلَمْ يَرَوْا كُمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ» (يس)

(٣١). بإعادة الضمير تذكيرا وجمعا إلى «القرون»، ولكن:

* «وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي» (الأحقاف ١٧) بإلحاق التاء بالفعل «خلت»

والضمير مفرد مؤنث ومن النوع الثاني:

* «وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ»

(الأحزاب ٣١)، فلقد جاءت المراجعة بين اللفظ والمعنى، من حيث التذكير

والتانيث على نحو ما يبدو من المقابلة بين «يقنت» و«تعمل». فلفظ «من» مذكر

لخبره من علامة التانيث، ولكن مدلولها - وهو نساء النبي صلى الله عليه

وسلم - مؤنث. ولما كان الشأن في الكلام أن تكون المطابقة قرينة على المعنى

النحوي كان عدم استصحابها عدولا عنها وكان شيوعه وقبوله أسلوبا

عدوليا. حذف الرابط

د- حذف الرابط:

وفي أصول النحو أنه لا حذف إلا بدليله وإذا وجد دليل الحذف أمن اللبس

مع وجود الحذف، ومن هنا يصبح حذف الرابط مع وجود الدليل أسلوبا

مقبولا عدليا عن استصحاب الرابط أو بعبارة أخرى أصبح حذف الرابط

أسلوبا عدوليا في إطار المطابقة. وقد يكون الرابط المحذوف ضمير الغائب، كما

في قوله تعالى:

* «كَلِمًا رَزَقْنَا مِنْهَا مِنْ نِعْمَةٍ رَزَقْنَا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ» (البقرة

٢٥) أي: رزقناه أو رزقنا إياه.

* «وَأَمْسُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ» (البقرة ٤١) ودليل المحذوف فيها

الموصول وانفتقاره إلى ما يربط صلته به.

* «فَلَنْ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ» (البقرة ٦١) وهذا مثل ما سبق ومثله أيضا.

* «وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْفُمُونَ» (البقرة ٧٢) أي: تكتمونه.

* «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» (البقرة ٧٤ - ٨٥) أي: تعملونه

* «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ» (البقرة ٧٧) أي: تسرونه

وتعلمونه.

* «وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» (البقرة ٧٩) أى: يكسبون.

* «أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (البقرة ٨٠) أى: ما لا تعلمونه.

* «إِن كُفِرَ بِكُمْ رَسُولًا بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ» (البقرة ٨٧) أى: بما لا تهواه.

* «فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ» (البقرة ٨٩) أى: عرفوه.

وقد يكون للغائبة نحو:

* «ادْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ» (البقرة ٤٠ - ٤٧) أى: أنعمتها.

وقد يقدر المحذوف مجرورا بالحرف نحو:

* «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا» (البقرة ٤٨) أى: لا تجزى

فيه:

* «يَغْتَشَى طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ» (آل عمران ١٥٤)

أى: وطائفة منكم قد أهتمتهم.

* «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» (الأعراف ٤٢)

أى: نكفّر عنهم.

* «وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا

لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» (الأعراف ١٥٣) أى: لغفور لهم رحيم بهم.

* «ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»

(الشورى ٢٢) أى يبشر به عباده.

وقد يكون الرابط المحذوف ضمير إشارة نحو:

* «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ» (البقرة ٢٤) أى: فإن لم

تفعلوا ذلك.

* «فَدَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» (البقرة ٧١) أى: يفعلون ذلك.

* «ثُمَّ يَحْرِقُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (البقرة ٧٥) أى:

يعلمون ذلك.

* «ثُمَّ أَوْرَثْنَا مَرْثَتَهُمُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا» (البقرة ٨٤) أى: تشهدون على ذلك.

* «وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ» (المائدة ٦٧) أى: وإن لم تفعل

ذلك.

وقد يكون الرابطة المحذوف حرف عطف، كما قدمنا عند الكلام عن الفصل البلاغى نحو «رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ» (القصص ٦٣)، وقد يكون الرابطة المحذوف مما يدخل على الاجوية نحو «وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» (الانعام ١٢١)، وقد يكون حرف جر، كما فى حال نزع الخافض، وقد يكون غير ذلك.

رابعا: الرتبة:

العدول عن الرتبة عدم مراعاتها بتقديم مراتبه التأخير أو العكس، وتسمى الرتبة فى هذه الحالة رتبة مشوشة، وإنه لبيدو أن التقديم والتأخير وفوائده هو أوضح ما جذب انتباه البلاغيين من الأساليب العدولية إذ جعلوا ذلك مبحثا خاصا من مباحث علمهم وربطوا بين التقديم والاهتمام بالمتقدم حتى لقد قاربوا فى المعنى بين التقديم والقصر فى الأكثر الأعم من الحالات. ويبدو أن الرتبة غير المحفوظة بين أبواب النحو تجرى على النحو التالى:

ضربت زيدا وطلوع الشمس ضربا شديدا يوم الجمعة فى داره تأديبا له، فالفعل والفاعل أو لا يليهما المفعول به فالمفعول معه فالمفعول المطلق، فالظرف والجار والمجرور، فالمفعول لأجله. فإذا قرأنا قول تعالى: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» (الفاتحة ٥) عرفنا أن ذلك إعادة ترتيب لأبواب جملة هى: نعبدك للإله وحده، وذلك يقرب المعنى من قولنا: لانعبد ولانستعين إلا إياك. وتقريب المعنى على هذا النحو وظيفة تقديم المفعول على الفعل وفاعله المقدر. وإذا قرأنا «أَغْوَيْنَا اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» (الأعراف ١٤٠) عرفنا أن تقديم المفعول إنما جاء للتنبيه على أن الفطرة السليمة لا ترى

الالوهية إلا لله، وأن من شأن الطبع السليم أن يقر بالنعمة للمنعم، فإذا كان الله فضلهم على العالمين فأولى بهم ألا يشركوا به أو يعدلوا به غيره.

وإذا قرأنا: «أَنْفُكَ أَلْهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ»، (الصفات ٨٦) ونظرنا إلى ترتيب الأبواب السابق وجدنا المفعول لأجله وهو آخرها رتبة قد تصدر هذا الشاهد يتلوه المفعول به ونعته فعلمنا أن أول ما تعلق به الاهتمام هو السببية التي عبر عنها المفعول لأجله، لأن الكفر عن ضلال قد ترجى له الهداية، أما الكفر عن إفك فذلك انحراف مع تدبير وكيد وإصرار، ولهذا عجب إبراهيم لقومه الذين يعلمون أن الأصنام لا تنفع ولا تضر، ثم يصرون على عبادتها بالباطل. وإذا قرأنا «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَخَفَّ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا» (النساء ٢٦ - ٢٨)، ثم لاحظنا فعل الإرادة ولفظ الجلالة رأينا ترتيب ذلك كما يلي: يريد الله - والله يريد - يريد الله. فإذا بحثنا عن السبب وجدنا تقديم لفظ الجلالة في مورده الثاني إنما كان لوضعه موضع المقارنة مع الذين يتبعون الشهوات، أما في المرة الأولى والثالثة فالاهتمام معلق بالإرادة لا بالمقارنة.

معنى ذلك أن التقديم وهو أسلوب عدولي عن أصل الرتبة ومؤشر أسلوبى، إنما يكون لغايات تتصل بالمعنى وذلك شأن الأسلوب العدولي مع كل القرائن. ومما يتصل بالعدول عن الرتبة لأغراض أسلوبية أيضا:

أ- اللف والنشر المشوش

ب- عكس الترتيب الزمني أو المنطقي

ج- تشويش رتبة الأشباه

ولقد أوردنا نماذج لكل ذلك عند الكلام عن السرتبة غير المحفوظة فلا داعي للإطالة بإعادة ذكره، وإنما نشير إلى النوع الأول (الف والنشر المشوش) في الروم ٢٣ - ٤٨، وفي مقارنة البقرة ٨٨ بالنساء ٤٦، وكذلك. مقارنة النحل ٨٩ بالنساء ٤١، كما نشير لعكس الترتيب الزمني إلى ما في سورة النساء ١٦٣ - ١٦٤، وعكس الترتيب العقلي بالنمل ٢٨، والنجم ٨، ونشير لبيان تشويش رتبة الأشباه بما في الكهف ١ - ٢، والفرقان ٥٨، ٥٩، والبقرة ٧١، والبقرة ١٢٥، والبقرة ١٢٩، وآل عمران ١٥، ويوسف ١٠٩، وغافر ٧١، وكل ذلك مثبت بنصه وشرحه عند الكلام عن قرينة الرتبة فليرجع إليه من شاء.

خامسا - التضام:

من الأساليب العدولية في إقليم التضام ظواهر الحذف والزيادة والاعتراض والفصل النحوي وتجاهل الاختصاص النحوي وتجاهل المناسبة المعجمية (المجاز) وسنتكلم عن كل واحدة من هذه الظواهر باختصار.

١- الحذف:

إذا قلنا إن في أسلوب القرآن حذفاً فلسنا ننسب الحذف إلى مضمون القرآن، وإنما ننسبه إلى تركيب اللغة، ذلك بأن اللغة تجعل للجملة العربية أنماطاً تركيبية معينة، ففي الجملة أركانها ومكملاتها، وفي عناصرها ما يفترق إلى غيره، وما لا يستغنى المعنى عن تقديره، فإذا لم تشتمل الجملة على أحد أركانها، أو ما يقتضيه المعنى أو يقتضيه التركيب من مكملاتها وعناصرها الأخرى، ثم اتضح المعنى بدون ذكر هذه العناصر لوجود الدليل على المحذوف عدداً ذلك حذفاً جيء به لطلب الخفة اختصاراً أو اقتصاراً أو تجنباً للحشو أو لسبب آخر غير ذلك. وكل عنصر من عناصر الجملة صالح لأن يحذف إذا قام الدليل عليه، فأمكن تقديره في الكلام. ولقد يحسن أحياناً أن يحذف الحرف أو الضمير أو الكلمة المفردة أو أحد أركان الجملة أو تكملاتها، كما يحذف من

الكلام ما يقتضيه المعنى، وإن طال الكلام المحذوف «أما الحرف، فقد مر بنا الكلام عن نزع الخافض في كثير من الشواهد القرآنية السابقة كما مر بنا حذف الأدوات الداخلة على الجمل كحذف أداة الاستفهام في قوله تعالى:

* «قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» (البقرة ١٢٤)
* «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ» (الشعراء ٢٢)

وقد يحذف حرف العطف كما في:

* «فَاجَاءَهَا الْمُخَاضُ إِلَى جِدْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا» (مريم ٢٣) أى: فقالت.

* «وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي» (هود ٧٨) أى: فقال.

* «وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ» (يوسف ١٦ - ١٧) أى: فقالوا.

* «إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ» (ص ٢٢) أى: فقالوا.

وربما عددنا ذلك من قبيل الفصل البلاغى، ودليل الحذف في كل ذلك ماثل لا يخفى، ففي آية البقرة ١٢٤ دليل السؤال هو الجواب الذى بعده وفي الشعراء ٢٢ مابين النعمة والتعبيد من مفارقة معجمية تأبى على الجملة أن تكون خبرا وفي مريم ٢٣ الدليل هو ترتيب الأحداث وارتباط أحدها بالآخر، وفي هود ٧٨ وضع عرض البنات بإزاء سبق عمل السيئات، وفي آية يوسف ترتيب الأحداث، وفي آية ص ٢٢ مابين الفزع والخوف من اتحاد في المعنى، فلما جاءت عبارة «لاتخف» كانت ردا على قوله: «فزع منهم» ومعنى هذا أن الدليل قد يكون من اللفظ، وقد يكون من المعنى.

وقد تحذف اللام الموطئة للقسم، كما في قوله تعالى: «وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرْكُمْ» (الحشر ١١) ودليل الحذف ما سبق ذلك من قوله تعالى: «لئن أخرجتم لنخرجن معكم» كما يحذف حرف الجر كما في: «إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» (الأنعام ١١٧) أى: بمن يضل بدليل قوله بعد ذلك «بالمهتدين». والدليل الآخر تركيبي، وهو أن أفعال التفضيل لا ينصب مفعولا به، ومن ثم تلزم الباء في هذا الموضع، وقد يحذف الضمير، وقد رأينا ذلك عند الكلام عن حذف الرابط منذ قليل، وقد يحذف فعل الشروع كما في «فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ» (هود ٧٤) أى: جعل يجادلنا أو أنشأ يجادلنا.

أما حذف ركن الجملة فمنه قوله تعالى:

* «بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٍ» (سبا ١٥) أى بلدتكم بلدة طيبة وربكم رب

غفور.

* «فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ»

(البقرة ١٧٨) أى: فخير له.

* «وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً

فَنَصِّفْ مَا فَرَضْتُمْ» (البقرة ٢٣٧) أى: فحقهن عليكم.

ومن حذف الجملة بركنيتها:

* «فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا»

(البقرة ٦٠) أى: فضرب فانفجرت.

* «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» (البقرة ١٨٤)

أى: فافطر فقضاؤه عدة.

-ومن حذف جمل متعددة يقتضيه المعنى بقريته السياق:

* «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّيْلَبِلُ فَآكَلَا مِنْهَا» (طه ١٢٠ - ١٢١) أى: فاستمع إليه وأطاع وسوسته فأكلًا منها.

* «وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَوَسْوَسَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» (يوسف ٣٢ - ٣٣) أى: فلم يفعل ما أمرته به فادخلوه السجن فدعا ربه قائلاً: رب السجن أحب إلي ...

* «وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ» (يوسف ٣٥ - ٣٦) أى: فتیان رأى كل منهما رؤيا قصها على يوسف ليؤولها له.

* «وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَاوِيلِهِ فَارْسَلُونِ يَوْسُفَ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا» (يوسف ٤٦) أى: فارسلوه فذهب في طلبه، فلما دخل عليه قال: يوسف أيها الصديق.

* «ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ أَسْأَلُ مَا بَالَ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ» (يوسف ٤٩ - ٥١) أى: وصدق تاويل يوسف للرؤيا فعجب الملك لذلك وقال الملك اثنتونى به، فارسلوا إليه من يحضره، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن فرجع الرسول إلى سيده فسأله عنهن فارسل الملك إليهن فاتى بهن، فلما مثلن بين يديه قال ماخطبكن....

* وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ مَكِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ، (يوسف ٥٤ - ٥٦) أى: وقال الملك ائتنونى به استخلصه لِنَفْسِي فَأَتَوْهُ بِهِ فِكَلِمَهُ وَسَمِعَ مِنْهُ فَرَضَى عَنْهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ فَخَطَرَ لِيُوسُفَ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ أَنْ يَنْصِبَهُ خَازِنًا عَلَى مَا فِي خَزَائِنِ الْمَلِكِ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ اجْعَلْنِي أَمِينًا عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ فَأَجَابَهُ الْمَلِكُ إِلَى مَا طَلَبَ وَوَلَاهُ أَمْرَ الْخَزَائِنِ، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ..

* «قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ وَآلِقُ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنْ مَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يَقْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ، (طه ٦٨ - ٧٠) أى: قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وآلق ما في يمينك فالقى عصاه فابتلعت حبالهم وعصيهم فبهتوا لذلك وآمنوا بالله قالوا آمنا برب هارون وموسى. ودليل الحذف في كل ذلك هو قرينة السياق والحذف من كل ذلك حشو لا ضرورة له ولا وجه لذكره.

ب- الزيادة:

ولا يعنى القول بالزيادة أن في القرآن حشوا (معاذ الله) وإنما يعنى أن النحاة حددوا لكل جملة أركانها ومكملاتها القياسية، بحيث يتم المعنى الوظيفي للجملة بوجود هذه العناصر، ولكن المعنى المطلوب بالجملة ليس وظيفيا فقط، وإنما يتخطى مجرد الوظائف من قاعلية إلى مفعولية إلخ، فيسلك مسالك أسلوبية أخرى لا يحققها إلا العناصر الزائدة على مجرد النمط التركيبي ذى المعنى الوظيفي، وإذا كان النحاة مسئولين عن وصف هذه العناصر بالزيادة، فإن البلاغيين يعترفون بما تضيفه هذه العناصر إلى المعنى فهم الذين يقولون: «زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى» ويقصدون بزيادة المعنى ما يلحقه من التوكيد من جراء الزيادة في المبنى. فإذا قلنا: ما زيد قائم فقد

استوفت الجملة أركانها وأداة أسلوبها، بحيث لا يفتقر تركيبها إلى شيء آخر، ولكننا إذا أردنا تأكيد نفي إسناد القيام إلى زيد، فإن وسيلتنا إلى ذلك أن نأتي بالحرف المسمى زائدا فنقول: ما زيد بقائم.

وفي أسلوب القرآن كثير من التوكيد بهذه الوسطة، كما يبدو في الشواهد التالية:

* «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» (فصلت ٤٦) والزائد هو الباء للتوكيد.

* «وَمَا يَشْعُرْكُمْ أَنَّهُ إِذَا جَاءَتْ لِأَيُّمِنُونَ» (الأنعام ١٠٩) والزائد «لا»

* «أَتَتْرَكُونَ فِيمَا هُنَّ آمَنِينَ» (الشعراء ١٤٦) الزائد فيما.

* «وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ» (فاطر ١٩ - ٢١)

الزائد «لا» التي قبل النور وقبل الحرور وقبل الاموات.

* «وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَّوِلْهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» (آل عمران ١٤٠) أي: نداولها ليعلم.

* «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ» (هود ٢٩) أي: كالاعمى الاصم والبصير السميع.

* «فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا» (الصافات ١٠٣) أي: فلما أسلما وتله للجبين ناديناها.

* «حَتَّىٰ إِذَا فَشَلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ» (آل عمران ١٥٢) أي: حتى إذا فشلتم تنازعتم.

* «حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ

وَذُنُّوا أَلَّا مَلَجَا مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا، (التوبة ١١٨) أى:
حتى إذا ضاقت وظنوا تاب عليهم.

* «وَكَذَلِكَ نُقْصِلُ الْآيَاتِ وَلِنَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ» (الأنعام ٥٥) أى:
نقصل لتستبين.

* «وَكَذَلِكَ نُقْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (الاعراف ١٧٤) أى: نقصل
لعلهم يرجعون.

* «فِيمَا رَحِمَةً مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ» (آل عمران ١٥٩) أى: فبرحمة.

* «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» (الشورى ١١) أى: ليس مثله شىء.

* «ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ بَلْ عَجِبُوا» (ق ١، ٢) أى والقرآن المجيد عجبوا.

* «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ»
(النمل ٢) أى وهم بالآخرة يوقنون.

ج- الاعتراض:

الأصل في الجملة أن تتصل أجزاؤها لتتضح فيها الرتبة والاختصاص والعلاقات الأخرى ولكن الأغراض الأسلوبية ربما أباحت العدول عن هذا الأصل بواسطة اعتراض مجرى الكلام بجملة يتطلبها الموقف تسمى الجملة المعترضة، ولا يكون الاعتراض إلا بجملة وهي لكونها معترضة غريبة عن سياق الكلام لا ينسب إليها محل من الاعراب لكونها لم تحل محل أحد مفردات السياق الأصل. وللاعتراض وظيفة بلاغية مهمة هي المبادرة بإبلاغ السامع معنى لولا إبلاغه إياه في حينه لو رد على الكلام بدونه ما لا يرد عليه بوجوده. هذا وسنورد إن شاء الله جملة من شواهد أسلوب الاعتراض في النص القرآني فيما يلي مع وضع الجملة أو الجمل المعترضة في كل هذه الشواهد بين قوسين:

* «فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ اِنِّي وَضَعْتُهَا اُنْثَىٰ (وَاللّٰهُ اَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْاُنْثَىٰ) وَاِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ، (آل عمران ٣٦) وفائدة الاعتراض التنبيه الى سبق علم الله بذلك.

* «وَالَّذِينَ اِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً اَوْ ظَلَمُوا اَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللّٰهَ فَاَسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ (وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ اِلَّا اللّٰهُ) وَلَمْ يُصِرُّوا عَلٰى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ، (آل عمران ١٣٥) والاعتراض لطمأننة قلوب المستغفرين التائبين.

* «لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا اَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْاَمْرِ شَيْءٌ) اَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ اَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَانَّهُمْ طٰلِمُونَ، (آل عمران ١٢٧، ١٢٨) جاء الاعتراض ليدل على ان النصر او الهزيمة من عند الله لا من صنع النبي صلى الله عليه وسلم.

* «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ اُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَاَخْوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْاَخِ وَبَنَاتُ الْاُخْتِ وَاُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي اَرْضَعْنَكُمْ وَاَخْوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَاُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي جُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ (فَاِنْ لَمْ تَكُونُوْا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ) وَحَلَائِلُ اَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ اَصْلَابِكُمْ وَاَنْ تَجْمَعُوْا بَيْنَ الْاُخْتَيْنِ اِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ (اِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَفُوْرًا رَّحِيْمًا) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ اِلَّا مَا مَلَكَتْ اَيْمَانُكُمْ، (٢٣، ٢٤) فالاعتراض الاول تقييد لحكم والثاني للفاصلة.

* «وَإِنْ مِنْكُمْ مَنْ لِيُطِئُنَّ فَإِنْ اَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالِ قَدْ اَنْعَمَ اللّٰهُ عَلٰى اِذْ لَمْ اَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا وَلَنْ اَصَابَكُمْ فُضْلٌ مِنَ اللّٰهِ لِيَقُولَنَّ (كَانَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ) يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَاَفُوزَ فَوْزًا عَظِيْمًا، (النساء ٧٢، ٧٣) فالاعتراض من هنا للتعجيب من امر المنافقين.

* «فَقَاتِلْ فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ (لَا تُكَلِّفُ اِلَّا نَفْسَكَ) وَحِرْضِ الْمُؤْمِنِيْنَ عَسَى اللّٰهُ

أَنْ يَكْفَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا، (النساء ٨٤) جاء الاعتراض بين فعلی أمر متعاطفين للتنبیه إلى أنه لا تزر وازرة وزر أخرى. وربما احتملت الجملة أن تكون حالا من فاعل الفعل «قاتل».

* «فَمَا نَقُضُهُمْ مِثَاقَهُمْ وَكُفَرَهُمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ (بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بِهَتَانَا عَظِيمًا وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا) فَيُظْلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، (النساء ١٥٥ - ١٦١) وقد جاء الاعتراض لنفى دعوى القتل والصلب وبيان الحقيقة في أمر عيسى عليه السلام.

* «لَٰكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، (النساء ١٦٦) وجاء الاعتراض هنا لتدعيم قوله: «لكن الله يشهد».

* «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا (وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ (نَحْنُ نُرْزِقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَفْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ (ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ (لَا

كُفِّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا (ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَقَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (الانعام ١٥١ - ١٥٣) فالاعتراض الاول لبيان أن النهى عن الشرك لا يعنى عدم الإحسان إلى الوالدين بدعوى إخلاص الخضوع لله، والثانى عهد من الله بإنزال الرزق لدعم النهى عن قتل الولد والثالث للفاصلة والرابع لبيان أن الأمر بالقسط إنما هو بحسب طاقة المقسط والخامس للفاصلة.

* وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُكْرَلُ) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ، (النحل / ١٠١) وقد جاء الاعتراض احترازاً من إفهام أن يكون التبديل بلا غاية ولا تدبير.

* هَذَا عَطَاؤُنَا (فَأَمْنٌ أَوْ أَمْسِكُ) بِغَيْرِ حِسَابٍ، (ص ٢٩) أى هذا عطاؤنا بغير حساب ولك الاختيار فى المن والامسك.

* هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا (وَبِئْسَ الْمِهَادُ) هَذَا (فَلْيَذُوقُوهُ) حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ، (ص ٥٥ - ٥٨) والاعتراض الاول للوصول بواسطة ذم جهنم إلى التخويف منها والثانى للسخرية منهم وقد آثروا أن يلوذوا بالعصية والظفیان.

ء - الفصل النحوى: سبق أن ذكرنا أن الاصل فى الكلام أن يكون متصلاً لان العلاقات النحوية والقرائن التى يتضح بها المعنى كالرتبة والتضام إنما تتجلى من خلال الاتصال. غير أن هذا الاصل يمكن العدول عنه لأغراض أسلوبية كما سبق أن رأينا عند الكلام عن الاعتراض وكما نرى الآن بالكلام عن الفصل النحوى وإنما قيدنا الفصل بأنه نحوى للتفريق بينه وبين الفصل البلاغى: ذلك بأن الفصل البلاغى إنما يكون بحذف حرف الربط الذى يربط

جملة بأخرى ولكن الفصل النحوي يأتي بوضع لفظ بين لفظين آخرين في الجملة ينتمي أحدهما إلى الآخر كان يكونا متلازمين أو بينهما أى صورة من صور التضام. من ذلك مثلا أن نفضل بالمفعول بين الفعل وفاعله. والفرق بين الفصل النحوي والاعتراض أن الفصل يكون بالمفرد وان افتقر الى ما يكمله أو بجزء الجملة وأن الاعتراض يكون بالجملة الكاملة. وفيما يلي بعض الشواهد القرآنية على الفصل النحوي مع وضع الفاصل بين قوسين:

* **وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ (بِمَا كَسَبَتْ) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَئِي وَلَا شَفِيعٌ (الانعام ٧٠)** فصل بين النفس وصفتها بالجار والمجرور والصلة.

* **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ (لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (الانعام ٧٩)** فصل بين صاحب الحال والحال بالجار والمجرور والصلة.

* **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا (إِيمَانُهَا) لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا (الانعام ١٥٨)** فصل بالفاعل بين المفعول وصفته كما فصل بالمفعول بين الفعل «ينفع» وفاعله «إيمانها».

* **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ (وَمَغَارِبَهَا) الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا (الاعراف ١٢٧)** فصل بالمعطوف بين المعطوف عليه وصفته والصلة.

* **وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدِينَ (إِحْسَانًا) وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ (النساء ٣٦)** فصل بالمصدر الذي قصد به الأمر بعبادة الوالدين وكل من يجب الإحسان اليهم.

* **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ (شَكٌّ) فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (ابراهيم ١٠)**

فصل بالمبتدأ المؤخر بين الخبر المقدم وصفته.

* «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ (سبأ ٣) فصل بجواب القسم بين المقسم به وصفته.

* «إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ» (غافر ٧١) فصل بالخبر بين المبتدأ وما عطف عليه.

* «يُسَبِّحُ لِلَّهِ (مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» (الجمعة ١) فصل بالفاعل بين لفظ الجلالة المجرور المتعلق بالفعل وبين صفته.

خامسا - تجاهل الاختصاص النحوي: قد يختص بعض الحروف بالدخول على مدخولات معينة كاختصاص الجوازم بالمضارع واختصاص إن وأخواتها بما أصله المبتدأ والخبر وقد يختص بعض المفردات بمدخولات معينة أيضا كالأفعال اللازمة واختصاص كل منها بطائفة من حروف الجر يتعدى بواسطتها وهم جرا «هذا هو الأصل في الاختصاص ولكن هذا الأصل قد يعدل عنه لأسباب أسلوبية فينشأ ما اصطالحنا على تسميته بالأسلوب العدولي. وفيما يلي بعض الشواهد القرآنية على هذا الأسلوب:

* «وَإِنْ كَلَّمَا لِمَا لِيُوقِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ» (هود ١١١) من شأن «لما» وهي جازمة أن تدخل على المضارع ولكنها لم تدخل عليه.

* «وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لِمَا مَنَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» (الزخرف ٢٥) أدخلت «لما» على خبر إن المخففة وذلك موضع اللام.

* «ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ» (البقرة ٨٥) الأصل في ذلك أن يوضع الضمير في داخل لفظ «هؤلاء» مسبوqa بها التنبيه متبوعا بأولاء فيقال:

هانتم أولاء ولكنه تقدم عن «ها التنبيه» اتكالا على صحة دخولها على «أولاء»
أيضا. وليس الأمر كما زعم بعض العربيين أن «هؤلاء» منادى.

«تختص «بين» بالدخول على الاثنين أو الجمع أو الجنس أو المتعاطفين ولا
تدخل على المفرد ولكنها في قوله تعالى: «لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ» (آل عمران
٨٤) دخلت على المفرد لأنه جاء نكرة في سياق النفي فافاد العموم كما يفيد
اسم الجنس.

* «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» (النساء ٣٧) الأصل في
الموصول أن يصف المعرفة ولكنه في هذه الآية وفي عدد آخر غيرها من القرآن
وصف النكرة بعد أن تم وصف النكرة بنكرة أخرى غيرها فاكسبت من
التخصيص ما قربها من المعارف فصلحت أن توصف بالموصول.

* «أَوْجَاءُكُمْ وَكَمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ»
(النساء ٩٠) الأصل في جملة الماضي إذا وقعت حالا أن تتقدمها الواو متلوة
بقد ولكنها هنا وفي عدد من الآيات الأخرى عدل بها عن هذا الأصل ومثابها من
الآيات الأخرى:

* «وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبْ عَلَيَّ وَجْهَهُ خِسرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» (الحج
١١)

* «فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»
(القصص ٢١)

* «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ
بَيْتًا» (العنكبوت ٤١).

* «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أخصاهُ اللَّهُ وَسُوهُ»

* «إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ» (البقرة ١٦٦)

* «الَّذِينَ قَالُوا لِأَخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا» (آل عمران ١٦٨)

سادسا - تجاهل المناسبة المعجمية: وهذا باب واسع لأنه باب الإفادة من جهة والمجاز من جهة ثانية. أما الإفادة فيأتي ترتيبها على المناسبة من جهة أن كلمات المعجم ينسجم بعضها مع بعض ولا ينسجم مع البعض الآخر بمعنى أن العروج مثلا انما يناسبه أن يكون من أسفل إلى أعلى فيقال مثلا «عرج إلى السماء» والسقوط بالعكس فيقال «سقط من حالق» فلو قيل «سقط من أسفل» لكان في ذلك إحالة وانتفت الفائدة وهي شرط الكلام لأن «كلامنا لفظ مفيد» وكذا لو قيل: «يرقون إلى أسفل» أو «تدحرجت من تحت إلى فوق» والعلاقة العنادية بين كل كلمتين متنافيتين في هذه الامثلة تسمى «المفارقة المعجمية» أو هكذا تسمى في هذا البحث. ولكن المفارقة درجات بعضها أقل إيفالا في الإحالة من البعض الآخر. ذلك بأن بعض المفارقات المعجمية يمكن رابها بادعاء علاقة أخرى غير عرفية بين الكلمة وأختها أرادها المتكلم. فإذا كانت علاقات الكلمات في المعجم عرفية فقد يخرج المتكلم عن هذا الأصل بواسطة أسلوب عدولي يطرح العلاقة العرفية وينشئ في مكانها علاقة أخرى عقلية أو فنية فإذا كانت العلاقة عقلية سمي الأسلوب العدولي مجازا مرسلا أو كناية وإذا كانت فنية تشبيهية سمي استعارة. ومن هذا كان طلب فرعون إلى هامان أن يبنى له صرحا مجازا مرسلا لأن المطلوب من هامان لم يكن البناء ذاته وإنما كان الأمر به وكذلك كان شراء الضلالة بالهدى ليس على حقيقته وإنما هو أسلوب عدول عن الحقيقة لأن الضلالة ليست سلعة والهدى ليس ثمنا إلا عن طريق التشبيه بهما وكذلك كان قوله «لَوْوَأُ رُؤُوسَهُمْ» (المنافقون ٥) بمعنى أعرضوا لأن ذلك إنما يكون عند الإعراض دليلا عليه ومن ثم فهو كناية عنه. والمناسبة

المعجمية وجه من أوجه قرينة التضام لأن نقيضها وهو المفارقة دليل على أن
الجملة غير مفيدة ومن ثم كانت غير مقبولة نحويا وإن حسن جرس الفاظها
كما في قول المجنون بن جندب:

محكوكه العينين معطاء القفا كأنما قدت على متن الصفا

ترنو إلى متن شرك أعجفا كأنما ينشر فيه مصحفا

وقد قال فيه أبو زيد: هذا كلام مجنون ولا يفهم كلام المجانين إلا مجنون.
والقرآن الكريم حافل بالأساليب العدولية التي تحل فيها علاقة عقلية أو فنية
محل العلاقة الأصلية العرفية فيثول الكلام إلى أحد الأساليب البيانية العدولية
(وكل أساليب البيان عدولي) ولست أظن القارئ الكريم بحاجة إلى أن أورد له
شواهد من القرآن على مجاز مرسل، أو كناية أو استعارة فادراك ذلك في
متناول الجميع.

الفصل الرابع إباء اللبس في القرآن

أول ما نبدأ به هذا الفصل أن المعاني لا متناهية ولكن المباني محدودة الأعداد ومثلها أنماط التراكيب محدودة الصور، وعند تناول اللا محدود بواسطة المحدود نجد من الضروري نسبة طائفة من وحدات اللا محدود إلى عنصر واحد من عناصر المحدود وإلا تعذر إنجاز هذا التناول. فإذا عدنا إلى الكلام عن مباني اللغة (وهي محدودة) أدركنا أنه لا بد أن ينسب إلى المبني الواحد من مباني اللغة أكثر من معنى واحد من معانيها وهذا هو المشاهد المعلوم لكل من أخذ بنصيب من درس اللغة. فقلب صفحات كتاب كمغنى اللبيب لابن هشام أو الجنى الدانى للمرادي أو رصف المباني للمالقي وسترى أن كل حرف وكل أداة تقوم بعدد من المعاني ثم قلب أى كتاب من كتب الصرف وسترى أن الصيغة الصرفية الواحدة تعبر أيضا عن عدد من المعاني ثم انظر إلى المركبات التى تقوم مقام المفردات كالمركب الإضافى والوصفى والإسنادي وسترى أنها تعبر عن معان مختلفة ثم انظر إلى إضافة المصدر تر أنه صالح لأن يضاف إلى فاعله أو إلى مفعوله فهو إذ يبقى على صورة الإضافة يعبر عن أكثر من معنى وانظر إلى احتمالات عود الضمير واحتمالات صاحب الحال واحتمالات العطف والمعية وأخيرا انظر إلى تراكيب الجمل إذ تبقى على صورتها ويتعدد معناها كالدعاء بالنمط الخبرى والإنكار بالنمط الإستفهامى وهلم جرا.

إذا عرفنا ذلك فلا معدى عن الاعتراف بأن العنصر الواحد من عناصر اللغة وقد تعددت عليه احتمالات المعنى يظل بحاجة إلى قرينة تعين له أحد الاحتمالات وتصرف ما عداه فإذا لم توجد هذه القرينة فقد وقعنا فى اللبس واللبس هو تعدد احتمالات المعنى دون مرجح أى دون قرينة تعين أحد الاحتمالات دون سواه. فإذا اختلف الناس فى حقل إيراد القرائن عند الكلام

فَوَعَى بعضهم الحاجة إليها فأوردها وغفل البعض عنها فإن نصوص الغافلين عن إيرادها سيثيب فيها اللبس وتعدد احتمالات المعانى. وحسبنا أن نضرب لللبس مثلاً بالعبارات الآتية:

١ - ذهبت إلى أبناء زيد وعمرو: لا ندرى في هذا المثال إن كان العطف على الأبناء أو على زيد لأن العطف يصلح أن يكون على المضاف أو على المضاف إليه.

٢ - اشتريت مزرعة لزيد: اللبس هنا في معنى اللام فإن كانت بمعنى التعليل فالمزرعة من أجل زيد وإن كانت للملكية فإن المزرعة كانت لزيد ثم اشتراها منه المتكلم.

٣ - رغب زيد أن يذهب: يصلح الفعل «رغب» أن يتعدى بحروف منها «في» و«عن» و«إلى» والمثال الذى بين أيدينا يحتل «في» أو «عن» فإذا تعدى الفعل بواسطة «في» فالمعنى «أراد» وإذا تعدى بواسطة «عن» فالمعنى «رفض».

٤ - مات زيد مجاهداً في سبيل وطنه: الاحتمالان هنا واقعان على تعليق الجار والمجرور فهل مات زيد في سبيل وطنه أو كان مجاهداً في سبيل وطنه حين مات.

٥ - مثلك أولي بالإنصاف: فعل المصدر هنا صالح لمعنى البناء للفاعل ولعنى البناء للمفعول فهل كان المخاطب أولي بأن ينصف (بكسر الصاد) أو أن ينصف (بفتحها).

٦ - تركت زيدا غاضبا: من صاحب الحال الفاعل أم المفعول؟!

٧ - أخبر زيد عمراً أن خالدًا ينتظره خارج الدار: على من يعود الضمير في «ينتظره»؟ أعلي زيد أم على عمرو.

٨ - زيارة الأصدقاء تسعد النفس: يصلح لفظ الأصدقاء أن يكون فاعل الزيارة وأن يكون مفعولها.

٩ - عجبت لفظنة معلمة اللغة العربية: هل العربية هي المعلمة أو اللغة؟

١٠ - أحببت يوم الجمعة: هل وقع الحب على اليوم أو في اليوم؟

١١ - بارك الله لزيد في ماله وولده: أخبر ذلك أم دعاء؟

١٢ - رجا التلميذ معلمه أن يعيد تلاوة النص: من الذى يعيد التلاوة المعلم أم التلميذ.

وهكذا تتعدد احتمالات العلاقات النحوية في الجملة الواحدة فتتعدد احتمالات المعنى دون قرينة ترجح احد الاحتمالات على ما سواه. فإذا تعددت الاحتمالات على هذا النحو قال العربون: في الجملة إعرابان أو ثلاثة أو ما فوق ذلك. وما أكثر ما نصادف ذلك في النصوص العربية سواء في ذلك ماسما منها وما دنا. نجد ذلك في الشعر وفي النثر بل نجده في رواية الأحاديث كالذى رواه مسلم عن قدوم رجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب على النبي صلى الله عليه وسلم وحوله نفر من المؤمنين فسلم وجلس قال: « فَوَضَعَ رُكْبَتَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، فهذه العبارة التى بين علامات تنصيص يستفاد منها أن الرُكْبَتَيْنِ المذكورتين أولاً إنما هما للرجل والمذكورتين ثانياً للنبي صلى الله عليه وسلم ويعلم منها أن اليدين للرجل غير أننا لا نجد قرينة في النص تحدد لنا ما إذا كان الفخذان للرجل نفسه أو للنبي عليه الصلاة والسلام.

ذلك جائز على كل نص عربى إلا القرآن فإنه إذا بنى جملة سمح تركيبها باللبس سارع النص القرآنى إلى رصد القرائن الدالة على المعنى سواء أكانت هذه القرائن لفظية أم معنوية أم خارجية إلا إذا كان اللبس مقصوداً لذاته لغرض ما كما سنرى وهكذا ربما قرأت الجملة فظننت لأول وهلة أن بها لبساً ولكنك ما تكاد تمنحها قدراً من التأمل حتى تعثر على قرينة أو على عدد من القرائن يتحدد بها معنى الجملة القرآنية وسنورد فيما يلي شواهد قرآنية على ما نقول:

أولا - اللبس في المعنى الوظيفي :

أولا - معنى الحرف :

١ - نماذج من احتمالات معاني «ما» :

* « فَأَلْيَوْمَ نُنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ » (الأعراف ٥١).

لو نظرنا إلى «ما» في عبارة «وما كانوا بآياتنا يجحدون» لالفيناها بمفردها صالحة لان تكون نافية والمعنى معها لم يكونوا يجحدون بآياتنا ولكن قرينتين تقومان دون اعتقاد هذا المعنى:

الأولى معنوية هي ما يمكن أن يقوم من التناقض بين ما يفيد صدر الآية من عقاب بواسطة النسيان وبين نفي الجحود عن هؤلاء المعاقبين.

والثانية لفظية وهي أن «ماكانوا» معطوفة على «مانسوا» والمعروف أن «ما» في «كما نسوا» مصدرية والكاف للتعليل فتكون «ما» المعطوفة مصدرية أيضا والمعنى: فالיום ننساهم لنسيانهم لقاء يومهم هذا ولسبق جحودهم بآياتنا.

* « وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ أَهْلَ الْأَعْرَافِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ » (الأعراف ٤٨، ٤٩)

لو نظرنا إلى عبارة «ما أغنى عنكم جمعكم» لوجدناها صالحة للنفي والاستفهام ولكن هناك قرينة على إرادة المعنى الثاني من جهتين:

الأولى معنوية هي أن النداء يناسبه الاستفهام أما النفي فيأتي ابتداء دون نداء في الأغلب الأعم.

والثانية لفظية وهي ما بعد ذلك من استفهام بقوله «أهؤلاء الذين..» فدل

على أن ما قبل ذلك كان استفهاماً أيضاً.

* « قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » (يونس ١٠١) تحتمل عبارة «وما تغني الآيات» أن تكون «ما» نافية وأن تكون استفهامية وذلك عند عزلها عن سياق الآية أما في سياق الآية فالقرينة قائمة على الاستفهام الإنكاري لأن إغناء الآيات والنذر يتطلب الإيمان بها ولا يعقل أن يلتمس الذين لا يؤمنون بها غناء فيها فلا وجه للقول بالنفي لأنه بديهى لا يحتاج إلي نص أضف إلى ذلك أن جملة «ماذا في السموات والأرض» هي جملة استفهامية في الأصل وإن حلت محل المفردات فصارت في موقع المفعول به أى أن «ما» التي في أولها استفهامية فإذا عطف عليها «ما» أخرى فأولى بهذه المعطوفة أن تكون استفهامية أيضاً هذا على الرغم من تحول نفي الاستفهام الأول من الإسناد إلي الإغراء وبقاء الثاني على معنى الاستفهام الإنكاري - فمعنى الآية: «قل انظروا أى شىء في السموات والأرض من الآيات وهل تجدى الآيات والنذر قوما لا يؤمنون بها».

* « قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكَلِّبُوا مَا آسَأَكُنَّ عَلَيْكُمْ » (المائدة ٤) قد يظن بالواو في «وما علمتم» العطف و «ما» الموصولية فيكون المعنى «أحل لكم ما علمتم» ولكن القرينة المانعة لهذا المعنى تأتي من جهتين: أولاهما ما يعرف من الشرع من تحريم أكل الجوارح والثانية الفاء التي يتبين منها أن «ما» شرطية والمعنى: أيما جارحة علمتموها الصيد فأمسكت صيدا فكلوا مما أمسكت.

* « وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » (سبا ٣٩) لو أخذنا الجملة الأولى من الآية لأحتملت أن تكون «ما» نافية وأن يكون المعنى: لم تنفقوا شيئاً فيخلفه الله (بنصب فعل الإخلاف) كالمعنى في قولهم: لست أبى فتؤدبنى غير أن الفاء دخلت على جملة اسمية ولكن يحول دون هذا الاحتمال أن سياق الآية إذ يقرر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له وأنه خير

الرازقين فما دام الامر كذلك فإن «ماء» شرطية والمعني أن كل شئ تنفقونه فالله يخلفه.

* «قُلْ نَعَالُوا أَتَلُمَا حَرَمَ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ.. الخ، (الأنعام ١٥١)

تحتمل «ماء» في قوله تعالى «ماحرم» أن تكون مصدرية أى: تعالوا أتل تحريم ربكم عليكم وأن تكون موصولة أى: تعالوا أتل الذى حرمه ربكم عليكم ولكن القرينة قائمة في الآية على إرادة المصدرية لأن المثلث في الآية تحريمات لا محرمات وآية ذلك أن الله لا يحرم عدم الاشراك وإنما يجعله بدلا من «ما حرم» فيبدل مصدر هو (عدم الإشراك) من مصدر آخر هو (التحريم) المفهوم من «ما حرم» أما قوله: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»، فذلك جملة معترضة.

* «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ» (آل عمران ١٩٨) تحتمل «ماء» في التركيب خارج النص القرآنى أن تكون نافية كما تحتمل أن تكون موصولة ويحول دون فهم المعنى الاول في القرآن أن الله وعد الأبرار بالجنة في أماكن أخرى من القرآن وهل بعد الجنة خير يرتجى؟! لهذا كان المعني الذى يتعين بالقرينة أن الذى عند الله للأبرار خير من نعم الجنة أضف إلي ذلك النص على المفضل عليه بلفظ خير وذلك قوله تعالى: «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ».

* «وَمَا تَلَكَ بِبَيْمِينِكَ يَا مُوسَى» (طه ١٧) تحتمل «ماء» في هذه الآية أن تكون نافية وأن تكون استفهامية فعل النفي يكون المعنى: ليست تلك بيمينك وعلى الاستفهام يكون: أى شئ تلك التى بيمينك والقرينة على إرادة الاستفهام ما يأتى بعد ذلك من جواب فالنفسى خبر والإثبات الذى بعد ذلك يناقض النفي فلو كان المقصود هو النفي لكان ما بعده تكديبا له (تعالى الله عن ذلك) إذ لا يعقل أن يهش بها علي غنمه دون أن تكون في يده.

* « لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ » (يس ٢٥)

تحتمل «ما» في «وما عملته» أن تكون موصولة فيكون المعنى «والذي عملته أيديهم» وأن تكون نافية وجملتها حينئذ حالية والمعنى «والحال أنه لم تصنعه أيديهم» وقرينة إرادة المعنى الثاني هي قوله تعالى : «أفلا يشكرون» لأن أكلهم ما لم تصنعه أيديهم أولى أن يكون سببا لشكر الله على نعمه من أكلهم ما صنعه بأنفسهم.

* « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » (يس ٦٩) تحتمل «ما» في هذه

الآية أن تكون موصولة فيكون المعنى «وما علمناه الشعر والذي ينبغي للشعر» وأن تكون نافية والمعنى «وما علمناه الشعر وليس ينبغي له أن يكون شاعراً» وقرينة المعنى الثاني أن ما ينبغي للشعر هو الملكة وهي ليست موضوع تعليم ثم قواعد العروض ولم تكن وضعت في ذلك الوقت . وشئ آخر أن القرآن نفى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون شاعراً وعن القرآن أن يكون قول شاعر فالأولى صرف «ما» إلى معنى النفي.

٢ - نماذج من احتمالات الواو:

* « قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا

أَنْتَ قَاضٍ » (طه ٧٢)

تحتمل الواو هنا أن تكون للقسم والمعنى «نقسم بمن فطرنا» وأن تكون بمعنى العطف والمعنى «لن نؤثرك على من فطرنا» والقرينة الدالة على إرادة العطف قرينة حالية وهي أنهم كانوا في حالة اعتراف بالدخول في دين موسى فلم يسبق لهم عهد بأن الله فطرهم وإذا لم يسبق لهم ولا لفرعون هذا العهد فإن القسم حينئذ غير مراد وإنما المراد إعلان الدخول في دين موسى وأنهم لن يفضلوا فرعون على الإله الذي خلقهم.

* « إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ »

تحتمل الواو هنا أن تكون للاستئناف وذلك على إرادة التحريض أى إذا كنا عصبية فنحن قادرون على الكيد فلا ينبغي أن نصبر على حب إبننا إياهما كما تحتمل أن تكون للحال والمعنى أن حبه لهما وهما فردان فقط أكثر من حبه إيانا ونحن عصبية والقرينة على إرادة المعنى الثانى نسبة أبيهم إلى الضلال بقولهم « إن أبانا لفى ضلال مبین، أى أن عاطفته مختلفة المعايير فى زعمهم إذ كان مطلبهم أن يقسم حبه كتقسيم الميراث.

* « مَثَلُ الْقَرِيفَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا، (هود ٢٤)

هناك فرق بين عطف الأفراد وعطف الأعراض القائمة فى الفرد الواحد ففى قولك: هذان زيد وعمرو لا يجوز أن تقول: هذان زيد وعمرو بدون ذكر الواو أما فى قولك: هذا كاتب وشاعر فيجوز أن تقول: هذا كاتب شاعر. فلو عددنا الواوين الداخلتين على «الأصم» و «السميع» من قبيل عطف الأفراد لكان الكلام عن أربعة أفراد هم الأعمى والأصم والسميع والبصير ولتناقض ذلك مع قوله «هل يستويان» أما إذ جعلناها من قبيل عطف الأعراض فإن الكلام يكون عن اثنين أحدهما أعمى أصم والآخر بصير سميع وهذا هو المعنى المقصود بدليل ألف الاثنين التى أسند إليها الفعل فى قوله «هل يستويان مثلاً».

٣- من احتمالات الباء :

* « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ، (لقمان ١٣)

تحتمل الباء معنى القسم بالله وتحتمل التعلق بالفعل «تشرك» ولكن هناك قرينة حالية على إرادة المعنى الثانى هى أننا لا نعلم أن ابن لقمان كان شاكاً فى وحدانية الله أو منكراً لها ومن ثم ليس هناك من داع لأن يقسم أبوه ليصل إلى

٤ - من احتمالات «من» :

* « قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ، (الاحزاب ١٦)

تحتل «من» الجارة ومجرورها أن تتعلق بالمصدر «الفرار» وأن تتعلق بالفعل «فررتم» فعل الأول يكون المعنى «لن ينفعكم الفرار من الموت إن فررتم» وعلى الثانى «إن فررتم من الموت فلن ينفعكم الفرار» وقرينة إرادة المعنى الثانى أن الرابط «إذا» الذى حل محل الفاء يقتضى شرطا مقدرًا وهذا الشرط المقدر لا يفسره المصدر وإنما يفسره الفعل الذى بعد «إن» وعلى هذا يكون المقصود «إن فررتم من الموت فلن ينفعكم الفرار وإذا فررتم إذا لا تمتعون إلا قليلا». وإذا كنا نحن الآن ندرك ذلك عن خلال صناعة النحو فإن العربى الفصيح كان يدركه بالذوق والملكة.

٥ - من احتمالات اللام :

* « هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ، (إبراهيم ٥٢).

هناك فعلان اقترنا باللام التى تصلح للأمر والإعراب فيهما بحذف النون كما يصلحان للتعليل والإعراب فيهما بحذف النون أيضا والمعروف أن حذف النون يصلح علامة للجزم وللنصب ولكن ثمة قرينة لفظية فى الفعل الثالث المنصوب بالفتحة بعد اللام لأنه معطوف على الفعلين السابقين وبذلك يكون الفعلان السابقان منصوبين بحذف النون واللام قبلهما للتعليل. أضف إلى ذلك أن الآية تبدأ بعبارة «هذا بلاغ» ومعناها : «هذا للتبليغ» فإذا جعلنا ما عطف عليها متفقا معها فى المعنى أيقنا أن اللامات فى الآية دخلت على مصادر مؤولة وأن المعنى : هذا للتبليغ والإنذار والعلم والتذكير. أو هذا ليلبغوا

وَلِيُنذَرُوا وَلِيَعْلَمُوا وَلِيذْكُرُوا.

* «الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا» (الطلاق ١٢).

تحتل اللام معنى الأمر بالعلم ومعنى التعليل للتنزيل وقرينة المعنى الثاني قوله: «يتنزل الأمر بينهن» فاللام متعلقة بالفعل «يتنزل» ولو كانت اللام للأمر لكان قوله «يتنزل الأمر بينهن» عبارة لا وظيفة لها.

٦- احتمالات «إذا»:

* «فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فُصِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةَ كَامِلَةً» (البقرة ١٩٦).

تحتل «إذا» معنى الشرط فيكون المعنى: إذا كان الصيام في الحج فثلاثة وإذا كان بعد الرجوع فسبعة كما تحتل مجرد الظرفية فيكون المعنى: صوموا ثلاثة أيام في الحج ثم سبعة عند رجوعكم وقرينة إرادة المعنى الثاني قوله تعالى: «تلك عشرة كاملة» وبذلك تكون «إذا» بمعنى «عند» أى على معنى الظرفية المحضة.

ثانيا- احتمالات الصيغة الصرفية:

* «قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ وَاَهُلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» (النمل ٤٩)

في هذه الآية نري صيغة «تفاعلوا» تحتل الماضي والأمر فعلى الاول يكون المعنى على البدلية من قالوا أى أن قولهم كان في صورة القسم وعلى الثاني يصبح «تقاسموا» جزءا من مقول القول. وقرينة المعنى الثاني حالية لان الآية تكشف عن الكيد الذى كان هؤلاء القائلون يدبرونه وذلك من خلال ارتكابهم جريمة القتل له ولاهله ثم إنكارهم شهود وقوع الجريمة ثم زعمهم الصدق

فهذا الكيد مما يناسب أن يشك كل واحد منهم في قدرة الآخر على الصمود في الإنكار وعدم الوشاية ومن ثم يحتاج كل منهم إلى أن يُطمئن نفسه بطلب القسم من أصحابه وهذا هو فعل الأمر «تقاسموا» أى ليقسم كل منا لرفاقه.

وفي الآية أيضا قضية احتمالات الباء الداخلة على لفظ الجلالة هما جار ومجرور متعلقان بالفعل الذى قبلهما (والفعل حينئذ صالح للماضى والأمر) أم هما قسم بالله (ولا يكون الفعل معهما إلا ماضيا) وواضح أنهما جار ومجرور متعلق بالفعل لانهم لم يكن بينهم من يعارض هذا الكيد والتدبير أو ينكره حتى يستوجب القسم.

* « ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ » (البلد ١٧)

يحتمل الفعل «تواصوا» في هذه الآية بحكم صيغته أن يكون للأمر بمعنى فليوص بعضكم بعضا ويحتمل أن يكون ماضيا بمعنى أن بعضهم أوصى بعضا وقرينة إرادة المعنى الثانى لفظية وهى عطف هذا الفعل على ماض آخر سابق عليه هو الفعل «آمنوا» فدل ذلك على إرادة الماضى.

* « قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ » (النور ٥٤)

يحتمل الفعل «تولوا» بحكم صيغته أن يكون ماضيا وأن يكون مضارعا وقرينة إرادة المضارعة ما قبله من فعل الأمر الدال على الحال أو الاستقبال وهو مسند إلى المخاطبين بالطبع فما يترتب على هذا الأمر لا بد أن يفيد الحال أو الاستقبال ويسند إلى المخاطبين أيضا وذلك شأن المضارع وليس شأن الماضى لأن هذه الصورة لو كانت للماضى لكان الاسناد إلى الغائبين وهو مالا يتفق مع قوله : « وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ » .

* « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ

التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، (الأعراف ٢٦)

تحتمل كلمة «لباس» بحكم صيغتها أن تكون اسما وأن تكون مصدراً للفعل على صيغة «فَاعِلٌ» فشأنها شأن «قاتل يقاتل قتالا ومقاتلة». فأما معنى الاسمية فهو المقصود بالأولى بدليل قوله تعالى «يوارى سوءاتكم» وأما الثانية فمعناها المصدرية بمعنى الملابس أى المخالطة والمصاحبة وذلك أن التقوى لا ملبس لها خاصة بها وأما قولهم إن الإقامة عليها تجعلها كاللباس للتقى فذلك تمحك وعدم دراية باللغة. والمعنيان المستعملان في اللباس الأول والثاني يشبهان ما في قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِئُوا غَيْرَ سَاعَةٍ» (الروم ٣٠) فالساعة الأولى القيامة والثانية الفترة القصيرة من الوقت ففي الكلام مشاكلة.

* « وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ، (النور ٣٣)

وأمر الصيغة هنا كأمرها في الآية السابقة تماما أى أن لفظ الكتاب يصلح كما صلح لفظ «لباس» للاسمية والمصدرية ولكن في الآية قرينة تعين إرادة المعنى الثانى لأن تركيب الآية من قبيل الاخبار بالذى والالف واللام وهذا النمط من التراكيب إذا أشرب معنى الشرط لزمته الفاء في الخبر كما تلازم جواب الشرط وطبقا لشروط ذلك. وقد لزممت الفاء الخبر هنا لأنه جملة طلبية مثلها مثل قوله تعالى : « وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمْ ، (النساء ١٦) فالدليل على أن المقصود بالكتاب المكاتبه قوله تعالى : «فكاتبوهم».

* « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ، (الإسراء ٤٦)

تحتمل كلمة «نفورا» أن تكون جمع تكسير مفرده «نافر» أى «ولوا نافرين» وتحمل أن تكون مصدرا مفعولا لأجله أى «ولوا بسبب النفور» وفي محيط

الآية ما يدل على أن المقصود معنى الجمع لأن سياق الآيات يقول:

١ - إذا قرأت القرآن حُلنا بينك وبين أفعال الكافرين.

٢ - وجعلنا قلوبهم مستكنة دون فهمه وجعلنا آذانهم صماء دون الإصغاء إليه.

٣ - فهم ينفرون من سماعه إذا ذكر الله وحده في نصه.

٤ - نحن نعلم كيف يستمعون إليك وكيف يتناجون بنسبتك إلى السحر.

٥ - تأمل كيف ضلوا في شأنك إذ ذهبوا ينسبونك إلى مختلف الصفات.

فالآيات من قبل ومن بعد تدور حول كراهية هؤلاء الكفار للإسلام ورسول الإسلام ونفورهم منهما فإذا كان النفور صفة مفروسة في نفوسهم وكانوا معروفين به فلا معنى لالتماس علة لتوليهم على أديارهم وإن كانت هذه العلة هي النفور لأن السبب إنما يذكر عند جهله وهكذا تقوم القرينة على أن المقصود «لولا على أديارهم نافرين» والمقصود الحال وليس المفعول لأجله.

* «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ» (الذاريات ٤٧)

يحمل لفظ «بأيدي» أن يكون معناه جمع «يد» وأن يكون من «الأيدي» بمعنى القوة وهو الذي نجده في قوله تعالى: «وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ» (ص ١٧) وهو أيضا الذي يشتق منه الفعل «أيد يؤيد تأييدا» وفي الآية قرينة على أن المعنى الثاني هو المراد وذلك قوله «وإننا لموسعون» * أي وفي وسعنا أن نفعل ذلك وأكثر.

* «فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ» (النساء ١٠٣)

لدينا كلمتان تحتلان بحكم الصيغة أن تكونا مصدرين أو جمعي تكسير

* راجع معنى قوله تعالى: «وعلى الموسع قعره» (البقرة ٢٣٦)

كالذى سبق في الكلام عن لفظ «نفور» هاتان هما «قيامًا» و «قعودًا» غير أن القرينة تحتم أن يكون المعنى على جمع التكسير لأن قوله تعالى «وعلى جنوبكم» يبين أن الكلام إنما هو عن كيفيات أوضاع الأجسام عند الذكر إذ يجوز للذاكرين أن يكونوا قائمين أو قاعدين أو على جنوبهم. وكون اسم الفاعل (جمع قائم وقاعد) حالًا وهو وصف مشتق أصيل في الاشتقاق أولى من نيابة المصدر عنه بنقله إلى وظائف المشتقات. حتى لقد جعله النحاة كثيرًا ولم يجعلوه مطردًا إذ يقول ابن مالك:

ومصدر منكر حالًا يقع بكثرة كبغثة زيد طلع

كما جعلوا الحال مشتقًا في الغالب إذ يقول:

وكونه منتقلًا مشتقًا يغلب لكن ليس مستحقًا

فالقول بأن المشتق هو الحال أولى لأن الغالب أولى من الكثير.

* « قَالَ عَفْرَيْتَ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، (النمل

(٣٩

يحتمل لفظ «أتيك» أن يكون اسم فاعل مضافًا إلى الكاف وأن يكون مضارعًا ناصبًا لمحل الكاف والمعنى على الأول «أنا الذى أتيتك به» وعلى الثانى «سوف أتيك به» لأن إضافة اسم الفاعل تجعله عرضه للانصراف إلى الماضى كحين تقول «أنا قاتل زيد» إذا وضعت ذلك بإزاء «أنا قاتل زيد» بتنوين اسم الفاعل ونصب زيد على المفعولية لأنك مأمور فى هذه الحالة دون الأولى أن تقول «إن شاء الله» قال تعالى: « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ». (الكهف ٢٣، ٢٤) وتقوم القرينة على إرادة معنى المضارع فى قول سليمان قبل ذلك بقليل: «أيكم يأتينى بعرشها» إذ يدل ذلك على أن العرش لم يسبق إحضاره إلى مجلس سليمان.

* « ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا، (الكهف ١٢)

يحتمل لفظ «أحصى» أن يكون فعلا ماضيا فيكون «أمدأ» مفعولا به أو أن يكون «أحصى» أفعال تفضيل من الرباعى على غير قياس فيكون «أمدأ» تمييزاً والقرينة على إرادة المضى قرينة حالية مستفادة من القصة إذ لم يكن المقصود إجراء مباراة في الإحصاء بين الفرقاء وإنما كان المقصود معرفة الفترة التى قضاها الفتية في الكهف وما دام الله سبحانه قد ذكر هذه الفترة بأنها «ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا» فلا وجه للمباراة في إحصاء ذلك وإنما المقصود التنبيه على حيرة الناس في أمر هذه الفترة فالفتية أنفسهم يقولون «لبثنا يوماً أو بعض يوم» والناس يعترفون بجهلهم فيقال لهم: «الله أعلم بما لبثوا» فلا وجه إذاً للمباراة في دقة الإحصاء، وعليه يجب أن يكون المعنى على إرادة الفعل الماضى أى «ثم بعثنا الفتية لنعلم إن كان بعض الناس على معرفة بالفترة التى قضوها بالكهف» والله يعلم ذلك ولكن المقصود «ليعلم الناس» أو «لينكشف للناس».

* «وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا» (الكهف ٢٤) يصلح لفظ «أقرب» للمضارعة ولأفعل التفضيل وهو المقصود فاللام بمعنى «إلى» وليست للتعليل بدليل ذكر الأقرب إلى الرشد بعد ذلك وهو «ولبثوا في كهفهم.. الخ» (الكهف ٢٥).

* «وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى» (طه ٨٢)

يحتمل لفظ «أعجلك» بوقوعه بعد «ما» وبحكم صيغته أن يكون للتعجب أى ما أشد عجلتك عن قومك وأن يكون ماضيا والمعنى على الاستفهام أى ما الذى جعلك تعجل فتأتى قبل قومك؟ والقرينة على إرادة الاستفهام هى إيراد الجواب إذ يقول موسى: هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى» (طه ٨٤) وهكذا لا يبقى وجه للتعجب.

* «وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ تَارٌ حَامِيَةٌ» (القارعة ١٠، ١١)

هنا أيضا تحتمل عبارة «وما أدراك» أن تكون استفهاما أو تعجبا ولكن

القرينة هذه المرة قائمة على إرادة التعجب لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدرى الكثير من أمر جهنم إذ اطلع عليها ليلة المعراج ووصفها وصفا دقيقا فلا يعقل بعد ذلك أن يكون المعنى على الاستفهام لما يترتب على ذلك من التناقض. أضف إلى ذلك أن صرف المعنى إلى الاستفهام لا يترتب عليه شذو بال أما التعجب فلتفخيم النار وتعظيم شأنها.

ثالثا - احتمالات العلاقات السياقية :

* « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (البقرة ٢١)

تحتمل عبارة «والذين من قبلكم» أن تكون عطفا على لفظ «ربكم» وأن تكون عطفا على ضمير مخاطبين في «خلقكم» فالناس على المعنى الاول مطالبون أن يتقوا الذين من قبلهم وعلى المعنى الثاني مخاطبون بأن الله خلقهم وخلق الذين من قبلهم. وقرينة إرادة المعنى الثاني أن الإسلام لا يأمر بتقوى غير الله وأن الأمر بتقوى الذين من قبلهم ضرب من ضروب عبادة السلف يأباه الإسلام.

* « فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ » (البقرة ١٣٧).

يحتمل التركيب علاقتين سياقيتين : الاولى أن يكون «ومن اتبعن» عطفا على لفظ الجلالة فيكون النبي صلى الله عليه وسلم قد أسلم وجهه لمن اتبعه والثانية أن يكون «ومن اتبعن» عطفا على التاء في «أسلمت» (وهذا أولي من جعله مفعولا معه بسبب صحة العطف) وفي هذه الحالة يكون النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه قد أسلموا وجوههم إلى الله. وقرينة إرادة المعنى الثاني أن الله تعالى قد أمر نبيه عليه السلام أن يسأل الأميين (الكفار من أبناء الأمة العربية) والذين أوتوا الكتاب إن كانوا أسلموا وجوههم كما فعل النبي ومن تابعه أولم يسلموا ولو كان المعنى المقصود هو الاول ما كان هناك وجه لسؤال الكتابيين والأميين.

« شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْإِسْنَطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (آل عمران ١٨)

تحتمل العلاقات السياقية في تركيب الآية أحد أمرين: فإما أن يكون الملائكة وأولو العلم معطوفين على الضمير (هو) فيكونوا شركاء لله في الألوهية (حاشا لله وتعالى الله) وإما أن يكونا معطوفين على لفظ الجلالة فيكونوا قد شهدوا مع الله أنه لا إله إلا هو والقرينة على إرادة المعنى الثاني قوله (قائما) لا قائمين وتكرار عبارة لا إله إلا هو في نهاية الآية مما يذهب تماما بالاحتمال الآخر (تعالى الله عن ذلك).

« وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ » (النساء ٧٥)

يحتمل تركيب الآية علاقتين سياقيتين: الأولى أن يكون النساء والولدان عطفًا على لفظ الجلالة وعلى المستضعفين من الرجال وبذلك يكون جهد المقاتلين إنما هو في سبيل الله وسبيل المستضعفين من الرجال والمستضعفات من النساء والمستضعفين من الولدان والثانية أن يكون النساء والولدان عطفًا على لفظ المستضعفين وعلى هذا يكون وصف المستضعفين منصرفًا إلى الرجال فقط ويكون جهد القتال في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين من الرجال كما يكون كذلك في سبيل النساء وفي سبيل الولدان دون تقييد بالاستضعاف. وقرينة إرادة المعنى الأول قوله تعالى في آية أخرى « إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ » (آل عمران ٩٨) بجر النساء والولدان عطفًا على الرجال لا نصبهما عطفًا على المستضعفين إذ لو كان المعنى عطفًا على المستضعفين لوجب نصب النساء والولدان بعد إلا وكذلك قوله تعالى « وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ » (النساء ١٢٧) وهكذا يظهر أن الاستضعاف في الشاهد صفة لكل طائفة على حدة للرجال وللنساء وللولدان.

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

إِلَّا جَهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ، (التوبة ٧٩)

يحتمل تركيب هذه الآية أحد معنيين : الأول عطف «الذين» الثانية على «الذين» الأولى فيترتب على ذلك:

١- أن يكون الذين لا يجدون قد سخروا من المؤمنين كما سخر منهم الذين يلمزون.

ب- أن يكون الله تعالى قد سخر من الذين يلمزون والذين لا يجدون سواء بسواء.

وأما المعنى الثاني فيقتضي عطف «الذين» الثانية على المؤمنين فتكون السخرية قد وقعت عليهم لا منهم وبهذا يسخر الله تعالى من الذين يلمزون فقط وقرينة إرادة هذا المعنى الثاني قرينة عقلية هي أن المعقول ألا يسخر الفقراء من الأغنياء المطوعين بالصدقات وأن يكون عذر هؤلاء الفقراء مقبولا عند الله فلا مجال للسخرية منهم.

« وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، (التحریم ٣)

يحتمل تركيب هذه الآية أحد معنيين أيضا: الأول أن يكون «حديثا» ظرفا أى منذ وقت حديث أو صفة للمفعول المطلق نائبة عنه والمعنى : «أسر إسراراً حديثاً» أى من الناحية الزمنية والثانى أن يكون «حديثاً» بمعنى «كلاماً» أى أفضى إلى بعض أزواجه بكلام أراد به أن يكون سرا بينه وبينها. والقرينة على إرادة هذا المعنى الأخير عود الضمير إلى الحديث من «نبأها به» و «أظهره» و «عليه» و «بعضه» إذ لا يعود الضمير على الظرف إلا أن يكون من صفته نحو «أمس الذى مضى» أو «سأدرك منك ثأرى يوماً لا تغيب شمس» فعود الضمير هنا على الحديث دليل على أنه لا هو ظرف ولا نائب عن المفعول المطلق.

« وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ، (الحجر ٢٠)

يمكن لهذا الشاهد عند الاعتماد على التركيب فقط أن يكون على أحد معنيين

الاول أن يكون «ومن لستم له برازقين» معطوفا على مفعول «جعلنا» أى وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين أى أبناءكم الصغار وأزواجكم والثانى أن يكون «ومن لستم له برازقين» مفعولا معه مصاحبها للضمير فى «لكم» أى لكم ولن لستم له برازقين وهذا المعنى الثانى هو الأوضح بدليل ذكر المعاش لأن ذكر المعاش يجعل مصدر رزق هؤلاء الأزواج والصغار من عند الله وليس من عند أوليائهم فالله سبحانه جعل المعاش للأولياء ولعيالهم.

«أولم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى» (طه ١٢٨).

هناك احتمالان للتركيب هنا : الاول أن يكون الضمير فى «يمشون» والضمير فى مساكنهم للقرون أى «الأجيال» السابقة والجملة حال من «القرون» أى أن المشى كان ملابسا للإهلاك والثانى أن تكون الواو فى «يمشون» لمرجع الضمير من «لهم» و«قبلهم» وأن يكون الضمير فى مساكنهم باقيا على دلالة على القرون الغابرة.

وبذلك يكون المعنى أن كفار اليوم يمشون فى مساكن كفار الامس والجملة على هذا المعنى حال وصاحبها مرجع الضمير فى «قبلهم». والقرينة على إرادة المعنى الثانى من التاريخ إذ لا نعلم أن قوما من الغابرين قد أهلكوا أثناء المشى أو بسببه.

«فأنجيناهُ والَّذِينَ مَعَهُ فى الْفُلْكِ» (الاعراف ٦٤)

يحتمل معنى التركيب هنا أحد أمرين : أولهما أن تكون الواو للحال والمعنى «أنجيناهُ أثناء وجود اتباعه فى الفلك» والثانى أن تكون عاطفة والمعنى «أتجيناهُ هو والذين معه فى الفلك» وقرينة إرادة المعنى الثانى أن الاول يقتضى أن يكون نوح خارج السفينة وقت الإنقاذ ولو كان كذلك لادركه الغرق.

«انظروا إلى ثمره إذا أثمرَ وَيَنْعِهِ» (الانعام ١٤١)

يمكن بحكم التركيب أن يعود الضمير في «ينعه» على الثمر كما يمكن أن يعود على الشجر الذى يحمل الثمر ولكن قرينة العلاقات المعجمية بين الفاظ اللغة تحكم بأن الينع مضاف إلى ضمير الثمر لأن اللغة تشتمل على عبارة «ثمره يانعة» ولا تشتمل على «شجرة يانعة» وهكذا تصبح المناسبة المعجمية بين الالفاظ قرينة من قرائن المعنى.

* «كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ» (الشعراء ٥٩

(٦٠)

إذا كان لفظ «مشرقين» حالا فمن صاحب الحال هو فاعل «اتبعوهم» أم مفعول؟ من الواضح أن الاتجاه إلى الشرق حده الهاربون ولم يحدده المتبعون ولو هرب الهاربون إلى الغرب لاتبعهم جنود فرعون وبذا يكون صاحب الحال هو ضمير الغائبين من «فاتبعوهم».

* «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى» (النجم ١٨). تصلح «الكبرى» مفعولا به للفعل «رأى» كما تصلح نعتا لآيات ربه. وهو الأوضح لتعدد ما رآه بشهادة الآيات السابقة ومن ثم لا يكون قد رأى آية واحدة «كبرى» فقط.

* «وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (يونس ١٠٥)

من صاحب الحال «حنيفاً» هو فاعل «أقم» أم هو «وجهك»؟ القرينة على إرادة المعنى الأول ما نجده في آيات أخرى من القرآن مثل قوله تعالى: «إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً» (النحل ١٢٠) وقوله «حنفاء لله غير مشركين به» (الحج ٣١) وقوله «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء» (البينة ٥) وفي ذلك دليل على أن «حنيفاً» للشخص وليس للوجه.

* «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (يونس

(٤٤

يمكن أن يكون لفظ «أنفسهم» توكيدا معنويا للناس كما يمكن أن يكون

مفعولا مقديما للفعل «يظلمون» والقريفة على إرادة المعنى الثاني مأخوذة من آيات أخرى من القرآن لان القرآن يفسر بعضه بعضا وذلك قوله تعالى : « سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ » (الأعراف ١٧٧) فلا وجه للإعراب هنا إلا أن يكون لفظ «أنفسهم» مفعولا مقديما.

* «وَلَقَدْ اسْتَهْزَىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا» (الأنعام ٣٤)

هل المقصود : «أودوا حتى أتاهم نصرنا» أو «فصبروا حتى أتاهم نصرنا»؟ هناك قريفة على إرادة المعنى الثاني كما يلي:

ا- أن الفعل «صبروا» مبنى للمعلوم ومن ثم يكون الصبر موقفا إيجابيا منهم.

ب- أن الفعلين «كُذِّبُوا» و «أودوا» مبنيان للمفعول فدلالتهما تنبئ عن موقف سلبي لا إيجابي.

ج- أن النصر لا يكون عن موقف سلبي وإنما يكون عن موقف إيجابي.

د- أن القرآن يمدح الصابرين لصبرهم ولا يمدح المكذوبين لتكذيبهم وإذا كان في هذه الآية مدح لهم فذلك لأنهم «صبروا» على ما كذبوا وعلى ما أودوا. لكل ذلك لا يمكن أن تكون «حتى» غاية للتكذيب والإيذاء وإنما هي غاية للصبر على التكذيب والإيذاء.

* «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ» (الأحزاب ٣٢)

أين جواب الشرط في قوله تعالى : «إِنْ اتَّقَيْتُنَّ» أهو قوله : «فلا تخضعن» وعلى ذلك يكون تفضيل نساء النبي الذي دل عليه ما قبل أداة الشرط مطلقا غير مقيد؟ أم هو محذوف يفسره ما قبل أداة الشرط من قوله : «لستن كأحد

من النساء؟» وعليه يكون قوله «إن اتقيتن» قيذا في التفضيل. إذا كان الإسلام قد قرر أنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى فإن ذلك قرينة قطعية على أن الشرط هنا قيد للتفضيل وأن الجواب محذوف يفسره ما تقدم. أقول هذا وإن لاحظت علامة الوقف (ج) التي أجدتها في المصحف على لفظ «النساء» لأن شمول أحكام الإسلام أولى أن يعتد به من أي شيء آخر. وهذا يجعل تمام المعنى عند نهاية قوله «إن اتقيتن».

وبذلك يكون قوله: «فلا تخضعن» استثناءفا

« وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا » (الأعراف ٨٦)

يمكن للوار من «وتصدون» أن تكون حالية أي توعدون من آمن وأنتم تصدون كما يمكن أن يسلط الفعلان وهما معطوفان بالواو على «من آمن» على طريق التنازع. وعلى المعنى الأول لا يكون الصد منهيًا عنه وإنما يكون منهيًا عن ملابسته للوعيد أما على المعنى الثاني فالنهي منصب على القعود للوعيد وللصد كليهما وهو المعنى المطلوب بقرينة عدم صلاحية المعنى الأول.

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ » (الأنعام ١١٩)

في هذه الآية استثناء هو «إلا ما اضطرتم إليه» فهل وقع هذا الاستثناء من الفعل «لا تأكلوا» أو من الفعل «حرّم» ليس في نمط تركيب الكلام ما يمنع من أي من هذين الاحتمالين ولكن النمط التركيبي شيء والمعنى المراد شيء آخر فإذا نظرنا إلى سياق الفعل «لا تأكلوا» الفينا المعنى: ليس لكم أن تمتنعوا عن أكل الحلال الذي ذكر اسم الله عليه، وهذا المعنى لا يسمح بافتراض الاضطرار إلى الأكل لأن المنهي عنه عدم الأكل وليس من المعقول أن يقال: «كلوا ما ذكر اسم الله عليه إلا ما اضطرتم إليه». فإذا امتنع ذلك لم يبق إلا أن يكون الاستثناء

من الفعل «حَرَمَ» أى «وقد فصل لكم المحرمات إلا عند الاضطرار». وهذا هو المعنى المقصود.

* « فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ » (الاحزاب ٥)

في هذا التركيب احتمالان :

ا- فإن لم تعلموا آباءهم فأباؤهم إخوانكم.

ب- فإن لم تعلموا آباءهم فهم إخوانكم.

والقرينة قائمة على إرادة المعنى الثاني لان الرجل الذى لا تعرفه أولا تعلمه لا يعد وليالك بأى حال.

* « وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ » (الانبياء ١١، ١٢).

أولا: فى القرية حذف بياني والمراد أهل القرية وهم الذين كانوا ظالمين ثانيا: فى الآية قوله تعالى « إذا هم منها يركضون » فمن «هم» الذين يركضون أهل القرية أم القوم الآخرين؟ القرينة الدالة على المعنى هى أن القصم ثم الركض إنما يكون عن ظلم أما الذين أنشأهم الله فى القرية بعد ذلك فلم تشر الآية إلى ذنب وقع منهم يتحتم معه أن يركضوا خوف العذاب ومن هنا يعود الضمير «هم» إلى أهل القرية الظالمة.

* « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » (الحج ٤٠)

إلام يعود الهاء فى «ينصره» إلى المنصور فيكون المعنى «ولينصرن الله من شاء الله أن ينصره» أم إلى الناصر فيكون المعنى : «ولينصرن الله من ينصر الله» برفع لفظ الجلالة مع الفعل الاول ونصبه مع الثانى. إذا كان القرآن يفسر بعضه بعضا فلنا أن نلتزم بقوله تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم » (محمد ٧) وبذلك يعود الضمير المذكور إلى لفظ الجلالة.

* «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (آل عمران ٥٩) الفعل «قال» مناط لضمير آدم فلا يعود الضمير في «له» إلى عيسى وإن سمح التركيب النحوي لأن آدم هو المثل الذي سبق لخلق عيسى.

* «أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» (الأعراف ١٠٠)

في الآية من حيث تركيبها احتمالان:

ا- لو نشاء أخذنا الذين يرثون بذنوب الموروثين.

ب- لو نشاء أخذنا الذين يرثون الأرض بذنوبهم هم (أى الوارثين)

والقرينة على إرادة المعنى الثاني تؤخذ من قوله تعالى: «الآتزر وازرة وزر أخرى» (النجم ٨) وقوله «ولا تزر وازرة وزر أخرى» (الانعام ١٦٤ والاسراء ١ وفاطر ١٨ والزمر ٧)

* «لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» (الرعد ١١)

بم يتعلق الجار والمجرور «من أمر الله»؟ بالفعل يحفظونه أم بصفة معقبات إن تعليق الجار والمجرور بالفعل «يحفظون» يتنافى تماما مع العقيدة الإسلامية من أنه لا يمنع من أمر الله شئ فلم يبق إلا أن يكون الجار والمجرور صفة للمعقبات فيكون المعنى: «له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه».

* «تُرْجَىٰ مِنْ نَشَأٍ مُنْهَنٍّ وَتُؤْوَىٰ إِلَيْكَ مِنْ نَشَأٍ وَمَنِ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ» (الأحزاب ٥١) يحتمل التركيب أحد أمرين:

ا- أن يكون «ومن ابتغيت» معطوفا على «من نشاء» وعندئذ تكون الفاء في

«فلا جناح» للاستئناف.

ب - أن يكون «ومن ابتغيت» شرطاً جوابه «فلا جناح» وهو الأولى بقريئة ما بعده من قوله تعالى : « ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن » أى سواء منهن من أرجأت ومن آويت ومن ابتغيت.

* « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفَاءً وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تُسْرِحُونَ » (النحل ٥٠ ٦٠) يحتمل تركيب الآية أحد معنيين :

ا - والأنعام خلقها لكم / فيها دفاء ومنافع / ومنها تاكلون

ب - والأنعام خلقها / لكم فيها دفاء ومنافع / ومنها تاكلون

ولكن القرينة قائمة على إرادة المعنى الثاني في قوله تعالى : « ولكم فيها جمال » (النحل ٦) وقوله « لكم منه شراب » (النحل ١٠) فيكون التركيب على النحو التالي :

والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع

ولكم فيها جمال

هو الذى أنزل من السماء ماء / لكم منه شراب ومنه شجر

* « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذَّكَرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ » (النحل ٤٣ ، ٤٤) يحتمل التركيب أحد معان ثلاثة:

ا - وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجلاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

ب - وما أرسلنا من قبلك إلا رجلاً نوحى إليهم بالبينات والزبر فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

ج - وما أرسلنا من قبلك إلا رجلاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم

لا تعلمون بالبينات والزبر — مع تعليق البينات والزبر في الاحتمال الثالث
بالفعل «تعلمون».

فهل المقصود : « أرسلنا بالبينات والزبر، أو « نوحى بالبينات والزبر » أو «
تعلمون بالبينات والزبر » ؟ هناك قرينة من سياق النص تفيد أن المقصود هو
بيان الطبيعة البشرية للرسول وأنهم من نوع البشر إلا أنهم يوحي إليهم وهذا
هو الفارق الوحيد بينهم وبين بقية البشر والدليل قوله تعالى : « قل إنما أنا بشر
مثلكم يوحي إلي » (الكهف ١١٠) وهذا قرينة على أن المراد تعليق الجار
والمجرور «بالبينات والزبر» بالفعل «نوحى» دون غيره في الآية.

* « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ
مُبِينٍ » (الشعراء ١٩٥)

هل المعنى : « نزل بلسان عربي مبين » أو « من المنذرين بلسان عربي
مبين » ؟ أو بعبارة أخرى هل يتعلق الجار والمجرور بالفعل «نزل» فيكون
المقصود إثبات عربية القرآن أو يتعلق بلفظ «المنذرين» فيكون المقصود إثبات
عروبة النبي صلى الله عليه وسلم . القرينة قائمة في آيات أخرى من القرآن على
أن المراد هو المعنى الأول وهو إثبات أن القرآن بلسان عربي مبين أما النبي فقد
ولد فيهم من أكرم بيوتهم وعاش بينهم وكان أفصحهم فلا حاجة لإثبات
عرويته. والآيات الأخرى الدالة على هذا المعنى في القرآن هي :

* « وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ » (النحل ١٠٣)

* « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا » (يوسف ٢)

* « وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » (الرعد ٣٧)

* « قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ » (الزمر ٢٨)

* « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » (الشورى ٧)

* «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» (الزخرف ٣)

* «وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا» (الاحقاف ١٢)

فيثبت بهذا أن الجار والمجرور متعلق بالفعل «نزل» أى «نزل بلسان عربى
مبين»

* «قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» (الشعراء ٧٤)

هل المقصود «وجدناهم كذلك» أو «وجدناهم يفعلون كذلك»؟ لو علقنا
الجار والمجرور بالفعل «وجدناهم» لكان المعنى «وجدنا أنفسنا أولا
وجدناهم كذلك» أى وجدناهم أيضا أما إذا علقنا الجار والمجرور بالفعل
«يفعلون» فإن المعنى يكون «وجدناهم يفعلون مثل الذى نفع» ولما كان
الموقف الذى وقفه هؤلاء نابعا من حفاظهم على موروثاتهم كان ذلك قرينة على
إرادة المعنى الثانى وهكذا يتعلق الجار والمجرور بالفعل «يفعلون».

* «وَوَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا» (يونس ٤)

هل يتعلق الجار والمجرور «عليها» بلفظ «قادرين» فيسدل ذلك على أن أهل
الأرض ظنوا أنهم يملكون مقاديرها أى أن هذه العبارة هى الصورة المثبتة
لقوله تعالى: «لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ» أى لا يملك شيئا أو يتعلق بحال من أهلها
فيكون المعنى «وظن أهلها وهم عليها أنهم أقوياء بحيث يتحكمون فى شئونها»
إن بطلان المعنى الثانى بنص القرآن على أن الأرض وما فيها مسخرة للإنسان
هو قرينة على إرادة المعنى الأول أضف إلى ذلك أن الله قد جعل الإنسان فى
الأرض خليفة وأقدره على عمارتها فلا حرج فى هذا النوع من القدرة أما دعوى
القدرة المطلقة فهى الذنب الداعى إلى أن يأتيتها أمر الله ليلا أو نهارا فيجعلها
حصيدا كأن لم تغن بالأمس.

* «هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» (ص ٢٩)

بم يتعلق الجار والمجرور «بغير حساب» أيتعلق بالفعلين «فامنن أو أمسك»

أم يتعلق بالمصدر وهو لفظ «عطاؤنا»؟ إنه لا معنى لأن يمسك الإنسان بغير حساب فالإمساك سلب والسلب لا يتدرج بحساب لأنه نفى الوجود فلم يبق إلا أن يكون المعنى «هذا عطاؤنا بغير حساب» وعلى ذلك تكون جملة «فامنن أو أمسك» معترضة.

﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ ﴾ (الأحزاب ٤٨)

هل إضافة المصدر «أذاهم» من قبيل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول أو بعبارة أخرى هل المعنى المقصود: «دع إيذاءهم إياك» بمعنى ألا تهتم له أو «دع إيذاءك إياهم» أي لا تؤذهم. القرينة قائمة على إرادة المعنى الأول من وجهين:

١- أننا نعلم أن الإيذاء كان منهم له عليه السلام وليس العكس.

٢- أن قوله تعالى «وتوكل على الله» يؤذن بأن الله سيعصمه من الناس.

﴿ وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نَصْرُ اللَّهِ ﴾

(البقرة ٢١٤)

هل إضافة المصدر «نصر الله» إلى فاعله أو مفعوله؟ إن القرينة قائمة على إرادة الإضافة إلى الفاعل لأن الرسول والذين آمنوا معه زلزلوا حتى لم يعودوا قادرين على إحراز النصر بأنفسهم دون عون الله.

﴿ وَكَادَيْتُمَا أَنْ تَخْرُجَا مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ (مريم ٥٢)

هنا سؤالان: الأول عن لفظ الأيمن وهو صفة للجانب أم للطور والثاني عن لفظ الأيمن وهو من اليمين الذي يقابل الشمال أم من الأيمن الذي يقابل الشؤم. الذي يدل على أنه صفة للجانب أن النعت يكون للمضاف دون المضاف إليه إلا في حالات خاصة لا تتحقق هنا فالمعنى أن الله ناداه في الجانب الأيمن من الطور بدليل قوله: «فلما أتاهما نودي من شاطئ الواد الأيمن» (القصص ٢٠) والذي يدل على أنه من اليمين قوله تعالى بعد ما أوردناه من آية القصص «في البقعة

المباركة، أما قوله «من الشجرة» بعد ذلك فالجار والمجرور متعلق بالفعل «ناديناه» أى أن النداء كان من الشجرة التى فيها النار التى هى فى البقعة المباركة أى الميمونة.

رابعا - احتمالات إعرابية :

* « وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَّ لَهُمُ الْعَذَابَ » (الكهف ٥٨)

أين الخير؟ أهو «الغفور» أم «ذو الرحمة» أم «لو يؤاخذهم» هناك قرينة على أن الخير هو «لو يؤاخذهم» وذلك قوله بعد ذلك «وجعلنا لمهلكم موعدا» (الكهف ٥٩) فإذا كان مهلكم بموعده محدد فإن الله لا يعجل العذاب عن هذا الموعد لأنه «الغفور ذو الرحمة» أى أن «الغفور» و «ذو الرحمة» صفتان للرب والخير هو «لو يؤاخذهم».

* « وَرَبُّكَ الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » (الأنبياء ١١٢)

أيها الخير؟ «الرحمن» أم «المستعان»؟ فى النص قرينة على أن الخير هو المستعان لأن المقام مقام استعانة بدليل قوله تعالى: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلْنَا آذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ» (الأنبياء ١٠٩). وقوله «وإن أدرى لعله فتنة لكم» (الأنبياء ١١١) ثم قوله بعد ذلك: «قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ..» (الأنبياء ١١٢) فمن الواضح أن النبى صلى الله عليه وسلم استعان على المكذبين بربه الرحمن.

* « يَوْفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا » (الدمر ٧)

بم نعرب لفظ «يومًا» أنعربه ظرفا للخوف أم نجعله مفعولا به مخوفا؟ القرينة قائمة على أنه مفعول به لأن جعله ظرفا بينهم المخوف ويعلق الانتباه بظرف الخوف ولو كان الفعل لازما لحسن الاعتداد بظرفية اليوم، أما على المفعولية فإن جملة «ويخافون..» تقع من فاعل يوفون موقع الحال أى يوفون وهم يخافون وذلك أولى من فهم معنى العطف لأن العطف يضعف الرابطة بين

الجملتين من جهة أن الملابس أقوى من مطلق الجمع.

* «يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ» (الانبياء ٢٠)

أنجعل الليل والنهار مفعولا بهما أم نجعلهما ظرفين؟ إن القرينة على إرادة الظرفية تأتي من ناحية المناسبة المعجمية. وذلك أن الفعل «سَبَّحَ» يتطلب مفعولا به مقدسا يستحق التسبيح ولا قداسة لليل والنهار فالمسبح إنما يسبح الله سبحانه وتعالى وقد يدوم منه ذلك طوال الليل والنهار وهناك قرينة لفظية أخرى على إرادة هذا المعنى هي قوله تعالى في نهاية الآية: «لَا يَفْتُرُونَ».

* «هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ» (الرعد ١٢).

بم نعرب «خوفاً وطمعاً» في هذه الآية أنعربهما على الغائية مفعولا لأجله أم نجعل الخوف مفعولا ثالثاً للفعل «يُرى»، ثم نضمن «ينشئ» معنى «يجعل» ونقدر «طمعاً» مفعولا ثانياً له مقدماً عليه أي «يريكُم البرق خوفاً وينشئ السحاب الثقال طمعاً» فيكون في الآية لف ونشر مشوش كالذي في قوله تعالى: «فبيسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا» (الروم ٤٨) أي فبيسطه في السماء ويجعله كسفا كيف يشاء فإن شاء بسطه وإن شاء جعله كسفا كيفما شاء فالمفارقة في الصورة بين السحاب المبسوط وركام الكسف قرينة على أن عبارة «كيف يشاء» على معنى التأخير كما أن ارتباط الخوف بالبرق وارتباط الطمع بالسحاب الثقال يجعل الطمع على معنى التأخير أيضاً.

* «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» (البقرة

٢٦)

يحتمل لفظ «كثيراً» في الموضعين أن يكون نائباً عن المفعول المطلق أي يضل به إضلالاً كثيراً كما يحتمل أن يكون مفعولا به أي يضل به الكثيرين ويهدي به الكثيرين. والقرينة على إرادة المفعول به قوله تعالى في نهاية الآية «وما يضل به إلا الفاسقين» إذ يتعين أن يكون الضلال والهدى واقعين على الأشخاص.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفِشَلْتُمْ وَتَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (الأنفال ٤٣)

كذلك يحتمل لفظاً «قليلاً» و «كثيراً» هنا أن يكونا نائبين عن مفعول مطلق والمعنى : « يريكم إراءة قليلة ولو أراكم إراءة كثيرة لفشلتكم » كما يحتملان معنى المفعول الثالث للفعل «أرى»، والقرينة قائمة على إرادة هذا المعنى (معنى المفعول الثالث) وذلك قوله تعالى بعد قليل « وَيَقُلُّكُمُ فِي أَعْيُنِنَاهُمْ » مما يدل على أن القلة والكثرة قصد بهما الأشخاص لا مرات الرؤية.

خامساً - تعدد المعنى المعجمي :

﴿ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ (يونس ٩٠)

العدو الجري، والعدو الجور والعدوان فأى المعنيين مقصود هنا هل المقصود أن فرعون وجنوده اتبعوا بنى اسرائيل جرياً في أثرهم أو أنهم اتبعوهم جوراً وطغياناً عليهم؟ إن القرينة قائمة على إرادة المعنى الثانى إذ عطف العدو على البغى فأصبح تفسيراً له وهناك قرينة أخرى هي أن مادة (ع د و) يطرد استمالها في القرآن بمعنى الجور ما عدا في سورة «العاديات» وفي لفظ « العدو الدنيا والعدوة القصوى» وكذلك « ولا تعد عينك عنهم » أما في غير هذه الأماكن الثلاثة فالمعنى على الجور والعدوان.

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (البقرة ٢٢٨)

القرء الحيض والقرء الطهر فهل المراد بثلاثة القروء الحيضات أو الاطهار؟ إن المعروف أن مدة الاطهار الثلاثة أطول من مدة الحيضات الثلاث ويترتب على ذلك أن مدة التربص تختلف طويلاً بأحد المعنيين عنها بالمعنى الآخر ويبدو أن تاء التانيث في لفظ «ثلاثة» قرينة على إرادة «الطهر» من جهة أنه لو أريد «ثلاث حيضات» لحذفت التاء بقطع النظر عن تذكير لفظ القروء ليكون ذلك على مثال «من صام رمضان ثم اتبعه ستاً من شوال» مع العلم أن الصوم يقع

في النهار وليس في الليلة.

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » (سبا ٢٨)

إذا أفردنا لفظ « كافة » عن السياق دل على أحد معنيين: الأول أن يكون منتهيا بقاء المبالغة كلفظ « علامة » أى عظيم الكف للناس عن الشر والثاني أن يكون بمعنى « جميعا » ويترتب على المعنى الأول أن تخلو الآية من الدلالة على عموم الرسالة وهو المعنى الذى يتحقق بالفهم الثانى وهناك قرينة على أن المراد هو المعنى الثانى :

١- قوله تعالى : « **لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ** » ، أى أن الرسالة يخاطب بها كل من يبلغه خبرها.

ب- قوله تعالى : « **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** » ، أى قاتلهم جميعا كما يقاتلونكم جميعا.

ولا يغرّك تقديم لفظ « كافة » على قوله « للناس » فقد رأينا من عجائب التقديم والتأخير في القرآن ما هو أعجب.

« **ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** » (الانعام ١)

« **وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** » (الانعام ١٥٠)

« **أَكَلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ** » (النمل ٦٠)

« **وَمَنْ قَوْمٌ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهُودُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** » (الأعراف ١٥٩)

« **وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهُودُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** » (الأعراف ١٨١)

اللفظ « يعدلون » معنيان: أولهما: يتخذون عديلا وهو المعنى المراد في آيتى الانعام وآية النمل بقرينة « الذين كفروا » و« الذين لا يؤمنون بالآخرة » وقوله « **أَكَلَهُ مَعَ اللَّهِ** » ، والمعنى الثانى هو « يقسطون » وهو المراد من آيتى الأعراف بدليل « يهودون بالحق » فهما فما المقصود بهذا اللفظ في سورة النمل؟ القرينة

قائمة على أن المراد هو المعنى الذى فى الانعام إذ نقرا قبل ذلك بقليل قوله تعالى فى شأنهم: «ألكه خير أم ايشركون» فلفظ «يشركون» هو الذى يحدد معنى «يعبدون».

* «ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ» (يوسف ٣٥)

* «وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ» (الأحزاب ٢٠)

يستفاد من مادة (ب د و) معنيان: الأول معنى الظهور والثانى سَكَنِي البادية. ولدينا هنا آيتان تشتمل كل منهما على قرينة إرادة أحد المعنيين، أما فى الآية الأولى فإن «بدأ» من البدء وهو تغيير الرأى بديل لن الأمر يدور حول اتخاذ قرار بإدخال يوسف السجن والقرار من نوع الرأى، وأما قرينة للمعنى الثانى فى الآية الثانية، فهى عبارة «فى الأعراب» وهم سكان البادية.

* «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فُتُونِ النَّكَّاتِ فَتُكْفَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ» (آل عمران ١٢)

* «فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتُكَانَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي لَأَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ» (الأنفال ٤٨)

* «قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ» (عافر ٢٩)

* «وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عَجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ» (يوسف ٤٢)

دلالة «رأى» إما أن تكون بصرية، وإما أن تكون ظنية، وأما الرؤيا فهى منامية والقرائن قائمة فى الآيات السابقة على المعنى المقصود بين هذه الثلاثة، وفى الآية الأولى دلت عبارة «رأى العين» على أن الرؤية بصرية، وفى الثانية دلت

عبارة «إني أخاف الله» على أنها ظنية كما دلت على هذا المعنى في الآية الثالثة عبارة «وما أهديكم إلا سبيل الرشاد» لأن الرشاد مما يوصف به الرأي. أما الآية الرابعة فقد نصت على أن الفعل «أرى» قصد به الرؤيا المنامية، وذلك قوله «أفتونى في رؤياي».

« وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ لَمَّا لَمْ يَفْتِكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُثَلَّى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَمَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ » (النساء ١٢٧)

المعروف أن الفعل «رغب» يتعدى بحرف الجر على النحو التالي:

أ - رغب فيه = طلبه

ب - رغب عنه = رفضه

ج - رغب إليه = طلب منه

ولكن الفعل «ترغبون» جاء في هذه الآية دون أن يقترن به حرف جر فهل ترتب على ذلك لبس في المعنى؟

الجواب أن اللبس هنا مؤشر أسلوبى مقصود لأن اليتيمة الغنية لا يخلو إما أن تكون جميلة فيرغب إليها في زواجها والاستئثار بما لها فيكون المعنى «رغب في»، وأما أن تكون قبيحة فيرغب عن زواجها، ولكنه يعضلها بمنعها عن الزواج ليستمتع بما لها فيكون المعنى «رغب عن»، فالمال مطلب للسولى في الحالتين سواء صاحبه الزواج بالجميلة أم الرفض للقبيحة. وليس القرآن كتاب قانون حتى يضع العبارة على صورة الأسلوب الفقهي «ترغبون في/ عن أن تنكحوهن»، وإنما هو نص معجز يتخذ الحذف أحيانا وسيلة للتعمية، كما يتخذ قصد التعمية وسيلة إلى التعميم والمعروف أن التعميم مسلك للتشريع، بمعنى أنه لا يكون التشريع للحالات الخاصة.

* «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ» (البقرة ١٨٧)

«يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ
التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ» (الاعراف ٢٦)

* «فَاذْأَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ» (النحل ١١٢)

* «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ
نُشُورًا» (الفرقان ٤٧)

* «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا» (النبا ١٠)

يؤخذ من لفظ «لباس» أحد معنيين أولهما «الملبس» وذلك هو المقصود في قوله تعالى «لباسا يوارى سوءاتكم» بقرينة إخفاء العورة والثاني مصدر (لابس يلبس لباسا وملابسة) وهو المقصود في كل مكان آخر من الآيات السابقة بقرينة مجافاة معنى الملبس للمقصود بهذه النصوص. فالنساء في آية البقرة ملابسات للرجال وبنو آدم في آية الاعراف ملابسون للتقوى والناس في آية النحل ملابسون للجوع والخوف والليل في آيتي الفرقان والنبا وقت ملابسة.

* «وَمَنْهُمْ أَمِيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيً» (البقرة ٧٨)

* «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ»
(النساء ٢٤)

* «لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (الانفال

٦٨)

* «وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا

أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» (يونس ٦١)

* «وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِسِينَ مُمْشِقِينَ مَعًا فِيهِ» (الكهف ٤٩)

﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ (النور ٣٣)

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ﴾ (العنكبوت ٤٨)

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ (ق ٤)

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ (آل عمران

١٤٥)

﴿فَمَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ (الإسراء ٧١)

يتعدد معنى «الكتاب» في الآيات السابقة ولكنه لا يلتبس فالمعنى في الآية الأولى هو الكتابة وفي الثانية الفريضة وفي الثالثة قضاء الله وفي الرابعة علم الله وفي الخامسة ثبت أعمال الخلق وفي السادسة المكتابة وفي السابعة أى مكتوب وفي الثامنة علم الله وفي التاسعة التوقيت وفي العاشرة الطائر الذى يكون فى العنق.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ (الكوثر ١، ٢)

لفظ الكوثر جاء على صيغة «فوعل» من الكثرة بقصد المبالغة أى إنا أعطيناك الكثير والقرينة قول لبيد:

وصاحب ملحوب فجعت بيومه وعند الرديع بيت آخر كوثر

وقول الكميث

وأنت كثير يابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثرًا

والمعنى «إنا أعطيناك الكثير جدا»، وربما كان أعطيناك وهو بصيغة الماضى قرينة على أن هذا العطاء واقع غير مؤجل. وهذا شبيه بما فى سورة الضحى من قوله «وللآخرة خير لك من الأولى» إذ المقصود بالآخرة هى النزلة الثانية

للوحي بدليل القياس على حالات أخرى كانت الآخرة فيها خير من الأولى وهي قوله:

«أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ» ، فلا غرو أن يكون المستقبل خيرا لك من الماضي في هذه المرة أيضا.

«حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ» (البقرة ٢٣٨)، أى المتقنة الفضلى. «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» (البقرة ١٤٣) أى فاضلة بدليل «كنتم خير أمة أخرجت للناس»، «قَالَ أَوْسَطُهُمْ» (القلم ٢٨)، أى أفضلهم «مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ» (المائدة ٨٩)، أى من أفضل طعامكم.

سادسا - تعدد معانى النمط التركيبى:

«إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ» (النحل ٢٧)

ما الضمير الذى يقدر مع الفعل يضل؟ أهو ضمير رفع مستتر على معنى الفاعلية أم ضمير نصب محذوف على معنى المفعولية. القرينة قائمة على إرادة المفعولية، وذلك قوله تعالى فى آية أخرى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (إبراهيم ٤)، فإذا كان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فهو لا يهدى من شاء أن يضل من عباده.

«وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ»

(الأنعام ١٠٨)

من المنهى عن سبه هنا أهم الكفار الذين يدعون آلهة أخرى من دون الله أم هم الأصنام المدعوون؟ لو كان النهى عن سب الكفار أنفسهم لكان المعقول أن يقال: لاتسبوهم فيسبوكم أما مع النص على أن الرد سيكون سباً لله سبحانه وتعالى، فلا بد من تقدير ضمير محذوف على المفعولية للفعل «يدعون»، أى ولا

تسبوا الذين يدعونهم من دون الله.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ (الإسراء ٥٧)

يقال في الفعل «يدعون»، هنا مثل ما قيل فيه في الآية السابقة، فالإلام أشار لفظ «أولئك»؟ إلى الداعين أم إلى المدعويين؟ هنا قرينة في السياق على أن الإشارة إلى المدعويين، وذلك قوله تعالى قبل هذه الآية مباشرة: «قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا» (الإسراء ٥٦) فالآلهة المزعومة كالأصنام وعزير وعيسى والملائكة ونحو ذلك، إنما هي من خلق الله تبتغي الوسيلة إليه وترجو رحمته وتخاف عذابه فلا تستحق الوصف بالالوهية.

﴿إِنَّمَا نِلَّكُمْ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران ١٧٥)

هل المعنى أن الشيطان يسلط الخوف على أوليائه أو يسلط الخوف من أوليائه على المؤمنين. تدل القرينة على إرادة المعنى الثاني من وجهين.

١ - أن الله تعالى يقول: «فلا تخافوهم»، ولو كان الشيطان يخوف أوليائه ما قيلت هذه الجملة الناهية ولو قيلت لكانت «فلا تخافوه» أيها الأولياء.

ب - أن الآية السابقة على هذا الشاهد تقول: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانكَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفُضِّلَ لَهُمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ»، فأولياء الشيطان هم الكفار الذين أشيع أنهم جمعوا جمعهم للكفرة على المؤمنين. والله سبحانه ينهي المؤمنين عن أن

يخافوهم وأن يتحلوا بتقواه، والخوف منه إن كانوا مؤمنين إيماناً صادقاً.

* «قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ

الْمُرْسَلُونَ» (يس ٥٢)

ما موقع الإشارة بلفظ «هذا» أهي إشارة إلى المرقد متأخرة عنه مثل: «أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا» أم هي مبتدأ خبره مابعد، إن الاحتمال الأول يجعل مابعد الإشارة جملة مستأنفة تنفي وعد الرحمن وصدق المرسلين (حاشا لله ولرسله) أما المعنى الثاني فتصير به الإشارة مبتدأ فتقوم عليه القرينة في التلاوة في صورة سكتة قصيرة واجبة على لفظ «مرقدنا» يرمز إليها في المصحف برمز (س قل)

* «وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» (يونس ٦٥)

هل نفهم «إن» وما بعدها على أنها مقول القول أو أنها استئناف؟ هناك

قرائن تدل على معنى الاستئناف:

أ- أنهم لو قالوا: إن العزة لله جميعاً ما كان ذلك مدعاة لحزن النبي صل الله عليه وسلم.

ب- أن هناك علامة تدل على الوقف اللازم (م) قد وضعت على لفظ «قولهم»

ج- إن الآية التالية تنسب إلى الله معنى العزة إذ تقول: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ» وتنسب إلى القاطنين دعوى الشرك إذ تقول: «وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» (يونس ٦٦)

* «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بوكيل» (الأنعام ١٠٧)

هل نفهم «وما جعلناك» على أنها عطف على «ما أشركوا» أو نفهمهما على معنى الاستئناف؟ يحول دون فهم العطف قوله تعالى: «وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا» (النساء ٨٠)، ويؤيد معنى الاستئناف ما عطف على الجملة بعد ذلك من قوله تعالى: «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ».

«وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ» (آل عمران ٧)

هل الراسخون في العلم عطف على لفظ الجلالة أو استئناف؟ يترتب على العطف أن يكون الراسخون في العلم بموضع من يعرف تأويل المتشابهه ويترتب على الاستئناف أنهم يقفون من المتشابهه موقف التحرز والتسليم وقرينة الاستئناف أمران:

أ- أن في قولهم: «آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» إيماناً بالقلب تحرزا وتسليماً بالعجز العقل عن تأويل المتشابهه.

ب- أن هذا الموقف يستحق ماورد من مدحهم بقوله تعالى: «وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ» أي أن هذا الموقف المتحرز من قبلهم هو دليل على فهم الأمور على وجهها بإعمال العقل في المحكم والإيمان بالمتشابهه.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي» (المتحنة ١)

ما موقع «إياكم» أمى عطف على جملة «لا تتخذوا» فيكون معناها تحذيرا من الإيمان بالله (تعالى الله عن ذلك) أم هى عطف على الرسول فيكون المعنى: «يخرجون الرسول ويخرجونكم»؟ الذى يبطل الاحتمال الأول هو وجود لفظ «ربكم» لأن المرء لا ينهى عن الإيمان بربه وبذا يصبح الثانى هو المقصود.

* «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» (المائدة ٥٥) هل نفهم من سياق الآية عطف الذين آمنوا على الرسول أو نفهم ابتداء جملة مستأنفة بها فتكون مبتدأ خبره الذين يقيمون الصلاة؟ هناك قرينة على إرادة العطف هي ما يتلو ذلك من قوله تعالى: «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» (المائدة ٥٦) إذ نجد «الذين آمنوا» في موقع عطف على الرسول.

* «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ» (الفرقان

(٣

ما موقع «وهم يخلقون»؟ أمى جملة حالية فيكون المعنى: لا يخلقون شيئا أثناء صيرورتهم مخلوقين أم هى مستأنفة، فيكون المعنى: لا يخلقون شيئا ولكنهم أنفسهم مخلوقون؟ القرينة القائمة على إرادة معنى الاستئناف قرينة عقلية هى أن المخلوق لا يقوم أثناء تخليقه بخلق غيره.

* «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (القصص ٨٨) جملة «لا إله إلا هو» تصلح من حيث التركيب أن تكون صفة للإله الآخر وأن تكون استئنافية، ولكن جعلها صفة يوقعنا فى التناقض العقلى إذ كيف يتفق أن يكون هذا الإله «آخر» وأن يدعى له أنه «مع الله» (سبحانه) ثم يكون مع ذلك متفردا بالالوهية؟! هذا غير جائز عقلا، ومن ثم لا يبقى إلا أن يكون المعنى على الاستئناف وإعادة الضمير «هو» إلى الله تعالى.

* «كَذَلِكَ يَجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَتَوَقَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (النحل ٣٢)

كيف تحدد العلاقة بين عبارة «الذين تتوفاهم الملائكة» وبين ما يحيط بها؟ انعدما استئنافية أم نعدما صفة للمتقين؟ إذا جعلناها استئنافية فلا يخلو إما أن

نجعل إسناد الفعل يقولون للذين تتوفاهم الملائكة، وهذا واضح الفساد أو نجعله للملائكة فتخلو جملة الخبر من الرابط، وفي تقدير حذف الرابط (أى يقولون لهم) تعسف. فلم يبق إلا أن نجعل «الذين تتوفاهم الملائكة» صفة للمتقين ونجعل «طيبين» حالا منهم، وفي هذه الحالة نسند الفعل «يقولون» إلى ضمير الملائكة مع جعل جملة «يقولون» حالا من الملائكة، فيتوالى حالان في هيئة لف ونشر مرتب (الأول للأول والثانى للثانى).

سابعاً - اختيارات أسلوبية:

* «سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ» (الأنعام ١٤٨)

في قواعد النحاة العطف على ضمير الرفع المتصل يتطلب الفصل بين المتعاطفين بضمير منفصل، فلو كان الأباء معطوفين على الضمير في «أشركنا» لتطلب ذلك أن يقال: «ما أشركنا نحن ولا آبائنا»، ولكن عدم ذكر الضمير دل على قصد أسلوب آخر تكون العبارة المقدره فيه: «ما أشركنا ولا أشرك أبائنا» مع تقدير فعل محذوف بدليل عطف فعل آخر عليه بقوله «ولا حرمانا» إذ يدل ذلك على عطف أفعال منفية بلا.

* «قَوْرَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَمَا أَنْتُمْ تُنطِقُونَ» (الذاريات ٢٣)

جاء لفظ «أنكم» في الآية ليحول دون إفهام أنهم نطقوا بالحق والدلالة على قصد أن النطق في حدود قدرتهم فلو قيل إنه لحق ميثما تنطقون لافاد ذلك أنهم نطقوا بالحق فعلا لكن المعنى المقصود هو مثل حقيقة قدرتهم على النطق.

* «لَكَرَجَالٍ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ» (النساء ٧)

أظهر «الوالدان والاقربون» في آخر الآية بعد ذكرهم في أولها لأنه لو أضمر لهم لفهم (على احتمال) أن الضمير يعود إلى الرجال «أى مما ترك الرجال»

* «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ» (الأحزاب ٥٠) أظهر البنات مضافات إلى العمات والخالات ولم يحذف لئلا يظن أن العمات والخالات حلال له.

* «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ» (هود ٤٠)

* «ليس «من آمن» معطوفاً على «من سبق عليه القول» لأن في استثناء المؤمنين من ركوب السفينة عكس المطلوب والمعنى قائم على عطف «من آمن» على «أهلك» واستثناء «من سبق عليه القول» من الأهل.

* «قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ» (يونس ١٦)

في قوله تعالى: «ولا أدراكم به» عزوف مقصود عن استعمال «ما» في موضع «لا» لأن استعمالها يجعل الكلام على صورة «وما أدراكم به» فيلتبس بالتعجب.

* «وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ فَاستَغْفَرَ رَبَّهُ» (ص ٢٤)

لم يقل «أنا فتناه» لأن داود أدرك أن فتنة وقعت ولم ينسب إلى الله ابتلاء له بها وإنما لام نفسه فاستغفر ربه ولو أن داود فهم من هذه الفتنة أنها ابتلاء من الله لكان نص الكلام «أنا فتناه» وكان في إظهاره هذا الظن كالذى ذهب مغاضباً فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك.

* «وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (الكهف ٢٨)

النهي للعينين في التركيب وللنبي في المعنى.

* «وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ» (القصص ٨٧)

النهى فى التركيب للغائبين وفى المعنى للنبي صلى الله عليه وسلم

* «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ»

(العنكبوت ١٢)

أمر الكفار أنفسهم (ولنحمل) فى التركيب ووعدا المؤمنين فى المعنى.

* «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (العنكبوت ٦٦)

فى الآية أمر بالكفر فى التركيب وتهديد لهم فى المعنى.

* «قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ» (الزمر

١٥، ١٤)

فى التركيب أمر بعبادة ما شاءوا وفى المعنى شرط يقول: أيما معبود من دونه

فعبادته باطلة إذ لا يكون إخلاص الدين لإله.

* «فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ» (غافر ٤٤)

التركيب خبر والمعنى وعيد.

* «أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ» (الاحقاف ٤)

التركيب أمر والمعنى نفى أى لم يخلقوا من الأرض شيئا.

* «وَلَا تَكْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ» (الحجرات ١١)

التركيب بإضافة النفس والمعنى على الإسناد والتعديدية أى لا يلمز بعضكم

بعضا.

* «فَدَرْنِي وَمَنْ يُكَدِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ» (القلم ٤٤)

التركيب أمر والمعنى تهديد لغير المأمور (أى للمفعول معه).

* «يَايَهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ»
(التحریم ۱)

التركيب في جملة «تبتغي» على صورة الحال والمعنى على التعليل (أى لتبتغي مرضاة أزواجك أو ابتغاء مرضاة أزواجك).

* «وَمَرِيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا»
(التحریم ۱۲) التركيب وصف بالموصول وصلته والمعنى على التعليل (أى نفخنا لأنها أحصنت).

* «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ» (البقرة ۲۶۹)

لو قال يأتى من يشاء الحكمة لتغير فاعل يشاء وحدث اللبس.

* «أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ» (الفرقان ۴۳) لو جعلنا «الهوى» مفعولاً
ثانياً ما دل على عبادة الهوى إلا احتمالاً لجواز أن يجعل المؤمن حينئذ إلهه
هواه / أى محبوبه / أما المعنى المقصود فهو: جعل هواه إلهاً له: وقد قال الشاعر:

إن التى زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها

فالمحبوب يمكن أن يسمى «هوى» للمحب.

الفصل الخامس أسلوب الدعوة في القرآن

أوضح مانزل القرآن من أجله الدعوة والتشريع، ولقد جدد القرآن منهاج الدعوة بحدود الحكمة والموعظة الحسنة والجدل والتي هي أحسن. فأما جانب الحكمة في الدعوة الإسلامية فكان بالحوار الهادئ وأما جانب الموعظة الحسنة فكان بالتذكير وضرب الأمثال والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأما جانب الجدل فكان بالحجاج وإيراد الأدلة الدامغة. ولقد اجتمع كل ذلك في القرآن الكريم. وسنورد إن شاء الله فيما يلي وصفا لأسلوب القرآن في كل جانب من هذه الجوانب مع الشواهد التي تشهد بصدق ما نقول:

أولا - الحوار في القرآن الكريم:

غاية الحوار القرآني رد العقل إلى التفكير المنظم الهادئ وبيان فساد موقف الخصم وقد يأتي الحوار على لسان أحد الأنبياء السابقين أو على لسان رجل صالح من غير الأنبياء أو بتوجيه قرآني إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول قولا معينا بنص آية من القرآن، وأكثر ما يكون ذلك للرد على قول قاله الكافرون أو على موقف غير منطقي من مواقفهم يتسم بالزيغ والضلال. وفيما يلي طائفة من الشواهد على هذا الحوار والتعليق على كل شاهد منها على حدة بعد تصنيف هذه الشواهد بحسب أغراضها:

١- التكذيب المباشر للدعوى:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ»
(البقرة ١١)

الرد: «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ» (البقرة ١٢)

ادعى هؤلاء المفسدون أنهم هم المصلحون وقصروا نفوسهم على الإصلاح فأكد الرد نسبتهم إلى الفساد بأداة الاستفتاح و«إن» المؤكدين ثم زاد التأكيد

بضمير الفصل فجمع على التوكيد ثلاث وسائل. ومثله ما في الآية التالية من قوله تعالى:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ» ثم الرد على ذلك بقوله «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ» (البقرة ١٣).
٢- قلب الدعوى:

«يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا»

الرد: «قُلْ لَّا تَمُنُّوْا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (الحجرات ١٧)

جاءوا يطلبون الاعتراف بفضلهم لدخولهم في الإسلام فكان الرد عليهم أن الإسلام يتحقق بعمل ظاهر هو النطق بالشهادتين ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقته العمل ولئن كنتم آمنتم وصدقتم في دعواكم إن الفضل في إيمانكم لله لأن تحويل القلوب بيده وليس الاعتقاد عملاً إرادياً يحمده صاحبه.

«يَحْكُمُونَ بِآلِهِ مَا قَالُوا»

الرد: «وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» (التوبة ٧٤)

حلف المنافقون أنهم لم يشتموا رسول الله صلى الله وسلم فرد عليهم دعواهم وأضاف إلى ذلك أنهم كفروا بسبب قولهم وأنهم هموا بقتله فلم ينالوا منه شيئاً وسلط أداة التأكيد (لقد) على الفعل «قالوا» وعلى ما عطف عليه من أفعال.

«وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ»

الرد: «وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ لَمْ لَّا يَنْظُرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ»

لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ، (الأنعام ٩٠٨)

لم ير هؤلاء الكافرون أن البشر كفاء للنبوة أو الرسالة فقالوا: هلاً أنزل الله ملكاً مع هذا الرجل حتى يكون أهلاً لانقيادنا لدعوته وهذا الأمر مردود عليه من جهتين.

أ- أن الله لا ينزل الملائكة إلا بالحق فلو أنزل ملكاً لملك هؤلاء وقضى الأمر دون إبطاء

ب- أن الملك لكونه جسماً نورانياً إذا أنزله الله جعله في صورة رجل فلو رآوه لرأوا رجلاً فالتبس الأمر عليهم وظلوا يقولون لولا أنزل عليه ملك. وقد حول الله جبريل ذات مرة إلى صورة دحية الكلبي ورآه المؤمنون على هذه الصورة.

٣- التعليق على قول الخصم:

«يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ»

الرد: «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا ارِنَا اللَّهَ جَهْرَةً» (النساء

١٥٣)

أراد أهل الكتاب أن يعجزوا النبي صلى الله عليه وسلم فطلبوا إليه أن ينزل عليهم كتاباً من السماء فجاء الرد عليهم بتذكيرهم بما وقع من أسلافهم ذات مرة حين طلبوا إلى موسى ما هو أكبر من مجرد كتاب ينزل من السماء فلقد طالبوه أن يريهم الله جهرة. ومعنى هذا الرد أن من عادة هؤلاء أن يطلبوا المستحيل للوصول إلى التعجيز ومن ثم يكون مطلبهم لا يستحق مجرد التفكير في أمره.

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ»

الرد: «وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا

عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ» (الاحقاف ١١، ١٢)

زعم الكافرون أنهم أولى بالخير من المؤمنين وأنه لو كان القرآن وما يدعو إليه من الإسلام خيراً لما سبقهم الضعفاء والمستضعفون إليه بل إن الكافرين حين لم يهتدوا إلى الإيمان به قالوا عنه إنه «إفك قديم» وكيف يكون إفكاً وهو مصدق لما في كتاب موسى من هدى ورحمة وقد جاء بلسان عربى مبين لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ويبشر المحسنين الذين آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله.

٤- الإنكار على الخصم:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا»
الرد: «أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ» (البقرة ١٧٠)

حين دعى هؤلاء إلى الإسلام قالوا إن التقاليد الاجتماعية والموروثات بديل عنه ونسوا أن التقاليد لا منطق لها وأنها تاتى عن التعارف لاعن التفكير المنظم فلا تعنى أن واضعيها كانوا عقلاء مهتدين. فإذا توارث هؤلاء الشرك عن آبائهم فليس معنى ذلك أن آباءهم كانوا راشدين فيما فعلوا وفيما تركوا من موروثات اجتماعية ومن ثم كان على هؤلاء ألا يضعوا التقاليد بازاء الدعوة إلى اتباع ما أنزل الله.

«فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَداً لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ»
الرد: «أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضِراً وَلَا نَفْعاً»

(طه ٨٨، ٨٩)

قبض السامرى قبضة من التراب من أثر جبريل فنبذها ناشراً إياها على العجل الذهبى الذى صاغه فأخرج لقومه بذلك عجلاً ضخماً يخور كما تخور الثيران فقالوا أن هذا العجل إله لهم ولموسى أفلم يكن المصريون يعبدون عجلاً مثله فما الغرابة فى أن يكون هذا العجل إلهاً أيضاً؟ واغتر قومه بفعله.

فأمنوا بالعجل. هنا يرد عليهم القران غفلتهم وسوء تقديرهم للأمور فلقد كان عليهم أن يروا (من رأى الظنية) أن هذا العجل لا ينطق ولا يضر ولا ينفع ومن ثم لا يمكن أن يكون إلها.

«وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا؟»

الرد: «أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا» (مريم ٦٦).
!(٦٧)

تعود الإنسان على المعرفة عن طريق الحواس فإذا وصل بفكره إلى معلومات مجردة فإنه يبنّي مقدماتها على معطيات الحواس ومن هنا كان التصديق بأمر الغيب إيمانا بالقلب لا معرفة بالعقل لأن الغيب لا يمكن أن يُبنى على مقدمات حسية. ولقد تعود الكفار على رؤية الأجساد تبلى بعد الموت ومن ثم كان الكلام عن البعث ضد ما تعلموه عن طريق الحواس لهذا تساءلوا منكرين صدق دعوى البعث. هنا يأتي الحوار القرآني بتذكيرهم بالنشأة الأولى بواسطة الإنكار أيضا وأنها كانت من لاشيء فأيهما أهون على الله الخلق من شيء أصابه البلى أم الخلق من لاشيء.

٥- السخرية:

«وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا؟»

الرد: «قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ»
(الاسراء ٤٩، ٥٠)

تشككوا في إمكان البعث بسبب بلى الأجساد فقال لهم إن الله قادر على بعثكم كيفما كنتم سواء بعث العظام والرفات والحجارة والحديد والسموات والأرض والجبال أياما كنتم فالبعث ممكن وواقع.

٦- الوعيد:

«فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا

بَأْمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ.

الرد: «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا
وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (التوبة ٨١، ٨٢).

فرح القاعدون عن الغزو لتمكنهم من الجنوح إلى الراحة وتوقى معاناة القتال في القيظ وتداعوا إلى عدم الخروج في الحر فرد عليهم القرآن بأنهم إنما توقوا أيسر الحرين وأن حر جهنم في انتظارهم فإذا ضحكوا الآن فإن ضحكهم قصير الأمد لكونه مؤقتا بتوقيت حياتهم الدنيا أما بعد ذلك فبكاء دائم في جهنم جزاء ما اقترفوا من إثم.

«يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ»

الرد: «قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (التوبة ٩٤)

عاد الرسول والمجاهدون من الغزو فجاء المخلفون ينتحلون الاعذار الملققة لتخلفهم ففضحهم الله بأن أمر نبيه أن يرفض أذارهم والآ يؤمن لهم أو يصدقهم وأن يكشف لهم عن إخبار الله تعالى إياه بحقيقة أمرهم ثم أوعدمه بأن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن أعمالهم ستعرض عليه ويطلع عليها رسوله وسيحاسبون بها يوم القيامة.

«وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»

الرد: «لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِ النَّارِ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ» (الانبياء ٣٨ - ٤٠).

تساءل الكفار بشيء من التحدى عن وقت يوم القيامة فرد عليهم القرآن الكريم بكيفية عذابهم يوم القيامة جاعلا الوعيد رداً على التحدى وفي حذف

جواب لو من إفادة التعميم ما يفهم منه أمران:

أ- شدة العذاب إلى درجة لا توصف

ب- فزع المعذبين إلى درجة لا توصف

ثم أضاف إلى ذلك ردا على السؤال عن التوقيت بجواب من جنسه وذلك قوله: «بل تأتيهم بغته» وبشيء من أثر المفاجأة عليهم بقوله «فتبتهم فلا يستطيعون ردها» وأكمل الوعيد بأنهم لا تأجيل لعذابهم «ولا هم ينظرون» وهذا شبيه بقوله تعالى: «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُكُ لَا أَوْزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ» (القيامة ٥ - ١٢).

* «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ»

الرد: «وَلَكِنْ يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَالْفِ سَنَةِ مِمَّا تَعُدُونَ» (الحج ٤٧)

اراد الكفار تحدى النبي فطلبوا إليه أن يدعو ربه أن يعجل لهم العذاب فرد الله تعالى عليهم بأنه وعد بتعذيب الكافرين ولن يخلف وعده ولكن التوقيت إنما يكون بأيام الله لا بأيام الأرض فإذا طال الإمهال فذلك لا يعنى الإهمال.

٧- الاعتذار:

* «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ».

الرد: «قُلْ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» (الرعد ٧)

كذب الكافرون بالرسالة لأنها جاءتهم من طريق رجل نشأ بين ظهرانيهم فلم يروا له قدرة على الاتصال بالسماء فجعلوا شرط تصديقهم أن تنزل عليه آية من ربه فطلب الله من رسوله أن يرد عليهم بأنه ليس إلا منذرا لهم أرسل

إليهم ليهديهم شأنه وشأنهم كشأن الرسل وأقوامهم فهم جميعا بشر قد من الله عليهم بالرسالة أما الآيات فهي من عند الله إن شاء أنزلها وإن شاء لم ينزلها فهو وحده القادر على أن ينزل آية.

﴿وَالَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾

الزد: «قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ»
(الرعد ٣٦)

في كتب اليهود والنصارى نبوءة بظهور النبي العربي الذي يوحى إليه فلما ظهر محمد صلى الله عليه وسلم كان تحقيقا لما في كتبهم ولما نزل القرآن كان مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل وقد كان ذلك مبعث فرح لأهل الكتاب ولكن طوائف منهم ينكرون بعض ما نزل به القرآن لأنه يكشف ما صدر منهم من تحريف وتزييف لدعوة التوحيد التي دعا إليها موسى وعيسى حتى قالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وهكذا جاء الرد في الآية على هذه الطوائف بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم إن دينه يأمر بعبادة الله وحده وإنكار أن يكون له شريك فإلى الله دعوته وإليه مرجعه يوم القيامة.

٨- التنزية:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾

الرد: «سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانُونَ» (البقرة

(١١٦)

نسبوا الولد إلى الله (سبحانه) فكان الرد عليهم تنزيه ذاته عن اتخاذ الولد لأن كل ما في السموات والأرض إنما هو في ملكه وطوع إرادته فما حاجته مع هيمنته على العالمين جميعا إلى أن يتخذ ولدا كالذي نسبوا إليه؟

«وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا»

الرد: «سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» (الانبياء ٢٦، ٢٧)

قالوا إِنَّ الملائكة بنات الله (سبحانه) فنزه الله ذاته عن هذه الدعوى وأخبر أن الملائكة عباد من عباد الله أكرمهم الله وجعلهم من الصالحين لا يَعصُونَ الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون فلا يَمْضُونَ أمرا إلا إذا أمرهم الله بامضائه.

* «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا»

الرد: «تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا» (الفرقان ٦٠، ٦١)

هؤلاء الكفار طولبوا بالسجود للرحمن فتجاهلوا أنهم يعرفون المقصود بالرحمن فكان الرد عليهم أن في عدم معرفتهم به اعتراف بالعمى وعدم الإدراك لأن من صنعه سبحانه السماء ذات البروج والشمس والقمر فمن أنكر الشمس والقمر فقد اعترف بالعمى وعدم الإدراك.

٩- الدعاء:

* «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَابِّرَ»

الرد: «عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (التوبة ٩٨)

من الاعراب منافقون إذا انفقوا شيئا في تجهيز غزوة أو في غرض إسلامي عام أحسوا مؤونة النفقة وتشكوا من الغرم وهم في الوقت نفسه يَتَلَمَّسُونَ من المسلمين عورة أو غفلة ليدخلوا إلى إيذائهم من خلالها فالله سبحانه وتعالى يدعو عليهم أن تكون نهاية الأمر عليهم سوءا وخسرانا ويطمئن المؤمنون بأنه يسمع ما يقوله هؤلاء الاعراب ويعلم ما يبیتونه.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ ﴾

الرد: «عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِبُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ» (المائدة ٦٤).

نسب اليهود رب العزة إلى مالا يليق به من الصفات فالصقوا به الفقر تارة إذ قالوا «إن الله فقير ونحن أغنياء» (آل عمران ١٨١) ونسبوه إلى البخل تارة أخرى كما في هذه الآية وهكذا استحقوا لعنة الله وغضبه والصداء عليهم أن تُغَلَّ أَيْدِيهِمْ وقد صدق الله العظيم إذ لانعلم شعبا في هذا العالم أشد بخلا من اليهود.

﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ﴾.

الرد: «صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» (التوبة ١٢٧)

كان من دأب المنافقين العمل على التستر وراء المظهر الخادع الذي يعلن الإسلام ويُسِر الكفر ويتربص بالمؤمنين الدوائر وكانوا يحذرون أن تنزل بشأنهم سورة تنبئهم بما قلوبهم وهكذا كانوا دائما على خوف أن يفتضح أمرهم فإذا ما أنزلت سورة من القرآن اختلس بعضهم إلى بعض النظر خوف الافتضاح ثم انصرفوا عن رسول الله مصرين على مافي قلوبهم من كراهية وبهذا استحقوا الصدء عليهم ان يصرف الله قلوبهم عن كل خير بسبب عدم معرفتهم بمواقع الحق وهذا المعنى أوضح من جعل جملة «صرف الله قلوبهم» بدل تفسير للفعل «انصرفوا» لأن المطاوعة التي في «انصرفوا» تعنى أن مفعول «الصرف» قادر على مقاومة وقوع الحدث فتجعل ما يدخر لهم من العذاب مستحقا لهم أما الإبدال والتفسير فيجعل الصرف قدرا من عند الله لا انصرافاً بقرار من عندهم يلامون عليه.

١٠- تعدد أنواع الرد:

* «وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنُ»

الردود:

قلب الدعوي: «قُلْ أَدْنُ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ
لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ».

وعيد: «وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (التوبة ٦١)

* «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ»

الردود: تكذيب: «وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ

لَكَاذِبُونَ»

وعيد: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَوْزَارَهُمْ وَأَوْزَارًا مَعَ أَوْزَارِهِمْ وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» (العنكبوت ١٢، ١٣)

* «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ

وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ

فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ»

الردود:

تكذيب: «وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ»

تعليق: «إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا وَلَوْ ذُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا

الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلْبَثُوا فِيهَا إِلَّا يَسِيرًا» (الأحزاب ١٢ - ١٤)

* «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى»

الردود:

تعليق: «تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ»

تعجيز: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (البقرة ١١١)

* «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ»

الردود:

تعجيز: «قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلْعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

تعليق: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ» (يونس ٣٨،
٣٩).

* «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي»

الردود:

تعليق: «أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا».

وعيد: «وَأَنَّ جَهَنَّمَ أَحْيَطَةٌ بِالْكَافِرِينَ» (التوبة ٤٩)

* «أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ أَفْكَهَمَ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ»

الردود:

تكذيب: «وَأِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»

إنكار: «أَصْنَفِي الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ»

توبيخ: «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ»

سخرية: «أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ»

تعجيز: «فَأْتُوا بِسُلْطَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (الصافات ١٥١-١٥٧)

* «وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً»

الردود:

سخرية: «أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ»

وعيد: «سُكِّتَبُ شَهَادَاتِهِمْ وَيُسْأَلُونَ» (الزخرف ١٩)
* «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ»

الردود:

إنكار: «أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ»

تعلیق: «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُخْرِيًّا وَرَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» (الزخرف ٣١، ٣٢).

ثانيا: التذكير وضرب المثل والامر بالمعروف :

١- التذكير :

التذكير تنشيط الذاكرة وربط الانتباه بمذكور أو معهود معين. ووسيلة التذكير هنا هي القرآن الكريم والله سبحانه وتعالى يقول: «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ» (ق ٤٥) ذلك بأن القرآن هو ديوان الدعوة الإسلامية (إن صح هذا التعبير) ففيه كل الوسائل الموصلة إلى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن: ولقد جاء التذكير بذات الله سبحانه وتعالى دون قيد نحو:

* «لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» (الأحزاب ٢١)

* «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى» (الأعلى ١٥)

* «وَأَذَكَّرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ» (آل عمران ٤١)

* «وَأَذَكَّرْ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً» (الأعراف ٢٠٥)

* «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ» (الأنفال ٢)

وقد يتطلب ذكره تقييداً بمناسبة خاصة نحو:

* « وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ، (الأنعام ١٣٨) »

* « وَادْذُكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، (الكهف ٢٤) »

* « فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ
كَمَا هَدَاكُمْ ، (البقرة ١٩٨) »

* « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ،
(البقرة ٢٠٠) »

* « وَادْذُكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ، (البقرة ٢٠٣) »

* « فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ، (البقرة
٢٣٩) »

* « فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَأذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ،
(النساء ١٠٣) »

* « فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، (المائدة ٤) »

* « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ، (الأنفال
٤٥) »

* « وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأذْكُرُوا اسْمَ
اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ، (الحج ٣٦) »

وقد يكون المطلوب ذكره نعمة أنعمها الله على عباده مجملة تحت اسم
النعمة أو مفصلة ببيانها نحو :

* « أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ، (مريم ٦٧) »

* « وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ بَنَ مَرْيَمَ اذْكُرِي نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ،

(المائدة ١١٠)

* « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنَّى فَضَلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ، (البقرة ١٢٢) »

* « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْغَيْثِ وَالْحِكْمَةِ ، (البقرة ٢٣١) »

* « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، (آل عمران ١٠٣) »

* « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّتِي وَاتَّقَمْتُ بِهِ ، (المائدة ٧) »

* « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَّا يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ، (المائدة ١١) »

* « يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ، (المائدة ٢٠) »

* « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ، (الأعراف ٦٩) »

* « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادَ ، (الأعراف ٧٤) »

* « فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، (الأعراف ٧٤) »

* « وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ ، (الأعراف ٨٦) »

* « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَّكَيْكُمْ ، (الأنفال ٢٦) »

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر بالقرآن وذلك في قوله تعالى :

* « وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ، (الأنعام ٧٠) »

* « وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ، (الذاريات ٥٥) »

* « فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ، (الطور ٢٩) »

« فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذُّكْرَى » (الاعلي ٩)

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ » (الغاشية ٢١)

ب - ضرب المثل :

يُعد ضرب المثل في أيامنا هذه من أنجح وسائل التربية وضرب المثل قد يكون عمليا بالقدوة الصالحة وقديكون قوليا. فاما القدوة فقد أدب الله نبيه فأحسن تأديبه وهبه الخلق العظيم والرافة بالمؤمنين « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ » (آل عمران ١٥٩) ولقد أصبحت أعماله وسلوكه الخاص سنة عملية ماثورة يطلب إلى المسلمين أن يقتدوا بها وهكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للمؤمنين وهو مثل عمل ساقه الله لعباده لمن شاء منهم أن يستقيم.

أما الامثال القولية فقد تعددت طرق التعبير عنها في القرآن الكريم كالتشبيه العادى الذى أدواته الكاف وكلفظ «مَثَل» مقترنا بالكاف (كمثل) أو بدونها أو بعبارة تفيد ضرب المثل كعبارة «ضرب الله مثلاً» أو «ضربَ مَثَلًا» بالبناء للمجهول أو مثل كذا ككذا أو كمثل كذا أو استعمال مشتقات مادة (ش ب ه) الخ. والقرآن ثرى بظاهرة ضرب الامثال يتخذها وسيلة للدعوة والتهديب والزراية بأعمال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين. وهكذا يبدو التمثيل في القرآن في صور شتى على النحو التالى :

الصورة الأولى : ضرب الله مثلاً كذا وكذا هل يستويان؟ أو نحو ذلك.

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » (النحل ٧٥)

« وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى

مَوْلَاهُ أَيُّنَمَا يُوجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، (النحل ٧٦)

الصورة الثانية : ضرب الله مثلا لكذا كذا.

* « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُوحٍ وَامْرَأَةٌ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنَبَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا
وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ، (التحريم ١٠)

* « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ
بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرِيَمَ
ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ
رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِكْرَامٌ ، (التحريم ١٢، ١١).

الصورة الثالثة : مثل كذا كمثل كذا :

* « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ
بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمُّ بَعْضٍ عَمَى فَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ
كَصِيبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ
مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ، (البقرة ١٧-١٩)

* « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ
سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ،
(البقرة ٢٦١)

* « فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا
يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ، (البقرة
٢٦٤)

* «وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (البقرة ٢٦٥)

* «إِن مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (آل عمران ٥٩)

* «مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ» (آل عمران ١١٧)

* «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (العنكبوت ٤١)

* «مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (الجمعة ٥)

الصورة الرابعة : مثل كذا كذا :

* « مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» (هود ٢٤)

* « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (ابراهيم ٢٤، ٢٥)

* « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ» (ابراهيم ٢٦)

* « وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا، (الكهف ٤٥) »

الصورة الخامسة : مثل كذا كذا = أمثل كذا كذا :

* « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » (محمد ١٥) أى أمثل المتقين في هذه الجنة كمن هو خالد في النار؟

الصورة السادسة: كذا كمثل كذا:

* «اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهَيِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ، (الحديد ٢٠) »

* «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنُخْرِجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيْنَ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ لِأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ لَا يِقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا قُوَّةً وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ

اَكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا
أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ، (الحشر ١١ - ١٧)

الصورة السابعة - مثل كذا = صفة كذا:

* «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ
وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ، (الرعد ٣٥)

جـ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

لعل أوضح ما يمثل اعتماد الدعوة على الأمر بالمعروف قوله تعالى: «خُذِ
العِفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» (الأعراف ١٩٩) وقد حَفَّ
بالعرف في هذه الآية العفو والإعراض عن الجاهلين حتى لكانتهما شرح
المقصود بالعرف الذي كلف النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمر به. ويقال
للعرف «المعروف» والمعروف ما تعارف الناس على حسنه وهو ضد المنكر الذي
تعارفوا على إنكاره وقد وصف القرآن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله
يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَجْلُ لِهِمُ الطَّيِّبَاتِ وَيَحْرِمُ عَلَيْهِمُ
الْخَبَائِثَ (الأعراف ١٥٧) فجعل بين المعروف والمنكر والطيبات والخبائث
لغاوا نشرأ مرتباً فعمل من ذلك أن الطيبات للمعروف والخبائث للمنكر. ولقد
أنشأ كتاب الله العزيز مقابلة بين المنافقين والمنافقات من جانب والمؤمنين
والمؤمنات من جانب آخر فقال: «وَالْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ
يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ
فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» (التوبة ٦٧) وقال بعد ذلك:
«وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (التوبة ٧١). وأمر الله عباده بأن
يأمرُوا بالمعروف وينهوا عن المنكر وذلك قوله تعالى: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ

يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، (آل عمران ١٠٤)

وجعل شرط تفوق الأمة الإسلامية على غيرها أن تمارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ يقول: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» (آل عمران ١١٠) فلقد جاء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سياق جملة حالية فإذا كانت الحال معناها الملازمة للحدث الذي عبرت عنه الجملة الكبرى فمعنى هذا أن الخيرية مشروطة بملازمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإذا فقد الشرط لم يتحقق المشروط.

ولقد أمرنا الله سبحانه أن نجعل المعروف قرينا للكثير من تصريفنا للعلائق الاجتماعية حتى لكان العرف هو قانون التعامل الإسلامي حين لا يكون هناك تشريع. أنظر مثلا إلى دخول المعروف في العلاقات بين الأفراد في الآيات الآتية:

- * «فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعِ بِالْمَعْرِوفِ» (البقرة ١٧٨)
- * «كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ» (البقرة ١٨٠)
- * «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» (البقرة ٢٢٨)
- * «الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ» (البقرة ٢٢٩)
- * «فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ» (البقرة ٢٣١)
- * «فَلَا تَغْضَبُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ» (البقرة ٢٣٢)
- * «وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» (البقرة ٢٣٣)

* «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا تَنِيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ» (البقرة ٢٣٣)
* «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِنَا بِالْمَعْرُوفِ» (البقرة ٢٣٤)
* «وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرَهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ»
(البقرة ٢٣٦)

* «وَالْمُطَلَّقاتِ مَتَاعَ بِالْمَعْرُوفِ» (البقرة ٢٤١)
* «قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى» (البقرة ٢٦٣)
* «وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ» (النساء ٦)
* «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» (النساء ١٩)
* «وَأَثْوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» (النساء ٢٥)
* «لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ النَّاسِ» (النساء ١١٤)
* «فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ»
(الطلاق ٢)

* «وَأْتَمَرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ» (الطلاق ٦)
* «وَلَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً» (البقرة ٢٣٥)
* «وَأَرزُقُوهُنَّ فِيهَا وَآخِسُوهُنَّ وَقُولُوا لَهُنَّ قَوْلاً مَعْرُوفاً» (النساء ٥)
* «فَلَا تُطْعِمُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً» (لقمان ١٥)
* «وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً» (الاحزاب ٣٢)

وهكذا يصبح عنصر الموعظة الحسنة في الدعوة الإسلامية من أوضح عناصرها لتعدد عناصره كما رأينا ولأنه يقف موقف القول الشارح من قوله

تعالى: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» (البقرة ٢٥٦) لأن عنصر الإكراه إذا انتفى لم يبق من بديل له إلا الاختيار فإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن تتجه الدعوة الإسلامية إلى رجل يملك حرية الاختيار إلا أن تكون بالموعظة الحسنة وما فيها من التذكير وضرب الأمثال والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لقد نسب بعض الحاقدين على الإسلام إلى الإسلام أنه انتشر بحد السيف، فهل يمكن تصديق هذه الفرية مع وجود كل هذه الصفحات المشرقة بآيات الله سبحانه وما يرويه التاريخ من دخول الإسلام في أراض كثيرة لم تطأها قدم جندي مسلم كغرب أفريقيا وشرق آسيا وشمال أوروبا والأمريكيتين؟

ثالثاً - الحجاج في القرآن الكريم:

إذا كان الحوار طريقاً من طرق الدعوة كما رأينا فإنه قد يثول في بعض صوره إلى الاعتماد على الحجة والدليل. فاما الدليل فقد يساق من خلال المطالبة بالنظر في الظواهر الكونية التي لا يمكن أن توجد نفسها ولا أن تُوجد بنفسها، ففي وجودها دليل على وجودها وعلى نعمه التي أنعم بها على الإنسان بتسخيرها له. وأما الحجة فلها شأن آخر إذ تتراوح المحاجة بين الدليل المنطقي والدليل الخطابي، ويأتي الفرق بينهما من أن الدليل المنطقي صوري يعتمد على مقدمات تأتي عنها نتائج ويأتي على صورة معينة، فمثله كمثل إجراء مسألة في الحساب ترتب الأرقام فيها على صورة معينة توضع الأحاد فيها تحت الأحاد والعشرات تحت العشرات وتبنى النتيجة بوضع الأرقام أفراداً، فإذا بقى بعد الرقم المفرد شيء ارتفعنا به إلى المنزلة التالية فأضفناه إليها، وهكذا وكما أن صور الحساب الأولى أربع نجد أشكال القياس الصوري أربعة - والنص القرآني لا يخضع لهذا النوع من التقييد الصوري، لأن الصورة أسلوب ذو قاعدة والقرآن لا يحتكم إلى أسلوب واحد بعينه، وإنما هو حدائق ذات بهجة من الأساليب التي لا تنتهي أعاجيبها. أما الدليل الخطابي فهو غير

صورى فلا أسلوب له إلا ما يناسب المقام فللمستدل أن يعبر عنه بالاستفهام أو بالخبر أو بالشرط أو بأى نمط تركيبى شاء. وحين أمر الله سبحانه أن تكون الدعوة بالموعظة الحسنة شاء أن يكون الجدل بالتي هي أحسن. ولفظ أحسن هنا كما أفهمه لا يدل على معنى الصفة المشبهة، كما يدل «أشقر» و«أبلج» و«أسمر» وإنما يدل على المقارنة بحسن الموعظة بتفضيل حسن على حسن ليكون أفضلهما هو الأحسن. مما يقى الجدل من أن يكون منبرا للعداوة أو الشحناء ومقاومة الدعوة.

دعنا أولا نلق نظرة على النوع الاول من الأدلة، وهو المطالبة بتأمل الظواهر الكونية التى لا يمكن أن توجد نفسها ولا أن توجد بنفسها. ولاشك أن هذا النوع من التأمل لا بد أن يؤدي إلى إدراك أن هناك خالقا مبدعا لهذا الكون الذى يمثل هيكلًا بنائيا ذا علاقات داخلية محكمة توحى بأن خلقه قد تم جملة وبإرادة واحدة لخالق واحد «خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا» (الفرقان ٢) فجعل علاقات الجاذبية بين النجوم والكواكب مضبوطة المقادير لا تختل ولو اختلت لتناطحت الأجرام وانتهى كل شىء فى لحظة، وكذلك جعلها مجموعة ونظم فيها الضوء والحرارة وأوجد الحياة فى الأرض معتمدة على ضوء الشمس وحرارتها وجعل للبيئة فى كل إقليم من أقاليمها توازنا دقيقا لو تدخل الإنسان فيه لأفسده وقد عبر القرآن عن هذا التوازن بقوله تعالى: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» (القمر ٤٩) وهكذا كان مجرد التأمل فى ذلك مدعاة إلى الاعتراف بوجود خالق لهذا الكون وأن هذا الخالق ذو علم وإرادة وتدبير وأن الدهريين والقائلين بأن الطبيعة أوجدت نفسها يتنكرون لأبسط مسلمات التفكير العقلى الإنسانى الذى يدعو إليه الإسلام بالدعوة إلى التأمل فى الكون.

شواهد الدعوة إلى التأمل:

قال الله تعالى:

* يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُشْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ،
(البقرة ٢١ - ٢٢)

* وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، (البقرة ١٦٣ - ١٦٤)

* «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُّونَ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ، (الأنعام ٢ - ٣)

* «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثْكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَهُوَ الْغَايُ تُفُوقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ إِلَّا لَهِ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ، (الأنعام ٥٩ - ٦٢)

* «وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثَقَالًا سَقَّاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثٌ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ، (الاعراف ٥٧ -

* «أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ
وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ»
(الاعراف ١٨٥)

* «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا أَمْ
لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ
كَيْدُونَ فَلَا تَنْظُرُونَ إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ»
(الاعراف ١٩٤-١٩٦)

* «إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى
عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِمَّنْ شَفِيعَ إِلَّا مَنْ بَعَدَ إِذْنَهُ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ
ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ
اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ»
(يونس ٦٢)

* «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ
يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ
اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ
فَأَنَّى تُصْرَفُونَ» (يونس ٣١-٣٢)

* «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتِ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» (يونس ٦٧)

* «مَثَلُ الَّذِينَ ابْتُغُوا مِنَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ

قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» (يونس ١٠١)

* «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ

يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ

خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ قَدْ

كَذَبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ»

(يوسف ١٠٩ - ١١٠)

* «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ

لَعَلَّكُمْ بَلَاءٌ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ

وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ مِثْلَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قَطْعُ مَنَاجِيرَ وَمِنْهَا مَنَاجِيرُ

وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صَبْوَانٌ وَغَيْرُ صَبْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا

عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» (الرعد ٢ - ٤)

* «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ

مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ

الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَآسَأِ الثَّمُوهِ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ

لظَلُومٌ كَفَّارٌ» (إبراهيم ٣٢ - ٣٤)

* «وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ

شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مَّبِينٌ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا

وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ، (الحجر ١٦ - ٢١)

* «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ تُطْفَةِ إِذَاذْ هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفَأٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَنْثَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْبِ إِلَّا نَبِّئِ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَالخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمَنْ كُلَّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَادِرًا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَآخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لِعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، (النحل ٣ - ١٩)

* «وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِيُفَكِّرَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ إِنَّكُمْ فِيهَا تَعَلَّمُونَ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِذْ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ

النَّمْرَاتِ فَاسْأَلْكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، (النحل ٦٦ - ٦٩)

• «وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمَرَ السَّاعَةَ إِلَّا كَلِمَةً الْبَصَرَ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَاتًا إِلَى حِينٍ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَكِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَكِيكُم بِأَسْكُمْ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ، (النحل ٧٧ - ٨١)

• «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَنْ حَمَلَهُ الْوِطِينَ فَجَعَلْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلًا، (الإسراء ١٢)

• «أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى، (طه ١٢٨)

• «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُغُنَّ أَشْدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَلَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، (الحج ٥ - ٦)

* «أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (الحج ٤٦)

* «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءٍ وَفَرَحِيمٍ» (الحج ٦٣ - ٦٥)

* «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ» (المؤمنون ١٢ - ١٦)

* «وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلآكِلِينَ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ» (المؤمنون ١٧ - ٢٢)

* «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَآ بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ

يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَقَدْ أَنْزَلْنَا
آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، (النور ٤٣ - ٤٦)

* «أَلَمْ نُرِ الْإِنْسَانَ إِلَى رَبِّهِ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا
الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ
لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا
وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْعَاسٍ كَثِيرًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ
لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَفُورًا، (الفرقان ٤٥ - ٥٠)

* «وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ
بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ
نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا، (الفرقان ٥٣ - ٥٤)

* «تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا
وَقَمَرًا مُنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَكَّرَ أَوْ
أَرَادَ شُكُورًا، (الفرقان ٦١ - ٦٢)

* «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، (الشعراء ٧ - ٩)

* «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ
أَمَّا يَشْرُكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا
بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
يَعْدِلُونَ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا
وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمَّنْ يَجِيبُ
الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا

مَا تَذَكَّرُونَ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَهٌ مَعَ إِلَهٍ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ إِلَهٍ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (النمل ٥٩ - ٦٤)

• أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، (العنكبوت ١٩ - ٢٠)

• وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْضِئُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تُقَوْمَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ لَهٍ قَائِمُونَ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، (الروم ٢٠ - ٢٧)

• اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَيُرِي الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَنْبِشُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ مُبْلِسِينَ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ رَبِّكَ كَيْفَ يَخْبِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخْبِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، (الروم ٤٨ - ٥٠)

* «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ» (الروم ٥٤)

* «خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوِنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» (لقمان ١٠ - ١١)

* «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» (لقمان ٢٩ - ٣١)

* «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ذَلِكَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ» (السجدة ٤ - ٩)

* «أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ» (السجدة ٢٦)

(٢٧)

* مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تُوْفِكُونَ،
(فاطر ٢٠٢)

* وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لِحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْمَلِكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لِتَبْتَفُؤا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرَى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ، (فاطر ١١ - ١٤).

* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ، (فاطر ٢٧ - ٢٨)

* إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعْدُو الظَّالِمُونَ

بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا، (فاطر ٢٨-٤١)

* «وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ، (يس ٢٣-٣٥)

* «وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخْنَا مِنْهُ النَّهَارَ فإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا نُورًا لِنُرِيَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ، (يس ٣٧-٤٢)

* «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ، (يس ٧١-٧٣)

* «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأُنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ نُصْرَتُونَ، (الزمر ٥-٦)

* «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ، (الزمر ٢١)

* «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ، (الزمر ٢١)

قَبْلَهُمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ، (غافر ٢١)

* لِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مِمَّا تَذَكَّرُونَ، (غافر ٥٧-٥٨)

* «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تُؤْفَكُونَ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاعْبُدُوهُ مَخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (غافر ٦١-٦٤)

* «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِنَكُونُوا شُبُهًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَلَّىٰ مِنْ قَبْلُ وَلِنَبْلُغُوا أَجْلًا مُّسَمًّى وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ هُوَ الَّذِي يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ، (غافر ٦٧-٦٨)

* «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِنَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَإِذَا آيَاتُ اللَّهِ تُنكَّرُونَ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، (غافر ٧٩-٨٢)

* «قُلْ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا

ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا
أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ
فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأُنْتِي طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ
سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، (فصلت ٩ - ١٢)

* «وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا
لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ، (فصلت ٣٧)

* «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنك تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ
وَرَبَّتْ إِن الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، (فصلت ٣٩).

* «وَمَا أَخْلَقْنَاهُ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ
لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ (الشورى ١٠ - ١٢)

* «وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ
الْحَمِيدُ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ
عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ» (الشورى ٢٨، ٢٩)

* «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ
رَوَاقِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا
وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ» (الشورى ٣٢ - ٣٤).

* «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنِثَاءً
وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا

إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ» (الشورى ٤٩، ٥٠)

«وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تَخْرُجُونَ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لَتَسْتَبْشِرُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ» (الزخرف ٩-١٤).

«إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابِّهِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ» (الجمالية ٣-٦).

«اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (الجمالية ١٢، ١٣).

«مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ آثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (الاحقاف ٣، ٤).

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ عَنْهُمْ بِخَلْقِهِنَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (الاحقاف ٣٣).

«أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا» (محمد - ١٠)

* «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَبْهُجٍ تَبَصَّرَةٌ وَتَذَكَّرُ لِكُلِّ عِبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسْقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ» (ق ٦-١١)

* «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لِحَقِّ مِثْلِمَا أَنْتُمْ تُنطِقُونَ» (الزاريات ٢٠-٢٣).

* «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ قَرَّهْنَاهَا فَنَعْمَ الْمَاهِدُونَ وَمَنْ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفِرُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» (الزاريات ٤٧-٥٠).

* «وَأَن إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تَمَنَّى وَأَن عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْأُخْرَى وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى» (النجم ٤٢-٤٩).

* «الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ فِيهَا فَاكِهِةٌ وَالنَّخْلَ ذَاتَ الْأَكْمَامِ وَالْحَبَّ ذُو الْعَصْفِ وَالرِّيْحَانَ» (الرحمن ١-٢٢).

* «نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْنُونَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ

نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدَّلَ
أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا
تَذَكَّرُونَ

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَنْتُمْ تُزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ
حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي
تَشْرَبُونَ أَنْتُمْ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمَازِنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ
أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ
نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكِّرًا وَمَنَاعًا لِلْمُقِيمِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الْعَظِيمِ» (الواقعة ٥٧-٧٤).

* « سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَلِكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ
وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا
يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
(الحديد ١-٦).

* « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ
نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ
وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (المجادلة ٧)

* « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنًا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيْرُ
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِدَاتِ الصُّدُورِ» (التغابن ٢-٤)

« تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ
وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ
سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاطُتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى
مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِنًا وَهُوَ حَسِيرٌ»
(الملك ١-٤).

« أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ
إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ نُورِ الرَّحْمَنِ
إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي
عُتُوٍّ وَنُكُورٍ أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ قُلْ هُوَ الَّذِي لَرَأْسِكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» (الملك ١٩ -
٢٤).

« أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا
وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أُنْبِتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا
وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا
فَجَا بَاءَ (نوح ١٥ - ٢٠)

« أَلَمْ نُخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ
فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كَفَاتًا أَحْيَاءُ
وَأَمْوَاتًا وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيًّا وَسَامَخَاتٍ وَأَسْفِينًاكُمْ مَاءَ فُرَاتٍ» (المرسلات
٢٠-٢٧)

* «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا
نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ
سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا
لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا، (النبا ٦ - ١٦)

* «أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا
وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا
وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ، (النازعات ٢٧ - ٣٢)

* «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ
شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَبْيًا وَقَضْبًا وَرَزَيْنَا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً
وَأَبَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ، (عبس ٢٤ - ٣٢)

* «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ
صُورَةٍ مَأْشَاءَ رَبِّكَ، (الانفطار ٦ - ٨)

* «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ
وَالْتَرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرِ فَمَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ،
(الطارق ٥ - ١٠)

* «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى
الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ،
(الغاشية ١٧ - ٢١)

* «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يُفَدَّرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ
مَالًا لِبَدَأٍ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ
وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، (البلد ٤ - ١١)

* «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ
مَأْكُولٍ (الفيل ١ - ٥)

شواهد المحاجة:

ذكرنا أن الدليل العقل لا يعد منطقياً بالمعنى الدقيق إلا أن يكون سوريا وأن تراعى فيه أصول الاستدلال المنطقي فإذا لم يتحقق له شيء من ذلك ولكنه ظل يخاطب العقل فإنه عندئذ يقع في عداد الأدلة الخطابية وليس الدليل الخطابي أقل شأنًا من الدليل الصوري، فلعل منهما مجال استعمال لأن الاستدلال الصوري، إنما يرمى إلى مراقبة صحة التفكير بعد وقوعه أما الدليل الخطابي فإنه هو التفكير نفسه يخاطب العقل حيناً ويخاطب العاطفة حيناً آخر. والأدلة القرآنية جميعاً تخاطب العقل لأنها وإن لم تكن صورية فهي تقوم على أساس من المسلمات العقلية. وفيما يلي طائفة من الأدلة القرآنية المذكورة:

* «الْمُ تَرَى إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، (البقرة ٢٥٨)

* «يَاهِلِ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءَ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تَحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنْ أَوَى النَّاسُ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَبِيُّ الْمُؤْمِنِينَ، (آل عمران ٦٥ - ٦٧).

• «وَحَاجَّةُ قَوْمِهِ قَالَ اتَّخَا جُونَى فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا اشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْكُمْ اشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا قَائِلُ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» (الانعام ٨٠ - ٨٢).

• «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَسْتَكْبِرُونَ تَبْدُونَهَا وَتَخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ كَرِيمٌ ذُرَّهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ» (الانعام ٩١).

• «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (الانعام ١٠٠، ١٠١).

• «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (الاعراف ١٨٨).

• «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» (التوبة ١١٣، ١١٤).

كان الآية الثانية رداً على سؤال وارد يقول فلماذا استغفر إبراهيم لأبيه وهو كافر؟ الجواب أنه وعده بقوله: (ساستغفر لك ربي)»

* «وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بَقْرَانٌ غَيْرٌ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِئْتُ فِيكُمْ عُمَرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ»
(يونس ١٥، ١٦)

* «تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» (هود ٤٩)

* «قَالَ هِيَ رَأودَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قَبْلِ فَصَدَّقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (يوسف ٢٦، ٢٧)

* «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» (يوسف ١٠٢، ١٠٣)

* «وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (النحل ١٠٣)

* «قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَا بَتَّغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُقُولُونَ عَلَؤًا كَبِيرًا» (الإسراء ٤٢، ٤٣)

* «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمِ مِنَ السَّمَاءِ مَكَّارًا رَسُولًا» (الإسراء ٩٥، ٩٤)

* «وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أَخْرَجَ حَيًّا أَوْ لَا يَذْكَرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا» (مريم ٦٦، ٦٧)

* «أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَهَسَدْنَا مُسْجِدًا فَسَبَّحَانَ اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» (الأنبياء ٢١، ٢٢)

* «وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَئِنَّ مَتَّ فِهِمُ الْخَالِدُونَ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» (الأنبياء ٤٤، ٣٥)

* «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ» (الحج ٧٣)

* «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ» (المؤمنون ٩١)

* «وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (العنكبوت ٥٠، ٥١)

* «وَضُرِبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْبِدُ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ» (يس ٧٨ - ٨١)

* «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» (الزمر ٣-٤)

* «وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ

يَكُ صَادِقًا يُصَبِّحُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
كَذَّابٌ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ
اللَّهِ إِنَّ جَاءَنَا» (غافر ٢٨ - ٢٩)

* «وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ» (الزخرف
٣٩)

* «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ عَنْهُمْ بِخَلْقِنَا
بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (الاحقاف ٢٣)

* «قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (الحجرات ١٦)

* «أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ» (ق ١٥)

* «فَذَكَرْ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ
تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أَمْ تَأْمُرُهُمْ
أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فليأتوا
بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ
خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ
الْمُصَيِّطُونَ أَمْ لَهُمْ سَلْمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ قَلِيَّاتٌ مَسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ
أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ أَمْ نَسَالَهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُنْقَلَبُونَ أَمْ
عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتَبُونَ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ أَمْ
لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (الطور ٢٩ - ٤٣).

* «مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفْتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى» (النجم ١١، ١٢)

* «وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ
خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» (الملك ١٣، ١٤)

* «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ

عَلَقَهُ فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ
عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى» (القيامة ٣٦ - ٤٠).

* «وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى» (الضحى ٤ - ٨).

الفصل السادس

من المقاصد الأسلوبية للقرآن

إذا كان الأسلوب هو الطريقة المختارة للتعبير عن المعنى فإن لاختيار هذه الطريقة دون غيرها من الطرق الموصلة إلى هذا المعنى مقصداً معيناً يقصد إليه صاحب الأسلوب يجعل العنصر المختار مؤشراً أسلوبياً يشير إلى قصد ما فلو فرضنا أن متكلماً أراد أن ينفي حدثاً معيناً أن يكون قد وقع كالقيام مثلاً فإنه يمكن أن يعرض هذا النفي في صور متعددة كأن يقول مثلاً:

ما قام قائم أو لم يقم قائم

أو ما قام أحد أو لم يقم أحد

أو ما قام من أحد أو لم يقم من أحد

فلو أن هذه الصور جميعاً كانت متساوية في الوصول إلى نفي القيام لانفتحت الفائدة من تعددها ولنسب إلى اللغة العربية أنها لغة مسرفة مبذرة لا تعرف الاقتصاد في تصريف وسائلها. يؤخذ من ذلك أن استعمال كل صورة من صور التعبير السابقة لابد أن ينطوي على مقصد معين أراد المتكلم أن يبلغه إلى السامع ويرجى للسامع أن يستخلصه مما قاله المتكلم لأن اللغة شركة بينهما يفهمها كل منهما في نطاق عرف مشترك أولاً ثم في حدود ذوق عام ثانياً إذا تباينت الأذواق الفردية ردها هذا الذوق العام إلى بساط مشترك تنكسر به حدة ذلك التباين فيتحقق التفاهم المنشود. إن الذين أعلنوا موت المؤلف لا يستطيعون إنكار أن النص تراث من تركته وأن القارئ وارث لهذه التركة لا يثبت لنفسه حقاً في الاستمتاع بها إلا بعد أن يثبت صلته بالمورث، فلو انقطعت هذه الصلة بينهما لم يعد للوارث أن يتكلم عن حقه في استعمال التركة. فإذا كان النص تركة وكان الذوق العام دليل إثبات الصلة بين القارئ وصاحب النص فإن الذوق الفردي يشبه حق الوارث في أن يتصرف في التركة تصرفاً

فرديا بعد الحصول عليها لأنها عندئذ تصبح ملكا خالصا له ولكنه عندئذ إما ان يدعو لمورثه بالرحمة أو ان يقف منه موقفا آخر كما أراد الناقد الفرنسي رولان بارث أن يقف.

ومعنى هذا أن منشىء النص وقارثه أيضا يلتزم بشروط عرفية الاستعمال وبحدود ذوق عام ولكن له كل الحق أن يلقي على النص ظلا من ذوقه الخاص وأن يجعل سبيله إلى إلقاء هذا الظل تحميل أنماط التركيب عبء هذه المقاصد الأسلوبية الفردية. وقد يتفق للقارئ أن يلتقى مع منشىء النص على فهم فردى واحد ولكنه في كثير من الأحيان ينقاد بذوقه الفردى إلى غير ما قصده المنشىء وله كامل الحق في ذلك وهكذا يصبح النص بالنسبة إلى القارئ منجما يستخرج منه ما شاء من السباتك ومنها سباتك لم ترد على بال المنشىء ولا طافت له بخاطر. ذلك هو السبب المباشر فيما سبقت الإشارة إليه من غلو بعض النقاد حين أعلنوا موت المؤلف. وحين قال أبو نواس: «ألا فاسقنى خمرا وقل هي الخمر» ترك لنا أن نستخرج المقصود من قوله: «قل لى هي الخمر» فهل كان ذلك منه إعلانا لتحدى تحريمها أو كان دعوة إلى إشراك سمعه مع بقية جوارحه في الاستمتاع بها أو كان طلبا لعدم قتلها بالماء أو ماذا؟ إن على كل قارئ أن يشارك في بناء معنى النص ولو خالف ما اراده أبو نواس.

إذا قرأت قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمَلِكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ» (الأنعام ٧٣) وجدت بين يديك جملتين في كل منهما مبتدأ وخبر ووجدت ظرفين جاء كل منهما بلفظ (يوم) فأما الظرف الأول (يوم يقول) فإنه من الناحية التركيبية المحضة صالح لأن يتعلق بالفعل (خلق) فيكون حاصل المعنى انه خلقهن بالحق وكان خلقهن يوم يقول كن وهو صالح (من الناحية التركيبية أيضا) أن يتعلق بخبر المبتدأ من جملة «قوله

الحق». وأما الظرف الثانى (يوم ينفخ) فإنه يصلح أن يتعلق بالخبر من جملة (قوله الحق) أو بالخبر من جملة (له الملك) هذا جميعه من الناحية التركيبية البحتة. ولكنك بتكوينك الدينى والعقلى وما بنيت عليهما من ذوق لغوى بعضه عام وبعضه فردى لابد أن تميل إلى تعليق الطرفين على النحو التالى:

١ - يوم يقول كن فيكون قوله الحق.

أى أنه إذا قال «كن» فإن قوله حق من حيث يصحبه مباشرة خلق ما أراد له أن يكون.

٢ - وله الملك يوم ينفخ فى الصور

أى إذا اتصف الناس فى الدنيا بصفة الملك فإن الملك يوم ينفخ فى الصور لا يكون إلا الله.

وإذا أجريت هذا النوع من التعليق فإنما تجريه بما تعودته من أمر التقديم والتأخير فى اللغة وبما تحسه من علاقة سياقية بين بعض الكلمات وبعضها الآخر وبما تحسه أيضا من مقاصد يشف عنها أسلوب النص وذلك إحساس منشؤه الذوق الذى ذكرنا.

والسؤال الآن عن المقاصد الأسلوبية ما هى وللإجابة عن هذا السؤال يحسن أن نورد بعض هذه المقاصد وما يستعان به من الوسائل للوصول إليها. ومن هذه المقاصد ما يلى:

أولاً التعميم: يوصل إلى مقصد التعميم بوسائل منها:

١ - الموصول: نحو

(* «قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (البقرة ٣٠) فلم تحدد الآية شيئا معينا مما يجهله الملائكة فجعلت ما يعلمه الله ويجهله الملائكة أمرا عاما لا يمكن تحديده.

«لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا» (البقرة ٣٢) لم تحدد الآية ما علمه الله للملائكة وإنما جعلته عاما لم تخرج من عمومها الا الاسماء التي علمها الله لأدم.

«فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ» (البقرة ٣٦) لم تحدد الآية ما كانا فيه وان كنا نعلم من مصدر آخر غير هذه الآية انه الجنة ونعيمها. وهكذا جاء التعميم ليذهب الذهن في تصور هذا النعيم كل مذهب ولبيان عظمة هذا النعيم.

«قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ» (البقرة ٦١) تبين من الآية ٥٧ ان الله تعالى انزل على بنى اسرائيل المن والسلوى وانهم في هذه الآية رقم ٦١ طلبوا ان يخرج الله لهم مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها فعلم من ذلك ما هو كائن وما هو مطلوب فاذا جاء الموصول هنا فإنما يأتي مع حذف موصوفه أى تستبدلون هذه المأكولات التي هي أدنى بالمن والسلوى اللذين هما خير وفي حذف الموصوف واستعمال الموصول تعميم لا يخفى.

«قَوْلٍ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» (البقرة ٧٩) لو أراد التعيين لقال: ويل لفريق من بنى اسرائيل ولو قال ذلك لخلا النص من ذكر الذنب الذي من أجله استحقوا الويل فجاء على وجه التعميم بالوصف القائم مقام علة الويل وحذف الموصوف للعلم به مما سبق من الآية.

«وَلَكِنَّ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِيٍّ وَلَا نُصَيْرٍ» (البقرة ١٢٠) لم تبين الآية حدود العلم الذي جاء النبي صلى الله عليه وسلم فجعلت تحديد هذا العلم موكولا إلى تصور القارئ ومعرفته وذلك من وظائف قصد التعميم.

«إِذْ نَبَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمْ

الأسباب» (البقرة ١٦٦) الذين اتبعوا (بالبناء للمجهول) يمكن أن يكونوا من الشركاء أو من أصحاب الفتن أو المضللين أو المغوين أو من غيرهم ولكن الآية لم تحدد واحدة أو أكثر من هذه الطوائف وإنما عممت بذكر الموصول ليشملها جميعاً دون ذكر واحدة منها.

* «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا» (المجادلة ١) لم يكن اسمها مهماً ولكن كان حكم الظاهر هو المهم.

٢ - التنكير.

* «قَوِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ» (البقرة ٧٩) لم يقل «الويل لهم»، ولو قالها لخفف وقع الويل بما تفيدته الألف واللام من تعيين ويل خاص أو جنس لا يتحقق إلا من خلال أفرادها أما مع حذفها فإن كل ويل من كل نوع صالح أن يكون مقصوداً للآية وهذه وظيفة من وظائف التعميم.

* «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ» (البقرة ١١٦) قالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله وألحق قدماء الملوك أنسابهم بالاله وتعددت الطوائف التي نسبت النسل إلى الله سبحانه فجاء الفعل «قالوا» دون تعيين القائل وجاء لفظ «ولداً» ليشمل كل من نسبه زوراً إلى الله سبحانه فكان ذلك مثلاً لما يستفاد بالنكرة من تعميم.

* «فَإِنْ لَمْ تُفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» (البقرة ٢٧٩) لم يبين للحرب نوعاً ولا كيفية ولا زماناً ولا شدة فأبلغها من كل واحد من ذلك درجة قصوى مما تشق به الحرب على المجاربين المحروبين.

* «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ» (البقرة ١٦٥) ما أكثر ما أشرك الناس بنسبة الأنداد إلى الله فلما أرادت الآية أن تعبر عن شيوع أنواع الشركاء والأنداد بين الحيوان والنبات والجماد جاءت بالنكرة لتحملها رسالة التعميم.

فإذا وقعت النكرة في سياق النفي كانت إفادتها للتعميم أشد وأشمل وأشهر ما يكون من ذلك ما يفهمه اسم لا النافية للجنس من معنى العموم كما في قوله تعالى:

«لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا» (البقرة ٢٥٦)
فليس في الدين من أنواع الاكراه جميعاً شيء وليس للعروة الوثقى من أنواع الانقسام شيء.

«قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا» (البقرة ٢٢) ولقد نفى الملائكة في هذه الآية أن يكون لهم أى قدر من العلم إلا ما علمهم الله سبحانه فجاء التكرير بعد النفي ليفيد العموم.

ويساوى ذلك في إفادة التعميم أن يقترن النفي بحرف الجر الزائد كما في قوله تعالى:

«مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ» (البقرة ١٠٥) إذا أضيف إلى وقوع النكرة بعد النفي ما يفيد توكيد هذا النفي وهو الحرف الزائد إذ المعروف أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى والذي جاء بالتوكيد هنا هو كون النكرة في سياق النفي وليس هو النفي فقط. ومثله قوله تعالى:

«وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» (البقرة ٢٧٠) الذى ينفى كل نوع من أنواع الانصار وكل فرد منهم.

وقد لا يقترن النفي بالحرف الزائد ولكنه يفيد التعميم أيضاً وذلك إذا كان المنفى لفظ «أحد» وما أشبهه مثل ديار وشيء وفتيل ونفس كما في قوله تعالى:

«قُلْ إِنِّي لَنْ يَجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِذًا» (الجن

(٢٢)

- * «فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ» (الفجر ٢٥)
- * «أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يُقَدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ» (البلد ٥)
- * «أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ» (البلد ٧)
- * «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» (الاخلاص ٤).
- * «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» (نوح ٢٦)
- * «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا» (البقرة ٤٨)
- * «أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» (البقرة ١٧٠)
- * «بَلِ اللَّهُ يَبْزُكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا» (النساء ٤٩)
- * «فَأُولَئِكَ يَفْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا» (الاسراء ٧١)
- * «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ» (السجدة ١٧)

وقد يقع الحرف الزائد في حيز الشرط ويبقى على إفادته التعميم كما في قوله تعالى:

- * «مَا نُنَسِّخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِثْلَهَا أَوْ مِثْلَهَا» (البقرة ١٠٦)
- * «وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ» (البقرة ١٩٧)
- * «قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ» (البقرة ٢١٥)

٣ - والشرط مبنى على معنى العموم إلا أن يكون بلفظ «إن» أو بلفظ «إذا» ذلك بأن أدواته فيما عدا «إن» و«إذا» منقولة من معانٍ أخرى فالأدوات الثلاث (من وما وأى) منقولة عن الموصولية وقد رأينا أن الموصول مما يفيد العموم والأدوات الأخرى (إذ ما وحيثما وأينما الخ) منقولة عن الظرفية وقد ركبت مع «ما» المفيدة للشرط والمعروف أن العموم في هذه الحالة منسوب على جملة

الشرط أولاً قبل جملة الجواب ثم لا يلحق جملة الجواب إلا تبعاً لجملة الشرط
تلحظ كل ذلك في الشواهد الآتية:

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة ٨١) أي كل من كَسَبَ.

﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (البقرة ١٠٨) أي
كل من يتبدل.

ثانياً - التوكيد:

يصل الأسلوب القرآني إلى التوكيد بوسائل متعددة منها التوكيد اللفظي
والمعنوي واستعمال الحرفب الزائد والتقديم والقصر والتعميم والصيغ
اللفظية الخاصة وأدوات النسخ وضمير الفصل وأدوات الاستفتاح وغير ذلك
من الوسائل. وسنتكلم عن كل واحدة من هذه الوسائل كل على حدة:

١- التوكيد اللفظي:

هذا النوع من التوكيد بصورته النحوية قليل نسبياً في القرآن نحو قوله
تعالى:

﴿الْأَقْبِلْ سَلَامًا سَلَامًا﴾ (الواقعة ٢٦)

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (الفجر ٢١)

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر ٢٢) وإن بدا أن هذا الشاهد

الآخر من تكرار الحال.

غير أن إعادة اللفظ (وهي التعريف الذي يساق للتأكيد اللفظي) أوسع
مجالاً من ذلك وإن كان بعضها يقع من وجهة النظر النحوية في باب «الربط
بإعادة اللفظ» ولا يُعدّ في باب التوكيد اللفظي. ولقد سبق أن بسطنا القول في

هذه الظاهرة تحت عنوان الربط فلا داعى للاطالة باعادة بيانها في هذا
الموضع.

٢ - التوكيد المعنوى.

ياتى التوكيد المعنوى لافادة معنى (هو لا غيره) و(جميعه) وهو وارد في
الاسماء والافعال بأفهام مختلفة فأما الفعل فإنه يؤكد بمصدره لاستبعاد
إرادة المجاز فإذا قلت «ضرب ضرباً» فالمقصود أن الضرب كان ضرباً حقيقياً لا
مجازياً ولذلك لا يقال مثلاً: ضرب الله مثلاً ضرباً ولا ضربت خمسة في ستة
ضرباً ولا ضربت له موعداً ضرباً وحاصل ذلك أنك قصدت بالتوكيد بالمصدر
أن يكون الضرب (هو لا غيره) ولكن التقسيم النحوى إنما يقوم على صور
الألفاظ وعلى القرائن اللفظية أولاً ومن ثم لا يعد التوكيد بالمصدر من قبيل
التوكيد المعنوى وإن اتفق معه في عموم المعنى - وأما في الاسماء فالأصل أن
يكون التوكيد بالضمير المنفصل وأن يقال بحسب الأصل «جاء زيد هو»
و«جاء الزيدان هما» و«جاء الزيدون هم» غير أن الاستعمال اللغوى عدل عن
ذلك الأصل لأن هذا الضمير في الغالب يؤذن بالعطف إذ يقال «جاء زيد هو
وأخوه» ومن ثم اختصرت صورة الضمير وجيء له بعنصر آخر يكثر من
حروفه فكانت الركائز التى يركز عليها الألفاظ تدل على الذات والعين والنفس
مما يفيد (هو لا غيره) وقع ذلك للضمير أولاً في خارج نطاق التوكيد المعنوى
نحو:

* «لَا تُكَلِّفُ الْإِنْفُسَ» (النساء ٨٤) بدلا من إلاك أو إلاياك

* «أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا» (الاسراء ١٤) بدلا من
كفى بك.

* «فَلَعَلَّكَ بِأَخَعِ نَفْسِكَ عَلَىٰ أَنْثَارِهِمْ» (الكهف ٦) بدلا من باخحك

* «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ» (الكهف ٢٨) بدلا من واصبرك

* «وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ» (آل عمران ٢٨) بدلا من يحذركم إياه.

* «إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ» (آل عمران ٩٣) بدلا من حرم عليه

والبديل في بعض ذلك يؤدي إلى اللبس كما يبدو في الشاهدين الأخيرين (وإن بشكل خيف لبس يجتنب). ومع أن التوكيد المعنوي لا يكاد يرد بصورته النحوية في القرآن نوشك أن نلمح ظلا خافتا من معناه حين يكون المعنى انعكاسيا بأن يكون الحدث واقعا من الفاعل عليه كما في الآيات الآتية:

* «وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ» (البقرة ٢٢٨) أى يراقبن

أنفسهن بأنفسهن.

* «وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» (الحشر ٩) أى

يهضمون أنفسهم بأنفسهم.

* «لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ» (الفرقان ٢١) أى لقد أكبروا أنفسهم

بأنفسهم

ولقد استعمل لفظ «عين» للتوكيد على نمط غير نحوي لأنه جاء في صورة

الإضافة في قوله تعالى:

* «ثُمَّ لَتَرَوْنها عَيْنَ الْيَقِينِ» (التكاثر ٧). أى ثم لترونها رؤية اليقين عينه

ومن ثم لا أتفق مع من يمنع عبارة «فعلت نفس الشيء» ويصر على «فعلت

الشيء نفسه».

من الأصول المشهورة في الدراسات البلاغية أن «زيادة المبنى تدل على

زيادة المعنى» وقد ترتب على ذلك في حدود الأفراد أن نفهم من تضعيف عين

الثلاثى أو زيادة همزة في أوله أو زيادة تاء الأفعال عليه أو نحو ذلك إضافة

معنى جديد الى مفهوم الحدث المجرد ففى التضعيف توكيد وفى زيادة الهمز

تعددية وفى التاء اتخاذ أو مطاوعة أو تأكيد أو غير ذلك من معانى صيغة

الأفعال. أما خارج نطاق الأفراد فأشهر تطبيق لهذا الأصل العام ما يستفاد

من الحرف الزائد من معنى التأكيد. وربما كان لفظ الحرف في بعض الحالات بحاجة إلى توسيع دلالاته ليشمل عناصر لغوية أخرى غير الحروف كالضمائر وغيرها وفي القرآن الكريم من صور زيادة الحروف ما يصعب إحصاؤه ولكنه لا ينبغي لنا في القرآن ولا في غيره من النصوص أن نعدّ الزيادة لغوا أو إضافة إلى ما ينبغي أن يكون عليه النص لأن مصطلح «الزيادة» مصطلح نحوي مرجعه إلى أن النحاة حددوا أركان الجملة ومكملاتها ورأوا الجملة سليمة في تركيبها إذا لم تشتمل إلا على أركانها فقط فإذا أضيف إلى أركانها شيء هو من تكوينها فمن المكملات كالمفعول وكالحال والتمييز والإضافة وما يتعلق من جار ومجرور أما إذا أضيف شيء إلى تركيب الجملة السليمة كما حددتها وجهة النظر النحوية فقد عدوه زائدا على النمط التركيبي لأعلى المعنى ثم لم يشغل النحاة أنفسهم بتحديد معنى الزائد حتى جاء البلاغيون فجعلوا وظيفته التأكيد كما سبق أن أشرنا فإذا قلنا «ما قام من أحد» أو «ما رأيت من أحد» فلقد يكفي لصحة الجملة في عرف النحويين أن يقال «ما قام أحد» أو «ما رأيت أحدا» ومن ثم جعلوا «من» في الحالتين حرفا زائداً أما البلاغيون فيفرقون بين الجملة المشتملة على الحرف والخالية منه فيجعلون الأولى أوكد من الثانية بسبب اشتغالها على الحرف الذي سماه النحويون زائداً.

وفيما يلي شواهد على التأكيد بزيادة الحرف في القرآن الكريم:

* «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» (البقرة ٤) زيدت «من» قبل الظرف.

* «وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» (البقرة ٨) زيدت الباء قبل لفظ «مؤمنين».

* «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ» (البقرة ١٢) زيد ضمير الفصل «هم» ومن ثم لم يكن له محل من الإعراب.

* الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، (البقرة ٢٧) زَيْدٌ «مَنْ»

قبل الظرف .

* إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ، (البقرة ٣٢) زيد ضمير «أنت» فلا محل له

من الاعراب.

* وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ، (البقرة ٨٥ وآل عمران ٩٩) زيدت الباء

قبل لفظ «غافل»

* وَمَا هُوَ بِمُرْزِحٍ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، (البقرة ٩٦) زيدت الباء قبل

لفظ «مرزحه»

* هَآئِنَّمْ هُوَآءٌ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، (آل عمران ٦٦) زيدت «ها»

التنبيه قبل «أولاء»

* حَتَّى إِذَا فَسَلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا

تَحْبُونَ ، (آل عمران ١٥٢) زيدت الواو قبل «تنازعتم» وزيدت «من» قبل

الظرف .

* فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، (آل عمران ١٥٩) زيدت «ما» بعد باء

السببية .

* فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ... (النساء ١٥٥) زيد «ما»

بعد باء السببية .

* وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، (آل عمران

١٤٠) زيدت الواو قبل «ليعلم»

* حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ

وَظَنُّوا إِلَّا مُلْجًا مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، (التوبة ١١٨) زيدت «ثم»

* فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ...

(يوسف ٨٥) أى فلما ذهبوا واجمعوا أوحينا إليه بزيادة الواو.

* « فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ » (الصفات ١٠٢-١٠٤) أى فلما

أسلما وتله نادينا بزيادة الواو.

* « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » (الشورى ٨١) أى ليس مثله شئ

* « ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ بَلْ عَجِبُوا » (ق ١-٢) أى والقرآن المجيد عجبوا

ويمكن القول بنبابه «بل» عن «قد».

* « الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ »

(النمل ٢) أى وهم بالآخرة يوقنون

* « وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظَّلُّ وَلَا

الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ » (فاطر ١٩-٢١) أى ولا الظلمات

والنور ولا الظل والحرور وما يستوي الأحياء والاموات.

* « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » (الواقعة

٧٥-٧٦) أى فأقسم بدليل وإنه لقسم.

٤ - التقديم: تتضح قيمة التقديم ببعض حقائق النحو كما تتضح ببعض

فلسفة البلاغة فأما في النحو فيكفي أن سبب تقديم المبتدأ على الخبر أن المبتدأ

معلوم للمتكلم والسامع لأنه الموضوع الذي يجرى الكلام عنه والمرء لا يتكلم

إلا عما يعرف أما الخبر فهو مجهول للسامع وإلا ما استحق أن يساق إليه

وفوق ذلك أن الفرق بين الجملتين الاسمية والفعلية في صورتها النموذجية

هو فرق تقديم وتأخير بسبب العلم والجهل في بعض الحالات أما في عرف

البلاغيين فضع موضع العلم والجهل مصطلحا آخر هو «التقديم بسبب

الاهتمام» تجد النتيجة ذاتها فإذا اعترفنا بأن في إعلان العلم بالشئ والاهتمام

به إعلاء لشأنه بالنسبة إلى المجهول والمطرح أو الأقل استدعاء للاهتمام كان

ذلك اعتدادا منا بأن التقديم نوع من التأكيد وفيما يلي بعض الشواهد على التأكيد بالتقديم:

* «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» (الفاحة ٥)

* «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» (البقرة ٢)

* «وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» (البقرة ٤)

* «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» (البقرة ١٥) وفيه اختيار الجملة الاسمية دون الفعلية.

* «كَذَلِكَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى» (البقرة ٧٣) أى على هذا النحو يكون الإحياء

* «وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا» (البقرة ٨٣)

* «مَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ» (البقرة ١٠٣) لاحظ تأكيد رتبة المبتدأ

باقترانه باللام

* «أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ» (البقرة ١٧٤) اختيار الاسمية

على الفعلية.

* «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ» (البقرة ٢٠٧)

* «وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ» (البقرة ٢٢٨)

* «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ» (البقرة ٢٣٣) ولهذا كانت هاتان الجملتان امرأ

في صورة الخبر.

* «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» (البقرة ٢٥٥) قارن «لا إله إلا الله

الحي القيوم» بالقصر إضافة الى تقديم لفظ الجلالة وإعادة الضمير إليه بدلا من «لا إله إلا الله الحي القيوم».

* «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ» (البقرة ٢٦٨) تحذير في صورة الخبر.

* « أَنْفَكَ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ، (الصفات ٦٨)

* « قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ، (الزمر ٦٤)

* « قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، (ال عمران ٤٠) بدلا من «يفعل الله ما يشاء»

* « ذَلِكَ نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، (آل عمران ٥٨) بدلا

من «نتلو عليك ذلك»

* « أَفَعَبَّرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ ، (آل عمران ٨٣)

* « يَغْشَى طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، (آل عمران ١٥٤)

لاحظ تقديم الطائفة الثانية للتنديد بها

* « وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ، (ال عمران ١٩٥) قارن «وعند الله حسن

الثواب»

* « وَالَّذِينَ عَقَدَتْ آيْمَانُكُمْ فَاتُوهُمْ نَصِيْبَهُمْ ، (النساء ٢٣) قارن وآتوا

نصيب الذين عقدت آيمانكم.

* « وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ، (النساء ٣٤) قارن وعظوا

اللاتي تخافون نشوزهن.

٥ - القصر : وهو تأكيد بنفى الغير وإثبات الحكم للموضوع ويكون ذلك صراحة بحرف النفي وإلا ضمنا بإنما ولقد جاء التأكيد بإنما من جهتين أولاهما أن «إن» في أصلها للتأكيد وأن زيادة المبنى (أى ما) تدل على زيادة المعنى والثانية أن «إن» بدون «ما» كما في قولنا: إن زيدا قائم تؤكد إسناد خبرها إلي أسمها دون إشارة إلي تفرد الاسم بالاتصاف بالخبر أما «إنما» ففيها هذه الإشارة وهى التى نسميها القصر والمقصود بها ما وليها مباشرة من اسم أو خبر. نقول: إنما زيد قائم فنقصر زيدا على القيام ونقول: إنما قائم زيد فنقصر القيام على زيد. ومعنى القصر فى الحالتين إختصاص أحد العنصرين دون غيره بالآخر ومن ثم تأكيد النسبة بينه وبين الآخر وفي أسلوب

القرآن ما يصعب إحصاؤه من التأكيد بالقصر وفيما يلي طائفة من الشواهد على ذلك:

- * «وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ» ، (البقرة ٩)
- * «إِنَّمَا نَحْنُ مُصَلِحُونَ» ، (البقرة ١١)
- * «إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ» ، (البقرة ١٤)
- * «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» ، (البقرة ٢٦)
- * «لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا» ، (البقرة ٣٢)
- * «لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي» ، (البقرة ٧٨)
- * «وَأِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» ، (البقرة ٧٨)
- * «لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ» ، (البقرة ٨٣)
- * «وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ» ، (البقرة ٩٩)
- * «إِنَّمَا نَحْنُ فَتَنَةٌ» ، (البقرة ١٠٢)
- * «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى» ، (البقرة ١١١)
- * «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ» ، (البقرة ١٤٣)
- * «إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ» ، (البقرة ١٦٩)
- * «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ..» ، (البقرة ١٧٣)
- * «أَوْ لَتَأْكُلُونَ مِنْ بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ» ، (البقرة ١٧٤)
- * «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ» ، (البقرة ٢١٠)
- * «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» ، (البقرة ٢٥٥)
- * «وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ» ، (البقرة ٢٧٢)

* « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، (البقرة ٢٨٦) »

٦ - النسخ: والمقصود النسخ بيان وأن ولا النافية للجنس وبعض الحالات الأخرى، أما إن المكسورة الهمزة فلا معنى لها إلا التأكيد (دعك من معانيها اللهجية) وأما أن المفتوحة الهمزة فإنها إلى جانب التأكيد تشي بمعنى المصدر ولهذا قال العربون في نحو ظننت أن زيدا قائم: « أن وما دخلت عليه سدت مسد مفعولى ظن » أى بحسبانها مع ما دخلت عليه مصدرا مؤولا ولم يقولوا فيها إنها دخلت على مفعولى ظن وإن أصل التركيب: ظننت زيدا قائما، وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة العدد على التأكيد بيان وأن. أما لا النافية للجنس فيرجع لمح التأكيد في معناها إلى دخولها على اسم الجنس وهو مفيد للعموم وفي نفي العموم تأكيد للنفي كما هو واضح، وفيما يلي طائفة من الشواهد على التأكيد بالنواسخ:

* « إِنْ اللَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، (آل عمران ٥) »

لاحظ ما في لفظ «شياء» من معنى العموم

* « رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، (آل عمران ٩) »

* « إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ،

(آل عمران ١٠) »

* « إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لَأُولِي الْأَبْصَارِ ، (آل عمران ١٣) »

* « رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا ، (آل عمران ١٦) »

* « فَتَادَتُهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنْ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ، (آل

عمران ٣٩) »

* « وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ . (آل عمران

٤٩) »

* « أَمَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ » (آل عمران ٥٢)
 * « كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ » (آل عمران ٨٦)

* « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » (آل عمران ١١٢)
 * « يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » (آل عمران ١٧١)

* « فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَاصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » (البقرة ١٨٢)

* « فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ » (البقرة ١٩٧)
 * « فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا » (البقرة ٢٢٣)

* « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ » (البقرة ٢٣٤)

* « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » (البقرة ٢٥٦)
 * « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا » (النساء ٨٤)
 * « عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » (الاسراء ٧٩)

٧- التأكيد بالصيغة : سبق عند الكلام عن التأكيد بالزيادة أن ذكرنا أن تضعيف عين الثلاثي والحاق همزة التعدية أو حرف آخر كتاء الافتعال تؤدي إلى إضافة عنصر جديد إلى المعنى المستفاد من الأصول الثلاثة. ونود هنا أن نضيف أن أي تصرف في طريقة صياغة الكلمة المفردة حتى بالترخص لا بد أن يضيف إلى المعنى عنصرا جديدا وأن يؤكد به هذه الإضافة. ولقد مر بنا في

الفصل الذى يدور حول القيم الصوتية أن شرحنا أثر الإيقاع بالنبر ومطالب الفاصلة والحكاية والمناسبة وحسن التأليف ثم عرفنا في الفصل الذى يليه أن اختيار الألفاظ والعبارات مطلب لا غنى عنه من مطالب الأسلوب يكاد يكون هو الأسلوب نفسه وأود الآن أن أشير إلى فصل من فصول علم الصرف هو معانى الصيغ في حالتى التجرد والزيادة. حيث جعلوا للمطوعة صيغا منها أنفَعَلَ كأنكسر وتَفَعَلَ كتكسر وتفاعل كتباعد واستفعل كاستقام وجعلوا لمصادفة الشيء على صفة معينة أفَعَلَ كأحمد واستفعل كاستكرم وجعلوا للتعدية أفَعَلَ كأجلس وفَعَلَ ككرّم وللتشارك فاعل كخاصم وافتعل كاختصم وتفاعل كتخاصم وللصيرورة فَعَلَ كقوّس واستفعل كاستحجر وللإخاذ افتعل كاختتم وتفعل كتوسد ولاختصار حكاية الشيء فَعَلَ كهلّل واستفعل كاسترجع وللتدرّيج تفعل كتدرج وتفاعل كتزايد ولقوة العيب أفَعَلَ كاعوجّ واستفعل كاستهتر وللإزالة أفَعَلَ كاعجم وفَعَلَ كجربّ وجعلوا لصيرورة الشيء ذا شيء أفعل كأفلس وللدخول فى الشيء كاعرق وللإستحاق كأحصد وللتعريض كأرهن وللمتكين كأحضر وجعلوا للموالة فاعل كوالي وللتكثير فَعَلَ كغلق ولنسبة الشيء إلى أصل الفعل فَعَلَ ككفرّ وكذلك للتوجه إلى الشيء كشرق ولقبول الشيء كشفّع وجعلوا للاجتهاد فى الطلب افتعل كاكْتسب وللإظهار أيضا كاعتذر وللمبالغة فى معنى الفعل كاقْتدر ولقوة اللون افعل كأحمر وللتكلف تفعل كتصبر وللتجنب أيضا كتأثم وجعلوا للتظاهر تفاعل كتناوم وللطلب استفعل كاستغفر وكذلك لاعتقاد الشئ على صفة كاستعظم.

ويهما هنا أن نلتفت إلى معان تحمل جرثومة التأكيد كمعنى قوة العيب أو التكثير أو الاجتهاد فى الطلب أو قوة اللون أو التكلف أو المبالغة لنرى أن الاختيار الأسلوبى لصيغة من الصيغ الدالة على هذه المعانى وتفضيلها على استعمال صيغ أخرى غيرها يبرر استعمال مصطلح «التأكيد بالصيغة» أضف إلى ذلك أن منشئ النص ربما أجرى بعض التعديل فى الصيغة كما فى قوله

تعالى:

• « أَقْنِ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى » (يونس ٣٥) يهدى = يهتدى

• « تَأْخُذْهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » (يس ٤٩) يخصمون = يختصمون

• « وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاها » (الشمس ٦) قارن: «والأرض بعد ذلك
دحاهله (النازعات ٣٠)

أو يضيف إلى المشهور من الصيغ زيادة غير مشهورة نحو:

• « وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا » (فاطر ٣٧) يصطرخون = فعل الصراخ + تاء
الافتعال تحولت إلى طاء

• « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثَرَ » (الكوثر ١) أى الكثير قال حسان بن نشبة
العدوى

أبو أن يبيحوا جارهم لعدوهم وقد ثار نقع الموت حتى تكوثر
(الحماسة ج ١ ص ١٩٩)

أو اخترع الصيغة اختراعاً نحو:

• « وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا » (النبأ ٢٨)

• « وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبَّارًا » (نوح ٢٢)

• « إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ » (ص ٥)

٨- التأكيد بضمير الفصل: وعندى أن الضمير أوسع من مجرد ضمائر
الأشخاص إذ يشمل الموصولات والإشارات. وكل ما في التركيب العربى مما
يسميه النحاة ربطاً بالإشارة فهو صالح أن يكون من التأكيد بضمير الفصل
الإشارى ولهذا النوع من التأكيد (بالمفهوم الواسع للضمير) فائدتان:

أولاً- الفائدة الأولى دفع اللبس حين يعرض في بعض الحالات كما في قوله

* «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» (الواقعة ١٠، ١١)

لان الصور التركيبية الممكنة لهذه الجملة القرآنية كما يلي:

١- «وَالسَّابِقُونَ أُولَئِكَ السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ» أى يصدق اسم السابقين على المقربين منهم فقط.

ب- «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» أى والسابقون حقا هم المقربون.

ج- «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ» يحتمل كلا من المعنيين السابقين دون تعيين أحدهما فالصورتان الأوليان لا لبس فيهما وإن اختلف معنى كل منهما عن الأخرى أما الصورة الثالثة ففيها لبس من قبل أنه لا يعلم ما إذا كان الخبر هو «السابقون» الثانية أو «المقربون» فلما جاء ضمير الإشارة للفصل حدد معنى كل منهما. ومثل ذلك ما نجده في قوله تعالى :

* «أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ» (عبس ٤٢) مع الفصل بالضمير «هم» بين المبتدأ وخبره إذ يتطرق اللبس إلى التركيب لو حذف الضمير فصارت العبارة : «أُولَئِكَ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ» لأن هذه الصورة التركيبية تأذن لللبس أن يتطرق من خلال احتمال أحد معنيين أولهما ما نجده لتركيب الآية والثانى : «أُولَئِكَ الْكَافِرَةُ هُمُ الْفَجْرَةُ» ولا يوجد ما يعين أحد المعنيين المذكورين.

ثانيا : والفائدة الثانية التى تأتينا من الفصل بالضمير أن المعنى الحاصل من الفصل ذو رحم وقربي بما قدمنا فى الكلام عن معنى القصر لأن المعنى هنا يقترب بنا أيضا من إفهام أن المقصود بالمؤكد أن يكون (هو لا غيره) على نحو ما كان للقصر وفيما يلى طائفة من الشواهد على الفصل بالضمائر المختلفة :

* «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ

يُوقِنُونَ، (البقرة ٤)

* «أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (البقرة ٥)

* «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ» (البقرة ١٢)

* «فَتَأْبَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (البقرة ٥٤)

* «وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» (البقرة ١٢١)

* «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (البقرة ١٢٩)

* «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (البقرة ٢٥٤)

ولقد سبق أن اشرنا إلى ما في النص القرآني من وصف للنكرة بالاسم الموصول وقلنا إن شرط ذلك أن يسبق الموصول وصف للنكرة بنكرة أخرى كما في قوله تعالى :

* «وَيَلِّ لِكُلِّ هَمَزَةٍ لُّمَزَةٌ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ» (الهمزة ٢٠١)

وآيات أخرى أوردناها في ذلك الموضوع. والذي أحب أن أضيفه هنا أن ذلك صالح أن يعد من قبيل الفصل بضمير الموصول وأن التركيب بدون الفصل يجرى على النحو التالي : « ويل لكل همزة لمزة جمع مالا وعدده، ثم جاء الفصل بالموصول للتأكيد. وهكذا يكون الفصل بالضمير بمختلف أنواعه (الشخصي والإشاري والموصول) وسيلة من وسائل التأكيد.

٩ - التأكيد بالاستفتاح: يجرى الاستفتاح في القرآن بوسائل متعددة اعترف النحاة بوحدة منها ولم يلاحظوا غيرها. أما التي سماها النحاة أداة استفتاح فهي «ألا» وكثيرا ما يتضافر معها على إفادة التأكيد وسيلة أخرى من وسائله كاقترانها بإن في قوله تعالى :

* «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ» (البقرة ١٢) وآيات أخرى

كثيرة منها.

* «الْأَإِنهَمْ يَنْتُونِ صُدُورَهُمْ لَيْسَتْخَفُوا مِنْهُ» (هود ٥)

أو مقارنتها للتقديم نحو:

* «الْأَفِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا» (التوبة ٤٩)

* «الْأَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ» (هود ٨)

* «الْأَلَهُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ» (الاعراف ٥٤)

* «الْأَحِينَ يَسْتَفْشُونَ نِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ» (هود ٥)

وقد لا يقارن شيئا من ذلك (ويكثر ذلك في الدعاء) كما في قوله تعالى:

* «الْأَلَعِنَّةُ اللَّهِ عَلِي الظَّالِمِينَ» (هود ١٨)

* «الْأَبُعْدَا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ» (هود ٦٠)

* «الْأَبُعْدَا لِنُموْدٍ» (هود ٦٨)

* «الْأَبُعْدَا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ نَمُودُ» (هود ٩٥)

وثمة أداتان أخريان تقومان بأداء الاستفتاح في النص القرآني دون غيره

وإن أبي النحاة عليهما أن يعدوهما من وسائل ذلك.

هاتان هما «إذ» التي لا متعلق لها و«أم» التي زعموها بمعنى «بل» فأما «إذ»

فدليل الاستفتاح بها أنها لا متعلق لها وأن بينها وبين «لقد» علاقة المعاقبة

غالباً أي أن كلا منهما يمكن أن تحل محل الأخرى.

وفي النص القرآني كثير من الشواهد على الاستفتاح بها كما في قوله تعالى:

* «وَأَذْ قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» (البقرة ٣٠)

* «وَأَذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا» (البقرة ٣٤)

* «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، (البقرة ٨٣)

* «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، (البقرة ٨٤)

* «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، (البقرة ٢٦٠)

* «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ...» (آل

عمران ٨١)

* «وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ، (آل عمران ١٢١)

* «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» (آل عمران ١٨٧)

* «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» (المائدة ٢٠)

* «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِئِي مَا تَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً، (الأنعام ٧٤)

* «وَإِنَّا نَجِيبُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ» (الأعراف

١٤١)

* «وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ، (الأعراف ١٦١)

* «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» (الأعراف ١٧٢)

* «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقِتَانِهِ لَا أُنَبِّئُكَ...» (الكهف ٦٠)

* «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا» (يوسف ٤)

وأما الاستفتاح بأَم فدليلة عدم صلاحها لمصاحبة الهمزة إذ لا يراد بها تسوية ولا تعيين وإنما يراد بها مجرد التأكيد وتعاقبها «أَلَا إِنَّ...» وأحياناً «قد» أو «بل» ومن شواهد ذلك في القرآن:

* «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ»

(البقرة ٢١٤)

* « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْرَمُونَ، (هود ٣٥) »

* « أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا، (الكهف ٩) »

* « أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، (الانبياء ٢٤) »

* « أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، (النمل ٢٠) »

* « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ، (العنكبوت ٤) »

* « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، (السجدة ٣) لاحظ وجود «بل» بعد «أم» والإضراب إنما يكون بعد إثبات.

* « أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ شُعْعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَآ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ، (الزمر ٤٣) »

* « أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَالَ لَهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، (الشورى ٩) »

* « أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ، (الزخرف ٥٢) »

* « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ، (الجنات ٢١) »

* « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، (الاحقاف ٨) »

* « أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا، (محمد ٢٤) »

١٠- تأكيد الإنكار بالاستفهام ويكثر في ذلك استعمال فعل الرؤية ولكنه

ليس بلازم. وشواهد ذلك كثيرة في القرآن الكريم وترد في موارد التعجيب والتنديد بمواقف الكافرين من أهل الكتاب والمشركين وبمواقف التجاوز لأوامر الله من بعض المسلمين ومن ذلك ما يلي :

• « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ » (البقرة ٢٨)

• « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ »
(البقرة ٤٤)

• « أَفَنْظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ » (البقرة ٧٥)

• « أَوْ كَلِمًا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ » (البقرة ١٠٠)

• « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ » (البقرة ٢٤٢)

• « أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذِ قَالُوا... » (البقرة ٢٤٦)

• « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ... » (البقرة ٢٥٨)

• « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نُصِيْبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مَعْرِضُونَ » (آل عمران ٢٣)

• « وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ » (آل عمران ١٠١)

• « وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنًا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا » (النساء ٢١)

• « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نُصِيْبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَاةَ

وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ ، (النساء ٤٤)

* « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ ، (النساء ٤٩)

* « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نُصِيْبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَبَتِ وَالطَّاعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ، (النساء ٥١)

* « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاعُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، (النساء ٦٠)

* « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، (النساء ٧٧)

وربما جاء التأكيد في معظم ذلك من إبراز التناقض بين ضدين اشتملت عليهما الآية كحذر الالوف من الموت ودعوي أهل الكتاب أن المشركين أهدي من المسلمين وهم أهل كتاب مثلهم الخ.

١١ - التأكيد بضمير الشأن : مرة أخرى أحب أن أشير إلي أن الضمير عندي يشمل الضمير الشخصي والإشاري والموصول وأن الذي يُستعمل ضميراً للشأن بكثرة من هذه الضمائر الثلاثة ضميران فقط هما الشخصي والإشاري ولقد استعمل هذان الضميران لهذا المعنى في القرآن مراراً كثيرة يصعب حصرها مع المحافظة على شروط الإضمار للشأن إلا أن ضمير الإشارة للمفرد قد يجاوز مخاطبة المفرد إلى مخاطبة الجمع، وفيما يلي طائفة من شواهد ضمير الشأن :

* « وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، (البقرة ٨٥)

* « إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ ، (آل عمران ١٧٥) والتعبير عن

الشان هنا واقع بضمير الإشارة.

* إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، (الانعام ٣٢)

* كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، (الانعام ٥٤)

* ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، (الانعام ١٠٢)

* ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، (يونس ٣)

* فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ، (يونس ٣٢)

* إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ، (يوسف ٢٢) ، (القصص ٢٧)

* إِنَّهُ لَا يَبْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ، (يوسف ٨٧)

* إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، (يوسف ٩٠)

* لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ، (الكهف ٣٨) على أحد الفهمين

* ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا ، (الكهف ١٠٦)

* إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ، (طه

٧٤)

* فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، (الانبيا ٩٧)

* إِنَّهُ كَانَ قَرِيقًا مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ،

(المؤمنون ١٠٩)

* وَيَكَاةٌ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ، (القصص ٨٢)

* تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا

فَسَادَةً (القصص ٨٢) على أحد احتمالين

* « يَا بَنِيَّ إِنهَا إِنْ تَكُ مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، (لقمان ١٦)

* « ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ، (سبا ١٧) على أحد احتمالين

* « ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تُؤْفَكُونَ ، (غافر

(٦٢

* « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ،

(فصلت ٢٣)

* « ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ، (فصلت ٢٨)

* « فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، (محمد ١٩)

* « وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ، (النجم ٤٣، ٤٤)

* « وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ، (النجم ٤٨، ٤٩)

* « هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، (الحشر ٢٢، ٢٣، ٢٤)

* « إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ، (البروج ١٣) ويجوز في «هو» أن تكون

الفصل.

* « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، (الاحلاص ١)

والدليل على أن كل إشارة مما سبق تدل على الشأن أن ما بعدها يصلح جملة من مبتدأ وخبر ودليل هذه الصلاحية أنك تستطيع أن تضع «أن» الناسخة المفتوحة الهمزة بين كل إشارة وما بعدها والناسخ إنما يدخل على المبتدأ أو الخبر.

١٢_ التأكيد بالحرف : والمقصود بالحرف هنا اللام الموطئة للقسم أو لام

الابتداء ولام الجواب ولام الجحود ونون التوكيد ولن التي لتأكيد النفي وأمر أخرى. والموطئة ولام الابتداء من قبيل واحد ولكن التسمية تختلف

باختلاف ما تدخل عليه فإذا دخلت على المبتدأ سميت لام الابتداء وإذا دخلت على الشرط أو المدح والذم ونحوهما سميت موطئة للقسم، ولهذه اللام شواهد عظيمة العدد في القرآن الكريم منها ما يلي :

• وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ، (البقرة ٦٥)

• وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ، (البقرة ٨٧)

• وَلَتَجِدْنَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، (البقرة

٩٦)

• وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنْ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ، (البقرة ١٠٢)

• فَلَتَوَلَّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، (البقرة ١٤٤)

• وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ آوَتْوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، (البقرة

١٤٥)

• وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ، (البقرة ١٥٥)

• وَلَا مَآةٌ مُؤَمِّتَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا أَعْجَبُكُمْ ، (البقرة ٢٢١)

• لِأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، (الحشر ١٣)

وقد تزحلق اللام إذا دخلت على إن المكسورة الهمزة فتَلْحَقُ بالخبر نحو :

• وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، (آل عمران ٦٢)

• إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ،

(آل عمران ٦٨)

أو تدخل على اسم إن المؤخر إذا كان خبرها ظرفاً أو مجروراً نحو :

• وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ ، (آل عمران ٧٨)

* « وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، (آل عمران ١٩٩) »

واما لام الجواب فتأتى لتأكيد الشرط الامتناعي والقسم (وهى التى تسمى موطئة عند عدم القسم) وشواهدهما هى أيضا كثيرة العدد فى القرآن كما فى قوله تعالى

* « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ، (النساء ٦٤) »

* « وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ، (النساء ٦٦) »

* « وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ، (النساء ١١٢) »

* « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، (المائدة ٦٥) »

* « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، (المائدة ٦٦) »

* « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ، (الأنعام ٧) »

* « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ، (الأنعام ٩) »

* « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، (الاعراف ٩٦) »

* « وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً ، (التوبة ٤٦) »

* « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ نَأْتِيَنَّهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّهُمْ وَلِنُكُونَنَّ مِنْ

الصَّالِحِينَ ، (التوبة ٧٥)

* قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا ، (يوسف ٩١)

* قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ،
(الحجر ٢٩) وتحتمل الباء السببية أى بسبب اغوائك إياى والقسم أى
بإغوائك لى.

* قُورَبِكَ لِنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، (الحجر ٩٢، ٩٣)

* تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَزَيْنَا لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ ،
(النحل ٦٣)

* قُورَبِكَ لِنُحْشِرُنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ، (مريم ٦٨)

* وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ، (الانبياء ٥٧)

* وَأَاسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِنُنْزِلَنَّهُمْ لِيُخْرِجَنَّ ، (النور ٥٣)

* قَالُوا نَفَاسْمُوا بِاللَّهِ لِنُبَيِّنَهُ وَأَهْلَهُ ، (النمل ٤٩)

* وَأَاسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِنُنْزِلَنَّهُمْ لِيُخْرِجَنَّ أِهْدَىٰ مِنْ
إِحْدَى الْأُمَمِ ، (فاطر ٤٢)

* قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، (ص ٨٢)

* فَلَا أَفْءَسْمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لِتَرْكَبُنَّ طَبَقًا
عَنْ طَبَقٍ ، (الانشقاق ١٦-١٨)

* لَا أَفْءَسْمُ بِهِذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهِذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ، (البلد ١-٤)

* وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِنِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، (التين ١-٤)

قد يجاب القسم بحروف أخرى غير اللام مثل ما وبل وإن المكسورة الهمزة
ثقيلة أو مخففة أو يجاب بغير الحروف ويكثر التأكيد بلام الجحود أيضا في

القرآن. وهذه اللام تحول المعنى من انقطاع النفي في الماضي إلى الاستمرار من الماضي إلى المستقبل إذ تحول «ما كان يفعل» إلى «ما كان ليفعل» أى ليس ذلك شأنه لا في الماضي ولا في المستقبل ومن شواهد ذلك في القرآن ما يلي :

* « مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » (آل عمران ١٧٩)

* « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ » (آل عمران ١٧٩)

* « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » (الأنعام ١١١)

* « وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ » (الاعراف ٤٣)

* « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » (الأنفال ٣٣)

* « فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ » (التوبة ٧٠)

* « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ » (التوبة ١١٥)

* « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً » (التوبة ١٢٢)

* « مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ » (يوسف ٧٦)

* « قَالَ لِمَ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ » (الحجر ٣٣)

ويتضح التأكيد بهذه اللام عند النظر إلى تراكيب توضع فيها متقدمة على مرفوع كان وتوضع «أن» بعده موضع اللام نحو :

* « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » (آل عمران ١٤٥) إذ يأتي

التأكيد من القصر بما وإلا فقط.

* « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ » (آل عمران ١٦١) أى لا ينبغي له وكذلك المعنى

في :

* « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ » (الأنفال ٦٧)

قامت حتى مقام «إلا أن».

« مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ، (التوبة ١٧)

« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ، (التوبة ١١٣)

« مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ ، (التوبة ١٢٠)

« وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ ، (يونس ٣٧) مع تقدير اللام قبل

هذا،

« مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، (يوسف ٢٨)

وإذا كان المعني مع لام الجحود يفهم «ليس من شأنه» فإن المعني مع «أن» يفهم «لا ينبغي له» والفرق بين هذا المعني وذاك فرق ما بين الطبع والاختيار ولاشك أن الطبع يلزم أكثر مما يلزم الاختيار ومن هنا يأتي التوكيد.

يأتي بعد ذلك تأكيد المعنى بواسطة نون التوكيد. والمعروف أن الماضي لا يؤكد بهذه النون وأن الأمر يؤكد بها دون قيد ولكن الأمر المؤكد لم يرد في القرآن على قدر ما أعلم إذ جهدت في البحث عنه فلم أظفر بوجوده.

أما المضارع فإن صورة تأكيده بالنون في القرآن تتراوح ما بين اتصاله معها باللام أو وقوعه بين النهى أو بعد الشرط باللفظ «إما» أو بعد الاستفهام بهل أو بعد لا النافية. وفيما يلي شواهد ذلك بالترتيب :

١- المضارع بعد اللام :

« وَلِتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، (البقرة

٩٦)

« لِنُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِنَنْصُرَنَّهُ ، (آل عمران ٨١)

« وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ، (النساء ٧٢)

« لَأَكْفُرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَا أَدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ،

(المائدة ١٢)

* « لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين » (الأنعام ٦٣)
* « فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم
وما كنا غائبين » (الأعراف ٧٠٦)

* « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب » (التوبة ٦٥)

* « لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » (يونس ٢٢)
* « ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا
الأسحر مبين » (هود ٧)

* « وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » (يوسف ١٥)

* « وإذ تكلم ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم » (إبراهيم ٧)

* « قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين »
(الحجر ٢٩)

* « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوانهم في الدنيا حسنة »
(النحل ٤١)

* « وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين
ولتعلن علوا كبيرا » (الإسراء ٤)

* « فوريك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا »
(مريم ٦٨)

* « فلنأتينك بسحر مثله » (طه ٥٨)

ب - النون في سياق النهي :

* « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » (البقرة ١٤٧، آل عمران ٦٠)

* « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم

يُرْزَقُونَ، (آل عمران ١٦٩)

* « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ ، (آل عمران

(١٧٨)

* « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَاءَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ ،

(آل عمران ١٨٠)

* « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيَحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ

يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْتَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، (آل عمران ١٨٨)

* « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ،

(المائدة ٢)

* « فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ، (الأنعام ٣٥)

* « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ، (الأنفال ٥٩)

* « فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ

فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، (يونس ٩٤، ٩٥)

* « وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، (يونس ١٠٥)

* « وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ

قَوْمِ هُودٍ أَوْ قَوْمِ صَالِحٍ ، (هود ٨٩)

* « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، (ابراهيم ٤٢)

* « فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ مَخْلَفًا وَعَدَّهُ رُسُلُهُ ، (ابراهيم ٤٧)

* « لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ، (الحجر ٨٨) ، (طه

(١٢١)

* « فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ، (الكهف ١٩)

* وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، (الكهف ٢٣ .

(٢٤)

* فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا ، (طه ١٦)

* فَلَا يَخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ، (طه ١١٧)

* فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ ، (الحج ٦٧)

* لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، (النور ٥٧)

ج - في سياق الشرط بإمّا :

* يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُلْقُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ انقَى
وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، (الاعراف ٣٥)

* وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، (الاعراف ٢٠٠)

* فَإِنَّمَا تُلْقِفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّذَبِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ ، (الانفال ٥٧)

* وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، (الانفال ٥٨)

* وَإِنَّمَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَاكَ فَإِنَّمَا مَرْجِعُهُمْ ،
(يونس ٤٦)

* إِنَّمَا يَبْلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا
تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، (الإسراء ٢٣)

* وَإِنَّمَا تُعْرَضُنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا
مَيْسُورًا ، (الإسراء ٢٨)

* فَإِنَّمَا تَرِيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ
الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ، (مريم ٢٦)

* فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ، (طه)

* « قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »
(المؤمنون ٩٤، ٩٢)

* « فَإِمَّا تُرِيئِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ » (غافر ٧٧)

* « وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، (فصلت ٣٦)
* « فَإِمَّا نُدْهِبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ تُرِيئِكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا
عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ » (الزخرف ٤٢، ٤١)

د- النون في سياق الاستفهام بهل :

* « فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ، (الحج ١٥)

هـ- النون في سياق النفي بلا :

* « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، (الانفال ٢٥)

ويمكن ترتيب كثرة ورود وقلته بحسب ترتيب ما أوردناه هنا فأكثر ورود النون مع اللام ثم يتدرج الأمر إلى القلة حتى لا نظفر لكل من النوعين الأخيرين (د ، هـ) إلا بشاهد واحد فقط أما قوله تعالى " لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانَ وَجُنُودَهُ ، (النمل ١٨) فظاهره النهي ولكنه واقع في جواب الأمر .

وقد يقع تأكيد النفي بواسطة «لن» وقد طردها بعضهم في معنى تأكيد النفي وفي تأييده وتحولت على السنة بعضهم في أيامنا إلى «سوف لا» مما يدل على عدم الإحساس منها بمعنى التأكيد ولكن تأكيد النفي بواسطتها واقع في نص القرآن الكريم وشواهد ذلك كثيرة كما نرى فيما يلي:

* « فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ

وَالْحِجَارَةُ، (البقرة ٢٤)

* «وَأِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، (البقرة ٥٥)

* «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، (البقرة ٨٠)

* «وَلَنْ يَكْتُمُوهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ، (البقرة ٩٥)

* «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، (البقرة ١١١)

* «وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مَلَّتَهُمْ، (البقرة

١٢٠)

* «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا،

(آل عمران ١٠)، (آل عمران ١١٦)

* «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، (آل عمران ٨٥)

* «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ، (آل

عمران ٩٠)

* «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ

ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ، (آل عمران ٩١)

* «لَنْ نَسْأَلُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ، (آل عمران ٩٢)

* «لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أذى، (آل عمران ١١١)

* «إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ

الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ، (آل عمران ١٢٤)

* «وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا، (آل عمران ١٤٤)

* «وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا،

(آل عمران ١٧٦)

ومن الواضح أن «لن» قد أفادت تأكيد النفي في الشواهد المتقدمة أما تأبيد النفي فدونه ما في بعض الآيات من ذكر الغايات مثل : « حتى نرى الله جهرة » وأيضا: « حتى تتبع ملتهم » وربما برر القول بالتأبيد أن الغايتين مستحيلتان ومن ثم لا تمثلان غايتين حقيقتين إذ لا يمكن أن تقع رؤية الله جهرة ولا أن يتبع النبي صلى الله عليه وسلم ملتهم وأما قوله «حتى تنفقوا مما تحبون» فان حتى هنا أقرب إلى إفادة الاستثناء منها إلى إفادة الغاية فمثل هذه العبارة مثل «ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله» (الأنعام ١١١).

١٢ - تأكيد الإيجاب بسلب الضد وعكس ذلك :

ويكون ذلك بالإثبات ثم نفي الضد وبالنفي ثم إثبات الضد وبالأمر ثم النهي عن الضد وبالنهي ثم الأمر بالضد فيكون أثر ذلك في الفهم كأثر التأكيد اللفظي تماما فإذا قلت لصاحبك: «اسكت ولا تتكلم» فذلك في قوة قولك : « اسكت اسكت» أو « لا تتكلم لا تتكلم» والنتيجة هي التأكيد في كل حالة ونظير ذلك في القرآن كثير كما يبدو في الشواهد التالية :

* « وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ ، (البقرة ٤١)

* « وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ، (البقرة ٥٧)

* « قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا بِكْرَ عَوَانَ بَيْنَ ذَلِكَ ، (البقرة ٦٨)

* « وَيَعْلَمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، (البقرة ١٠٢)

* « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، (البقرة ١٤١)

* « فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ، (البقرة ١٥٠)

* . وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ، (البقرة ١٥٢)

* . وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أحياءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ، (البقرة ١٥٤)

* . وَالْهُكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، (البقرة ١٦٣)

* . لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجْوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ ، (البقرة ١٧٧)

* . يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ، (البقرة ١٨٥)

* . وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ، (البقرة ٢١٦) ، (البقرة ٢٢٢)

* . فَاعْتَصِرُوا لِلسَّاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، (البقرة ٢٢٢)

* . وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ، (البقرة ٢٥٥)

* . فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لِأَنْفِصَامِ لَهَا ، (البقرة ٢٥٦)

* . لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، (البقرة ٢٦٢)

* . أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ، (البقرة ٢٦٧)

* . لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، (البقرة ٢٧٢)

* . وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ أِثْمٌ قَلْبُهُ ، (البقرة ٢٨٣)

ثالثا - التعليل :

و التعليل بيان العلة أيا كانت صورة البيان أى سواء كان التعليل بواسطة المفعول لأجله أو بالجر بحرف يفيد التعليل أو بنزع الخافض إذ يكون الخافض

بالمعنى المذكور أو بواسطة لعل أو بأية وسيلة أخرى وسوف نعرض نماذج من كل واحدة من هذه الوسائل :

ثمة صورتان من صور المنصوبات في التركيب العربى يمكن معهما الزعم بأن النصب على نزع الخافض إلى جانب القول بأصالة النصب هاتان الصورتان هما المفعول لأجله (وهو دائما على معنى اللام) والمفعول فيه (وهو دائما على معنى في) وربما أضيف إليهما الكثير من صور التمييز التى تأتى على معنى «من».

ولقد القيت نظرة عجل على سورة البقرة فوجدت بها تعليلا بالمفعول لأجله صريحا في سبع آيات هى :

* « يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حُدُورَ الْمَوْتِ » ، (البقرة ١٩)

* « بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا » ، (البقرة

٩٠)

* « وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَقَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ » ، (البقرة ١٠٩)

* « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ » ، (البقرة ٢٠٧)

* « وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوْهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا

بَيْنَهُمْ » ، (البقرة ٢١٣)

* « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ

أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرْبُوْةٍ » ، (البقرة ٢٦٥)

* « وَمَا يُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ » ، (البقرة ٢٧٢)

وإذا كان المفعول لأجله على معنى اللام كما سبق أن ذكرنا فإن اللام قد

تظهر أحيانا إما سابقة للمصدر الصريح أو للفعل المضارع مع أن الظاهرة أو

المقدرة (وهو المصدر المؤول) وذلك كما ين :-

* «قَوِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» ، (البقرة ٧٩)

* «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» ، (البقرة ١٤٣)

* «وَحِينَئِذَا كُنْتُمْ فَوَلُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ وَلِأْتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ» ، (البقرة ١٥٠)

* «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْأَثَمِ» ، (البقرة ١٨٨)

* «وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ» ، (البقرة ٢٠٥)

* «وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ» ، (البقرة ٢١٣)

وقد يأتي التعليل بواسطة «لعل» كما في الآيات الكريمة التالية :

* «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» ، (البقرة ٢١)

* «ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» ، (البقرة ٥٢)

* «وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» ، (البقرة ٥٣)

* «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» ، (البقرة ٥٦)

* «فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» ، (البقرة ٧٢)

* فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ،
(البقرة ١٥٠)

* وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، (البقرة ١٧٩)
* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، (البقرة ١٨٣)

* وَلِتُكْمَلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ،
(البقرة ١٨٥)

* فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ، (البقرة ١٨٦)

* كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ، (البقرة ١٨٧)

* وَأَتُوا النِّبْيَاتِ مِنْ آبَائِهِنَّ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، (البقرة ١٨٩)

* كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ، (البقرة ٢١٩)

* كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، (البقرة ٢٤٢)

وقد يأتي التعليل عن طريق الباء كما في قوله تعالى :

* فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ،
(البقرة ٥٩) أى بسبب فسقهم

* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ
ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، (البقرة ٦١) أى بسبب عصيانهم

* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، (البقرة ١٧٦)

* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، (البقرة ٢٧٥)

أما التعليل بواسطة «من» فقد وجدت له في سورة البقرة شاهداً واحداً هو :

* « يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ ، (البقرة ١٩) »

ولكن للفاء المفيدة للتعليل والسببية عددا من الشواهد أكثر من ذلك كما في الآيات الكريمة الآتية :

* « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتِ تِجَارَتُهُمْ ، (البقرة ١٦) »
أى ولهذا لم تربح تجارتهم

* « يَا قَوْمِ إِنكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلِ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ ، (البقرة ٥٤) »

* « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ ، (البقرة ٥٥) »

* « قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ، (البقرة ٨٠) »

* « أَفَنُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ، (البقرة ٨٥) »

* « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخْفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ، (البقرة ٨٦) »

* « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ، (البقرة ٨٩) »

* « قَدْ نَرَىٰ نُقْلَبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلْتُؤَلِّينَا قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، (البقرة ١٤٤) »

* « عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، (البقرة ١٨٧) »

* « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ، (البقرة ٢٢٢) »

وللتعليل بواسطة «حتى» شاهد واحد مما وجدت وهو :

* « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، (البقرة ١٩٢) »

أما نزع الخافض فقد وجدت له الشواهد الآتية:

* « بِنِسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، (البقرة ٩٠) أى لثلا ينزل أو إتقاء أن ينزل

* « وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ، (البقرة ٢٢٤) »

* « فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ، (البقرة ٢٨٢) »

وقد يأتى التعليل بواسطة الواو كما في الآيات التالية:

* « قَالَ إِنْ اللَّهُ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَنْ يَشَاءُ ، (البقرة ٢٤٧) أى لان الله يؤتي .

* « وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، (البقرة ٢٦١) »

* « وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، (البقرة ٢٦٨) »

وقد يكون التعليل بواسطة الاخبار بالذى والالف واللام مع الربط بالاشارة فالتركيب عندئذ يشرب معنى الشرط فيكون الشرط علة الجواب كما يلي :

* « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ، (البقرة ١٥٩) أى يلعنهم لانهم

يكتمون.

* « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ ، (البقرة

(١٦٦)

* « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ، (البقرة ١٧٤)

فالذى قبل الاشارة في كل ما سبق علة لما بعدها فكتمان ما انزل الله سبب
للعنة وتوبة العبد وإصلاحه سبب لتوبة الله عليه والموت على الكفر سبب
اللعنة وهكذا .

وقد يأتى التعليل من خلال الإنكار نحو :

* « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ، (البقرة ٢٨) أى لا
تكفروا به لأنه أحياكم بعد موتكم .

* « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، (البقرة ٣٠) أى لا تجعله
فيها لأنه يفسد ويسفك الدماء

* « أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ
ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ، (البقرة ٧٥) أى لا تطمعوا في إيمانهم لكم
لأنهم كانوا يسمعون ويحرفون بعد الفهم .

وقد يأتى التعليل مع الفصل وتقدير حرف التعليل كما فى الآيات الآتية :

* « ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ
رَحِيمٌ ، (البقرة ١٩٩) أى لأنه غفور رحيم

* « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، (البقرة ٢٠٨)

* « وَلَعِبَدٌ مٌؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ،

* « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي
أَنْفُسِكُمْ عَلِيمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَنَذَكَّرُونَ هُنَّ » ، (البقرة ٢٣٥)

* « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » ، (البقرة ٢٥٦)

* « وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا » ، (البقرة ٢٨٦)

وهذه الآية الاخيرة يمكن فهمها على معنى التعليل بالفاء وجعل الفاء رابطة
بين جملتي « أنت مولانا » و « فانصرنا » أى انصرنا لانك أنت مولانا ومن شأن
المولى أن ينصر مولاة .

وقد يكون التعليل بواسطة « إذ » .

نحو « وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَنْ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ، (البقرة ١٣٠ ، ١٣١)

ونحو « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَسْئَلُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ » ، (الاحقاف ١١)

ونحو « فِإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأَوْلَيْكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ » ، (النور
١٣)

رابعا - الإحالة :

والإحالة نوع من ظاهرة الربط في اللغة ولقد سبق أن تكلمنا عن الربط
بوصفه قرينة لفظية ولكن الإحالة قد تقع خارج نطاق القرائن النحوية وتتجه
اتجاهين: أحدهما إلى ما سبق ذكره، والثانى إلى ما يلي : فاما ما سبق ذكره فإن
الإحالة إليه تتم بضمير الإشارة « ذاء » مع اختلاف ما يصاحبه من حروف
الخطاب والتنبيه وأما ما يلي فإن الإحالة إليه تتم بالإشارة وبغير الإشارة كما
يبدو واضحا في الشواهد القرآنية التي نسوقها لكل من النوعين.

١ - الإحالة إلى ما سبق. يشير ضمير الإشارة في هذه الحالة إلى مضمون ما تقدم من قول أو حدث فيكون الضمير تلخيصا لهذا القول وذلك الحدث تجنباً للإطناب بإعادة بسط القول فيه كما يبدو فيما يلي:

* «ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» (البقرة ١٧٦)

الإشارة إلى كتمان البعض لما أنزل الله من الكتاب وشرائهم به ثمنا قليلا وعدم تكليم الله إياهم.

* «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (البقرة ٢٤٢) وذلك انتهاك الأحكام السابق ذكره.

* «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ» (آل عمران ٢٤) أى ذلك الانصراف عن الاحتكام إلى كتاب الله

* «ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ» (آل عمران ١٨٢) أى كتابة ما قالوا وكتابة قتل الأنبياء والأمر بذوق عذاب الحريق.

* «تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ» (النساء ١٣) أى ما سبق من أحكام الميراث

* «ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا» (المائدة ١٠٨) الإشارة إلى ما سبق من قوله تعالى: «يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ، الخ

* «وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ» (الأنعام ١٠٥) الإشارة إلى مجيء البصائر من الله.

* «وَكَذَلِكَ نُؤْتِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا» (الأنعام ١٢٩) الإشارة إلى تبادل الولاء بين المجرمين من الجن والإنس.

* «وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (الاعراف ١٧٤) الإشارة إلى نتق الجبل وأخذ الذريات من الأصلاب

* «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» (الانفال ١٣) الإشارة إلى الإيحاء للملائكة والقَاء الرعب في قلوب الذين كفروا

* «ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ» (الانفال ١٨) الإشارة إلى كون الرمى من الله يضاف إليه توهين كيد الكافرين

* «تَلَكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ» (هود ٤٩) الإشارة إلى قصة نوح والطوفان وقد سبق القول فيها

* «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ» (يوسف ١٠٢) أى ما سبق من قصة يوسف.

* «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ» (النحل ١٠٧) أى الغضب والعذاب الواقعان على من شرح بالكفر صدراً.

* «كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ» (طه ٩٩) أى كما سبق من قصص.

* «إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ» (الانبياء ١٠٦) الإشارة إلى ما سبق بدءاً من قوله: حتى اذا فتحت يا جوج وملجوج.

* «ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْكُمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» (الحج ٣٢) الإشارة إلى ما سبق من كلام عن الحج.

ب - الاحالة إلى ما يلي: والمقصود بالذى يلي هذا يمكن أن يكون مضمون الشأن كالذى سبق من زعمنا أن ضمير الإشارة يستعمل للشأن نحو: «ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا» (الكهف ١٠٦) وإما أن يكون الضمير إشارة إلى المنطوق والمضمون معاً فمثله مثل عبارة «ما يلي» تماماً وذلك شأن الإشارة والموصول ونحوهما كما يلي:

* «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ» (آل عمران ٤٤) والاشارة إلى ما يلى من الكلام عن حمل مريم وميلاد المسيح

* «ذَلِكَ نُنْتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ» (آل عمران ٥٨) والاشارة إلى قياس خلق عيسى على خلق آدم

* «هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ» (آل عمران ١٣٨) الاشارة إلى ما يلى من تثبيت الله لقلوب المؤمنين بالعزاء

* «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحْلَتْ لَكُمْ بِهِيْمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ» (المائدة ١) أى ما يتلى فى الآيات التالية

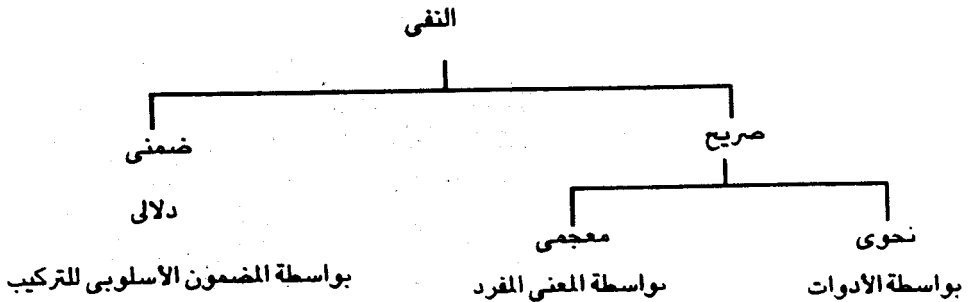
* «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقُصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ» (يوسف ٣) أى نحن نقص عليك القصة التالية

* «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ» (الكهف ١٣) أى نقص نبأهم التالى.

* «نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (القصص ٣) أى تتلو ما يلى من نبأ موسى وفرعون

خامساً - النفى

النفى الاسلوبى أوسع دلالة من النفى النحوى فهو كما أراه إما صريح أو ضمنى والصريح منه إما نحوى وإما معجمى حتى إن الصورة العامة لهذا التقسيم تبدو على النحو التالى:



ولكل واحد من هذه الأنواع الثلاثة مجال تطبيقه في الاسلوب القرآنى
ويمكن بيان ذلك على النحو التالى:

١ - النفى النحوى: وقد تقدم أنه إنما يكون بواسطة أدوات النفى وهذه
الأدوات بعضها حرنى فى أصل الاستعمال وبعضها منقول عن أقسام أخرى
من الكلم كما فى قوله تعالى: «فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ» (البقرة ٨٨) أى «فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا» (النساء ٤٦) فتقديم لفظ القلة نفى للكثرة بمقدار ما ينفىها حرف
النفى فى آية النساء. وقد يكون حرف النفى هو «ما» الداخلة على الضمير كما
فى:

* «وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» (البقرة ٨)

* «وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» (البقرة ١٠٢)

* «لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكُتَّابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكُتَّابِ» (آل عمران ٧٨)

* «وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» (آل عمران ٧٨)

* «وَمَا هُوَ بِمُرْزُقِيهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ» (البقرة ٩٦)

أو الداخلة على الاسم الظاهر نحو:

* «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» (البقرة ٧٤، ١٤٠)

* «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» (آل عمران ١٤٤)

* «وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى» (سبا ٣٧)

أو الداخلة على الفعل نحو:

* «وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» (البقرة ٩)

* «فَمَا رَیَحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» (البقرة ١٦)

* «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» (البقرة ٢٦)

* «وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (البقرة ٥٧)

* «فَدَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» (البقرة ٧١)

* «وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا» (البقرة ١٠٢)

ومن الأدوات «لا» الداخلية على الاسم لنفى المفرد نحو:

* «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (البقرة ٣٨، ٦٢)

* «لَا فَاْرِضٌ وَلَا بَكْرٌ» (البقرة ٦٨)

* «لَأَذْلُولُ تَثِيرُ الْأَرْضِ وَلَا تَسْقَى الْحَرْثُ» (البقرة ٧١)

أو النافية للجنس نحو

* «لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا» (البقرة ٣٢).

* «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» (البقرة ١٥٨)

* «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ» (البقرة ٢٣٥).

* «لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرَضُوا لَهُنَّ

قَرِيضَةً» (البقرة ٢٣٦)

أو الداخلة على الفعل المضارع نحو:

* «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ» (البقرة ١٣)

* «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ» (البقرة ١٣)

* «ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ» (البقرة ١٧)

* «صَمٌّ بَكُمْ عَمَى فَهَمٌّ لَا يَرْجِعُونَ» (البقرة ١٨)

* «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا قُوَّحَهَا» (البقرة

(٢٦)

أو الداخلة على الماضي لا يقصد الدعاء نحو:

* «فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى» (القيامة ٣١، ٣٢) وربما كان

منه أيضا:

* «فَلَا أَفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ» (البلد ١١)

ومن أدوات النفي «لم» التي تختص بالدخول على المضارع نحو:

* «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ» (البقرة ٢٤)

* «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» (البقرة ٣٣)

* «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (البقرة ١٠٦)

* «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» (البقرة ١٠٧)

ومنها «لن» وهي تختص بالمضارع أيضا نحو

* «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ» (البقرة ٢٤)

* «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً» (البقرة ٥٥)

* «لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ» (البقرة ٦١)

* «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى» (البقرة ١١١)

* «وَلَنْ نَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ» (البقرة

١٢٠)

ومنها «ليس» وهي تختص بالجملة الاسمية نحو:

* «وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ» (البقرة ١١٣)

* «وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ»

(البقرة ١١٣).

«لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» (البقرة ١٧٧)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ »

(المائدة ٦٨)

« لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ » (البقرة ٢٧٢)

نصل بعد ذلك إلى النفى المعجمى بواسطة المعنى المفرد. ولقد مر بنا في دراسة النحو شاهد على أن هذا النوع من النفى صالح أن يستثنى منه إذ يقول الشاعر:

« عاف تغير إلا النوى والوئد »

برفع ما بعد «إلا» ومن ثم جرى تأويل المعنى المفرد المفهوم من الفعل «تغير» إلى «لم يبق على حاله» ومن ثم آل المعنى إلى أنه «لم يبق على حاله إلا النوى والوئد» وهذا من قبيل الاستثناء المنفى الناقص أى المفرغ ويهمننا هنا أن نفهم المقصود بأن الاستثناء من الفعل «تغير» استثناء منفى على رغم عدم حرف النفى. والذي يبدو لى أن ذلك يعود إلى ظاهرة معجمية يطلق اللغويون عليها مصطلح «الحقول المعجمية» فإذا ارتضينا تقسيم معجم أى لغة إلى حقول من المعانى فلعل هذه الحقول ذاتها مختلفة الطابع أيضا فبعضها يعود إلى العقل والبعض الآخر يعود إلى العرف والثقافة الشعبية وهكذا فإذا عادت حقول القرباب وأنواع النشاط والحرف اليدوية الخ إلى جانب العرف فإن ما يعود إلى طبيعة التكوين العقلى من تلك الحقول ربما كان أعمق وأهم فإذا حاولنا أن نقسم المفاهيم بين الإثباب والنفى فلربما وجدنا طوائف من المعانى تتفرع عن النفى وإن جرى التعبير عنها بالفعل المثبت على نحو ما مر بنا من معنى الفعل «تغير» منذ قليل. ولربما وجدنا هذه المعانى المتفرعة عن النفى تبدو في صورة التخطيط التالى:

النفي المعجمي

بواسطة المعنى المفرد

السلب	الإزالة	التحول	المنع والامتناع	الكف والانحسار والانقصاص
ضل	نزّه	ذهب	أمسك	كف
جاع	سبح	فسد	وقى	ترك
نقص	أمن	ولى	كفر	خشى
جهل	أبطل	حرّف	منع	خاف
ضعف	أخذ	فتن	رفض	أبى
صمّ	ظلم	زلّ	عصى	كتم
عمى		تغير	حرّم	قبض
بكم			حفظ	عفا
			عكف	تاب
			صام	حانر
				عزف
				صد
				رغب عن
				زهد

سادسا: التسوية:

الأصل في التعبير عن التسوية أن يكون من خلال ذكر أحد مشتقات مادة (س وى) إما بالإيجاب وإما بالسلب وقد ورد ذلك في القرآن الكريم في العديد من المواضع نحو:

* « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ » (البقرة ٦، يس ١٠)

* « لَيْسُوا سَوَاءً » (آل عمران ١١٣)

* « وَذَوَالُوْكَ تَكْفُرُوْنَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُوْنُوْنَ سَوَاءً » (النساء ٨٩)

* « لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُوْنَ »
(النساء ٩٥)

* « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْخَبِيْثُ وَالطَّيِّبُ » (المائدة ١٠٠)

* « سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ » (الاعراف ١٩٣)

* « هَلْ يَسْتَوِيَانِ » (هود ٢٤، الزمر ٢٩)

* « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا » (ابراهيم ٢١)

* « فَهُمْ فِيْهِ سَوَاءً » (النحل ٧١)

* « هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ » (النحل ٧٦)

* « الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيْهِ وَالْبَادِ » (الحج ٢٥)

* « قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِيْنَ » (الشعراء ١٣٦)

* « فَأَنْتُمْ فِيْهِ سَوَاءً » (الروم ٢٨)

* « وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ » (فاطر ١٢)

* « وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيْرُ » (فاطر ١٩)

* « وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ » (فاطر ٢٢)

* « لَا يَسْتَوُوْنَ » (التوبة ١٩، السجدة ١٨)

* « اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ » (الطور ١٦)

* « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ » (الحديد ١٠)

* «لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ» (العشر ٢٠)

* «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ» (المنافقون ٦)

فنحن نجد هذه الشواهد من مشتقات المادة: سواء، ويستوى (ايجابا ونفيا)، ويستويان، ويستوون ونجد المساواة تقتضى طرفين إما متقابلين أو متباينين حتى في حالة الإيجاب.

لكن أسلوب التعبير عن التسوية قد يتخذ صورا أخرى غير ما سبق مع المحافظة على أحد محوري التقابل أو التباين وتتعدد هذه الطرق بين الشرط وأو والواو التى بمعنى أو ومثل وما يفيد التسوية من عبارات أخرى.

١- الشرط قال تعالى:

* «فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» (البقرة ١١٥) أى سواء وليتم قبل المشرق أم قبل المغرب.

* «وَحَيْنَمَا كُنْتُمْ قَوْلُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» (البقرة ١٤٤، ١٥٠) أى سواء كنتم هنا أم هناك.

* «أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً» (البقرة ١٤٨) أى سواء كنتم قريبين أم بعيدين.

* «فَإِنْ لَمْ يَكُنَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٍ وَأَمْرَأَتَانِ» (البقرة ٢٨٢) أى سواء كانا رجلا أم رجلا وامرأتين.

* «فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ» (البقرة ٢٦٥) أى أصابها أحدهما سواء الوابل أم الطل.

* «وَإِنْ تُبَدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخْفَوْهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ» (البقرة ٢٨٤) أى سواء أبديتهم أم أخفيتهم.

* «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْخُجَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ

أَيْمَانَكُمْ» (النساء ٢٥) أى انكحوهن سواء كن محصنات أم إماء.

* «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ» (النساء

٧٨) أى إنكم ميتون سواء كنتم خارج البروج أم داخلها.

ب- أو: وتختلف «أو» التى للتسوية عن «أو» التى للتخيير من جهة أن طرفى التسوية بينهما اطراد التباين أو التقابل وليس ذلك الاطراد بين طرفى التخيير لاحظ ذلك فى قوله تعالى:

* «إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَقَالَ اللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا» (النساء ١٣٥) أى هو أولى بهما سواء كان غنيا أم فقيرا.

* «وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا» (البقرة ١٣٥) أى الهداية لاهل الكتاب فقط سواء منهم اليهود أم النصارى.

* «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» (البقرة ١٨٤) أى الكفارة صيام أيام آخر سواء للمريض أم المسافر.

* «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ» (البقرة ١٩٦) أى الفدية واجبة سواء على المريض أم ذى الأذى.

* «وَلَا تَسَامُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ» (البقرة ٢٨٢) أى لاتساموا سواء أكان صغيرا أم كبيرا

* «قُلْ إِنْ تَحْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُّوهٗ يَعْلَمُهُ اللَّهُ» (آل عمران ٢٩) أى يعلم الله ما فى صدوركم سواء أخفيتموه أم ابديتموه.

* «وَلَنْ يَنْفَعَكُم مِّنْ أَلْسِنَتِكُمْ وَلَا يَنْفَعَكُم مِّنْ أَيْدِيكُمْ إِذَا سَفَرْتُمْ» (آل عمران ١٥٨) أى ستحشرون سواء متم أم قتلتم.

* «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أذَاعُوا بِهِ» (النساء ٨٣) أى إذا جاءهم أمر اذاعوا به سواء أكان من الامن أم من الخوف

«كُونُوا قَوْمًا بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ
وَالْأَقْرَبِينَ» (النساء ١٢٥) أى كونوا كذلك سواء على أنفسكم أم على الوالدين
والأقربين.

ج- السواو التى بمعنى أو: وينبغى هنا أيضا أن تقوم بين طرفى التسوية
علاقة التباين أو علاقة التقابل فلو كان بينهما علاقة التماثل لكانت التسوية
من الواضوح بحيث لاتستدعى النص عليها وشواهد التسوية بالسواو كثيرة كما
نرى فيما يلى:

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً»
(البقرة ٢٠١) أى اتنا حسنة سواء فى الدنيا أم فى الآخرة.

«فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» (البقرة
٢٠٢) أى لا إثم سواء مع التعجل أم التأخر.

«وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ» (البقرة ٢٤٧) أى زاده بسطة سواء
فى العلم أم فى الجسم.

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ» (آل عمران ٥)
أى لا يخفى على الله شىء سواء فى الأرض أم فى السماء.

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»
(آل عمران ١٠) أى لن يغنى عنهم شىء سواء أموالهم أم أولادهم.

«أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» (آل عمران ٢٢) أى
حبطت أعمالهم سواء فى الدنيا أم فى الآخرة.

«الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ» (آل عمران ١٩١)
أى سواء كانوا قياما أم قعودا أم على جنوبهم.

«لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ» (النساء ١٢٣) أى ليس

بالأمانى سواء منكم أم من أهل الكتاب.

* «وَكُفِّرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ» (الانعام ١٢٠) أى ذروا الاثم سواء أكان ظاهراً أم باطناً.

* «سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا» (الانعام ١٤٨) أى لو شاء ما وقع شرك سواء منا أم من آبائنا.

ء- عبارات أخرى تفيد التسوية: نحو:

* «هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ» (آل عمران ٦) أى سواء على هذه الصورة أم تلك.

* «إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ» (النساء ١٤٠) أى انكم عندئذ سواء على رغم تباينكم

هـ- إما: وليست هذه «إماء» الدالة على التفصيل لأن بين طرفي التفصيل في العادة علاقة عنادية بخلاف طرفي التسوية ومن شواهد «إماء» هذه:

* «حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا» (مريم ٧٥)

أى سواء أكان المرئى هو العذاب أم الساعة.

* «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا» (الانسان ٣)

وَمَعْنَى «إِماء» هذه صنو لمعنى الشرط الذى سبق ذكره منذ قليل وواضح أن علاقة التسوية غير العلاقة العنادية لأن التسوية إيجابية والعناد سلبية.

الفصل السابع

قصة يوسف عليه السلام كما تعرضها السورة

الغاية التي نسعى إلى بلوغها من تناول هذه القصة بالتحليل أن نكشف عن جانب بعينه من جوانب الأسلوب القرآني هو جانب القصص. وفي القرآن قصص كثير يدور بعضه حول الأنبياء ويدور بعضه الآخر حول غيرهم كأهل الكهف مثلا، وكأصحاب الجنة الذين أقسموا ليصر منهن مصبحين وكجنتي سبأ وكذئ القرنين وهلم جرا. ويمتاز قصص الأنبياء في القرآن بأهمية خاصة لتكرار ورود القصة الواحدة منه في أكثر من سورة واحدة مع اختلاف مغزى القصة من سورة إلى أخرى بحسب ما يناسب السياق ويتم ذلك بواسطة اختلاف الزاوية التي يجري إبرازها من القصة. ومن هنا لا يمكن أن نأخذ القصة كاملة بالاعتماد على سورة واحدة من القرآن إلا قصة يوسف عليه السلام إذ جاءت في سورة خاصة لم تتكرر بورودها في غيرها، وقد جاءت تامة كاملة حتى لا يمكن أن نلقى عليها نظرة من خلال ما نعرفه عن منهج القصص الأدبي لنرى أوجه الشبه بين منهج القصص: القرآني والأدبي.

ذلك بأن القرآن ليس كتاب قصص وإنما هو كتاب دعوة وتشريع فإذا جاء بالقصة فإنما يأتي بها في إطار الدعوة إلى الإيمان بالله وللإشارة إلى وحدة الدعوة على رغم تعدد الأنبياء واختلاف الأزمنة والامكنة والأقوام وعلى رغم تطور التكليف من دعوة إلى أخرى حتى اكتملت بالدعوة الإسلامية التي بلغها نبينا وحبينا محمد صلى الله عليه وسلم. «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» (المائدة ٣). وهكذا ينبغي أن يكون النظر إلى القصة القرآنية مختلفا عن النظر إلى القصة الأدبية. فهي ليست للمتعة ولا للتذوق الأدبي المجرد ولا لفرض منهج نقدي عليها أيا كان هذا المنهج لأن القصة القرآنية فريدة في طابعها وغايتها وتكوينها، وبهذا الفهم

نبدأ النظر في قصة يوسف عليه السلام، بحيث نتناول ما يبدو لنا أنه الحق من حيث الزمان والمكان والأشخاص والبناء والسرد والحبكة والغاية وأخيرا دلالات النص.

أما الزمان فالذي يبدو أنه عهد الهكسوس وهم غزاة استولوا على مصر حوالي عام ١٧٠٠ ق.م. بين الدولتين المتوسطة والحديثة، وقد جاءوا من الشرق الأدنى. وكونهم رعاة في الأصل ربما أشار إلى أنهم جاءوا من الصحراء السورية، أو من إقليم صحراوي آخر قريب منها فهم في الأغلب ساميون، ولهذا كان استيلاؤهم على مصر مشجعا للساميين الآخرين على الوفادة إليها وفي إطار ذلك نفهم وفادة إبراهيم عليه السلام إلى مصر كما نفهم نشاط القوافل التجارية التي كان منها القافلة التي حملت يوسف بعد انتشاله من الجب، وتشير دائرة المعارف البريطانية (مادة EGYPT) صراحة إلى أن يوسف قد جاء إلى مصر في عهد الهكسوس. ولكن الدلالة القرآنية قد تكون أولى بأن يعتمد عليها في هذا المقام. فالقرآن يشير إلى ملك مصر في عهد موسى بلقب فرعون، وفي ذلك دلالة على أنه ملك مصرى أصيل يستحق هذا اللقب الذي عرف به كل ملك مصرى الأصيل، أما في عهد يوسف فإن الإشارة لم تكن إلى فرعون وإنما كانت إلى الملك. أضف إلى ذلك أن الهكسوس حكموا مصر في أسرتين هما الخامسة عشرة والسادسة عشرة، ثم انقضى حكمهم بقيام الدولة الحديثة التي استخلصت البلاد من قبضتهم، والتي منها الأسرة الثامنة عشرة التي يرى معظم الدارسين أن موسى عليه السلام ظهر في عهدها، فإذا فرضنا أن يوسف ظهر في عهد الأسرة الخامسة عشرة وأن بينه وبين موسى أسرتان ملكيتان هما السادسة عشرة والسابعة عشرة، فلربما رأينا الزمن بين هذين النبيين كافيا لنشوء جالية إسرائيلية محدودة العدد مجتمعة في إقليم واحد، بحيث يمكن أن يقودها إلى الخلاص شخص واحد وأن يمشی أفرادها معا إلى مهجرهم في زحف واحد.

وربما كان من الأدلة على أن يوسف كان في عهد الهكسوس بلوغه مرتبة التمكين في الأرض والسيطرة على خزائنها لأن ذلك ما كان يمكن أن يصل إليه أجنبي وافد إلى مصر في عهد أى من الفراعين الأصلاء، أما الهكسوس الغرباء فليس غريباً عليهم أن يختاروا مشرقياً من طينتهم لهذا المنصب الخطير ولا سيما إذا كان صاحب رسالة ودعوة إلى عبادة إله واحد دون اعتراف بالآلهة المتعددة المحلية «يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيئَةٌ هَآءِ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» (يوسف ٣٩ - ٤٠) ولنا أن نظن أن هذه الدعوة لم تكن قاصرة على فتين كنا معاً في السجن وإنما كانت علنية خارج السجن أيضاً «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا» (غافر ٢٤) فلو أن هذه الدعوة أعلنت في عهد أحد الفراعنة الذين كانوا يرون أنفسهم آلهة من نسل الآلهة لقرأنا عن تعذيب يوسف لا عن تنصيبه أميناً على خزائن الأرض.

وأما المكان فهو بالطبع عاصمة ملك الهكسوس وكان تسمى «بوسطة» في إقليم الشرقية (أقرب أقاليم مصر إلى سيناء) وموضعها الآن بلدة «صالحجر» (والنسبة إليها: الصاوى) وليس عجيباً أن يتخذ الهكسوس عاصمة لهم في هذا الإقليم القريب إلى منشئهم الجغرافى بل إلى الصحراء التى تعد مهرباً عند الهزيمة يعز التوغل فيه على جيش أمة زراعية كمصر. بل إن هذا الموقع قد يسر للقافلة أن تتبع الغلام يوسف لأحد كبار المسؤولين فى الدولة (وهو العزيز أو رئيس الشرطة) ولولم تكن العاصمة قريبة فلربما كان امتلاك الغلام من نصيب أحد الأثرياء الذين لا يرقى بهم الثراء إلى المشاركة فى تصريف الدولة. وهذه حكمة أرادها الله تعالى الذى يقول «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ»

(يوسف ٢١). إذ لو أنه وقع في قبضة ثرى لاخطر له لضاع في ربة القيد
وغمار الأحداث وما كان له من خطر ولاذكر يروى.

وأشخاص القصة هم:

١ - يوسف عليه السلام

٢ - يعقوب عليه السلام

٣ - الإخوة الكبار (إخوته لآبيه)

٤ - الأخ الأصغر (الشقيق)

٥ - أفراد القافلة السيارة

٦ - العزيز

٧ - امرأة العزيز

٨ - نصوة في المدينة

٩ - الفتيان (رفيقتا السجن)

١٠ - الملك

١١ - فتیان يوسف وخدمه

فأما يوسف وأخوه فقد كانا أصغر الأبناء ولدا ليعقوب على تقدم من سنه
وفتره من قوته، وفي النفس الإنسانية رقة لأصغر الأبناء ظناً أن الأب الشيخ
لن يبقى لهم على قيد الحياة حتى يشبوا عن الطوق ويبلغوا أشدهم ليستغنوا
عنه، وأنه إن تركهم فلن يأمن جور الوحى ولا غائلة الأيام، وهكذا يزداد
للصغير رقة على رقة وهذا ما كان من يعقوب ليوسف وأخيه، مما أثار غيرة
الإخوة الكبار وحقدهم حتى بلغ بهم الحقد مبلغ الكيد والمؤامرة. ولو أن
يوسف وأخاه كانا شقيقين لكبار الإخوة، فلربما وسعهما حلم الإخوة

وصبرهم، أما وهما من أم أخرى غير أمهم فلطالما أفسدت أحقاد الضرائر قلوب أبناء الضرائر حتى ليرى أحد الاخوين الآخر في عداد الأعداء فيكيد له ويبالغ في الكيد حتى إنه ليستبيح لنفسه التفكير في قتل أخيه. وكان من بين الإخوة أخ هو أكبرهم وأقلهم تأثراً بالبغضاء، فهو الذي قال لهم بعد عقدهم النية على قتله «لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْفُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ» (يوسف ١٠) وهو الذي قال للأخوة حين خلصوا نجياً: «أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلَ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرِحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي» (يوسف ٨٠) ولم يكن إخوة يوسف قتلة محترفين يقتلون لشهوة القتل، وإنما كانوا يريدون التخلص من يوسف أولاً وأخيراً، ومن ثم لم يكن كيدهم ليوسف قاصراً على إرادة القتل خياراً وحيداً وإنما كان «اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ» (يوسف ٩) وفي هذه العبارة الأخيرة «وتكونوا من بعده قوما صالحين» إعلان للتوبة قبل الوقوع في الذنب وهو دليل على أن هذا الوقوع في الذنب ليس من طبيعتهم، وإنما دفعت إليه الظروف، وهذا ما خشيته يعقوب عند تحذيره ليوسف أن يطلع إخوته على رؤياه: «يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (يوسف ٥) وإشارته إلى اتهام الشيطان وليس اتهام الإخوة لأن هؤلاء الإخوة وقد نشأوا في حجر نبي ما كانوا ليسلكوا سلوكه المجرمين، إلا أن يرغموا على ذلك بفعل الدوافع الطبيعية المركبة في كل إنسان.

نصل بعد ذلك إلى موقف أصحاب القافلة. إنهم خرجوا للتجارة والربح ولا شيء غير ذلك. ومن عادة القوافل أن تسلك دروباً مطروقة معروفة المعالم ومن معالمها الآبار التي يحصل المسافرون منها على الماء. وأرسلت القافلة أحد أفرادها ليرد الماء فأدلى دلوه وهو لا يدري أن في الجب غلاماً فأمسك الغلام بالدلو أو بالرشاء فأحس الوارد به فأخرجه ولشده ما كان فرحه أن يجد غلاماً

مهملًا ملقى في الجب فصاح: «يَا بَشْرِي هَذَا غُلَامٌ» (يوسف ١٩). فلماذا كان وجود الغلام بشري أكرم لم يكن موقفًا نبيلًا منه أن يسأله عن أهله فيعيده إليهم، ولكن هذا الوارد لم يسافر طلبًا للعمل الصالح، وإنما جاء وراء الربح والتجارة فلماذا لا يجعل الغلام سلعة للبيع؟ هكذا تشاور أفراد القافلة «وَأَسْرَوْهُ بَضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ» (يوسف ١٩ - ٢٠) إذ لو لم يبيعوا هذا الغلام الصغير لكان عليهم أن يعولوه وينفقوا عليه من مالهم فيبيعوا وبالخسارة دون الربح.

أما الذي اشتراه فهو العزيز، ويبدو أنه اكتهل دون أن يعقب ولدا فقال لامراته الشابة «أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» (يوسف ٢١) وكان هذا الرجل مخلصًا فيما اتتوى فلقد أسلم إلى أمراته غلامًا دون البلوغ، وربما قرب يوسف إلى قلبه ما لمحه من صباحة وجهه وقلته حيلته واستسلامه لمصيبة الرق التي يعلم الرجل ما تنطوي عليه من ضعة وقسوة. وهكذا هس الرجل ليوسف وطالب أمراته أن تعامله برفق وحنان وترعاه رعاية الأم لابنها. ولعل امرأة العزيز حققت ما أوصاها به زوجها في بادئ الأمر ولعلها حين أحضرت زوجها يوسف إلى بيتها وهو غلام صغير كانت في شرح شبابها وفتنتها، فربما بلغت العشرين أو جاوزتها بقليل ومضت السنون ما بين العشر إلى الخمس عشرة، فأصبح يوسف شابًا مكتمل الشباب، أما هي فلم تتخط مرحلة الشباب إلى الكهولة ولما بلغ يوسف أشده واستوى آتاه الله حكما وعلمًا (يوسف ٢٢) ومنحه ما يمنح أنبياءه من التسامى فوق الشهوات والعصمة دون الوقوع فيها حتى إن حدث منه النزوع إليها فلما وقعت المراودة هيا الله لنبيه يوسف من الظروف ما يحول بينه وبين الخطيئة، وذلك أنه ذكر إحسان العزيز إليه إذ أحسّ قدومه «وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَىٰ الْبَابِ» (يوسف ٢٥)

ولا بد أن الخبر قد ذاع وانتشر فتلقته السنة النسوة في المدينة ولقد كان لدى المرأة دائما من الفراغ والتزاور مع جاراتها وصديقاتها ما يحملها على شغل وقتها بالخوض في سيرة غيرها ولاسيما إذا وجدت من الموضوعات ما يصلح للتناول وممارسة الغيبة. فلا عجب إذاً أن يجد هؤلاء النسوة لذة في الكلام عن فضيحة امرأة العزيز ومرادتها لفلانها الذي يصغرها سناً وافتتانها بحسن تكوينه وصباحة وجهه مع تهيو الظروف للخلوة به نظراً لغياب زوجها شبه الدائم في رعاية شئون عمله في شرطة المدينة.

لقد كان ما آتاه الله ليوسف من الحكم والعلم تكليفاً بإبلاغ رسالة التوحيد إلى الناس وكان ما علمه الله إياه من تأويل الأحاديث وسيلة من وسائله التمكين له في الأرض «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» (يوسف ٢١) فلما زج به في السجن استعان بما وهبه الله من ذلك من خلال صلته بصاحبى السجن، أما إبلاغه الرسالة فقد كان هذان الصحابان أول من يسمعهما، وأما تأويل الأحاديث فقد كانا أول من ينتفع به ثم نجد أحد هذين الرقيقين في مستقبل أيام يوسف واسطة اللقاء بين يوسف والملك ذلك اللقاء الذي كان سبباً في تبرة يوسف مما نسب إليه وفي فتح فرص المستقبل العظيم أمامه وهو المقصود بالتمكين في الأرض.

نصل بعد ذلك إلى شخص الملك فإذا تأملنا هذا الشخص وجدناه لا يسعى على أرض الواقع، وإنما يعتمد في تصرفاته على الرؤيا في وسط قوم لا يعتقدون صدقها ولا يؤمنون بها، بل يرونها أضغاث أحلام، ثم هو رجل غير طاغية ولا متسلط إذ يقبل من أحد سجنائه أن يمتنع عن المثول بين يديه حتى يسمع ما يقوله فيه النسوة اللاتي قطعن أيديهن، وهو كذلك ملك عادل لأنه يبنى حكمه على شهادة هؤلاء النسوة فيرد إلى يوسف حسن سمعته، وهو كريم إذ يمنح رجلاً غريباً كان رقيقاً حبيساً في سجنه فرصة إدارة اقتصاد بلاده ويوليه من

الثقة ما يطلق يده في هذه الإدارة. كل أولئك من جوانب شخصية الملك الهكسوسى الذى كان له حظ المشاركة في قصة يوسف وكلها جوانب توحى بالضعف أكثر مما توحى بالقوة.

أما قتيان يوسف الذين وضعوا بضاعة إخوته في رحالهم لعلهم يعرفونها فلا يستحقون في الواقع أن يعدوا بين شخصيات القصة شأنهم في ذلك شأن صاحبى السجن، لأن هؤلاء جميعا إنما كانوا في القصة عوننا على تطوير شخصية يوسف في القصة فهم أداة في يده يصل بها إما إلى الاتصال بالملك أو لتنفيذ كيد الله له «كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ» (يوسف ٧٦) فهؤلاء الفتية وأولئك من قبيل ما يعرف في وقتنا الحاضر باسم «النكرات المسرحية» الذين لا يظهرون أثناء أحداث القصة إلا في لحظات قصيرة.

فإذا أمعنا النظر في بناء القصة وجدنا مايلي: تتبنى القصة في جملتها حول شخصية مركزية وكل ما عداها فهو في خدمة تطويرها وإبرازها. فالشخصية المركزية في هذه القصة هي يوسف عليه السلام، فهو الذى رأى في منامه الكواكب والشمس والقمر وهو الذى أمر ألا يقص رؤياه على إخوته، وهو الذى حيكت ضده المكيدة فألقى في الجب والتقط وبيع للعزيز وروود عن نفسه وسجن وفسر رؤيا الملك وتولى الإشراف على خزائن الأرض وطلب إحضار أخيه الشقيق ودير الكيد لإخوته وكشف لهم عن حقيقة أمره ودعا أبويه إلى مصر وغفر لإخوته خطيئتهم. وكل شخصية عدا شخصية يوسف فهي عون في نطاق القصة على نسبة الأحداث إليه، ومن ثم على تطور هذه الأحداث لتصبح قصة مترابطة. وهذا الترابط هو نظام الحبكة في القصة فليست أحداثها منعزلة فأول القصة خطيئة وآخرها مغفرة لهذه الخطيئة وفيما بين هذه الخطيئة، وتلك المغفرة نجد صراع الشهوة والفضيلة، كما نجد مقابلة الرق بالسيادة والخمول بالتفوق والفشل بالنجاح واليأس بالفرح والمرض بالشفاء

وبين كل قطب من أقطاب التقابل وصاحبه إضافة منطقية عضوية إلى نسيج القصة لا يستغنى تركيبها عنها لأن كل زوج تقابل، مما سبق له دور حيوي هام في بناء القصة.

أما سرد القصة فله منهجه الخاص الذي ينفرد به الأسلوب القرآني، وهو يمتاز بالأمور الآتية:

أ - الترتيب الزمني: يتدرج سرد القصة من طفولة يوسف إلى بلوغه أشده إلى رجولته تدرجا زمنيا طبيعيا لا تسبق مرحلة متأخرة منه مرحلة متقدمة في الترتيب الزمني ويتبع ذلك أن الأحداث الفرعية ذاتها تتدرج منطقيا مع نمو يوسف من الرعى إلى حمله رقيقا إلى بلوغه أشده إلى افتتاح امرأة العزيز به إلى دخول السجن حتى ينتهي به الأمر إلى ولاية خزائن الأرض واستقدام أبويه إلى مصر. والترتيب الزمني أيضا سمة من سمات تركيب الأحداث الفرعية، فلقد كان يمكن للمرحلة السابقة أن تكون في السرد على تقال بعد معلولها فيقال مثلا: القوه في الجب لغيرتهم، أو أنه سجن لأن امرأة العزيز أرادته لنفسها فاستعصم الخ. ولكن الأحداث تجري بترتيبها الزمني الطبيعي فيكون ذلك سمة من سمات السرد.

ب - عدم ذكر غير الضروري من الأحداث: عند تحويل أية قصة إلى مسرحية نجد المسرحية تحول القصة إلى عنصرين هامين: مناظر وحوار، فأما المناظر (السيناريو) فإننا نجد لها في صورة وصف لما يجري من حركات، ولما هو قائم (ديكور)، وأما الحوار فهو ما يدور بين الممثلين من تبادل الكلام.

والسورة حافلة بحذف ما يقتضيه السياق من هذا النوع من الحركات العضوية والنفسية على حد سواء انظر مثلا إلى الشواهد الآتية وستعثر دون شك على ما حذف من أحداث هذا النوع والمقدر المحذف من ذلك هو ما بين قوسين:

* قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَاتُكْفِلُوا يوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ
بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (فَاطَاعُوهُ وَدَبَّرُوا كَيْدَهُمْ فَذَهَبُوا إِلَى
أَبِيهِمْ) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لِأَتَاَمْنَا عَلَى يوسُفَ، (يوسف ١٠ - ١١)

* قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذُّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنْآ إِذْنَا لَخَاسِرُونَ» (فَامْنَهُمْ عَلَى
أَخِيهِمْ وَارْسَلَهُ مَعَهُمْ) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ...، (يوسف ١٤ - ١٥)

* «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (فَالْقَوْهَ فِي
غِيَابَةِ الْجُبِّ) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا...، (يوسف ١٥ -
١٧)

* «وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ (فَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ أَبُوهُمْ) قَالَ (لَمْ يَأْكُلَهُ
الذُّبُّ) بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا
تَصِفُونَ» (يوسف ١٨)

* «وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ (فَوَجَدُوا حَاجَةً إِلَى الْمَاءِ) فَارْسَلُوا وَارْدَهُمْ (لِيَأْتِيَهُمْ
بِبَعْضِهِ) قَائِدٌ ذَلُوهُ (فَتَعَلَّقَ يوسُفَ بِالذَّلْوِ فَخَرَجَهُ الرَّجُلُ مِنَ الْبُئْرِ
فَلَمَّا رَأَاهُ) قَالَ يَا بَشْرَى هَذَا غُلامٌ (وَعَرَضَهُ عَلَى رِفَاقِهِ فَتَشَاوَرُوا فِي أَمْرِهِ
فَقَرَّرُوا حَمْلَهُ مَعَهُمْ) وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً، (يوسف ١٩)

* «ثُمَّ وَاصَلُوا السَّيْرَ حَتَّى إِذَا وَصَلُوا إِلَى مِصْرَ عَرَضُوهُ لِلْبَيْعِ (هُوَ شَرُوهُ
بِثَمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ، (يوسف ٢٠)

والسورة حافلة بهذا النوع من الحذف ومعظمه من قبيل الحركات
العضوية أو النفسية. وإنما حسن الحذف هنا لأن المحذوف مما يقتضيه
سياق النص ولقد نعلم جميعاً أن إيضاح الواضح إطالة غير مستحبة .

٢ - الاقتصار على الضروري من وصف المناظر: ولهذا لانكاد نجد في

السورة من هذا النوع إلا عبارات قصيرة قليلة مثل:

* «فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكَبًا وَقَالَتْ أَخْرِجِيَّ عَنْ هُنَّ أَيْدِيَهُنَّ فَلَمَّا رَأَتْهُنَّ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» (يوسف ٣١)

* «وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ» (يوسف

٥٨)

* «فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ» (يوسف ٧٠)

* «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ» (يوسف ٧٦)

* «فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا» (يوسف ٩٦)

* «وَرَفَعَ أَبْوَابَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا» (يوسف ١٠٠)

وليس في السورة من هذا النوع من الوصف إلا ما ذكرناه في هذه الشواهد والملاحظ أن هذه الشواهد تخلو جميعا من فعل القول إلا ما نجده في «وَقَالَتْ أَخْرِجِيَّ عَنْ هُنَّ أَيْدِيَهُنَّ»

٤ - ربط الأحداث المفردة بالغايات والآيات: بدءا بافتتاح القصة إذ يقول

الله تعالى «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» (يوسف ٦)

إلى قوله «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَذَكِّرِينَ» (يوسف ٧) إلى قوله

«وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» (يوسف ١٥) إلى

قوله «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ»

(يوسف ٢١) إلى قوله «كَذَلِكَ لِنُصَرِّفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ» (يوسف ٢٤)

إلى قوله «فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ» (يوسف ٣٤) إلى قوله: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي

الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ» (يوسف ٥٦) إلى قوله «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ»

(يوسف ٧٦) إلى ما قاله يوسف آخر الأمر: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ» (يوسف ١٠١). وهكذا حافظ النص على ربط الأحداث بإرادة الله أن يمكن ليوسف إذ يجتئبه ويعلمه ويتولاه حتى يضيف إلى ما بينها من عوامل الربط ويجعلها بنية قصصية محكمة.

وهكذا نصل إلى الحبكة وهي جملة الحدث المروي. وليس سير الأحداث في هذه القصة لمجرد القصص وليست أحداثها منعزلا بعضها عن بعض وإنما تدور الأحداث حول أبناء الضرائر وتفاوت أنصبياء الأبناء من محبة الأب وحقد بعض الإخوة على بعض وكيدهم لهم، ثم تدور الأحداث حول الرؤيا وتفسير الرؤيا وحول الشهوة والفضيلة والعقوبة والبراءة، كما تدور حول إنصاف الضعفاء والتمكين لهم حتى يتحقق لهم الانتصار على من ظلموهم، ثم يظلون بعد انتصارهم على تمسك بالفضيلة، وعلى تقوى من الله ورضوان، فلقد فطن كبار الإخوة من أبناء يعقوب إلى أن أباهم يمنح يوسف وأخاه من حبه وهما اثنان فقط أكثر مما يمنح بقية الإخوة وهم عصابة أكثر عددا **طُيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَيْبَانِي مِمَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**، (يوسف ٨) ولو أن الجميع كانوا من أم واحدة لربما هان الأمر على كبار الإخوة ولكن أبناء الضرائر مجبولون دائما على التنافس حتى في أصاغر الأمور ولعل الأب لاحظ منهم تربصا بيوسف، ومن ثم نصح يوسف بكتمان خبر الرؤيا **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي أَخَذْتُ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا»** (يوسف ٤ - ٥) ويؤخذ من ذلك أن يعقوب كان عليما بتأويل الرؤيا وأنه فسر الكواكب الأحد عشر بأنهم إخوة يوسف فقد كان هذا عددهم وفسر الشمس والقمر بالأبوين وفسر سجودهم ليوسف بما

سيصيه يوسف من القوة والسلطان. وتحققت مخاوف الأب فكاد الإخوة الكبار لأخيهم الصغير لا لأنهم علموا بأمر الرؤيا بل لما لاحظوه من ميل أبيهم إلى يوسف «إذ قالوا ليوُسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ آبَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ أَفَتُكَلِّمُوا يُوْسُفَ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَفْتُلُوا يُوْسُفَ وَأَقْرَبَهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ» (يوسف ٨ - ١٠) ويبدو أن هذا القائل هو كبيرهم وأنه قال ذلك مقلوباً على أمره بدليل قوله «إن كنتم فاعلين» أي إن كان لابد أن تفعلوا واتهامه للكيد هنا كاتهامه لموقف الإخوة في آخر السورة إذ «قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ» (يوسف ٨٠)

وألقي الإخوة يوسف في غيابة الجب وذهبوا إلى أبيهم ليكون ويكذبون ويعرضون عليه قميصاً مخضباً بدم كذب فلم يصدقهم الأب ولم يستطع أن يكشف لهم أمر كيدهم ولكنه كان يعلم من تفسير رؤيا يوسف أن يوسف سيبلغ مبلغ الرجال حتى يكون ذا شأن يستحق معه أن يخضع له الناس وأن يسجد له أحد عشر كوكبا والشمس والقمر، ومن ثم لا يمكن أن يكون الذئب قد أكله، ولذلك يقول الأب في لحظة الحزن: «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (يوسف ٨٦) أي أنه يعلم أن يوسف حي يرزق.

«وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْنَىٰ دُلُوهُ قَالَ يَا بَشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَتَهُ» (يوسف ١٩) وما كان لهم إلا أن يفعلوا ذلك في مثل هذه الظروف لأنهم لم يعلموا من أين جاء بل إنهم لو علموا ما تخلوا عنه فهم تجار مسافرون والمكان خال فمن عسى أن يدل ذويهم عليهم أو على اتجاه سيرهم ومنذ اعسى أن يرفض فرصة للكسب سنحت له دون أن يجهد نفسه للوصول إليها.

فلما بلغوا مصر «شروهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً» (يوسف ٢٠)
فالذى يشتري الرقيق إنما يشتريه للمنفعة لا للتربية وكان يوسف وقت بيعه
للعزيز صغيرا غير قادر على تحمل مشقة الخدمة، ومن هنا كان أصحاب
القافلة أنفسهم غير حريصين على استبقائه معهم ولا على المغالاة في ثمنه
المطلوب «وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الرَّاهِدِينَ» (يوسف ٢٠)

وبدا ذلك واضحا حتى من توجيه العزيز لامراته بقوله: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَنَا
أَوْ نَتَّخِذَهُ وِلْدَانًا» (يوسف ٢١) فلم يكن النفع في نظره أمرا واقعا وإنما كان
مرجوا للمستقبل، وهكذا استقر يوسف في بيت العزيز ترعاه امرأة في شرح
الشباب وتحنو عليه، وقد مكن الله له وعلمه تأويل الرؤيا فضلا من عنده
سبحانه فهو ولي الذين آمنوا وناصر الضعفاء من عباده، ثم بلغ أشده فزاده
الله من فضله وآتاه حكما وعلما وحمله عبء الدعوة إليه، كما سيتضح أثناء
إقامته في السجن.

كانت المرأة شابة ولعل الفارق في السن بينها وبين يوسف لم يكن يتجاوز
السنوات العشر إلا قليلا فلما بلغ أشده واستوى كانت المرأة ماتزال في شبابها
فأحسنت في نفسها ميلا إليه «وَرَأَوْنَهُ النَّيَّ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ
الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ» (يوسف ٢٣)، وهنا جاء دور الفضيلة في خلق
يوسف «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» (يوسف ٢٣) وما كان لرجل
آتاه الله حكما وعلما أن ينكر دور رجل أكرم مثواه وأمنه على بيته وماله، فهل
يكون جزاء ربه الذي أحسن مثواه أن يفسق هو بأمراته «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ» (يوسف ٢٣) وتعرضت المرأة له فكان بين شباب يغررى وفضيلة
تنهى حتى لقد كاد يستجيب لها لولا أن أحس أمارات مقدم سيده (ربه) فتنبه
إلى المزلق وصرف الله عنه السوء والفحشاء. «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ
رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ

عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ» (يوسف ٢٤) وحين تنبه يوسف انطلق يجرى إلى الباب يريد الخروج ولحقت هي به فامسكت بظهر قميصه تشده إليها حتى مزقت القميص وحين فتح الباب كان الزوج أمامها ماثلاً يفاجا بهذا المنظر الغريب «وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ» (يوسف ٢٥) حاولت المرأة بمكرها أن تعكس دلالة الحدث وأن تستثير حمية زوجها بغية الانتقام من هذا الذي أذل أنوثتها. لم تقل إن يوسف أراد السوء بشخصها لتجعل زوجها في موقف القاضي، وإنما قالت إنه أراد السوء بأهلك فصورت يوسف يتعدى على شيء هوله ليكون الزوج في موقع الخصومة ليوسف «قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (يوسف ٢٥). حاول يوسف أن يتبرأ من هذا الاتهام وشهد شاهد من أهلها (لعله الزوج نفسه) شهادة مبنية على المنطق فرأى أن تمزيق القميص من الأمام يدل على المقاومة وعلى أن يوسف هاجمها فقاومته وأن تمزيقه من الخلف يدل على الملاحقة وأن يوسف أراد الهرب فلاحقته، فلما رأى مكان التمزيق أدان المرأة وقال ليوسف: لا تنزعج لهذا الأمر واكتمه ولا تذكره لاحد وقال لها: أنت صاحبة الكيد والخطيئة «قَالَ هِيَ رَأَوْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قِبَلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ» (يوسف ٢٦ - ٢٩) وهكذا أراد الرجل سترًا للفضيحة أن يتم الأمر بالعفو عنهما، ولكن الأمور لم تجر كما أراد فقد انكشفت الأمور وشاع الخبر في المدينة وتناقلته اللسان «وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» (يوسف ٣٠) والناس يخطئون في الخلوة ويبررون في الجلوة ومن ثم لم تطلق امرأة العزيز أن يتناول الناس سيرتها ولا يلتمسوا لها العذر أو يبحثوا عن مبررات سلوكها «فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ

أرسلت إليهن وأعقدت لهن متكا وأنت كل واحدة منهن سكيئا وقالت
 اخرج عليهن (يوسف ٣١) أرادت بذلك أن تريهن فتأها عيانا وأن تعرف
 رأيهن فيه وموقفهن منه فدعتهن لزيارتها وأعدت لهن مجلسا وأتت لهن
 بالفاكهة وأعطت كل واحدة منهن سكيئا لتقشير الفاكهة فانشغلن بالتقشير
 وبالاكل حتى خرج عليهن يوسف إذ أرسلته هي بمزيد من العرى وهن
 مشتغلات بالتقشير فلما رأيته أكرهه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما
 هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم (يوسف ٣١) فلما رأت أيديهن مجروحة
 بالسكاكين وعيونهن شاخصة إلى يوسف علمت أنها قد بلغت من لدنهن عذرا
 «قالت فذلكن الذي لمتني فيه» (يوسف ٣٢). يقولون إن المرأة لاتستحي من
 المرأة كما يستحي الرجل من الرجل فقد تكشف المرأة للمرأة من نفسها مالا
 يكشفه الرجل للرجل. وإن صح ذلك فلا غرابة أن تعلن امرأة عن إصرارها
 على ملاحقة يوسف وتقول للنسوة «ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن
 وليكونا من الصاغرين» (يوسف ٣٢) ودأبت على ملاحقته وتهديده بالسجن
 إن لم يستجب لرغبتها حتى «قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه
 وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين» (يوسف ٣٣) هل
 في الجملة الشرطية الأخيرة من هذه الآية ما يدل على أن يوسف كاد يستجيب
 لامرأة العزيز قبل حادثة القميص، لو لا أن ساق الله سيده إلى الباب؟ أنا أفهم
 القضية على هذا النحو.

«فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم» (يوسف
 ٣٤). ولكن لما شاع خبر الفضيحة في المدينة بدا للزوج حتى بعد أن رأى آيات
 براءة يوسف أن يدخله السجن في محاولة إظهاره بمظهر المعتدى، ومن ثم
 تبرئة زوجته وإظهار نفسه بمظهر الغيور على عرضه «ثم بدلهم من بعد
 ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين» (يوسف ٣٥).

أكدت «ليسجنن» بالنون الثقيلة لأنها كانت تملك إغراء زوجها بإدخاله السجن وأكدت «ليكونا»
 بالنون الخفيفة لأنها تعلم أنه لن يبالي بالسجن طالبا للفرار من الإثم ولأن السجن أحب إليه من
 الخطيئة.

دخل يوسف السجن مزودا بفضل الله عليه من تاويل الاحاديث إلى الحكم
 والعلم وقد ظهرت آثار ذلك الفضل الإلهي فيما تلا من آياته في السجن ودخل
 معه السجن فنيان، (يوسف ٣٦) وقد رأى كل منهما رؤيا قصها على يوسف
 فقال أحدهما إنسى أراني أعصر خمرا وقال الآخر إنى أراني أحمل فوق
 رأسي خبزا تأكل الطير منه نبتنا بتأويله إنا نراك من المحسنين، (يوسف
 ٣٦) لم يكن يوسف محترفا تاويل الرؤيا ولو كان كذلك ما قدم دعوة الفتين
 إلى عبادة الله على تفسير الرؤيا وقال لا يأتیکما طعامٌ تُررَقانه إلا نبتاكما
 بتأويله قبل أن يأتیکما ذلكما مما علمنى ربى إنى تُرکتُ ملة قوم
 لأیؤمنون بالله وهم بالآخرة هم کافرون وأتبعته ملة أبائى إبراهيم
 وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نُشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله
 علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشکرون یاصحابى السجن أرباب
 متفرقون خير أم الله الواحد الفهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء
 سمیتموها أنتم وأبائکم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر
 ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا یعلمون، (يوسف
 ٣٧، ٤٠) وهكذا بدأ يوسف يبلغ رسالة ربه وقد انتهز فرصة وجود من يطلب
 منه العون ويستمع لما يقول ولا شك أن هذه المرة الأولى لم تكن الوحيدة، لان
 عناية الله قد وضعت يوسف موضع القوة والسلطة والتأثير، فلا شك أنه
 واصل تبليغ الرسالة للناس وإن كانوا لم يستجيبوا له بإخلاص، كما يبدو
 من كلام الرجل المؤمن من آل فرعون إذ يقول للملا من قومه: «ولقد جاءکم
 یوسف من قبل بالبینات فما رلیتم فی شک مما جاءکم به حتى إذا هلك قلتم
 لن یبعث الله من بعده رسولا، (غافر ٢٤)، وهكذا قدم يوسف الدعوة إلى
 الله على تاويل رؤيا الفتین ثم قال بعد ذلك یاصحابى السجن أما أحدکما
 فیسقى ربه خمرا وأما الآخر فیصلب فتأکل الطیر من رأسه، (يوسف ٤١)
 وهكذا نجا أحد الفتین وهلك الآخر ولما رأى يوسف ما حاق به من ظلم ورأى

أَنَّ أَحَدَ الْفَتِيَيْنِ سَيَنْجُو مِنَ السِّجْنِ خَطِرٌ لَهُ أَنْ هَذَا الْفَتَى رُبَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَعِينَهُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ السِّجْنِ فَبَادَرَ «وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» (يوسف ٤٢) ولكن الفتى فرح بالحريّة والالتحاق بِخُدْمَةِ الْمَلِكِ «فَأَنسَأَهُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَذْكُرَ رَبَّهُ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ» (يوسف ٤٢). ولكن عناية الله ما كانت لتترك يوسف فريسة الرق والسجن والعذاب وهو الصالح المصلح والرسول المرسل. فكان لا بد من إيجاد السبب الداعى إلى إخراج يوسف من هذا المازق.

«وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَى بِسَاتٍ بِيَاهَا الْمَلَأُ أَفْئُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبِرُونَ» قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ» (يوسف ٤٢ - ٤٤) وانطلق رجال الملك يبحثون عن من يستطيع تأويل هذه الرؤيا دون أن يعثروا على أحد وفجأة بعد فترة من البحث تذكر السجين السابق الذى نجا وأصبح ساقيا للملك أن رفيقا سابقا كان له فى السجن يحسن تعبير الاحلام فطلب أن يتوذن له فى عرض رؤيا الملك على يوسف لعله يؤولها له فيعود بالتاويل إلى الملك «وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسَلُونِ يُوسُفَ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَى يَا بَنَاتَ لَعَلِي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ» (يوسف ٤٥ - ٤٦) وبنفس رضية تليق بصديق ونبي أنشأ يوسف ينصح الذين ظلموه والقربه فى السجن سنوات عدة ويدلهم على ما ينبغي لهم أن يفعلوا عندما تحل بهم سنوات القحط: «قَالَ قَرَأْتُ فِي الْقُرْآنِ سَبْعَ سِنِينَ دَابَأُفَمَا حَصَدْتُمْ فَذُرُّهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» (يوسف ٤٧ - ٤٩) لقد كان هذا التاويل من الوضوح بدرجة تجعل كل من يسمعه يتساءل لم لم يرد ذلك على خاطرى.

إنه السهل الممتنع ولذلك لم يكذب الملك يسمع هذا التأويل حتى أحس أنه الحق فنزع به حب الاستطلاع إلى أن يرى هذا السجين الملهم «وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ (يوسف ٥٠)».

لقد دخل يوسف السجن من جراء تهمة تخل بالشرف وتفسد السمعة وأهمله المسئولون سنوات عدة فلبث في السجن لا يذكره أحد فلو خرج الآن معفوا عنه لظلت التهمة لاصقة به لا يستطيع لها دفعا لذلك قرر يوسف أن يطالب بإعادة التحقيق في اتهامه «إن صح هذا التعبير» وأن يخاطر برفض المثول بين يدي الملك حتى ينتهي التحقيق إلى براءته التي يعلمها سيده علماً تاماً إذ شهد ببراءته من قبل «فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قُطِعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ» (يوسف ٥٠) أي أن سيدي يعلم أنهن يكنن لي هي بالمرادة وهن بالصمت.

طلب سؤال النسوة ولم يطلب سؤال امرأة العزيز لأنه تصور أن هؤلاء النسوة أدنى إلى مقالة الحق منها. ولقد أرسل الملك إليهن وإلى امرأة العزيز فأحضرن فلما مثلن بين يديه «قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ» (يوسف ٥١) فما كان عندئذ من امرأة العزيز إلا أن تعترف كما يعترف كل مبطل تبتهته كثرة الشهود وحصصه الحق «قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْفُهِ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» (يوسف ٥١ - ٥٢) ولكنها حتى مع اعترافها لم تشأ أن تجعل نفسها بدعاً بين الناس وإنما ذهبت تلتمس سبب خطيئتها لدى الطبيعة الإنسانية في جملتها وليس في ضعفها هي «وَمَا أَظْرُقُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» (يوسف ٥٢) أي أن من طبيعة النفس البشرية بعامة أن تأمر بالسوء. وهكذا برأ الله يوسف مما كادت

له امرأة العزيز وعلم الناس أنه سجن ظلماً فإذا خرج من السجن في هذه الحال فإنه خروج الرجل الكريم الذي استحق حتى في السجن أن يسأله بلقب «الصديق»، وحين علم الملك براءة يوسف وأعجب بتأويله للرؤيا رأى أن يوسف من الرجال الذين ينبغي الحرص عليهم والانتفاع بهم «وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» (يوسف ٥٤). وربما تذكر الملك ويوسف أمر الرؤيا وتأويلها ولعل الملك استشاره فيما يحسن به أن يفعله ورأى يوسف حيرة الملك حيال المستقبل واستعداده للاستعانة به فرأى أن يعرض خدماته على الملك «قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ» (يوسف ٥٥) فوافق الملك يوسف وتولى يوسف أمر الخزائن.

وكذلك مكن الله ليوسف في الأرض فتولى إدارة الأمور في السنوات الأربع عشرة سعادتها وعجافها ولم تكن السنوات العجاف عجافاً على مصر فقط بل كانت قاسية جدباء جائعة على البلاد الأخرى حول مصر. وجعلت القوافل تزد على مصر طلباً للميرة من خلال التبادل السلمى وكان يوسف يتولى بنفسه أمر تزويد هذه القوافل والاتفاق مع حملة تجارتها يأتى إليه الناس فيعقد معهم الصفقات يأخذ منهم ما يعرضون ويمدهم بما اختزنه من غلة الأرض في ظل حسابات دقيقة لا تمس أتوات مصر «وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ» (يوسف ٥٨) عرفهم ولم يعرفوه ومن ذا الذى يخطر بباله أن يكون هذا الرجل الخطير الذى يحمل لقب العزيز ويتحكم في تجارة مصر هو ذلك الفتى الذى قذف به إخوته في الجب وتركوه لكافة الاحتمالات إلا احتمالاً واحداً هو الذى يرونه الآن بأعينهم. أما يوسف نفسه فقد أسر في نفسه الا يكشف لإخوته عن من يكون وأن يخفى عنهم أمر نفسه حتى يبلغ منهم جمع شمله بأخيه وأبويه وبهم أيضاً وأن يجعل ذلك مفاجأة للجميع. «وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ

أَتَى أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ» (يوسف ٥٩، ٦٠)

وَأَسْقَطَ فِي يَدِ الْإِخْوَةِ وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ فِي مَازِقٍ فَتَشَاوَرُوا وَاسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَى إِجَابَةِ مَا طَلَبَ مِنْهُمْ «قَالُوا سَتَرَأَوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ» (يوسف ٦١) وَفِي الْعِبَارَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ جَدَّالاً وَقَعَ بَيْنَهُمْ قَبْلَ اتِّخَاذِ الْقَرَارِ. أَمَّا يُوسُفُ فَقَدْ أَمَرَ فِتْيَانَهُ أَنْ يَرُدُّوهُ إِلَى إِخْوَتِهِ دُونَ عِلْمِهِمْ مَا قَدَّمُوا بِهِ مِنْ بَضَاعَةٍ عَلَى نِيَّةِ الْاسْتِبْدَالِ بِهَا حُبُوبًا مِنَ الْخَزَائِنِ وَقَدْ عَرَفَ يُوسُفُ أَنَّ إِخْوَتَهُ إِذَا وَجَدُوا بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ أَمَامَ رَجُلٍ لَا يَطْمَعُ فِيهِمْ وَلَا يَرِيدُ بِهِمْ شَرًّا وَفِي ذَلِكَ مَا يَطْمَئِنُّهُمْ وَيُبَسِّرُ نَجَاحَهُمْ فِي اسْتِحْضَارِ أَخِيهِ «فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى آبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَارْسَلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالُوا فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» (يوسف ٦٣، ٦٤) وَيَدُلُّ خَتَامُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ قَبْلَ إِرْسَالِهِ مَعَهُمْ مُضْطَرًّا وَدَعَا اللَّهَ أَنْ يَحْفَظَهُ «وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» (يوسف ٦٥) أَيْ أَنَّ وَجُودَ أَخِيْنَا بِصَحْبَتِنَا سَيَزِيدُ مِقْدَارَ مَا نَكْتَالُ لِأَنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ بَعِيرًا وَمَعَ أَنَّ يَعْقُوبَ قَبْلَ أَنْ يَرْسَلَهُ مَعَهُمْ أَرَادَ أَنْ يَسْتَحْلِفَهُم بِاللَّهِ لِيَحْفَظَنَّهُ وَلِذَلِكَ «قَالَ لَنْ أَرْسَلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ» (يوسف ٦٦) فَوَعَدُوهُ أَنْ يَحَافِظُوا عَلَيْهِ «فَلَمَّا أَتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» (يوسف ٦٦) وَلِخَوْفِهِ عَلَى أَوْلَادِهِ أَنْ يُحَاطَ بِهِمْ أَوْصَى يَعْقُوبَ بِبَنِيهِ بَعْضَ الْوَصَايَا لِزِيَادَةِ الْإِحْتِرَاسِ بِالْدُخُولِ مِنْ أَبْوَابٍ مَتَرَفَةٍ فَإِذَا أَحْيَطَ بِبَعْضِهِمْ نَجَا الْبَعْضَ الْآخَرَ فَنَفَّذَ الْإِبْنَاءَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ أَبُوهُمْ فَدَخَلُوا الْبَلَدَ مِنْ أَبْوَابٍ مَتَرَفَةٍ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى يُوسُفَ «وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (يوسف ٦٩)

واطمأن الأخوان أحدهما إلى الآخر وكان على أخى يوسف أن يحفظ سر ما يدبره أخوه وان كان هو محور هذا التدبير «فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مُؤَدِّنَ أَيُّهَا الْعَبْرِيُّ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلَمِنَ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَابَهُ زَعِيمٌ» (يوسف ٧٠ - ٧٢).

هنا يبدأ الكيد الذى كاده الله سبحانه وتعالى ليوسف لقد بدا الأمر فى بدئه كما لو كان اتهاما لا يستند إلى دليل دعت إليه ظروف فقد السقاية وعدم الوصول إلى سارقها ولهذا جعل إخوة يوسف يردون على الاتهام بشيء من الإنكار الغاضب «قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاجِنُنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ» (يوسف ٧٣) وبهذا الرد سنحت فرصة الكيد أن يتقدم خطوة أخرى إلى التحدى الذى يشف عن اتهام واثق مباشر «قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ» (يوسف ٧٤) كان العرف الذى نشأ فى ظله أبناء يعقوب يجازى السارق بأن يصبح رقيقا فى ملك صاحب المتاع المسروق مدة معينة ولكن العقوبة المصرية للسارق كانت فيما يبدو أشد من ذلك ومن هنا ألهم الله يوسف أن يستخرج الحكم على السنة الاخوة فيكون أعدل وأكثر رحمة بأخيه «قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» (يوسف ٧٥) وهكذا أصبح الأمر بجملة فى يد يوسف يفعل به ما يشاء «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ» (يوسف ٧٦) فبدا الأمر كما لو كان الأخ سارقا بحق كل ذلك واخو يوسف صامت يكتم الأمر عن إخوته كما لو كان يؤيد أنه سارق على الحقيقة. ويقول الله تعالى: «كَذَلِكَ كَدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» (يوسف ٧٦) أى ما كان يوسف ليعاقب أخاه بشريعة الملك وهى أكثر قسوة.

مرة أخرى سقط فى أيديهم وراوا أنهم قد ضلوا فجعلوا يتارجحون بين

الكذب والاستعطاف فاما الكذب فإنهم «قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ» (يوسف ٧٧) واما الاستعطاف فإنهم «قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لظَالِمُونَ» (يوسف ٧٨، ٧٩). عند ذلك يشسوا من ان يجدوا مخرجا من هذه السورطة ولم يكن امامهم إلا ان يخلو بعضهم إلى بعض ويتاجروا في سبيل الخلاص من هذا المازق «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا» (يوسف ٨٠) ولم يكن مجال الحلول متسعا امامهم فبدأ كبيرهم يلومهم ويتوجس مما عسى ان يثول إليه امرأ بيهم «قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذُنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» (يوسف ٨٠ - ٨٢).

حين كانوا يراودون آباهم لاصطحاب أخيهم قالوا أرسل معنا اخانا فلما اتهم بالسرقة قالوا إن «ابنك» سرق وفي هذا:

١- اثبات السرقة

ب- توثيق الشهادة بالعلم بالواقعة

ج- الاعتذار بأنهم ما كانوا يعلمون الغيب ولا ان ذلك سيقع فماذا كان من الاب؟ لقد تذكر بمصيبته الجديدة مصيبة أخرى قديمة وصحا في نفسه الاتهام الأول الذي وجهه إلى الاخوة عند كيدهم ليوسف. لقد قال عندئذ «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» (يوسف ١٨) فاعاد الاتهام مرة أخرى إذ «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ،
 (يوسف ٨٢) وما كان لشَيْخٍ كَبِيرٍ مِثْلَهُ أَنْ يَصْمَدَ لِتَكْسَرِ النَّصَالَ عَلَى النَّصَالِ
 وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَا عَلَى يَوْسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ
 كَظِيمٍ، (٨٤) كان الاخوة ينتظرون من أبيهم أن يأسف على فقد أخيه المتهم
 بالسرقة ولكنه فاجاهم بأنه مازال يحس بجرحه القديم الذي أصابه بفقد
 يوسف ولو أنه قال: يا أسفا على بنيامين (وهو الفقيد الجديد) ماضاقوا بذلك
 لأنه عندهم متهم بالسرقة أما أن يأسف على يوسف فإن ذلك تذكير لهم بجرم
 قديم مازال يتقل على ضمائرهم ومن ثم كان ردهم على أبيهم إنكاراً بعيداً عن
 التاديب «قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ
 الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ»
 (يوسف ٨٥، ٨٦) وبعد أن هدأت نفس الأب قليلاً لجا بالأمل إلى فضل الله الم
 يقل لابنائه: وأعلم من الله ما لا تعلمون؟ فلقد عاوده الرجاء أن يجمع الله
 شمله بولديه فقال لابنائه «يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَآخِيهِ
 وَلَا تَيَأَسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُيَأَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»
 (يوسف ٨٧).

فكر الاخوة أين يذهبون للتحسس من أخويهم أما أحد الاخوين فلا
 يعرفون ما إذا كان حياً أو ميتاً وأما الآخر فيعلمون أين تركوه آخر عهدهم به
 وهكذا كان من الطبيعي أن يبدأوا أولاً بما يعلمون فعادوا إلى مصر في رحلة
 تجارة ليجعلوا التجارة مدخلاً إلى استعطاف يوسف أن يتصدق عليهم بالعفر
 عن أخيه «فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا
 بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ قَاوِفٍ لَنَا الْكَيْلُ وَنُصَدِّقُ عَلَيْهَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ»
 (يوسف ٨٨) عندئذ سَنَحَتِ الْفُرْصَةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا كَانَ كَيْدُ اللَّهِ لِيُوسُفَ فَلَقَدْ
 ذَكَرَهُمْ يَوْسُفَ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْعَدْوَانِ عَلَيْهِ وَالتَّفْرِيطِ فِي أَخِيهِ «قَالَ هَلْ
 عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَآخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ» (يوسف ٨٩) عندئذ

جمع الاخوة اشتات ما مربيهم من احداث فانقدح في اذهانهم انهم امام رجل غير غريب عنهم «قَالُوا اَنْتَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ اَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ قَالُوا تَأْتَى اللَّهُ لِقَدْرٍ أَثْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ قَالَ لِأَتُكْرِبُ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» (يوسف ٨٩ - ٩٢) هدات النفوس والتقى الاخوة وعم الصفح والمغفرة ولم يبق إلا أن يسارع يوسف إلى التفكير في أبيه يريد أن يفرج عن نفسه الكرب ويكشف عنه الغم فقال: «أُدْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوَّةُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ» (يوسف ٩٢) أرايت إلى قميص ملطخ بدم كذب يبطل أثره قميص آخر فيه ريح صدق؟! «وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون» (يوسف ٩٤) فعجب له من حوله لأنه لا يزال بزعمهم يهذى بحب يوسف بعد مضى السنين «قَالُوا تَأْتَى اللَّهُ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ» (يوسف ٩٥) وهو الضلال المذكور في قولهم «إِنْ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» (يوسف ٨).

ولم يكن قول يعقوب ضلالا لأن الاخوة عجلوا بإرسال أحدهم بشيرا يسبق القافلة ويحمل إلى الأب قميص يوسف تصديقا لما اكده يوسف من أنه عند إلقاء القميص على وجهه سيرتد إليه بصره «فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (يوسف ٩٦ - ٩٨) لم يبق عندئذ إلا أن يستجيب الاخوة لأمر يوسف فيأتوه بأهلهم أجمعين وكان ذلك هو الذي حدث فلقد اتجه قوم يوسف جميعا إلى مصر «فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ مِصْرَ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ» (يوسف ٩٩) وجاءت لحظة تحقيق الرؤيا التي كان يوسف قد رآها وأمره ابوه عندئذ ان يكتم أمرها عن اخوته فلقد رحب بهم يوسف «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ

هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، (يوسف ١٠٠) وكما يفعل النبي الصالح لم ينس يوسف ان يوجه الشكر إلى الله تعالى على ما مكن له وعلمه من تأويل الاحاديث فقال «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ، (يوسف ١٠١)

تلك هي أحداث القصة وفي نهايتها نرى بنى اسرائيل يستقرون في مصر وتتبدل بهم الاحوال من بعد يوسف إلى الاسوأ فينا لهم الكثير من الظلم والاضطهاد وربما رآهم المصريون من رواسب عهد الهكسوس ومازالوا مضطهدين حتى كان خروجهم بقيادة موسى لهم بعد مئات السنين فرارا من طغيان فرعون ونرى ذلك يتردد في أكثر من سورة في القصص القرآني أيضا.

ماللغاية: التي ترمى إليها هذه القصة بل التي يرمى إليها القصص القرآني كله؟ يجب أن يعرف منذ البدء أن القرآن ليس كتاب قصص وإنما هو كتاب دعوة وكل دعوة فلا بد لها أن تنطلق من إثبات صدق نفسها وأن تحيط نفسها بالادلة والبراهين على ذلك ومن هنا نجد الآيات القرآنية تحافظ على بيان أن النبي عليه الصلاة والسلام إنما يعرف هذا القصص عن طريق الوحي بدليل أن هذا القصص يعد بالنسبة إليه من قبيل الغيب ويتكرر ذلك في القرآن في أكثر من سورة.

• تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نُنزِّلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، (البقرة ٢٥٢)
 • ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ، (يوسف ١٠٢).
 • ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ

أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ» (آل عمران ٤٤).

* «تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا» (هود ٤٩).

* «كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا» (طه

٩٩)

* «وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَأْتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (القصص ٤٤ - ٤٦).

وهذه العبار الأخيرة «لعلهم يتذكرون» هي مفتاح الغاية من القصص القرآني كله. وفي قصة يوسف بالذات تبدأ القصة بقوله تعالى:

* «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَاقِلِينَ» (يوسف ٢، ٣).

* «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُسَائِلِينَ» (يوسف ٧).

والآيات المذكورة أدلة على صدق الرسالة وليست مواعظ مجردة تابعة مما تخلفه أحداث القصة فهذه المواعظ آثار نفسية أما الآيات فآثار عقلية وأما في نهاية السورة فالاستدلال على صدق الرسالة قائم بما في قوله تعالى:

* «وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ اجْتَمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ» (يوسف ١٠٢)

فمعرفة القصة وروايتها رواية صادقة لا تأتي إلا عن مشاهدة أو وحي فإذا انتفت المشاهدة فقد ثبت الوحي وهو المطلوب فإذا تفتحت العقول لإدراك

هذه الحقيقة آمن الناس أما إذا لم تتفتح فلا سبيل إلى إزالة الغشاوة عنها حتى مع الاجتهاد في طلب ذلك:

«وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَكَآيِنٌ مِنْ آيَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» (يوسف ١٠٣ - ١٠٥) ومن هذه الآيات التي يعرضون عنها قصة يوسف وإخوته وهي التي فيها آيات للسائلين. وتنتهي السورة بقوله تعالى:

«لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (يوسف ١١١).

بقي أن نلقى نظرة على بعض دلالات النص وسنجد أنه يشير إما صراحة وإما ضمناً إلى ما يلي:

١ - أن يعقوب عليه السلام كان يحسن تعبير الرؤيا وأنه بسبب هذا الإحسان أمر ابنه ألا يقص رؤياه على إخوته.

٢ - أن إخوة يوسف كانوا متهمين لدى أبيهم حتى قبل حدوث الرؤيا لأن يعقوب خاف من أنهم إذا عرفوا برؤيا أخيهم كادوا له كيداً.

٣ - أن تأويل يعقوب للرؤيا جعله حتى بعد كيد الإخوة ليوسف يأمل في عودة يوسف ذات يوم وهو يستمتع بنعمة الله عليه «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ» (يوسف ٦) وقد أشار يعقوب إلى ثقته في وقوع ذلك مرتين إذ يقول لابنيه «وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (يوسف ٨٦، ٩٦).

٤ - كان إخوة يوسف يحسون برابطة الاخوة بينهم إحساساً قوياً قوة

إحساسهم بغربة يوسف وأخيه إذ يصفون أنفسهم بلفظ عصبية ويجعلون هذا الوصف مقابلاً ليوسف وأخيه مرة وليوسف فقط مرة أخرى: «لْيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ» (يوسف ٨) وكذلك «قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ» (يوسف ١٤).

٥ - أن تمكين الله ليوسف في الأرض (أى مصر) بدأ ببيعه رقيقاً واستمر باستخلاص الملك له وبلغ غايته بقدم أهله إليه.

٦ - أن عصمة يوسف كانت عصمة عن الوقوع في الفحشاء لاعن التفكير فيها أو النزوع إليها ومن ثم يكون قدوم الزوج وإحساس يوسف بهذا القدوم تدبيراً من الله سبحانه لوقاية يوسف من الوقوع في الفحشاء يدل على ذلك سياق النص «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَصُرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ» (يوسف ٢٤).

٧ - أن الشاهد من أهلها كان يحسن تقدير الأمور تقديرًا منطقيًا وأغلب الظن أن الزوج كان هو الوحيد الذى اطلع على هذه الفضيحة وأنه كان يريد كتمان خبرها ففضى فيها بنفسه وأدان امرأته وقال ليوسف لا عليك: «يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا» (يوسف ٢٩) أى لا تذع في الناس شيئاً مما وقع.

٨ - ولكن الخبر تسرب من خلال قوم آخرين وتناولته السنة النسوة بالمدينة فبدأ لزوجها بعد ما رأى آيات براءة يوسف أن يظهر امرأته بمظهر البراءة ويلقى بيوسف في السجن ليرى الناس أنه المعتدى «ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ» (يوسف ٣٥).

٩ - أن لفظ «رب» يأتى في سورة يوسف بأحد معنيين:

١ - الله سبحانه وتعالى وذلك في الآيات التالية:

* «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ

عَلَيْكَ... (يوسف ٦)

* «قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» (يوسف ٣٣).

* «ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي» (يوسف ٣٧).

* «قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» (يوسف ٩٨).

* «هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» (يوسف ١٠٠).

* «إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ» (يوسف ١٠٠).

* «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» (يوسف

١٠١).

ب - السيد الذي تجب له الطاعة والخدمة وربما تعنوا له الرقبة وذلك في

الآيات التالية:

* «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» (يوسف ٢٣).

* «لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» (يوسف ٢٤).

* «أَمَّا أَحَدُكُمْ فَتَيَسَّقِي رَبةُ خَمْرًا» (يوسف ٤١).

* «وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ

ذِكْرَ رَبِّهِ» (يوسف ٤٢).

* «فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالِ النِّسْوَةِ...»

(يوسف ٥٠).

* «إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِمْ عَلِيمٌ» (يوسف ٥٠).

١٠ - حَقَّرَ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ امْرَأَةً الْعَزِيزِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

١- قال: «وَرَاوَدْتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا» (يوسف ٢٣) ولم يقل وراودته

سيدته.

ب - قال: «وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ» (يوسف ٢٥) ولم يقل وألفيا زوجها أو بعلمها أو نحو ذلك. وقد يظن أنها كانت ملك يمين فتسراها لولا أنها قالت «مَاجِرَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ» (يوسف ٢٥) فوصفت نفسها بأنها أهله.

١١ - ارتبطت أحداث القصة بالقميص في كل مراحلها حتى أصبح قميص يوسف عنصراً من عناصرها كما يبدو من الآيات التالية:

* «وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ» (يوسف ١٨).

* «وَأَسْتَبَقُوا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ» (يوسف ٢٥).

* «إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ» (يوسف ٢٦ - ٢٨).

* «ادْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا» (يوسف ٩٣).

١٢ - يدل النص على أن استرقاق السارق كان عرفاً في البيئة التي نشأ فيها أبناء يعقوب

* «قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» (يوسف ٧٤).

فقولهم «كذلك نجزي الظالمين، معناه أن عقوبة السرقة عندهم كانت الاسترقاق.

١٣ - في النص دلالة على أن كل فرد من أفراد القافلة كان له الحق في نصيب

من الحبوب بقدر حمل بعير لأن إخوة يوسف كانوا يراودون أباهم ويطمعونه
إن أعطاهم أخاهم بأنهم سيزدادون كيل بعير:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ (يوسف ٦٥).

١٤ - تنتهى السورة بتعزية النبي صلى الله عليه وسلم عن عناد الكافرين
بعده أمور:

أ - أن العناد طبع في أكثر الناس فلن يؤمن هؤلاء حتى ولو حرص النبي
على هدايتهم. ب - هذا القرآن ذكر للعالمين لا كلفة فيه عليهم فلماذا يعاندون.

ج - إنهم يعرضون عن التذكرة وهم يمرون على ما لا حصر له من آيات
الله في السموات والأرض.

د - ولو أعلن بعضهم إيمانه بالله لشاب إيمانه الشرك لأنه يتقرب إلى الله
بعبادة الأصنام ﴿إِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ لِيُكَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر ٢).

هـ - ألا يعلمون أنه رب غاشية من عذاب الله تغشاهم أو تقوم الساعة
بغتة.

و - ما عليك إلا أن تقول هذه سبيلي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ
اتَّبَعَنِي.

ز - كل الرسل الذين سبقوك كانوا بشرًا يوحي إليهم دعوا الناس فلم
يستجيبوا لهم.

ح - حتى إذا استيأس هؤلاء الرسل وعلوموا إنهم إتهموا بالكذب نصرهم
الله فنجى من شاء منهم وأما العذاب فهو دائماً نصيب المجرمين.

ط - إن قصص هؤلاء الرسل عبرة لمن كان له قلب فهو ليس خرافة تروى
ولكنه وارد في الكتب السماوية سابقها ولاحقها ليهتدى به المؤمنون.

الفصل الثامن

الهيكل البنيوي لبعض سور القرآن الكريم

١ - سورة الفرقان

تبدأ السورة بتنزيه الله سبحانه وتعالى عما يقوله الكافرون من نسبة الولد إليه فهو سبحانه.

- أ- « الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا »، (١)
ب- « الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ »، (٢)
ج- « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا »، (٣)

وعلى الرغم من ذلك كفروا به :

« وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ
لأنفسهم نفعًا وَلَا ضَرًّا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا »، (٣)

لم يكتف هؤلاء بخطيئة الكفر بالله وهي أم الخطايا بل ذهبوا يتناولون القرآن من جهة والنبي عليه السلام من جهة ثانية، فاما طعنهم في القرآن فقد اتهموه:

* « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا افْتِرَاءُ وَإِعَانَةٌ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ »
(٤)

* « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا »، (٥)

وقد جاء الرد على ذلك بقوله :

* « فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا »، (٤)

* « قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا

غُفُورُهُ (٦)

بل لقد تجاوزوا اتهامه بالإفك والاساطير إلى الطعن في كونه مُنَجِّمًا غير مجتمِع الآيات عند نزوله

« وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ جَمْلَةً وَاحِدَةً ، (٣٢)

وقد جاء الرد على هذا التحضيض بقوله :

« كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ، (٣٢)

أى جعلناه آرتالاً يتلو بعضها بعضاً في النزول ليكون تثبيت قلبك مستمرا وأما طعنهم على النبي صلي الله عليه وسلم فكان في جملة استنكارا لبشريته وانتقاصا لها فالرسول لا يكون بزعمهم إلا ملكا أو مؤيدا بالملائكة.

« وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ، (٧)

وقد جاء الرد على ذلك بقوله تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ، (٢٠)

ثم اعترض الكافرون بقولهم: « لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُنْفِئُ إِلَيْنَا كَنْزًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، (٨٠٧)

وقد جاء الرد على ذلك بقوله تعالى :

« تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ، (١٠)

بل لقد لجوا في عتو ونفور فذهبوا إلى أبعد من ذلك:

« وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ، (٨)

فكان الرد على ذلك :

« انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ، (٩)

وقد صدق الله تعالى إذ لم يجدوا سبيلا إلى النيل منه.

ليس ذلك فحسب :

* «بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ، (١١)

وقد جاء الرد على تكذيبهم بالوعيد بقوله تعالى :

* «وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْفُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقْرَنِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا قُلِ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ، (١١-١٥)

لم يقف هؤلاء الكافرون عند جحد القرآن وتكذيب النبي وإنكار الساعة بل تناولوا على رب العزة.

* «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا، (٦٠)

وجاء الرد على ذلك تنزيها لله الذي خلق لهم ما لا يعجز عن إدراكه وفهم معناه إلا العمى الذين لا يرون والصم الذين لا يسمعون:

* «تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا، (٦١)

وهل يعجز عن إدراك السراج (أى الشمس) والقمر المنير واختلاف الليل والنهار إلا من يأبى التذكر والشكور لم تكن هذه الردود على مزاعمهم وكفرانهم هي كل ما اشتملت عليه السورة فإله سبحانه يؤيد نبيه بالأمثال حيث يقول :

* «وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ نَفْسِيرًا، (٣٣)

وهكذا يضرب الله الامثال لهم من انواع ثلاثة :

ا- امثال تذكرهم بمصائر الكافرين.

ب- امثال تلفت الانظار إلى ظواهر كونية لا يقدر على خلقها إلا الله.

ج- امثال تحدد صفات عباد الله الصالحين.

فمن النوع الاول :

١ - « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا فَقُلْنَا
اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا، (٣٦)

٢ - « وَقَوْمٌ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا هُمْ لِلنَّاسِ آيَةً
وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا، (٣٧)

٣ - « وَعَادًا وَكُمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكُلًّا ضَرَبْنَا
لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا نَبَرْنَا تَنْبِيرًا، (٣٩، ٣٨)

٤ - « وَلَقَدْ آتَوْا عَلَى الْغُرِيَِّةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا
يَرَوْنَهَا، (٤٠)

ومن النوع الثاني :

١ - « أَلَمْ نَرِ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا
الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا، (٤٥، ٤٦)

٢ - « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ
نُشُورًا، (٤٧)

٣ - « وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِي كَثِيرًا
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا، (٤٨-٥٠)

٤ - « وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ وَجَعَلَ
بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً، (٥٢)

٥ - « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ
قَدِيراً، (٥٤)

ومن النوع الثالث :

١ - « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً، (٦٢)

٢ - « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً، (٦٤)

٣ - « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً
إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً، (٦٥، ٦٦)

٤ - « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً،
(٦٧)

٥ - « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ، (٦٨)

٦ - « وَلَا يَفْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، (٦٨)

٧ - « وَلَا يَزْنُونَ، (٦٨)

٨ - « وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً، (٧٢)

٩ - « وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً،
(٧٣)

١٠ - « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ
وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً، (٧٤)

يضرب الله المثل بعباده هؤلاء ليعرف الكافرون معالم للطريق إلى الخلاص

ولا سيما أن الله سبحانه يُعد عباده هؤلاء بقوله :

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا
خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقْرَأُ وَمُقَامًا﴾ (٧٦،٧٥)

وهكذا نجد بنية السورة تقوم على دعوى وإنكار وضرب للأمثال

دَعوى أن لله ولداً والرد على ذلك

إنكار أن القرآن من مصدر إلهي والرد على ذلك

استنكار بشرية الرسول والحض على نزول الملائكة والردود على ذلك

إنكار معرفة الرحمن بعد نسبة الولد إليه في بداية السورة والرد على كل

ذلك.

أمثال يضربها الله تعالى من ثلاثة أنواع هي مصائر الكافرين والتذكير
بخلق الله والتعريف بعباد الرحمن ومعنى أن للسورة هيكلًا بنيويًا أنها تتجه
إلى موضوع واحد هو ما يسوقه الكفار بزعمهم من مأخذ ثم :

١- لا يظل مأخذ من ذلك بلا جواب يبطله

ب- قد يجاب عن أحد المآخذ بآية في السورة بينها وبين المآخذ المزعوم آيات
طوال كالرد على كون الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق مثلاً.

٢- سورة الشعراء

تبدأ السورة بالإشارة إلى آيات الكتاب المبين:

﴿طَسْمَ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (٢،١)

وتعد بعد ذلك من الآيات تسعاً بعضها ظواهر كونية وبعضها من قصص
الأنبياء وآخرها آية من نوع خاص هي آية القرآن الكريم نفسه. تقدم السورة
لسرد الآيات بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى :

* لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِن نَّسَأُ نُنَزِّلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُجَدِّدًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، (٣) (٦-)

ما المقصود بالآية التي لو شاء الله لنزلها من السماء هي القرآن الكريم؟ ربما كان هو الآية كما يشهد قوله تعالى:

* «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، (١٩٧)

مهما يكن من شيء فإن السورة تسرد ما اشتملت عليه من الآيات وبعد كل آية من الثماني الاوليات ياتي قوله تعالى:

* «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» (٩٨- ٦٨٧٦- ١٠٤، ١٠٣- ١٢٢، ١٢١- ١٤٠، ١٣٩- ١٥٩، ١٥٨- ١٧٤، ١٩٠- ١٩١)

وانفردت الاخيرة وهي آية القرآن الكريم بان ورد بعدها نص الآية (١٩٧) السابق، فما تفصيل تلك الآيات التي انتهت كلها بتذييل واحد لم تختلف فيه واحدة عن أخواتها إلا الاخيرة منها، نستطيع أن نورد هذه الآيات بحسب ترتيبها في السورة على النحو التالي :

١- «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ»، (٧)

وواضح أن المقصود بالزوج هنا الصنف من أصناف النبات. وهو المعنى الواضح في آيات أخرى مثل:

* «ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ...» (الانعام ١٤٣)

* «فَاخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى»، (طه ٥٣)

* «وَأَنْبَتْنَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ»، (الحج ٥)

- * « فَأُنْبِتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ، (لقمان ١٠)
- * « سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ، (يس ٣٦)
- * « وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَجَلِهِ أَزْوَاجًا ، (ص ٥٨)
- * « أَوْ يُرْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً ، (الشورى ٥٠)
- * « وَأُنْبِتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ « (ق ٧)
- * « وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ، (النجم ٤٥)
- * « فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ، (الرحمن ٥٢)
- * « وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ، (الواقعة ٧)
- * « وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ ، (التكوير ٧)

٢- « وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ... » (١٠-٦٦)

وفي هذه الآيات السبع والخمسين تأتي قصة رسالة موسى إلى فرعون بشئ من التفصيل مع إبراز التقابل بين ضعف موسى وانتصاره وقوة فرعون وإهلاكه، وهذا التقابل هو الآية المقصودة.

٣- والآية الثالثة نبا إبراهيم.

* « وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْزِلُ لَهَا عَافِيِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُوكُمْ أَوْ يُضْرُونَ... » (١٠٢-٦٩)

ولقد كان منطوق إبراهيم هنا واضحا كل الوضوح إذ شرح لقومه نعم الله عليه (وهو يقصد أن يقول لهم إن هذه نعمه عليكم أيضا) وحين دعا إبراهيم ربه سأل العفو والمغفرة له ولكنه كذلك استغفر لأبيه لاجهلا منه باستحقاقه

للنار ولكن «عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَمًا إِيَّاهُ» (التوبة ١١٤) إذ « قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ
سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا » (مريم ٤٧) وكذلك: « إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ
لَأَنبِيَّهِ لِأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » (المتحنة ٤) وكذلك بين
إبراهيم مصير الكافرين يوم القيامة حين « قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ
إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلُّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ
فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »
(١٠٢-٦٩)

٤ - ورابعة الآيات خبر نوح :

« كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا » (١٢٠-١٠٥)

فاستكبر قومه أن يؤمنوا به ليكونوا مع الأردلين في قرنٍ وهددوه بالرجم
فدعا ربه أن يفتح بينه وبين قومه فكانت قصة الطوفان ونجاة نوح ومن معه
وغرق الكافرين.

٥ - والخامسة قصة عاد قوم هود:

« كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا » (١٢٣-١٣٩)

ثم ذكّرهم هود بأن قصورهم التي بينونها عبث لا خلود له وأن بطشهم
وجبروتهم معصية لله الذي أمدهم بالأنعام والبنين والجنات والعيون
وخوفهم آخر الأمر من عذاب يوم عظيم فكان ردهم عليه أنه لا فائدة من وعظه
لأنهم يتبعون ما كان عليه آباؤهم أما العذاب الذي هددهم به فقد قالوا « وَمَا
نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » (١٣٨) فلما كذبوه أهلكهم الله.

٦ - والسادسة آية قوم صالح وناقة الله.

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ

رَسُولَ آمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، (١٤١-١٥٨)

وعظهم كيف يمنحهم الله الأمن في جنات وعيون وزروع ونخل وبيوت منحوتة في الجبال ثم لا يَتَّقُونَ الله بعد كل ذلك بل يطيعون المرفين منهم الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون فأنكروا عليه أن يكون بشرا مثلهم ثم يدعى الرسالة وتحذوه أن يأتيهم بآية فكانت قصتهم مع الناقة وكان هلاكهم بما صنعوا.

٧- والآية السابعة ما حدث لقوم لوط.

* «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ آمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، (١٦٠-١٧٣)

أنكر من فعلهم أنهم يأتون الذكران ويذرون الأزواج فهددوه بالطرد من ديارهم فدعا ربه أن ينجيه مما يعملون فاستجاب الله دعاءه ونجاه وأهله إلا امرأته ودمر الآخرين بأن جعل عاليها سافلها وأمطر عليهم مطرا « فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ».

٨- « والثامنة آية شعيب وأصحاب الأيكة:

* «كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ آمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، (١٧٦-١٨٩)

دعاهم إلى إيفاء الكيل والأيكونوا من المخسرين وأن يزنوا بالقسطاس والأي يبخسوا الناس أشياءهم ولا يفسدوا في الأرض، فاتهموه بأنه واقع تحت سحر ما لأنه ليس إلا بشرا مثلهم فلا بد أن يكون كاذبا وتحذوه أن يسقط عليهم كسفاً من السماء إن كان صادقاً فأخذهم عذاب يوم الظلة.

٩- وآية الآيات التي هي غاية في ذاتها وما سبق فهو وسيلة إليها هي آية القرآن الكريم.

«وَأِنَّهُ لَنُنزِّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزْلًا بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولَىٰ» (١٩٢-١٩٦) ثم يقول: «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ» (١٩٧)

ثم يقول إن هؤلاء الكفار ديدنهم العناد فلو أن الله أنزل هذا القرآن العربي المعجز على نبي أعجمي ثم جاء هذا النبي ليقرا القرآن على كفار مكة ما أمنوا به ولا صدقوا معجزة قراءته لنص عربي معجز والقارئة أعجمي وهكذا كان عنادهم عندما سلك الله القرآن في قلوبهم فأبوا أن يؤمنوا وهم لا يؤمنون به حتي يروا العذاب الاليم أفكذلك يستعجلون العذاب.

ثم تعود إحدى آيات السورة إلى تلخيص ما سبق فتقول: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ» (٢٠٨)

وإلى القرآن فتقول: «وَمَا تَفَرَّقَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ أَنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُؤُونَ» (٢١٠-٢١٢)

وما تنزل الشياطين إلا على الشعراء الذين يلقون السمع إليهم ويتبعهم الغاؤون وما غوايتهم إلا أنهم يهيمنون في كل واد ويكذبون في شعرهم من جهتين:

أ- أنهم ينسبون إلى أنفسهم أفعالا لم تكن منهم ولا لهم كلقاء حبيبة لا وجود لها والتصدي لأعداء لم يخلقوا والانتساب إلى فضائل لم تكن لهم ونسبتها بالمدح إلى قوم لم تكن لهم أيضا.

ب- أن شعرهم يقوم على مجازات واستعارات متنكبا المعاني الحقيقية وهذا هو قوام صناعتهم وبضاعتهم فلو التزموا الحقيقة ما أتبعهم الغاؤون ولا راج شعرهم ولا كانوا شعراء.

غير أن من الشعراء من آمنوا بالله ورسوله وتنزهوا عن النقائص التي تحت (أ) وإن لم تكن لهم حيلة في تجنب ما تحت (ب) لأن المجاز لبينات الشعر

وقرأميهم.

وهكذا تبدو بنية السورة قائمة على أساس :

أ- الإشارة إلى الآيات قبل إيرادها.

ب- تطبيق إنزال الآية على مشيئة الله.

ج- إيراد ثمانى آيات من ظواهر الطبيعة وقصص الانبياء بعد كل آية منها

يقول تعالى :

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ»

د- إيراد آية الآيات وغاية الغايات وهى القرآن الكريم ثم السؤال التقريري:

«أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ».

٣- سورة النمل

تبدأ السورة بقوله تعالى :

طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين الذين
يقومون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون إن الذين لا
يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون أولئك الذين لهم سوء
العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم
عليم، (١-٦)

فماذا عسى أن تكون الآيات المشار إليها التى تشتمل عليها هذه السورة من

سور القرآن؟ إنها من ثلاثة أنواع :

١- خوارق.

٢- بينات.

٣- أجوبة تشتمل على وعيد.

وسنورد كلا من هذه الطوائف الثلاث على حدة ثم نمثلها جميعا في بنية متراسة.

اولا - الخوارق : اشتملت السورة من هذه الطائفة على تسع خوارق ترتيبها كما يلي :

ا - من قصة موسى وهي اولي القصص في سورة النمل نجد ما يلي :

١ - « فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (٨)

٢ - « وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » (١٠)

٣ - « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » (١٢)

ب - ومن قصة سليمان نجد :

٤ - « وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلْمُنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ » (١٦)

٥ - « حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ » (١٨)

٦ - « فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تَحُطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ » (٢٢)

٧ - « فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » (٤٠)

ج - ونجد من قصة صالح ما يلي :

٨ - « وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » (٥٠)

د - ومن قصة لوط

٩- «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ» (٥٨)

فهذه الآيات جميعا من خوارق الطبيعة وفي ارتباطها بقصص الانبياء ما يجعلها معجزات من آيات الله التي يؤيد بها رسله إلى خلقه.

ثانيا - البينات: وهي جميعا دلائل على قدرة الله وألوهيته وترد في صورة أمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يحمده الله ويسلم على رسله الذين اصطفاهم لتبليغ رسالته فاحسنوا تبليغها وكانوا أمناء عليها ثم يرتب على هذا الامر ستة من الاسئلة يعقبها أمر آخر وذلك على النحو التالي:

١- «اللَّهُ خَيْرٌ أَمَا يُشْرِكُونَ» (٥٩)

٢- «أَمْ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا

إِلَّهِ مَعَ اللَّهِ» (٦٠) أى افعل ذلك إله مع الله!

٣- «أَمْ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا

إِلَّهِ مَعَ اللَّهِ» (٦١)

٤- «أَمْ أَمَّنْ يَجِئُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ

إِلَّهِ مَعَ اللَّهِ» (٦٢)

٥- «أَمْ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ

إِلَّهِ مَعَ اللَّهِ» (٦٣)

٦ - « أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »

إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ، (٦٤)

ويأتي الأمر الثاني للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقول ما من شأنه أن يتم الدلائل السابقة على ألوهية الله .

٧ - « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » ، (٦٥)

ثالثا - الأجوبة المشتملة على الوعيد : وهذه الأجوبة تترتب على سؤال إنكارى ساقه الكفار

* « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُ وَأَنَا مُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » (٦٨) ثم يوغلون في عنادهم « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (٧١) وهنا تأتي الأجوبة المشربة بالوعيد على النحو التالي :

١ - « قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ » ، (٧٢)

٢ - « وَإِنْ رَبِّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » ، (٧٤ ، ٧٥)

٣ - « إِنْ رَبِّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » ، (٧٨)

٤ - « إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمُوتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ » ، (٨٠ ، ٨١)

٥ - « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » ، (٨٢)

٦ - « وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ
حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمْنَا أَنَّمَاذَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ » (٨٣-٨٥)

٧ - « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا
مَاشَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ » (٨٧)

ثم تختم السورة بالإشارة إلى جملة الآيات إذ يقول تعالى :

« وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
(٩٣) »

٤ - سورة القصص

تبدأ سورة القصص بقوله تعالى :

« طَسَمَ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نُنَلُّوْ عَلَيْكَ مِنْ نَبَا مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ
بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (١-٣)

وهكذا تدور السورة في مجملها حول الآيات في قصة موسى من ميلاده إلى
مبعثه إلى ما حاق بفرعون وملئه من عقوبات إلى آيات صدق القصة كما أوردتها
القرآن الكريم. وسنورد هذه الآيات مرتبة على النحو التالي :

١ - آيات الميلاد

٢ - آيات المبعث

٣ - آيات العقاب

٤ - آيات التصديق

وفي كل مجموعة من هذه الأربع عدد من الآيات البيئات :

أولا - آيات الميلاد : والمقصود ما بعد الميلاد فلقد قصت علينا السورة علو فرعون في الأرض واضطهاده بنى إسرائيل « **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** » (٤)

ولاشك أن قرار فرعون بذبح الأبناء والإبقاء على النساء المولودات كان قرارا متسما إما بطلب المنفعة وإما بالغباء فأما طلب المنفعة فربما تصور أن الإبقاء على النساء إبقاء على جوارى المستقبل وأما الغباء فلو قرر ذبح النساء لقضى على الطائفة في جيل واحد هو جيل الأحياء من الذكور لأن الطائفة لن يكون لها من النساء ما يبقى على الذرية . وهكذا أنقذ الله بلطفه قوم موسى من الغناء ولامر ما لا يعترف الإسرائيليون اليوم بيهودي إلا أن تكون أمه يهودية أما من أمه غير يهودية فلا يشفع له عندهم أن يكون أبوه من أعيان اليهود.

من هنا يكون المدخل إلى آيات الميلاد لأن الله تعالى ألهم أم موسى أن تلقيه في اليم خوفا عليه :

١ - « **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرْنًا** » (٨) وهذه هي الآية الأولى ثم

٢ - « **وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ** » (١٢)

٣ - « **فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ** » (١٣) فكانت أمه ترضعه أجيرة لآل فرعون.

وهكذا أبقى الله على موسى ليتعرعرع في رعاية فرعون الذي كان يجهل جهلا تاما أنه من بنى إسرائيل حتى لقد سأله عندما سمعه وهو يبلغه الرسالة الإلهية « **أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِئْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ** » (الشعراء ١٨) وهكذا صنع الله موسى على عينه وحاطه حتى بلغ أشده وحمل الرسالة

وأخرج قومه من قبضة فرعون.

ثانياً - آيات المبعث : لم تذكر السورة من آيات الرسالة إلا اثنتين هما اللتان حدثتا عند أول تكليف بالرسالة أما جملة ما أيد الله به موسى فقد كانت تسع آيات « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، (الإسراء ١٠١) هي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وانفلاق البحر والسنين ولكن سياق أحداث القصة يختار من هذه الآيات التسع ماله صلة بالموقف في كل مرة تروى فيها قصة موسى في القرآن.

أما الآيتان المذكورتان هنا فهما :

١ - « وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رآهَا تهتراً كأنها جَانٌّ وَلِي مَدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ » (٣١)

٢ - « اسألك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ » (٣٢)

وكانت هاتان الآيتان برهانين إلى فرعون وملئه على صدق الرسالة :

ثالثاً - آيات العقاب : لم تكن الآية هي العقاب نفسه ولكنها كانت الطريقة التي تم بها العقاب من فلق البحر إلى خسف الأرض إلى غير ذلك. فأما فلق البحر فهو إحدى الآيات التسع لأنه كان نصراً لموسى على فرعون ودليلاً على صدقه.

١ - « فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ، (٤٠)

وأما الخسف فقد كان عقاب البطر والغرور والتباهي وقد وقع هذا العقاب على قارون « إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » (٧٦) فلم يرعوبل « قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ، (٧٨)

٢ - « فُخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارَهُ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ » (٨١)

والآية الثالثة سنة من سنن الله تعالى هي إهلاك القرى البطرة وإزالة النعمة التي كانت سبب البطر ليكون ذلك آية لمن يأتي بعد ذلك ومدعاة له إلى تجنب هذه الخطيئة المهلكة وهي خطيئة البطر.

٣ - « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنُتِكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا » (٥٨)

وهذا الإهلاك نفسه لا يكون إلا تأييداً للرسالات « وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » (٥٩)

رابعا - آيات التصديق : أى تصديق كون القرآن من مصدر إلهى وأنه ليس من كلام محمد عليه الصلاة والسلام ولا من كلام أى بشر آخر. فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئاً ولا كاتباً وحين جاءه الوحي وأمره بالقراءة (بمعنى التلاوة) قال « ما أنا بقارئ » (أى لا أقرأ ما يكتب) ثم إنه بشر ولد في مكة ثم لم يبق على قيد الحياة إلا ثلاثاً وستين سنة لم يشهد شيئاً من هذه الآيات التي تقصها السورة قبل الميلاد ولا شهد شيئاً بعده وإذا لم يشهد شيئاً قبل ميلاده فإن مجيئه بالخبر الصادق عنه مهيمنا على ما بين يديه من الكتب ومصححا بعض أخبارها لا بد أن يكون آية على صدق رسالته وعلى أن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى.

ولهذا تكرر في القرآن نفى أن النبي كان في موقع الأحداث عند حدوثها وقد أشرنا إلى ذلك في كلامنا عن سورة يوسف. وفي قصة موسى أحداث ذكرت في هذا الصدد هي : خطاب الله تعالى لموسى من خلال الشجرة « نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ » (٣٠) ففضى الله إليه الأمر

والحدث الثاني لقاء موسى بشعيب وابنتيه في أهل مدين ومن هنا تأتي الآيات على النحو التالي :

١ - « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ » (٤٤)

٢ - « وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ » (٤٥)

٣ - « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مَنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » (٤٦)

وهكذا يكون نفى المشاهدة مع صحة الخبر دليلاً على نزول الوحي ودفعاً لنسبة القرآن إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

٥ - سورة العنكبوت

تَشْتَمِلُ سورة العنكبوت على وعد للمؤمنين وفضح للمنافقين وأمثال الكافرين. وتبدأ السورة بسؤال مهم « أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » (١-٤)

هكذا كانت البداية تهويماً على المستضعفين من المسلمين ودعوة لهم إلى الصبر ثم تأتي بعد ذلك عناصر البنية :

أولاً - الوعد : وهو أهم ما يمكن أن يدعوا المستضعفين إلى الصبر على أذى المشركين :

١ - « مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (٥)

٢ - « وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ » (٦)

٣ - «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٧)

ثانيا : الفضيحة : وهي لكشف المنافقين المتسترين وراء إعلان كلمته
التوحيد وهم يكيدون للإسلام :

١ - « وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً
النَّاسَ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ
اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ » (١٠)

٢ - « وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ » (١١)

ثالثا - الامثال : يأتي التمهيد لهذه الامثال في صورة تعقيب على مقاله
الذين كفروا للذين امنوا :

* « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ
وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ
وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » (١٢، ١٣)

ثم تتوالى الامثال بذكر من سبق من كفار القرون الاولى إذ املكهم الله
لتكذيبهم انبياءه :

١ - « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا
فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ » (١٤)

٢ - « وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ » (١٦)

* « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ
النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٢٤)

٣ - « وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لِنآتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ

مِنَ الْعَالَمِينَ، (٢٨)

* «وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكَّ كَأَنْتَ مِنَ الْغَابِرِينَ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَلَقَدْ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، (٣٥-٣٣)

٤ - «وَالِي مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْلُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» (٣٦)

«فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَانِمِينَ، (٣٧)

٥ - «وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ، (٣٨)

٦ - «وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ، (٣٩)

ثم تفصل السورة أنواع العذاب إذ تقول : « فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا، (٤٠)

وتضرب السورة المثل لجميع هذه الطوائف التي احتتمت بالشرك فتجعلها كمثل العنكبوت التي تظن أن بيتها يحميها وهو أضعف البيوت :

«مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضُرِبَهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ، (٤١-٤٣)

أما ما تبقى من السورة فهو إرشاد للنبي صلى الله عليه وسلم واستدلال

على صدق رسالته وعلي كون القرآن الكريم ليس من عنده : « وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ » (٤٨) وتسفيه للكافرين الذين يطالبون بنزول الآيات مع أن القرآن الكريم وهو اعظم الآيات يتلى عليهم « أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ » (٥١) بل إنهم ليتحدون النبي عليه السلام ويستعجلونه بالعذاب وهم يعلمون أنهم قد خلت من قبلهم المثلاث : « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ » (٥٢) ذلك بأن الله تعالى وعد نبيه قبل ذلك ألا يعذبهم وهو فيهم ثم تتحدث السورة عن كفالة الله تعالى لرزق عباده وجحودهم مع اعترافهم بأنه خلق السموات والأرض ونزل من السماء ماء ومع علمهم بأن الله جعل لهم حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم « أَفَبِمَا لَبَّاطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ » (٦٧)

وتختتم السورة بوعد للمؤمنين المجاهدين في سبيل الله « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » (٦٩) نسأل الله سبحانه وتعالى أن يهدينا سبيل الرشاد والفلاح وأن يوفقنا للإحسان أنه سميع مجيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

البيان

في روائع القرآن

درسات في تراكيب القرآن الكريم وأساليبه

فهرس

المقدمة : مقاصد الدراسة - المبني - المعنى الوظيفي - المعنى المعجمي -
القرينة اللفظية - القرينة المعنوية - قرينة السياق -
الرخصة - الأسلوب العدولي.

القسم الأول : دراسات لغوية من خلال القرائن اللفظية

١٧ - ٥٥ الفصل الأول : قرينة البنية - مفهومها - تنوع البنية بين التركيبية
والمعجمية - صورة البنية - صوغها - تعدد معناها الوظيفي
- نقلها - تضمينها - نيابتها عن غيرها.

٥٥ - ٨٧ الفصل الثاني : النمط التركيبي القرآني - محدودية الأنماط - المعاني
التحوية أكثر من الأنماط - ما يرد على النمط من نقل أو
تعديل.

٩١ - ١٠٦ الفصل الثالث : قرينة الرتبة في التركيب القرآني - مفهومها - الرتبة
المحفوظة وغير المحفوظة - قيمة الموقع - التقديم والتأخير -
الرتبة النحوية والرتبة البلاغية - ترتيب الأشباه.

١٠٧ - ١٤٥ الفصل الرابع : قرينة الربط في التركيب القرآني - وظيفته - وسائله -
أثر الربط في وضوح المعنى - ربط المفردات وربط الجمل -
تعليق الظرف والمجرور وتوقفه على قرينة السياق.

١٤٧ - ١٩٥ الفصل الخامس : قرينة التضام في التركيب القرآني - مفهومه - الافتقار

- الاختصاص - التنافي - التوارد - الحذف - الزيادة -
الفصل - الاعتراض.

١٩١ - ٢٠٩ الفصل السادس: الإعراب في التركيب القرآني - صلته بالمعنى - مجال
إتخاذه قرينة على المعنى النحوي - التقدير والمحل عبء على
الفهم لا قرينة توصل إليه.

٢١١ - ٢٢٢ الفصل السابع: قرينة السياق في التركيب القرآني - علاقات الجمل -
رصد الأدوات للتعبير عن العلاقات - السياق وقرائن
المفردات - أثر السياق في تحديد معنى البنية الصرفية - أثر
السياق في تحديد التقدير والمحل - أثر السياق في تحديد
الربط - أثر السياق في تحديد بعض ظواهر التضام - أثر
السياق في تحديد معنى البنية الصرفية - أثر السياق في
تحديد التقدير والمحل - أثر السياق في تحديد الربط - أثر
السياق في تحديد بعض ظواهر التضام

٢٢٢ - ٢٥٢ الفصل الثامن: الرخصة في التركيب - الترخص في كل قرينة على حدة.

٢٥٥ - ٢٥٦ القسم الثاني: دراسات أسلوبية

٢٥٧ - ٣١٥ الفصل الأول: القيم الصوتية في القرآن الكريم وأثرها في المعنى.

الإيقاع - الفاصلة - الحكاية - المناسبة الصوتية - حسن التأليف

٣١٧ - ٣٤٤ الفصل الثاني: ألفاظ وعبارات مختارة.

٣٤٥ - ٣٩٤ الفصل الثالث: الأسلوب العدولي أو المؤشرات الأسلوبية

٣٩٥ - ٤٣٩ الفصل الرابع: إباء اللبس.

٤٤١ - ٤٨٨ الفصل الخامس: أسلوب الدعوة في القرآن الكريم

٤٨٩ - ٥٤٩ الفصل السادس: من المقاصد الأسلوبية للقرآن الكريم.

٥٥١ - ٥٨٢ الفصل السابع: قصة يوسف كما تعرضها السورة.

٥٨٢ - ٦٠٥ الفصل الثامن: الهيكل النبوي لبعض سور القرآن الكريم.

رقم الايداع بدارالكتب ٩٣ / ٣٥١٥
الترقيم الدولي ٨ - ٠٤٢ - ٢٣٢ - ٩٧٧